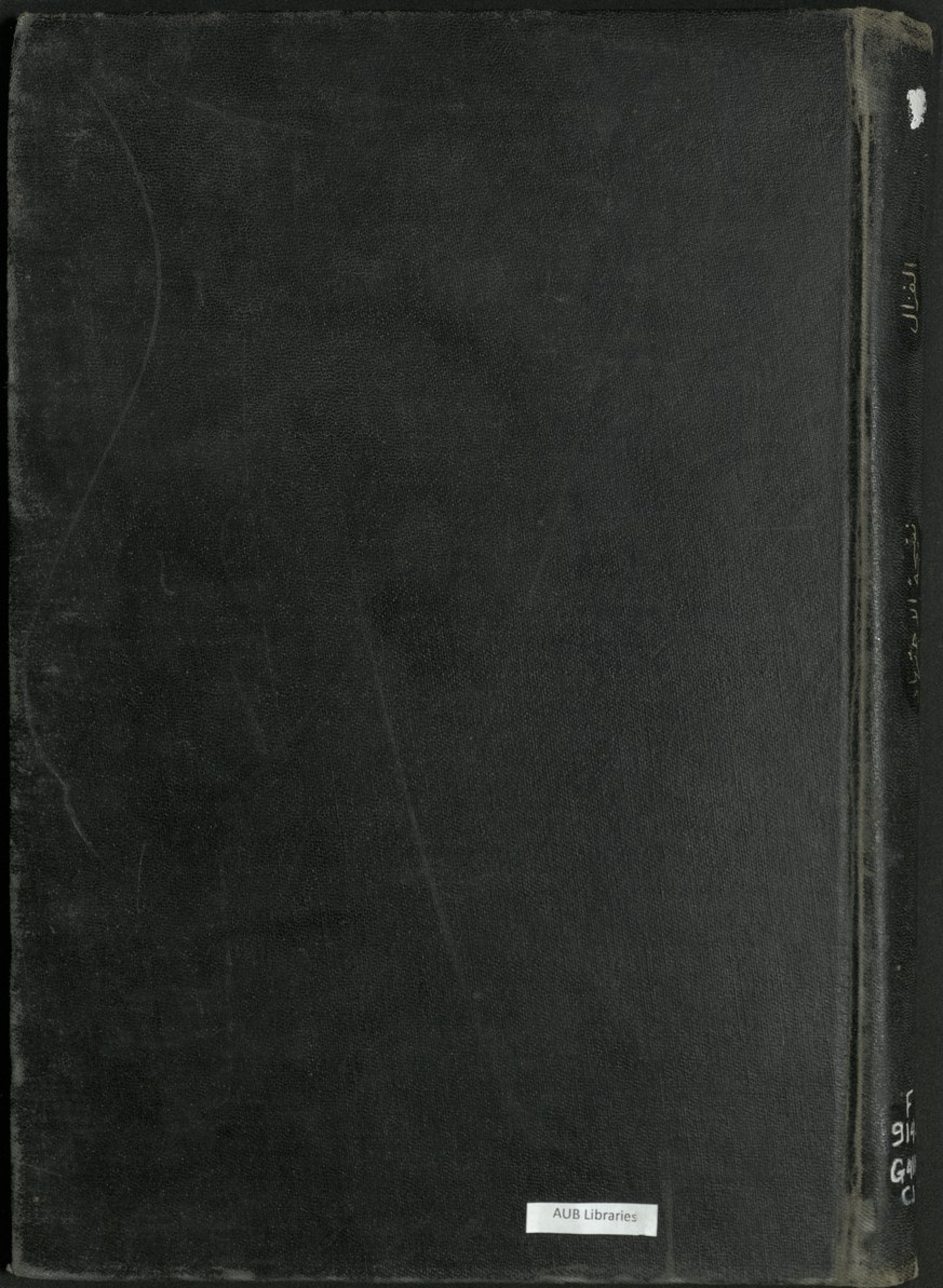
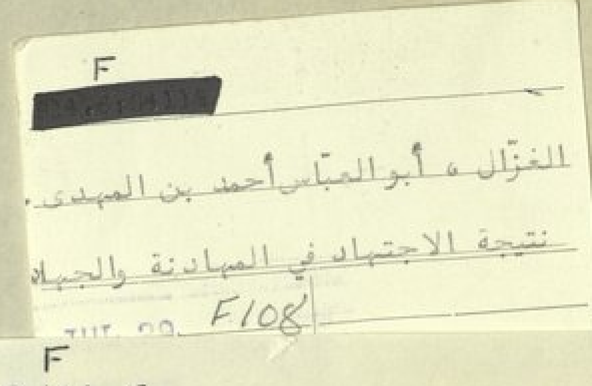
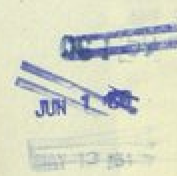
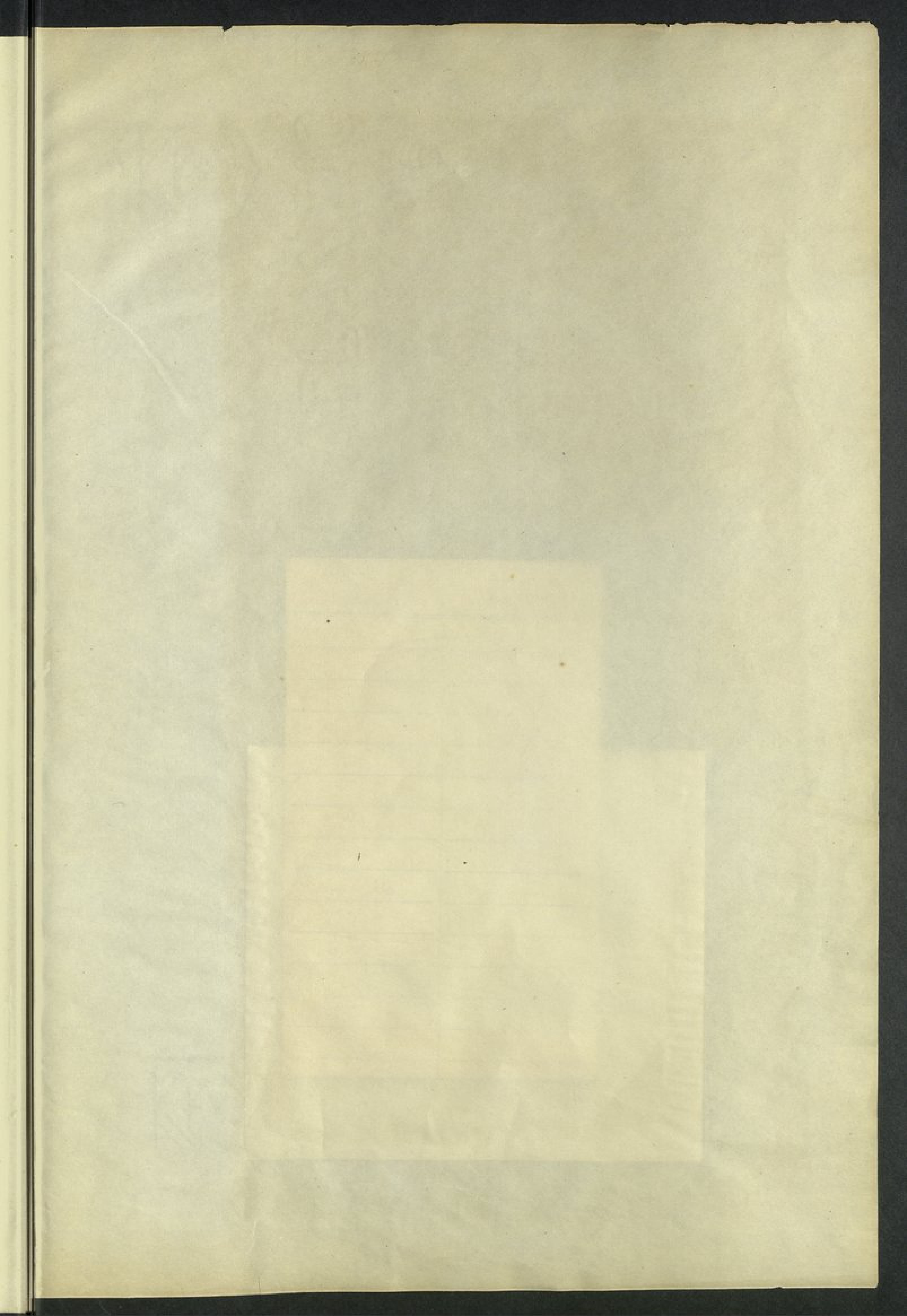





F
الغزّال ، أبو العبّاس أحمد بن المهدي .
نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد
F108





كتاب

نتيجة الاجتهاد

في

المهادنة والجهاد

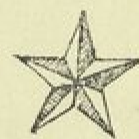
منشورات مؤسسة الجنرال فرنكو للأبحاث العربية - الاسبانية

كتاب

نتيجة الاجتهاد

فى

المهادنة والجهاد



تأليف

الكاتب الأديب

أحمد بن المهدى الغزال

كاتب اسرار مولاى محمد بن عبد الله سلطان المغرب

وسفيره الى كارلس الثالث ملك اسبانيا

عام ١١٧٩ - ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ - ١٧٦٧ م

استخلصه من مخطوطات عدة وقدم له وعلق حواشيه

ووضع له الجداول والفهارس والتراجم

الأستاذ

الفريد البستانى

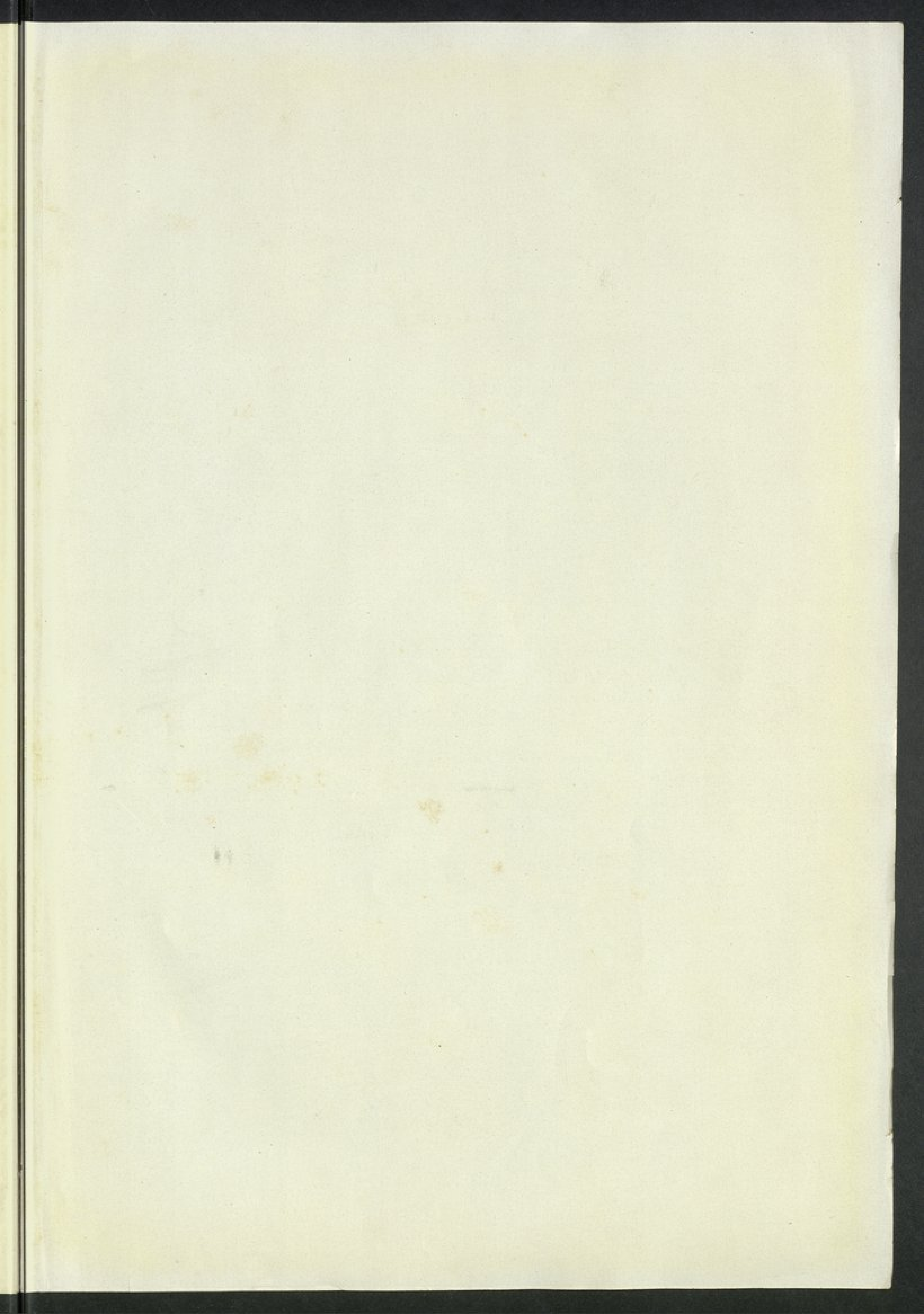
١٩٤١





صاحب السمو الملكي الخليفة المعظّم مولاي الحسن بن المهدي

S. A. I. el Jalifa Muley El Hasan Ben El Mehdi.



الاهـداء

الى

صاحب السُموّ الملكي الأميرِ المحبوبِ الخليفةِ المعظَّمِ مولايَ الحسنِ بـن المهدي نصيرِ العلمِ والعلماء ورافعِ لواء الثقافةِ في هذا القُطر العربيِّ العزيز

اليكَ

ياصاحبَ السُموّ اقدِمُ هذا الكتابَ، فما هو الاَّ ذَرَّةٌ من مآثرِ آبائكَ واجدادِك الكرامِ الصَّالحين ووثبةٌ من تفانيكَ في سبيلِ إعلاء وطنِكَ وابناء جلدتِكَ ونفثةٌ مـن نفثاتِكَ الطيـِّـبة نَفَختها في صدورنا فأحيَتْ منّا الهِمَم وعلَّمتنا طريقَ الإنتاجِ والاجتهادِ والتَّضحيةِ في خدمةِ الثقافةِ العربيَّةِ وأهدَتنا السُبُلَ الرَّشيدةَ التي تؤولُ الى ما فيه خيرُ هذا القُطرِ العزيز

فبِهمَّتِكَ ومساعدتِكَ وعطفكَ صَدَر هذا الكتاب

وتحتَ رعايتِكَ نواصلُ العمل

تطوان في ١ ابريـل ١٩٤١

الفريد البستاني

الى

صاحب الفخامة الجنرال فرنكو رئيس الحكومة الاسبانية

اليك ياصاحب الفخامة

اهدي هذه الذخيرةَ الأدبيّةَ التي تتجلّى بين سطورها مظاهرُ عظمةِ اسلافِكَ الكرامِ وما كانوا عليه من صداقةٍ متينةٍ وعلاقاتٍ قويّةٍ تربطهم بهذا القُطر المغربي المحبوب وسلاطينه الصالحين

فجئتَ أنتَ الآنَ بعد فترةٍ من زمنٍ خيّمَ عليه الظلامُ وعبثت به حوادثُ الايّام تُحيي تلك الروابطَ على أُسسٍ متينةِ الدعائمِ مقرونةٍ بالاخلاص والعطفِ وحسنِ التفاهم في سبيل انماء المصالحِ المشتركةِ العائدةِ على الأُمّتين النبيلتين بالخير والبركات، وتحكمُ ما فُكّكَ من عُرى تلك الرّوابط وتسعى بحزمٍ وعزمٍ لاعادةِ تلك النّهضةِ الثقافيّةِ المشتركةِ التي عاشتْ عليها أوروبا وتغذّتْ منها طيلةَ سبعةِ قرونٍ، وتعملُ بدون مَلَلٍ لاحياء مدنيّةٍ عربيّةٍ اسبانيّةٍ ساميةٍ أرضعَتْ مدنيّاتِ الأُمَمِ طُرّاً

وقد ظهرَ لنا من فخامتكم برهانُ ذلك يومَ كنّا بحضرتكم والفيلسوف العربي الكبير امين الريحاني، فكنتَ عندما تذكر المدنيّةَ العربيّةَ بالأندلس كنّا نقرأُ على جبينكَ آياتِ الحماسة والفخرِ، وعندما تتكلّمُ عن آثارِ العلماء الأعلامِ وعن مخطوطاتِ الاسكوريال العربيّة ومكتبةِ مدريد الاهليّة وغيرها تظهرُ على محيّاكَ دلائلُ الاعجابِ والاكبارِ بهذه الذخائرِ الادبيّة وبالنبوغ العربي، وقد صارحتَنا بأنّك ستسعى في نشرِ هذه الذخائرِ الثمينةِ ؛ فكان ما قلتَ ياصاحبَ الفخامة !

فان هذا الكتاب هو من تلك الذخائر

فأرجو من حسنِ لطفك المعهود ان تقبل منّي هذه الزّهرةَ الادبيّةَ فما هيَ الاّ وردةٌ جميلةٌ من طاقة الزهورِ التي وعدتنا بها

تطوان ١ ابريل عام ١٩٤١

الفريد البستاني

تـوطـئـة

بسم الله الحيّ السرمدي

١

جرأةٌ مني أن اقول ما انا قائل: انّ الثورة الأدبية التي أذكى نارها وحمل لواءها وانار مشعالها في هذه الربوع معهدُ الجنرال فرنكو للابحاث العربية—الاسبانية وامتشق القلمَ النزيه للدفاع عن مبادئها وتأييدها بشواهد الحجج بما نشره وألّفه وعرّبه وعجمه ولّدت في جوّ المغرب روحاً ثقافيةً جديـدةً وخلقت في سمائـه نهضةً أدبيةً عربيةً نزيهةَ الروح متينةَ الدعائم، كان لها صداها البعيدُ في جميع الأقطار العربيـة حيثُ صادفت انصاراً تؤيّدهـا وتشدُّ أزرها، وسيكونُ لنتائجها الملموسة شأنٌ في المستقبل القريب بحول الله

وما القصدُ من وراء ذلك الاّ نشرُ ثقافةٍ عاليةٍ مشتركـةٍ تغذّت منها أوروبا وعاشت عليها طيلةَ سبعة قرون، وإحياء تراثٍ ثمين وأدبٍ فياضٍ ومدنيةٍ سامية أرضعت مدنيات الأمم طرّاً ثم وهنت لما اصابها من هجمات الأعاجم وغارات الزمـن

فنحنُ اليومَ في فترةٍ من عصرٍ طغت عليه المادةُ فجرفت مع تيار سيلها الطامي مراتـعَ الخيالِ الحيّ ومجاني الانتاج الأدبي، ولا شعرَ إلاّ بالخيال والإلهام ولا انتاجٌ خالدٌ الاّ بقوي النفس الثائرة، فانّنا نرى معهدَ الجنرال فرنكو يحملُ القلمَ النزيهَ في هذا المعترك فينغمسُ في تيار الشعـور والعاطفة تحتَ لواء الثقافة اتُهيّجهُ اناشيدُ الشعرِ الخالدِ الموقّعـة على أوتار الأدبِ الحيّ ونغماتِ صريرِ الأقلام! فيتطوّعُ للدفـاع عـن المنتوجات الفكرية وحماية الآثار والكنوز الأدبية في هذه الايام العصيبة التي أخمد فيها المدفعُ صوتَ الأدبِ في كل مكان، ولا بُدّ مـن ان يربحَ الموقعةَ الحاسمةَ بمآزرة ومساعدة الغُيُر على الثقافة والمدنية من نبلاء وعلماء الشعبين

ففي كلّ يوم نزدادُ قوّةً وايماناً بمبادئنا وبرسالتنا الأدبيـة بما نتلقاه مـن رسائل التشجيع والتأييد مـن أعلام مفكري الأمّتين

فثروتُنا الأدبيةُ وأبحاثُنا العلميةُ والجيلوجيةُ في نموّ متواصل بما نكتشفهُ مـن آثار القوم الغابرين ونعثرُ عليه من مولّدات قرائح الشعراء ومنتوجات أدمغة الأدباء والكتّاب من أعلام الأندلس والمغرب تمثّلُ نواحٍ مجيدةً من الأدب العربي في هذين الصّقعيـن في مختلف العُصور، كانت في زوايا النسيان مكتّلةً وفي خصاف خزائن المكاتب مهملةً، كما كانت عادياتُ القوم الغابرين وآثارُهم على هذا الساحل الموريطاني قد ساخت وطُمست

فجاء معهدُ فرنكو يستخرجُ تلك الكنوزَ من دفائنها فيعرضها على مائدة التشريح في المختبر العقلي فيحلُّ عقد رموزها

ويبيّنُ غِثّها من سمينها ويستخرجُ صحيحَها من منحولها ويُسلِّطُ مبضعَ التنقيحِ على يدِ النسّاخِ فيما مسخَتْهُ وشوّهته، وعلى غاراتِ الزمنِ بما طمَسَتْه، ويجولُ جولاته ثم يأتي بتلك الآثارِ سليمة الشوائبِ فيعدّ العدّةَ للنشر والابراز

وهكذا نَهجُ عَمَله في ابحاثه الجيولوجية: فهذه ثمودة قد نُشِرَت بعدما كانت أَلحِدَتْ منذ ألفَي سنة، فسلّطت قبساً من نورٍ على دروسِ تلك المدنيّاتِ الغابرة، وحفريّاتُ أدمير كوري فتحَتْ باباً جديداً في تاريخ موريطانيا طنجيطانيا وآثارُ طابرناس التي عُثِرَ عليها مُؤخّراً بارشادِ مؤسّسةِ الجنرال فرنكو أَنمَت موادَّ التاريخ المغربي

وأمّا من الناحيةِ الأدبيةِ بجميعِ فروعها فهي المادّةُ الاساسيّةُ في اعمالِ المؤسّسة، فقد تجلّتْ مظاهرُها بما نشرَتْه وستحتلُّ مكانةً في منهاجِ اعمالها بما ستنشرُه في المستقبل

وهذا مهرجانُ عيدِ الكتابِ العربي الذي أُحيِيَ بنصِّ ظهيرٍ شريفٍ أصدرَه صاحبُ السموِّ الملكي مولاي الحسن ابنُ المهدي نصيرُ العلمِ والعلماءِ ورافعُ منارَ الثقافةِ في هذا القُطرِ العربي المحبوب يؤازرُه في عمله مُمَثِّلُ اسبانيا في المغرب سعادةُ الجنرال اسينسيو بكلّ ما أُوتي من عزمٍ وحزمٍ واخلاصٍ بتنفيذِ مبادي، دولتِه النبيلةِ ناهجاً تلك السُّنَنَ التي اختطّها رئيسُ الدّولةِ فخامةُ الجنرال فرنكو: من عطفٍ ومحبةٍ واهتمامٍ لاحياءِ تراثِ قُطرٍ تربطُه به روابطُ ثقافيّةٌ وجوارٌ ومدنيّةٌ مشتركةٌ، واعمالُه جميعُها تنمُّ عن نبلٍ وإخلاصٍ وحسنِ نيّةٍ

فأصبحَ يوم ٢٣ ابريل سوقاً ادبيةً تُعرَضُ بها روائعُ المنتوجاتِ الفكريّةِ وبدائعُ المطبوعاتِ الجليلةِ ونفائسُ المخطوطاتِ العربيةِ ونواضرُ الفنونِ الجميلةِ فتُعيدُ ذكرى مواسمِ الأدبِ في بغدادَ وقرطبةَ وعُكاظَ الجاهليةِ وهيَ معقودةُ السوق

وقد احتلَّ معهدُ الجنرال فرنكو المركزَ الاوّلَ في هذه المواسمِ بما عرضهُ من منتوجاتِ أعمالِه الجليلةِ في جميع اقسامِ فروعِه، وهذا مديرُه الكاتبُ المؤرّخُ الأديبُ يخوضُ ميدانَ الرهانِ الأدبي فيبرزُ في الحلبةِ ويربحُ سباقَ الموسم بكتابه «المغرب» فيسجّلُ رقماً جديداً في الانتاجِ الأدبي ومركزاً عالياً لمؤسّسةِ فرنكو، فالكتابُ الذي قدّمهُ الى منبرِ التحكيم كان من معروضاتِ سوقِ الكتابِ المغربي في العامِ المنصرم

وانّ «كتاب نتيجة الاجتهادِ في المُهادنةِ والجهادِ» الذي نزفّه اليوم الى قرّاءِ العربيّةِ وأدبائها والى عُشّاقِ البحثِ والتاريخِ المشتركِ هو من معروضاتِ هذا الموسمِ ومن مجموعةِ تلك المخطوطات النفيسةِ التي تعنى بنشرها هذه المؤسّسة، فلهذا السفرِ النفيسِ مُميّزاتٌ أدبيّةٌ وتاريخيّةٌ يدرِكُها الباحثُ النشّادةُ من خلالِ سطوره فانّه يُعطينا فكرةً عامّةً عن مجاري الأدبِ العربي في المغربِ الأقصى ومُميّزاتهِ في اواسطِ القرن الثامن عشر ويترك لنا رسماً بديعاً مختلفَ الألوان متموّجَ الخطوطِ يُمثّلُ الحضارةَ الاسبانيّةَ واستبحار عمرانها ومقام الدولةِ الحربي والثقافي ونشاطَها الدبلوماسي في عهدِ كرلوس الثالث، ويمثّلُ من ناحيةٍ أُخرى عظمةَ الأمبراطوريّةِ المغربيّةِ واستعدادها الحربي ونشاطها السياسي والتجاري ونهضتَها العلميّةَ في عهد مولاي محمد بن عبد الله واهتمامَ هذا السُّلطانِ الصالحِ في افتكاكِ الأُسارى وتنميةِ الحالةِ الاقتصاديّةِ وجلبِ كلِّ الوسائلِ الفعّالةِ التي تؤولُ الى ما فيه خيرُ الامبراطوريّةِ المغربيّةِ

٢

حالةُ اللغةِ العربيّةِ وآدابُها في الشرق والغرب في القرن الثامنِ عشر

اكتسحَ التركُ العثمانيّونَ دويلاتِ الشرق العربي فدوّخوا البلادَ والقوا الذعرَ في قلوب العباد، فَفَتَحَتْ حلبُ ابوابَها لسليمِ الأوّلِ واستسلمَت دمشق بعد منعتِها ولم تُبدِ حماةُ ولا غيرُها من العواصم السوريّةِ مقاومةً ما، فثُلّتْ عروشُ الممالك العربيّةِ وتحطّمَت صوالجةُ أمرائها وقُوِّضَتْ صُروحُ المعارفِ فأقوَت مغاني العلم وأقفرت مجالسُ الأدب

وواصل السلطانُ الفاتحُ حملتَه الظافرةَ حتّى مصرَ وفيها اقتبلَ خضوعَ شريفِ مكّةَ واستلمَ مفاتيحَ الحرمين ونفى الى الاستانة المتوكّلَ آخرَ خلفاء العباسيين، وقامَ بتنظيمِ البلادِ المحتلّةِ طِبقَ النظامِ العثماني

ثمَّ برزَ السلطانُ سليمانُ القانونيُّ حاملاً بيمينِه الحسامَ وبيساره القانونَ العثماني الجديدَ فأرسلَ جيوشَه الانكشاريّةَ المُخيفةَ الى سوريا لتطبيقِ النظامِ الجديدِ وقمعِ الفتنِ فعاثَت في البلادِ فساداً، وتولّى أمرَ البلادِ الولاةُ الاتراكُ فوسموها بطابعٍ تركيٍّ

فأخذتِ العصبيّةُ العثمانيّةُ تشتدُّ وتقوى والعربيّةُ تتلاشى وتتوانى، فاصبحَ المغلوبُ على أمرِه يقلّدُ الغالبَ المنتصرَ في عوائدِه ومدنيّتِه التي ادخَلها الى بلادِه ! والبرزخُ الوحيدُ الى ارضاءِ الفاتحِ هي اللغة ! فاقبلَ الناسُ على اللغةِ التركيّةِ وأخذ ظلُّ العربيّةِ في الشرقِ منذ ذاك العهدِ يتقلّصُ شيئاً فشيئاً فتداعَت صروحُها وقلَّ النابغونَ فيها

فما برزَت طلائعُ القرن الثامن عشر الاَّ والتركيّةُ العثمانيّةُ محتلّةُ الدّواوين ودوائرَ الحكومةِ وقد اصبحت لغةَ البلادِ الرّسميّةَ

فوَهَت العربيّةُ عند ذلك وتخاذَلَت عزائمُ أدبائها ووَنَت قرائحُ شعرائها ولم يَعُد في استطاعةِ الكاتبِ العربي إصابة وجوه البلاغةِ فضلاً عن احسانِه استعمالَ المحسّنات اللفظيّة، فقلّت التآليفُ وجفَّ الانتاجُ الأدبيُّ، فاصبحَت الكتابةُ بذلك مجرّد فقرٍ من السّجعِ المكلّفِ المملّ، بل عَجَزَ الكتّابُ ان يكتبوا لاخوانِهم من انشائهم فوضعَت نماذجُ من الدواوين الكتابيّةِ والرّسائل الإخوانيّة يَنسخُ منها المراسِلُ ما يُوافِقُ غرضه

امّا في المغربِ الأقصى كان للعربيّةِ سوقٌ رائجةٌ وبضاعةٌ نافذةٌ لقلّةِ طروء العناصرِ الاجنبيّةِ عليها ولوجودِ ملوكٍ عربٍ بعصبيّتِهم وقوميّتِهم ودينِهم ذادوا عن حوضِها ودافعوا عن حوزتِها واكرموا أدباءَها وقرّبوا اليهم علماءَها

ولمّا كان الناسُ على دينِ ملوكِهم تَغَلغَلَ في الرعيّةِ حبُّ العلم وأخذوا يتنافسونَ باقتناء الكتُبِ والمصنّفات النّفيسة وبها يتباهونَ، فكثُرَت التآليفُ وتضاعفَ عددُ المشتغلين بالعلم

وكان اعتلاءُ محمد بن عبد الله عرشَ الامبراطوريّة المغربيّة من اكبرِ البواعِث في مظاهرِ الحركةِ الثقافيّةِ في المغرب فعزّزَ شأنَ العربيّةِ وأحيى معالمَها ورفعَ منارَها فأكرمَ رجالَ القلمِ كما عزّزَ رجالَ السّيفِ وجمَعَ حوالي العرش نخبةً ممتازةً من العلماء الأعلام والشعراء المجيدين فازدهرت الآدابُ والعلومُ في عهدِه كما استتبَّ الأمنُ في جميع الاصقاع المغربيّة

فاصبَح البلاطُ العلويُّ في عَصرِه مركزاً ادبيّاً ومجلساً علميّاً يؤمّه الشعراءُ والكتّابُ والعلماءُ على اختلاف طبقاتِهم يعرضونَ روائعَ منتوجاتِ ادمغتِهم وبدائعَ مُولّداتِ افكارِهم ونفثاتِ اقلامِهم، فيتبارَونَ ويتفاخرونَ ويتناشدُونَ والسلطانُ حكَمُ الحلقةِ وراحتُه على ميزانِها يُكرِمُ المُجلي ويشجّعُ المصلّي فتَستحكِمُ النّهضةُ بتعزيزِه للعلم واهله

فكأنَّ اللهَ سبحانَه في مُلكِه قد قيّضَ لتلكَ اللّغةِ الجميلة ان تحيي دائماً وان تجدَ في كلّ عصرٍ من يحمي ذمارَها ويذودُ عن حوضِها ويحفظُ عزّةَ شأنِها ويحميها من غاراتِ الزّمن

ابنُ الونان – شاعرُ البلاطِ العلوي
و
الغزّالُ اديبُ الدولةِ وكاتِبُها

ابنُ الونان

هو ابو العبّاس احمدُ بنُ محمد الحميري سابَقَ حَلبةَ شعراء عصْرِه، كان شاعراً مجيداً فيّاضَ القريحةِ عذبَ الالفاظِ رقيقَ المعاني، جمعَ بين السّلاسة والمتانة

آثاره الادبيّةُ

اشهرُ آثارِهِ الأدبيّةِ ارجوزةٌ شهيرةٌ تُعرفُ بالشمقمقيّةِ انشدَها في محفلٍ حافلٍ بحضرةِ مولاي محمد بن عبدِ الله فوقعَتْ من السلطانِ احسنَ موقعٍ فاجزلَ صلةَ الشاعرِ وقرَّبه اليه

والارجوزةُ هي من غُرَرِ الشعرِ العربي اتى بها على كثيرٍ من ابوابِ الآداب والحكمِ ولطائفِ الإشارة لأيّام العربِ ووقائعِها ومشاهيرِ رجالِها

وقد اهتمّ بشرحِ الشمقمقيّةِ وطبعِها علماء وادباء عدّةٌ منهم: محمدُ الجريري السلوي المتوفى ١٢٤٠هـ. والطاهرُ ابنُ العنايةِ المكناسي والمكي البطوري الرباطي والسلاوي صاحِبُ الاستقصاء وغيرُهم

وقد شرحَها شرحاً موفّقاً في ايامنا هذه العالمُ المؤرّخُ والأديبُ المغربيُّ المعروفُ صديقُنا الاستاذُ عبد الله كنون الحسني

الشمقمقيّةُ

تَقعُ الشمقمقيّةُ في ٢٧٥ بيتاً على رويِّ القافِ

– اقسامُها –

١ – النسيبُ بذكرِ رحيلِ الاحبّةِ ووصفِ الابلِ التي تحملوا عليها
٢ – التغزلُ بصفاتِ محبوبَتِه وما هي عليه من المحاسن والخلالِ الحميدةِ
٣ – الحماسةُ والفخرُ ومخاطبَةُ الحسودِ
٤ – الحكمُ والامثالُ ومدحُ الشعرِ
٥ – مدحُ السلطانِ (محمد بن عبدِ الله)
٦ – مدحُ الارجوزة بشيءٍ من الغلو

ولابنِ الونانِ مقاطعُ شعريّةٌ أخرى مدَحَ بها المولى محمدَ بنَ عبدِ الله وكلّها من الطرازِ العالي

الـغـزّال

هو ابو العبّاس احمدُ بنُ المهدي الغزّالُ الحميري الأندلسي المالقي الفاسي المتوفى ١١٩١هـ
كان شاعراً مطبوعاً وكاتباً اديباً ومنشئاً بليغاً غزيرَ المادةِ لطيفَ العبارةِ حسنَ الاستنباطِ ترأسَ الكتابةَ في دولة مولاي محمد بن عبد الله

ميزته الانشائيّة

متانةٌ في التعبير وبلاغةٌ في المعنى وإحكامٌ في التركيبِ مَعَ ميلٍ الى السجعِ المكلّفِ احياناً لكنّه غير مُمِلٍ

آثاره الادبيّة

عدّةُ قصائدَ متفرقــةٍ مدحَ بها مولايَ محمدَ بنَ عبدِ الله، وقد آلَ على نفسِهِ «: الا يأتي في امــداحِ سيّده بما يستطيعُه ابناءُ جنسِه، وأن يخترعَ في كلِّ عامٍ من الأدَبِ ما يُتعجّبُ من ابداعِهِ على اختلافِ اصنافِهِ وانواعِهِ :»
وإنْ كانَ في هذا التصريحِ غلوٌ ومبالغةٌ فقد اتى الغزّالُ بثلاث رسائلَ شعريّةٍ قيّمةٍ

الرّسالةُ الأولى : اليواقيتُ الأدبيّةُ بجيدِ المملكة المحمديّةِ

الرّسالةُ الثانية : الاطروفةُ الهندسيّةُ والحكمةُ الشطرنجيّةُ الانسيّةُ

الرّسالةُ الثالثة : نتيجةُ الفتحِ المستنبطةُ من سورةِ الفتحِ

وكلّها غررٌ تدلُّ على مقدرةِ الكاتبِ الأديبِ الشاعرِ وتلاعبِهِ بفنونِ الشعر وابوابِ العروضِ، غيرَ انَّ شعرَ الغزّال ليس فيه سلاسةُ وعذوبةُ شعر ابن الونان، فهو اديبٌ اكثر منه شاعرٌ

واشهرُ آثار الغزّال الأدبيّة كتابُه «نتيجة الاجتهادِ في المُهادنةِ والجهاد» دوّن فيه كلَّ ما شاهَدَه في البلادِ الاسبانيّةِ من مرافقِ العمرانِ ومراتعِ المدنيّةِ واخلاقِ القومِ وعاداتِهم وما رآه من آثارِ العربِ الكرامِ في الأندلس وما كانوا عليه من مدنيّةٍ ساميةٍ وثقافةٍ عاليةٍ

وقد سَجّلَ ايضاً مُلاحظاتِه ومذكّراته السياسيّةَ والدبلوماسيّةَ ونتيجــةَ محادثاتِه مع كارلص الثالث ملك الاسبان، وكلُّ ذلك بأسلوبٍ لطيفٍ جذّاب

والآن جاءَ معهدُ الجنرال فرنكو يزفُّ هذه الخريدةَ الفريدةَ الى أدباء العربِ الكرام وعشّاقِ الفنِّ والأدبِ والتّاريخ من علماء الأمّتين الأعلام

— قيمةُ الكتاب —

قيمته الأدبيّة

صفحةٌ مجيــدةٌ من الانشاء الوصفي والاخباري في القرن الثامن عشر، لغةٌ سليمةٌ، بلاغةٌ ومتانةٌ، تعبيرٌ مؤنّقٌ بأسلوبٍ جذّابٍ، وإن خالَطَه بعضُ مسمّياتٍ أعجميّة والفاظٍ عاميــةٍ حَكَمَتْ بها ضرورةُ التعبيرِ فهيَ لا تؤثّرُ برونَقِ الإنشاء.

قيمته الفنية

هُنا تتجلى مقدرةُ الكاتبِ الفنية فانّه يُعطينا باوصافِهِ وتحليلِهِ للمقاييسِ والأشكالِ الهندسيةِ صورةً حيّةً من الوصفِ الفني البنائي يقصِرُ دونها أشهرُ المهندسينَ وأمهرُ الفنّانين، نراه في قاعةِ السفـراء بقصرِ أشبيلية، وما أدراكَ ما قصـرُ أشبيليَة من الفنّ العلوي الموريسكي يتنقّل الكـاتبُ في باحاته واصفاً باحثاً منتقداً، بيدِه المقاييسُ الهندسيّةُ وبمخيلته خبرةُ الفن

قيمته التاريخيّة

امّا قيمة الكـتابِ التاريخيّة فهي ظاهـرةٌ في مقدّمة المؤلّف، فقد تركَ لنا أصدقَ نصّ تاريخي عن العلقات الدبلوماسيّة بين الامبراطوريّة المغربية واسبانيا في اواسط القرنِ الثامن عشر وما كان بين تلك الدولتين من روابط واحتكاكٍ بحكمِ الجوارِ وفوائدِ المصالحِ المشتركة وما عقبها من حوادث واحداثٍ وانقلابات

وإنْ كان قد ظهر في روايةِ الغزّال بعض الغلوّ والمبالغة فاكثرُ تلك النصوص تتفقُ والمراجعَ الرّسميّة

فكانت ضالّة الغزّال المنشودةُ حسنَ القيـام بالمهمّة الرّسميّة التي أُلقيتْ على عاتِقِهِ وارضـاء مولاه، فاضطرّ الى المغالاةِ احياناً، ولم يقتصِرْ الغزّالُ على ذكرِ العلاقاتِ بين اسبانيا والمغرب فقط بل تعداها الى ذكر بعض الدوَلِ الاوروبيّة وعلاقاتها بالمغـربِ في ذلك العهد، فأخذَ في المقارنَة والمقابَلةِ والاستقـراء فاستنتجَ انّ مصادقة الاسبان هِيَ المفضّلةُ عندَ مليكـهِ ورعاياه، فإنّنا نسمعُ الغـزّالَ يُخاطِبُ كارلسَ الثالث عند ما سألَهُ عن سُلطانه :

سيّدُنا منصورٌ مؤيّدٌ وقد أمرَنا ايّده اللهُ أن نعلمَك ونخبرَك بما أنتَ عنده من المنزلةِ التي لم تكـن لاحدٍ من الطّغاة المصالحين، فانّكَ المقدّمُ فيهم والمُميّزُ أنتَ وقومُك عن جميعِهم مراعاةً لامتثـال أمر سيدنا المطاعِ في شأنِ الأُسارى ومحبّتِك في المسلمين :»

وبعد كلّ ما تقدّم من نصوصٍ تاريخيةٍ لم نطمئنْ الى روايةِ الغزّالِ الاّ بعد مراجعـة مظانّها الاصليّة من وثائقَ اسبانيّة وفرنسيّة ومغربيّة أشرنا اليها في التعليقات

٣

الحركة العلميــة الحديثــة
في
المغرب الاقصى

بوادرُ حركةٍ علميــةٍ تسطعُ اليومَ في سماءِ هذا القُطْر العربيِّ العزيزِ يرعاها الأميرُ المحبــوبُ(١) فتبشِّرُ بواكيرُها بربيعٍ خصيبٍ

روحٌ جديدةٌ تسري في عروقِ الشباب المغربيِّ الوثَّاب داعية الى التجديدِ والنهضة

صروحٌ للعلم شُيِّدَت، مطابعُ ومكاتبُ أُسِّسَت، وكلُّها نواةٌ صالحةٌ للنهضةِ الحديثةِ

غير أنَّ هناك فكرتين تتنازعان فتتصادمان في كثيرٍ من المواقف: فكرةُ التجديدِ المتطرِّفةِ الجارفةِ مــع تيّار سيلِها كُلَّ ما هو قديم، وفكرةُ المحافظةِ المحنَّطةِ الخانقةِ على كلِّ ما هو عصريٍّ حديث

وإن كنتُ من دعاةِ التجديدِ فاني لا ابشِّرُ بتجديــدٍ لا يتفقُ وروحَ المحيطِ وعقلية البــلادِ خالٍ من المؤهّــلاتِ والتمهيداتِ الكافيةِ للنهضةِ، كما وأني لا اقولُ بالتقليدِ الأعمى والجمود والمحافظة المحنطة

وعلى كلِّ حالٍ أني اقدِّرُ المحافظينَ ولا ابخس حقَّهم فإنَّهــم قد حفظــوا لنا ذخائر تلك اللغة وحموها من عادياتِ الزمن، فمن نورِهم نقتبسُ اليومَ ومن معارفِهم نستمدُّ فنصقلُها بمرآةِ العصر ونوسمُها بطابعِ المحيطِ فنحوِّلُها الى مجرى الحياةِ العصريَّةِ ونسيرُ جنباً الى جنبٍ على ما يقتضيه العلمُ الحديثُ وروح العصر

ففي المغربِ مِن العلماء والفقهاء والمحدثين والمجدِّدين ما يفتخرُ بهم ويقلُّ نظيرُهم

فاعتدالٌ موزونٌ من شبيبتِنا وتساهلٌ سمحٌ من شيوخنا نلتقي جميعاً على مدخلِ الجادَّةِ القويمةِ المؤدِّيةِ الى بابِ النهضة

فبحكمةِ الشيوخِ وهمَّةِ الشبابِ تُبنى دعائمُ صروحِ الوطن

---

(١) اذا قلت الأميرَ ولم تسمِّي   فلا يحتاجُ سامعُك السوالا

٤

قضيةُ تحريرِ الأُسارى
من
مسلميـن ونصارى

١ — رجالُ الاكليروس الاسباني في المغرب

٢ — احمدُ الغزّالُ في اسبانيا وجورج خوان والابُ جيرون في المغربِ

كانت اسبانيا الدولة الوحيدة المسموعةَ الكلمةِ في البلاطِ المغربي التي استطاعَتْ وحدَها ان تهتم بشؤُون أَسَاراها حيثُ كان رجالُ رهبانيّاتِها يُستقبَلونَ بكلّ حفاوةٍ واجلالٍ في ذاك البلاط، فكانوا حلقة الوصل بين الدولتين، وكان مولاي اسماعيل يعطفُ عليهم كثيراً ولـه منهم اصدقاء، وبالخصوص من الاباء الريكوليطوس Recoletos كما افادَتْنا النصوصُ الرسميّة

وقد استحكمت عُرى تلك الصداقةِ في عهدِ مولاي محمدِ بن عبد الله، فبرزَ الاباء الفرنسيسكانُ وفي الطليعةِ الاب جيرون، فقد استطاعَ ذلك الابُ بحكمَتِه ودهائه ان يحظى بعطف السلطان ويباشر معه باسم ملكِ اسبانيا عقدَ معاهدةِ صلحٍ وتحريرِ أَسارى الفريقين، فعلى الاثر قد ارسلَ مولاي محمدُ بن عبد الله سفيـراً الى اسبانيا لمقابلةِ الملكِ والاتفاقِ معه على وضعِ نصوصِ المعاهدةِ الاساسيّةِ وشروطِ تحريرِ الأُسارى، فاستطاعَ السفيرُ احمدُ الغزّالُ ان يصلَ الى اتفـاقٍ مرضيّ مع الملكِ فيه مصلحةُ الفريقيـن، فارسلَ كرلوسُ الثالث الى سلطانِ المغـرب سفارةً اسبانيّةً برئاسةِ جورج خوان والابِ جيرونَ، فقابلت تلك السفارةُ مولايَ محمد بن عبدِ الله وتمّ الاتفاقُ وعقدُ الصلح وحُرّرَتِ الأُسارى

وهكذا انتهت مشكلةُ تحريرِ الأُسارى التي أشغلتْ دولَ أوربّا عدّةَ قرونٍ وكذلك يجبُ ان نعترفَ ان الاباء الاسبان كانوا يعتمدون على العـرشِ الاسباني(١) وإنّ ملكَ اسبانيا كان يزوّدُهم بالمالِ ويُرسلُ لهم بدون مقابـلٍ ما يطلبون من الأُسارى المغاربةِ يفدونَ بها أَسارى النصارى

(١) Véase: Mauritania Año XIII. Núm. 147.—Febrero de 1940

٥

طريقتنا في النشر

قد سلكنا في نشرِ هذا المخطوط طريقَ النقدِ والبحثِ والمقارنة والاستقراء حسبما يقتضيه النشرُ العلميُّ الحديث، تلك هي الخطّة التي يتمشّى عليها معهدُ الجنرال فرنكو في جميع منشوراته

فلم نترُك نصاً رسمياً كُتِبَ حولَ هذا الموضوع إلاّ وطالعناه، ولم نغادِرْ مصدراً يُعتَمدُ عليه إلاّ وتفهّمْناه، وكذلك راجعنا ما دُوِّنَ من الوثائق في سجلاّت بعضِ المجالس البلديّة عندَ مرورِ السفير في تلكَ الربوعِ، وقد درسنا الكتابَ واستخرجنا نصوصَهُ من عدّةِ مخطوطاتٍ عثرنا عليها، غير أنّ اكثرها كان مشوّهاً ممسوخاً اذا استثنينا من هذا الحكم مخطوطةَ مكتبةِ مدريد الاهليّةِ، فهي أسلمُ الجميع من التحريفِ والتصحيفِ وعليها كان جلُّ اعتمادِنا في النشر(١)

فقد نقّحْنا تلكَ المخطوطةَ وصحّحْنا ما مسختْه يدُ النسّاخ واصلحْنا ما شوّهتْهُ غزواتُ الارضة والعثّة وضبطنا مقدّمةَ المؤلّفِ بالشكلِ الكاملِ وبقيّةَ الكتاب بشكلٍ متفاوتٍ وذلكَ تتميماً للفائدة المنشودةِ ومظهراً جميلاً لحليةِ الكتاب، وقد ذيّلْنا هذه الطبعةَ بجداولَ وفهارسَ جغرافيّةٍ وتاريخيّةٍ ووضعنا ما يقابلُها باللغة الاسبانيّة القشتاليّة، وشرحنا الكلمات العويصةَ والدخيلةَ والألفاظَ والمسمّياتِ الأعجميّةَ والتعابيرَ الوضعيّةَ المصطلح عليها بالمغربِ مع شروحٍ وتعليقاتٍ كافيةٍ وافية

وقد زيّنا الكتاب بالرسوم والصوَر والخرائط، والحقنا بمقدّمتِنا ترجمة وافية لحياة مولاي محمد بن عبدِ الله ونبذةً عن احوالِ المغرب ومظاهرِ الثقافة العربيّة في عهده

ونرجو في نشر هذا السفرِ النفيس ان نسدَّ فراغاً في عالمِ المؤلّفات المغربيّة وان نضيفَ الى الأدبِ العربيِّ الخالدِ صفحةً مجيدةً من الأدبِ المغربي الزاهرِ في القرنِ الثامنِ عشر وان نضعَ بين يدي الأدباء والنقّادِ نصّاً كاملاً لهذا المؤلّف النفيس مبنيّاً على نورِ المصادرِ والأبحاثِ

ولا يسعُنا في هذا المجال إلاّ ان نرفعَ عاطفةَ الشكرِ الجزيلِ الى مديريّةِ وموظفي مكتبة مدريد الأهليّةِ على ما ابدوه نحونا من العطفِ والمساعدةِ للحصُول على هذا المخطوطِ وما اتحفونا به من وثائق قيّمةٍ تدورُ حولَ هذا الموضوع، نخصُّ منهم بالذكرِ حضرة المحترم الفاضلِ الاب زامورا وحضرة العالمِ الجليلِ القيّم على خزانةِ المخطوطات العربيّةِ الاب لونكاس وحضرة البحّاثةِ الفاضلِ السنيور منطلبان

كما اننا نقدّم شكرَنا لحضرةِ الكاتبِ الاسباني القديرِ المستعرب الجليل الضون كارلوص كيروس مدير معهدِ

---

(1) Biblioteca Nacional de Madrid. Manuscrito 5.116.

ALGAZZALI AHMAD (Ben Almehdi). Manuscrito, papel 4º, 14 líneas por página.

Consta de 205 folios; magrebí; mociones; al principio cuatro folios en blanco: en los dos siguientes varias notas en francés y castellano, de las cuales resulta que este manuscrito fué comprado por M. Louis Morel en Orán y regalado por el mismo, mediando el Cónsul de España en Saigón, al Museo Arqueológico de Madrid, del cual, por orden del Gobierno, fué trasladado a esta Biblioteca en 30 de Abril de 1869; el nombre del autor aparece en el verso del primer folio, que está miniado; epígrafes en varios colores (estos colores ya muy desvaídos), dos folios con notas en lápiz al fin; encuadernación magrebí.

Contiene el relato de una Embajada que envió a España el Sultán de Marruecos, Abu Abdallah Moh. ben Abdallah Almanzor Billah, en 1179 (1765-1766), relatada por el mencionado escritor, natural de Fez, con muchas curiosas noticias de poblaciones españolas.

الدروس المغربيّة، فقد ترجمَ المقدمةَ الى اللغةِ الاسبانيّةِ بأسلوبه الجذّاب وأرشدنا الى بعض نقطٍ تاريخيـةٍ هامّةٍ، وكذلك نرفعُ شكرَنا الى فضيلةِ العلّامة القانوني المدقق والمؤرّخِ الثقةِ الفقيه الفاضل سيدي محمد المرير رئيس المحكمة العُليا للاستئناف الشرعي لما افادَنا من ضبطِ الاماكن المغربيّةِ وأرشدَنا الى مصادر وثيقةٍ كُتبَتْ حولَ هذا الموضـوع، كما يجبُ علينا ان ننوهَ بفضلِ رئيس المجلسِ الأعلى للتعليم الاسلامي فضيلةِ الفقيهِ العلّامةِ ومؤرّخ تطوان الاكبـر الحاج احمد الرهوني، فقد وضعَ تحت تصرفنا مكتبتَه الزاهرةَ ولم يبخل علينا بمعلوماته النفيسةِ القيّمة

فشكرُنا للجميع يُسْدَى

تطـوان } مؤسّسةُ الجنرال فرنكو للأبحاثِ العـ بيّـةِ – الاسبانيّـةِ
طنجـة } في ٨ ابريل ١٩٤١

الفريد البستاني



المولى
محمد بن عبد الله

مولده ونشأته

ولد بالعاصمة الاسماعلية سنة ١١٣٤هـ وترعرع في بيت النبل والشرف العلوي ورضع مع الحليب صرفاً حب الطموح والهمة القعساء والتضحية في سبيل مصالح الوطن، وكانت مخائل النجابة والذكاء تسطع على محياه منذ الصغر وجلال الملك يرافق الأمير في جميع اطوار حياته

خلقه وأخلاقه واحواله وعلومه

كان أسمر اللون، حسن القد، أقنى الأنف، عريض شعر اللحية واسع المنكبين، ممتلىء الكتفين، جميل الوجه، فصيح المنطق، بليغ العبارة، ذا أدب وتواضع وحسن استقبال الى جود وكرم ودراية بالفقه ومشاركة في سائر العلوم الاسلامية، يحب الفخر ويبذل في نشر الصيت وجميل الأحدوثة من ذخائر الأموال ما يفوق العد والحصر

وكان كثيراً ما يقلد في احواله وتنظيم دولته المنصور السعدي، وبالجملة قد كان سلطان العلماء وعالم السلاطين

السلطان المؤلف

قد اشتغل السلطان بالتأليف رغما ما كان مطوقاً به من اعباء الملك الثقيلة، وقد ابرز عدة تآليف قيمة، منها :

كتاب الفتوحات الالهية، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم، والفتوحات الصغرى والفتوحات الكبرى وكتاب الجامع الصحيح الأسانيد، ومواهب المنان، وبغية ذوي البصائر والالباب، وكتاب مسانيد الأئمة وقد كان رحمه الله يوجه بهذه التآليف الى المكاتب الشرقية والمغربية

أما كلفه بمذاكرة اهل العلم واغتباطه بالاجتماع بهم فكان ذلك دأبه، اذ قل ما كان يخلو مجلسه العلمي من جهابذة الوقت وأعلامه

المجلس العلمي السامي

كان للسلطان ندوة ادبية كمجلس علمي يجتمع باعضائه في اكثر اوقاته فتقوم به المذاكرات العلمية والمناظرات الثقافية، وهذه اسماء اعضاء هذا المجلس :

ابو عبد الله العربي الرباطي، ابو عبد الله المهدي السلاوي، ابو عبد الله الرشيد، ابو عبد الله بو خريص، وأضف اليهم أديب الدولة احمد بن المهدي الغزال وشاعر البلاط العلوي ابن الونان، وكثيراً ما كان يفاوض هؤلاء الأعلام في تآليفه ويأخذ رأيهم ويستفهمهم في ذلك

مولاي محمد بن عبد الله يتقلدُ الخلافة في مرّاكش نيابةً عن ابيه فيسمو الى الامارة فالملك

لمّا بلغَ المولى محمدُ بن عبد الله ٢٥ سنة وآثارُ النجابة عليه ظاهرةٌ قدّمهُ والــدُه المولى عبدُ الله للخلافة عنه بعاصمة مرّاكش، والخلافةُ هنالكَ بمنزلة الإمارة العامّة المطلقة، فدخلَ قصبةَ مرّاكش على حين إنَ المدينة قد عبثت بها يدُ الخراب وقوّضت الفتنُ تلكَ القصورَ والديارَ ولم يبقَ بها الا الآثارُ والأحجارُ، فقام رحمهُ اللهُ في ذلك قيامَ مُجدٍ وسعى في اصلاحِها سعيَ مجتهدٍ، حتى عمّرَ خرابها وسكّــنَ اضطرابها وحسّنَ حالها وردَّ اليها رونقها وبهجتها وجمالها، ونشر الأمــن في تلك الانحاء ونظرَ في الأمور الاقتصاديّة والتجاريّة، ففتحَ مرسى اسفي التي كانت مليئة بالثوار والقرصان، فحسن الحال وأصلح أمر المال، ولم يقتصرْ على تنظيم حالة مرّاكش فقط بــل تعدّى الى ناحية السوس، فلمّ شعثها وأصلحَ فاسدَها ثم يمم ناحية الرباط وصارَ الى القصر الكبير ثم الى تطوان فناحية سبتة وطنجة والعرائش ثم رجعَ الى مقرّ خلافته، فاشتهر ذكرُه وفشا في القبائل الكبيرة أمره وحسنَ فيه المقالُ ومالَ الناسُ اليه في سائر انحاء المغرب

اعتلاء مولايَ محمد بــن عبدِ الله عرش الامبراطوريّة المغربيّة

كانت ايامُ السلطان المولى عبد الله متراكمة بالثورات والفتن مملوءة بالحروب والاضطرابات حتى كادَتْ الفوضى أنْ تعمَّ سائرَ النواحي، فظهر المولى محمدُ في خطّة خلافته بمرّاكش بمظهر الحزم، وتبدّى للمغرب بكمال النجدة وحصافة الرأي، مــعَ درايةٍ بإدارة البلاد ومعرفــةٍ بتسيير الاعمال، فتشوقت اليه النفوسُ واشرأبت اليه الاعناقُ وكلفت بحسن سيرته القلوبُ

فلمّا قضى اللهُ بوفاة والده سارعَ الناسُ لبيعته مطيعين، وتلقوا بشارة اعتلائه عرشَ المغربي فرحين

فكانت بيعة صحيحة شاملة عامّــة، حضرَها أعيانُ المغرب وعلماؤُه وفقهاؤُه وقُضاتُه، ولم يتأخرْ عنها احدٌ، وكانت بيعته بفاس ورفعت اليه بمرّاكش وذلك سنة ١١٧١هـ

تنظيم مملكتــه

ماليتــه

خرج المولى محمدُ من مرّاكش الى فاس، وبعد ان قابل الوجهاء والأعيان وزار قبر والده صرف همّته لجمع الأموال والذخائر التي تركها والده فحاز من ذلك شيئاً كثيراً، منها: نحو مليون من الدنانير وما يقابلها من سبائك الذهب وغير ذلك مــن نقود الفضة، ثمّ اعتنى بتنظيم المداخيل لعلمه ان ذلك هو اساس الدولة، ولكنه رحمه الله لــم يشأ ان يستبدّ ويظلم بفرض الضرائب وترتيبها على الناس بل استشار في ذلك الفقهاء والمتشرعين حتى يكون دخل الدولة مبنياً على اساس شرعيٍّ، فافتوه بانه اذا خلا بيت المال ولم يفِ له ما يمكن للسلطان ان ينظّمَ به أمر الجند ويرتّب به الحامية على الثغور جاز فرض الضرائب على الناس! قد استشار في ذلك ولكن لا بدّ من العدل وعدم الحيف

ومن جملة من افتاه بذلك: الشيخ التاودي والشيــخ جسوس والشيــخ ابو حفص الفاسي والفقيه ابن عبد الصادق وغيرهم.» ومن جملة تنظيم ماليته اعتناؤه بضرب السكة، فقد كانت له دورٌ لضرب السكّة: بتطوان والصويرة والرباط كما ضرب سكّةً ذهبيّةً (في اسبانيا) بمدريد وباشبيلية

رحلته الاستطلاعية وتنظيمُ الجيش والاسطول

لما كانت السنةُ الثالثةُ من مُلكِه قدِمَ مكناسةَ وتفقَّدَ جيشَ العبيد واوصلَهم براتِبِهم كما بعثَ براتب جيش الودايا واستقدمهم اليه ونهضَ بالكلِّ قاصداً مدينةَ تطوان، ثمَّ وقفَ على سبتة ولمَّا تحقَّقَ حصانتَهـا ومناعَتَها وإنْ لا مطمَعَ فيها امَّ مدينةَ طنجة بعد أن اوصى اهلَ أنجرة بالمحافظةِ على الحدود الاسبانيَّـةِ وحراسةِ تلك النواحي، ولما وصَلَ طنجة امرَ حاكمها بالتوجُّهِ لتطوان للوقوفِ بنفسِهِ على انشاء السُّفن الحربيَّـةِ هناكَ، ومـن هناكَ ذهبَ الى مرسى العرائش فالقاها خاليَةً ليس فيها الاَّ نحو مائة من اهلِ الريفِ فانزلَ بها جيشاً من عبيدِ مكناسة تحت اشراف اهلِ الغرب، وأسندَ القيادةَ لعبد السلام بن علي وعدي

ومن العرائش نزَلَ برباط الفتح وسلا وأمر ببناء الحصون الحربيّـة والاستحكـامات على الشواطيء استعداداً للهجمات البحريَّة، كما أمَر بانشاء سفينتين احـداهُمَا باسمِ الرِّباط والأُخـري باسمِ سلاَ، وفي هذه المُدَّة أمَر تُجَّار اسفي ان يشتروا له من الخارج ما يحتـاجُ اليه من الأدوات والآلات التي تتوقَّفُ عليها المراكب الحربيَّةُ، ولم يزَل رحمَه الله مُجداً في ذلك حتَّى اصبَحَ له اسطولٌ عظيمٌ على نحو خمسين من القِطَعِ الكبارِ ما عدى غيرهاما يُعَدُّ بالمآت

أمَّا رؤساء البحريَّة الماهرون فقد بلغوا نحو ستين رئيساً كُلٌّ واحدٍ له من المراكب والبحريَّـة والطبجيَّـة ما يُناسبُه، فكان كُلٌّ واحدٍ مـن هؤلاء بمنزلة الاميرال، امَّا القوَّةُ البرِّيَّة فكانت تتألَّف من نحو خمسة عشر الفاً من العبيدِ وسبعة آلاف من البيض وثمانية آلاف من القبائل المُختلفة وتسعة آلاف من خصوصِ الغرب هذا ما عدى الحاميـةُ التي كانت ترابطُ بالثغور اذ كان لِكُلِّ ثغرٍ من ثغورِ المغرب ومراسيه فِرَقٌ مـن الجند على حَسَب اهميَّة ذلك الثغرِ، يُقَدَّرُ مجموعُها بسبعة عشر الف جندي، هذا في زمن السلم، امَّا عندَ نشوب الحرب فيكونُ المغربُ كُلّه جيشاً يحاربُ في صفِّ الحكومة، امَّا الحكومة فرئيسُها هو السُّلطان وبيده السُّلطة التَّنفيذيَّة والتَّشريعيَّـة التي هِيَ بمعنى سن الأَنظمة السياسيَّـة التي لا تُخالف الدين، امَّا الاحكامُ الشرعيَّـة فمرجعُها القرآنُ والسُّنة التي يُستَنَدُ في تطبيقها الى حَمَلة الشريعَة الاسلاميَّـة من الفقهاء والقضاة

نعَمْ السلطانُ هو رئيس المحكمة العُليَا بمعنى انَّ الاحكـام تُستأنَف لدَيْه وهو يباشرُها امَّا بنفسِه او بتقديم علماء يَنظرونَ فيها ثـمَّ يعرض الحكم النهائي عليه، امَّا الوزارةُ فكانت في الغالب تُسنَدُ الى رجلٍ حربيّ يكـونُ له صولةٌ ونجدةٌ، ومن وزراء هذا السلطان: ابو عبد الله عمرُ العربي، وكان له بمنزلة الوزير قائد قوَّاده محمد بن حمدو الدكالي، ولكنَّ الوزير في مثل هذه الدولة لم يكُنْ الاَّ مُبلِّغاً عن السلطان فقط، والأوامـرُ والنَّواهي والتَّولياتُ والعَزلُ إنَّما تصدرُ من السلطان حتى انَّ الوزير في سائر مخاطَبته الرسميَّـة يقولُ في خطابه عن الأمرِ الشريف

وهناك موظفون كبار يتَّصِلون بالسلطانِ كالحاجب ووظيفته معروفـةٌ والكاتبُ الكـبيرُ الذي هو بمنزلة رئيس الديوان الملكي، وقد كان في هذه الدولة الغزَّالُ والزياني وابنُ عثمـانَ وابنُ زاكـور وغيرهم بهذه المنزلة حتَّى إنَّهم استعملوا في الخارجيَّة السفارات ومنحوا مَرتَبَة الوزارة بذلك

اما تنظيمُه الشرعي العدلي فقد صَرَفَ له همَّتـه السامية حتى اصدرَ في ذلك قرارات وقوانيـن كلها ترمي الى المحافَظة على القواعد الشرعيّة وتطبيقها في الخارج حتى تجري العدليَّـةُ مجراها الطبيعي، وشدَّدَ في ذلك على القضاة والعدول واهلِ الافتاء وواعدَ من خالفَ في ذلك بالعزلِ والعقوبَةِ

العلـمُ والتعليـمُ

لا نبالغُ اذا قلنا انَّ هذا السلطان كان وحيد ملوكِ عصره في الولوع بالعلم والمعارفِ فقد صرف فيه نفائس اوقاته رغم

ما كان مطوقاً من اعباء الملكِ الثقيلة، وقد سلَفَ انَّ مجلسَهُ مطلعاً لنجوم علماء وقته كما انّه اعطى جانباً عظيماً من الاعتناء بأمرِ التعليم، وخصّصَ الكُتُبَ النافعةَ التي تليقُ بالمتعلمين ونصَّ عليها وسمّاها بأعيانِها، وكان لا يرى الدراسة بالكُتُبِ المختصرةِ التي تُتعبُ الناظرَ فيها ولا يفتح مغلقها الاّ بعد العناء الشديدِ ويرى ان ذلك من العوائق التي تعوقُ الطالبَ عن النبوغِ العاجلِ، وان الواجبَ الرجوعُ الى كتبِ الأقدمين المبسوطة العبارة، التي تفهَمُ بأدنى نظرِ اليها، ومن كلفه بنشرِ المعارف في ربوع مملكته تحبيس الكُتُب النفيسةِ وتوزيعها على المدنِ المُهمّة بالمغرب وبكلِّ جامعٍ من جوامعِهِ، والى الآن توجدُ بقيّةٌ من ذلك تشهدُ بما قلناه

سياستُـهُ الخارجيّـة

اهمّ ما كان يسعى اليه السلطانُ المولى محمدُ ويَجِدُّ في تنفيذه أجعل المغرب للمغاربة! واسترداد ما ضاعَ منه ورفع اليدِ الاجنبيّةِ عنه، وبعد ما نالَ أمنيته صارَ يحصِّن مركز مَمْلكته الشريفة ويشدُّ عضويّتها بتحسينِ العلائق السياسيّة مَعَ الدولِ العظام

فاوفدَ لذلك الوفودَ والسفارات لتركيا واسبانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها مـن الدول، فعادَتْ ناجحةً مـن مسعاها واصبحتْ دولُ أوربا وغيرُها مسالمة المغرب تنظرُ لى مَمْلكته بعينِ التعظيمِ والاحترامِ وصارتْ تخطب ودّاده بالهدايا والتحف وهو يقابلُها بالمثلِ، الاّ الدولة الروسيّة فان مولى محمدَ لم يَردْ مسالمتَها اذ كانت معادية لتركيا التي كانت تربطُها بالمولى محمد روابط المحبّة والدين

آثارُهُ واصلاحاتُهُ

آثارُ هذا السلطانِ العظيم في المغرب كثيرةٌ، فمنها ما يرجعُ الى الاستعدادات الحربيّة كبناء الحصُونِ والأبراجِ في الثغورِ والمواني، ومنها ما يرجعُ الى المصالح العامّـة كبناء الجسور والقناطر واصلاح طُرُقِ المواصلات، ومنها ما يرجعُ الى تنشيط التعليم ونشر العلـوم والمعارف كبناء المدارس وتعيين المرتّبات وتحبيس الكتب الكثيرة للمراجعـة والدارسة، ومنها ما يرجعُ الى الأعمال الخيريّة واعانة العجزة والمعوزينَ، وكلُّ ذلك قد اوفاهُ حقهُ، واعتنى به حسبما استحقه، فقد بنى بمرّاكُشَ مساجدَ واصلحَ أخرى وبنى بها مدارسَ، وكذلك بنى بمرسى اسفي والجديدة والدار البيضاء والرباط وسلا مساجدَ ومدارسَ وحصوناً وابراجاً، من ذلك البرجان العظيمان بمدينتي سلا والرّباط وبتطوان برج وادي مرتيل، وبنى في العرائش السوق المعروفة، وهكذا فعلَ في باقي المُدن الداخلية كمكناس وفاسَ وتازا وغيرِها الى غير ذلك ممّا رتّبه لطلبة العلم والأئمة والفقراء من المرتبات والأوقاف

وفـاتُـهُ

بعد ما كان ساعدَ الحظُّ المولى محمدَ وخدمَه السعد، وسالمته الأيامُ حتّى سما بالمغرب الى سماء المجد والفخارِ نغص بحادثة ولده المولى يزيد الذي التجأ اخيراً بضريح الولي الأكبر مولاي عبد السلام، وبعد ان جرى في ذلك ما جرى نهَضَ من مرّاكُش قاصداً بنفسه معتصمَ وَلَده رَغمَ ما به من المرض، الى ان قاربَ رباطَ الفتـح فاشتـدَّ عليه الحالُ وادركته منيّته وهو في محفّته

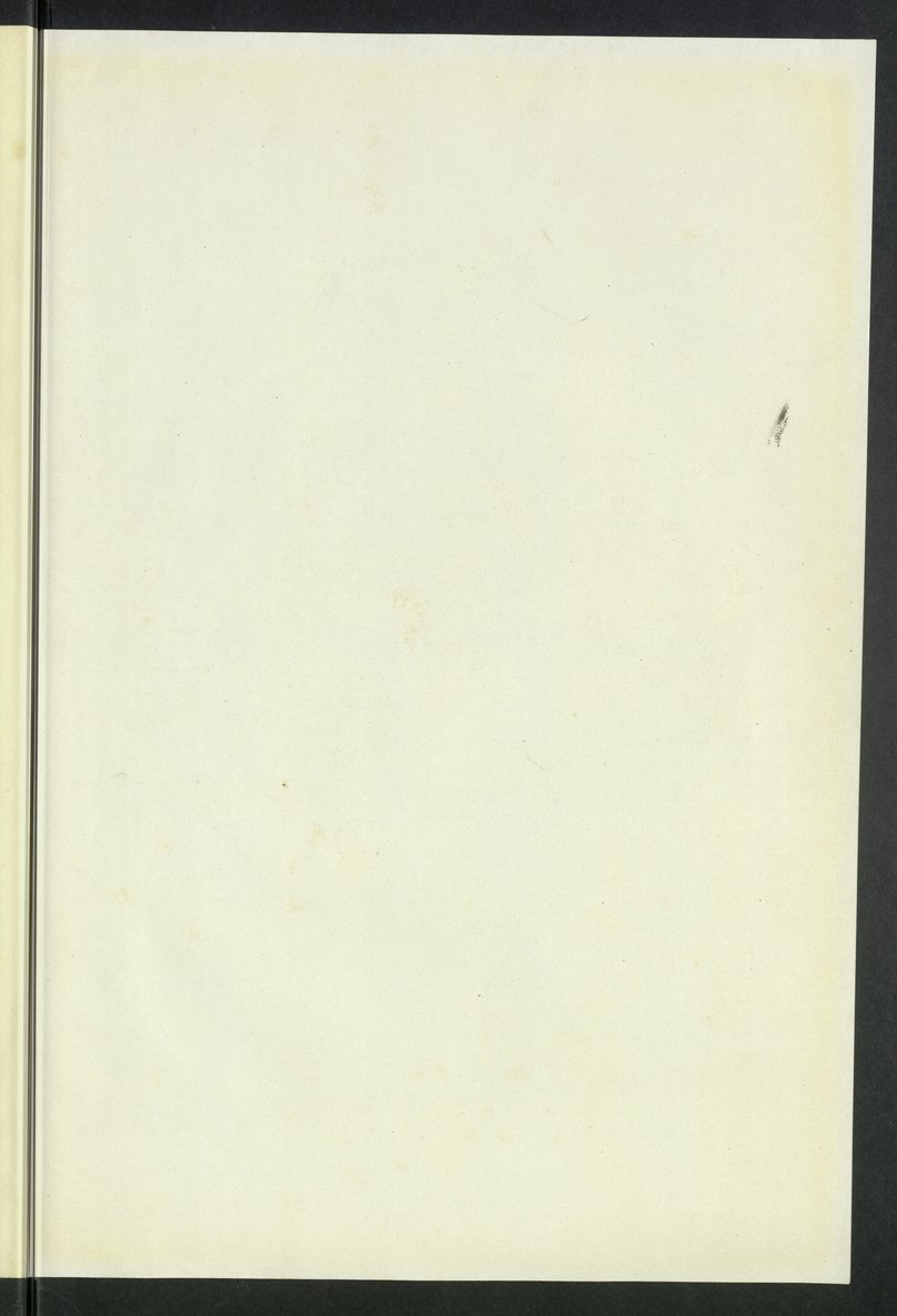
وذلك في ٢٤ رجب سنة ١٢٠٤ ودُفنَ بقُبّةٍ من قُبب داره رحمه الله

فبكى الناسُ واعولوا ولكن ما نفعهم الاّ ان رجعوا الى الله وعلى عظمته وسلطانه عولوا



مولاي محمد بن عبد الله، سلطان المغرب

Mulay Mohammed Ben Abdel-lah, Sultán de Marruecos.



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمان الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي فرض الجهاد وسنه، واشترى به من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنه، نحمده سبحانه وتعالى حمد من جاهد في الله حق جهاده، ونشكره جل وعلا شكراً يقيد سوابغ آلاء الله مراده، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة من علم أن الجنة تحت ظلال السيوف، فشمر عن ساعد الجد في قتال المشركين امتثالاً لامر الله ورغبة فيما هو مقرر موصوف، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد صاحب السيف والقضيب واللواء المعقود، وعلى آله واصحابه الباذلين نفوسهم في نصرة الدين وإقامة الحدود

اما بعد: فإن روح الجهاد ونفسه، ومعناه المعتبر وحسه، وجود الخلفاء والأيمه، للقيام بشؤونه وما يتعلق بأموره المهمه، مع ما يجب عليهم من الإهتمام المباشر مـن الأهمه، فيتأملون أموره بذهن ثاقب، ويستعملون الفكرة فيما يعود بالنفع على المؤمنين في الحال والعواقب، يتعرضون لنفحات الله، بجهاد اعداء الله، والرفق بعباد الله، وان ممن اختص بهذه المنقبة العظيمة في ملوك الاسلام، وجاوز الحد في استعمال البعض والكل في الجهاد وما يتعلق بأموره باعتناء واهتمام: إمام جزعت مدن الكفرة لسطوته، وفزعت سفن المردة لعظمته وقوته

فهو الإمام الذي تزينت باوصافه الحميدة من المؤلفات الفصول والتراجم، وشهاب مناقبه الجليلة لمن يسترق بعض البعض منها ثاقب وراجم، فاستقل بالفضل والعظمة واستطال بحلمه وعلمه على ملوك العرب والاعاجم:

مولانا المنصور بالله المجاهد في سبيل الله ابو عبد الله السلطان الاعظم مولانا محمد بن مولانا عبد الله خلد الله نصره، واعز امره، وابر مجده وفخره، وادام في المعالي ذكره، لم يزل نصره الله مستغرقاً اوقاته في طاعة مولاه، مستعيناً بالله على ما خوله واولاه، من النظر في أمور عباد الله والسعي في جهاد اعداء الله

فكان رحيماً بالمؤمنين، رؤوفاً باراً بالضعفاء والمساكين، فظاً غليظاً على اعداء الله الكافرين، جد ايده الله في تهيء المراكب للجهاد واجتهد وشحنها ادامه الله بالعدد والعدد، وحض عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال، لتكون «كلمة الله هي العليا» لا لاجل أن ينال ويقال، ولا شك ان الذكرى من الموفق نافعه، والموعظة من منور السريرة في القلوب واقعه

فشمروا عن ساعد الجد بالأمر المطاع وجاهدوا في الله واجتهدوا وعلى ما وعد الله به من النصر اعتمدوا، فصدقهم الله وعده، ونصر حزبه وعبده، وقد ضيقوا بالعدو الكافر البر والبحر، حتى صاروا قذى في عيون المشركين وشجى لهم في النحر، وحصل منهم العدد الكثير في الأشراك، وغنموا بعد ان كاد يستوعبهم الهلاك، ولم يجدوا بداً من طلب المهادنة عن خضوع واذعان، ومذلة واستصغار وهوان، وجعل العدو يتردد في المسأله، ويلح في الطلب والمسئله، فلم ينصت سيدنا

ايدهُ اللهُ لذلِكَ، ولم يبالِ بما هنالِكَ، وحتّم على منعِهم لِمَا طلبوا بقولِه: «فُرِضَ علينا الجهادُ بالكتابِ والسُّنّه»، وقدّر احكامَهُ الشارعُ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ وسَنّهُ، فانا لا نؤمّنُ اعداءَ اللهِ ولا نسلمُهم الاّ اذا قالوا الاّ الهَ الاّ اللهُ! فانْ لم يقولوها يُقاتلون قتالاً ذريعاً بنصِّ الكتابِ المكنون، او يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون، فعارضَتْهُ في ذلك أمورٌ ايّدهُ اللهُ اقتضَتْها المصلحةُ الاسلاميّةُ في الحالِ، واكّدتها المنفعةُ العامّةُ في المآل

فلم يسعْهُ ادامَهُ اللهُ بعدَ ان تأمّلَ وتدبّرَ، الاّ الاجابةُ للمهادنةِ بما هو في نفوسِهم ادهى وأمرّ، مِن تحمُّلِهم الشروط الشاذّةَ المثبتةَ للكافرِ مذلتَهُ وخزيَهُ، ولاشكَّ انّها تقومُ فيهم مقامَ الجزيه، فاذعنوا لما أمِروا به وتحملوه، وارتضوه لانفسِهم وقبلوه، وانعقدَتِ المهادنةُ بين عدّةٍ من الاجناس، على احكمِ قواعدٍ واوثقِ أساس، الكلُّ على الوجهِ الشرعيّ، والحكمِ المرعيّ، مما يعودُ نفعهُ على الاسلام، ويُنتجُ المصلحةَ التامّةَ في العاجلِ والآجلِ والخاصِ والعام، اعظمُها فكاكُ الأسارى من المُسلمين وانقاذهم من العَذاب، وجَلبُ ما يُستعانُ به على الجهادِ من بارودٍ ومدافعَ وآلةِ السُّفُنِ من بلادِهم ولا خفاءَ انَّ في ذلك قهراً لهم وفيه مذلّةٌ لهم واغلاب

الاّ الجنس الافرنصيص فقد طلَبَ المعادنةَ فمُنِعَ وطُرِدَ، وسَعَى جهدَهُ في التَقرُّبِ فخُيِّبَ وأُبعِدَ، وتَتابعَتْ على جنسِهِ مَهانةُ السبي والأسْر، وخَفقَتْ على المجاهدينَ في أخذِهِ ألويةُ الفتحِ والنصر، وحيثُ حصلَ على اليأسِ مِمّا طَلَبَ، وتحققَ الهلاكَ والعَطَبَ، هيّأ عدّةَ مراكبَ على الخذلانِ مقصوره، وقَصدَ بها الثُغورَ الاسلاميّةَ المؤيدةَ المنصوره، رَمَى بمرسى سلاَ من الانفاطِ (١) والبُنبِ (٢) ظنّاً انّه يَحصلُ بهِ على طائلٍ، فأُجيبَ بضِعفِ ذلك فلم يلبثْ الاّ واجفانُهُ هاربةٌ تقفوا اواخرُها الاوائلَ، وفرَّ هارباً مهزوما، ساقطَ الألويةِ مذلولاً مذموما، فعالَجَ ما انصدعَ من اجفانِه، واعادَ الكرَّةَ يطلُبُ حتفَهُ بيدِهِ ويَسْعى في مذلتِهِ وهوانِهِ، ووَثَبَ على مرسى ثَغرِ العرائشِ اذ عَلِمَ بوجهةِ الكُلِّ من عسكرِهِ لقبضِ الزكاةِ والاعشار، ولم يدرِ إنَّ في القليلِ مع ما وَعدَ اللهُ به عبادَهُ من النَصرِ الوفرِ والاكثار، واقتحمها بالبُنبِ والمدافعِ، وشحنَ القواربَ العديدةَ بالشلطاظِ (٣) والفسيانِ (٤) مما يزيدُ على الثمانمائةٍ، ظناً انَّ ليسَ له مقابلٌ ولا مدافعٌ، وعَبرَ المرسى بقواربِهِ المشحونةِ بعسكرِهِ قاصداً حَرقَ مركبٍ كانَ أخذَ لهم قبلَ داخلَ الوادي، (٥) فخلّى المسلمُونَ سبيلَهُم حيلةً حتى توغّلوا في الموضعِ الذي لا يُمكنُهم الخروجُ منهُ وركَبَ لقطعِهم مَن حضرَ من الحواضرِ والبوادي، وقطعوهم قطعةً لا يسعُهم منها فرار، ولم يقبلِ المُسلمُونَ منهم لا ذمّةَ في وِردٍ ولا اصدار، واستعملوا فيهم السيفَ فقُتِلَ وغُرِقَ وأُسرَ منهم عَددٌ كثير، فهم بين غريقٍ وقتيلٍ وأسير، وبقيَتْ بيدِ المُسلمينَ من اجفانِهم عِدّه، مشحونةٌ بالانفاطِ والعُدّه، ووقعتْ فيهم غزوةٌ شهرتُها كافيةٌ عن تكييفِها، واخبارُها في برِّ العَجَمِ والعَرَبِ غنيّةٌ عن تصنيفِها، وقد كساهم اللهُ ثوبَ المذلّةِ والهوان، وملاءَ قلوبَهم رعباً وعمَّهُمُ الجزعُ والخذلان، وضاقَتْ عليهم نفوسُهم الخبيثه، حتى صار الكلُّ منهُم يَبُثُّ

---

(١) مخط: الانفاض، والنفّاطة: اداةٌ من النحاس يُرمى فيها بالنفط والنار وهي من آلات الحرب التي تقذف الكُتَل الحديديّة على الابراج فتهدم ما اصابته، وهذه اللفظة كثيرة الاستعمال عند مؤرخي الاندلس والمغرب ومنهم من يكتبها بالضاد (انفاض)

(٢) البُنب: يريد بها Bombas وهي كلمة اسبانيّة معناها: قذائف

(٣) يريد: Soldados والكلمة اسبانيّة معناها: الجند

(٤) يريد: Oficiales والكلمة اسبانيّة معناها الضباط وقادة الجند

(٥) الوادي والواد بعرف المغاربة والاندلسيين هو النهر

أخبارَ أخذهِ في الاجناسِ ويشرحَ حديثهُ، فيشمتونَ بهم ويعزوُونَ، ويتحكمُونَ عليهم ولا بحديثهم يعبئُونَ، فلم يسعْهُم الاّ الاذعانُ، وطلبُ الأمنِ والامانِ، بحيثُ تُزمّنُ مراكبهم مدّة من سنَة، نبيلغَ الكلُّ منهم في المدّةِ المذكورة مأمنَهُ، وتحمّلُوا اشياءَ هيَ على غُلبهم اقوى دليلِ، شاهدةٌ على ما هم فيه من الهوانِ والمذلّةِ والوبالِ والعويلِ، فاجابَهُم لِما طلبوهُ عن محضِ الفضلِ مولانا المؤيدُ المنصورُ، فأمنوا بأمانهِ للأجلِ المذكورْ

وشَرَعَ سيّدُنا ايدَهُ اللهُ في عمارةِ الثغُورِ، وتشييدِ ما هَدَّهُ منها تتابعُ الأزمنةِ والدُهورِ، وحصّنَهَا بالعَددِ الكبيرِ مِنَ المدافعِ والعَدَدِ والعُدَدِ، حتى صارتْ ممنوعةً من العدوِّ ومحفوظةً من عينِ حاسدٍ اذا حَسَد.

وفي بركةِ مولانا الإمامِ وفضلهِ، وعَظَمَتِهِ وعَدلِهِ، القاءُ الفزَعِ مِن سُفُنِهِ في قلوبِ المشركينَ، وبقاءُ الجزَعِ من قراصينِهِ الجهاديَّةِ في احشاءِ اعـداءِ اللهِ الكافرينَ، يجدرُ منها بعضُهم بعضا، ويتنكبُونها في البحرِ وطُرُقِهِ طولاً وعرضا، على إنّ سُفُنَ سيدِنا الجهاديّةَ مقصورٌ جهادُها على شهرين في السَّنَه، لاتصالِ المراسي بالأَودِيَه، يتعذرُ الخروجُ منها قبلَ فتحِ الطمس بالأزمنةِ الشتويّـه، فهناكَ تُقرصن وتعودُ لمرساها الى القابلْ، وقد استعمَلَ الحكماءُ واهلُ الهَندسةِ جهدَهم في تنظيفِ المراسي مِن الرملِ المانعِ لخروجِ المراكبِ فلَم يحصلُوا على طائلْ، وصارَ العدوُّ الكافرُ يتركُ البحرَ في الشهرَيْنِ المعلومَيْن ويسافرُ بقيّةَ السَّنَه، لينالَ في ذهابِهِ وإيابِهِ مأمَنَهُ

ومُرادُ سيّدنا بالجهادِ والتضييقِ بالعدوِّ، ومحاربتِهِ بالعشيِّ والغدوِّ، بحيثُ لا يجدُ فسحَةً في الامانِ على نَفسِهِ، ولا يَسَعُهُ الاّ الإيمانُ او الحلولُ برمسِهِ، فجعلَ اعزّهُ اللهُ يستعملُ الفِكرَ ويمنُ النظَرِ، فيما يُوصلَهُ لهذا الأمرِ المُعتَبَرِ، الى ان اداهُ اجتهادُهُ، واعانَهُ امدادُهُ، لما فيه مُرادُهُ، ارشدَتهُ بصيرتُهُ المنوّرَهُ، وأفادَتهُ سعادتُهُ السابقَةُ قبلَ ان خَلقَهُ اللهُ وصوّرَهُ، لتشييدِ ثَغرٍ زادَ في الإسلامِ، وحمى به اقليمَ رعيتِهِ من خلفٍ وأمامْ، أسّسَهُ اعزّهُ اللهُ بازاءِ مَرسى الصُّويرة (١) التي لم يكُنْ مثلَها فيما سبقَ، ولا أبصرَ نظيرَها في برِّ العجمِ والعربِ حَدَقَ، لها بابانِ شرقيّةٌ وغربيَّةٌ، تسافرُ منها القراصينُ متى شاءَتْ مِن غيرِ أن تفتقرَ لطيبِ هواءِ ولا لمديَه.

وحصّنَ ايدَهُ اللهُ الجزيرتَيْنِ الدائرتَيْنِ بالمرسى كُبرى وصُغرى بالعَدَدِ الكثيرِ مِنَ المدافعِ، وشيّدَ برجاً على صخرةٍ داخلَ البحرِ احكامُهُ لصنوفِ الهَندسةِ جامعْ، فالقاصدُ للمرسى لا يدخُلُها الاّ تحتَ رَميِ المدافعْ، مِنَ البروجِ والجزيره، فاذا جاوزَ المدافعَ وحَصلَ بالمرسَى فلا يُمكنُهُ الخُروجَ منها الاّ بدليلٍ له بها معرفةٌ وبصيره، فهي محصّنةٌ محفوظَه، وبعينِ الرعايةِ ملحُوظَه.

وقد شاعَ خبَرُها في سائرِ الآفاقِ، واجمعَ الكلُّ على تفضيلِها وتقدُّمِها على مَن سِواها بالإستحقاقِ، وبابتداعِها وانشائِها تتابعَ الجِهادُ وتوالى، وفُتِحتْ ابوابُهُ بأذنٍ من اللهِ تعالى

فللّهِ الحمدُ الأعظَمُ، على ما تفضَّلَ بِهِ وأنعَمُ، وقد بنى بهذا الثغرِ المباركِ العَدَدُ الكثيرُ مِنَ التُجارِ دورَها حتى ضاقَ عليهم مَعَ وسعِهِ، واسقطَ سيدُنا ايدَهُ اللهُ عمّن يتردّدُ اليهِ او يأويهِ بقصدِ التجارةِ ما يجبُ عليهِ من الوظيفِ في فَردِهِ وجمعِهِ، فانقادَتْ اليهِ التجارُ من جميعِ الأجناسِ حيثُ تحقَّقَ لكلٍ منهم بالحصولِ على ربحِهِ ونَفعِهِ، فهو في غايةِ التحصينِ والتحسينِ والعمارَه، ضامنٌ لمُوافيهِ بالبركةِ والربحِ في التجارَه.

ولما ثَبتَ لدي أجناسِ الرومِ والهندِ فما دونَهُ: إنَّ المرادَ بهذا الثغرِ السعيدِ التضييقُ بالكفرةِ وغزو القريبِ منهُم والبعيدِ، وقَعَ في نفسِ طاغيةِ الاصبنيول مِـن ذلك ما وقعَ، حيثُ رأى ما آلَ اليه أمرُ الافرنصيص الذي تكسّرَ وانصدعَ،

---

(١) مدينةٌ اسّسَها السلطان محمد بن عبد الله واسقط عنها مـدة الرسوم الجمركيّة واستقدم اليها مـن فاس العلماء وارباب الصنائع والحرف

ولم يزلْ يطلبُ المهادنــةَ على بُعدِ بلادِه، ووفورِ أجنادِه، ومَعَ ذلكَ لا يجدُ شيئاً، وقد صار للمسلمينَ غنيمةً وفيئاً، ففكَّرَ وقال: لا مريَةَ إنَّنا أولى بمُصالحةِ المسلمينَ مِــنَ الغيرِ، والمهادَنةُ بيننا وبينهُم ضامنةٌ لكلِّ خيرٍ، فأسَرَّ ذلكَ في نفسِه، وجَعَلَ يُفكِّرُ في يومِهِ وأمسِه، كيفَ يقرعُ البابُ، وهل اذا خاطَبَ يُجابُ، وقد ضاقَ مِنْ ذلكَ صَدراً، وبَقِيَ يُقدِّمُ رجلاً في إعلامِ قومِهِ بذلكَ ويُؤخِّرُ أخرى

ومكثَ يُفكِّرُ في أمرِه، حافظاً لسرِّه، فاتفقَ لهُ إنْ وردتْ عدَّةُ كُتُبٍ من أسارى المسلمينَ، ومنها ما هو لمُطلقِ العامَّةِ ومنها لبعضِ الطلبةِ وعُلماءِ الدينِ، الكلُّ مِــنَ البلادِ الاصبنيوليه، واصِلَةٌ للحضرةِ العليّةِ، فقُرِئَتْ على مسامعِ سيِّدِنا الشريفَه، وتَمكَّنَتْ ضراعتُهم من سيادةِ سيدِنا الجليلةِ المنيفَه.

فلم يَلبثْ اعزّهُ اللهُ الاّ وقد امرَ لهم بصِلةٍ حَسَنَه، حَسْبَمَا هي عادَتُهُ الجميلةُ معهم في كلِّ سَنَه، اوكتبَ في الحالِ لطاغيةِ الاصبنيول!

امَّا بَعدُ فاقول: «إنَّا في دينِنا لا يَسَعُنا اهمالُ الأُسارى وابقاؤُهم في قيدِ الأَسرِ، ولا حجّةَ للتغافلِ عنهم ممن ولاّهُ اللهُ تعالى التصرفَ والأمرَ، وفيما نظُنُّ إنَّ في دينِكُمْ لا يَسوغُ لكم تركُ أُسراكُمْ في الأَسرِ، مَعَ الامكانِ والاستطاعه، ووجودِ ما يفتدونَ بــه مِنْ أُسارى المسلمينَ واتساعِ البضاعَه، فما للتغافلِ مــن الجهتينِ وجــهٌ والحربُ سجالٌ، في المبارزةِ والنزالِ، ولا مَسألَةٌ اعظمُ مــن هذا تعتَبرُ، ولا أمرٌ يُنتظرُ، كُلُّهُ هي اغفالكم عن البحثِ في أسارى المسلمينَ حتّى يتبيَّنَ لكم العالمُ بعلمِه، والجاهلُ بجهلِه، ثم تجعلونَ لاهلِ العلمِ حرمةً ومكانَه، وعزّةً وصيانَه، بحيثُ تُجعَلُ لهم علامةٌ يميزُونَ بها عن الغيرِ، حتّى لا يقعَ احدٌ فيهم بشتمٍ ولا بهضمِ حرمةٍ في مقامِهم والسَّيرِ، مثلَ ما نفعلُهُ نحنُ بأُسراكُمْ مِنَ الفرايليةِ (١) إن قدرَ اللهُ بأسرِهِمْ لا نكلفُهُم بخدمَه، ولا نخفِرُ لهم ذِمَّه، فعلى مالا تحترمونَ الرؤساءَ مِنَ الأُسارى ولا تعبؤُنَ بحاملِ كتابِ اللهِ، على انهُ افضلُ منهُم بدرجاتٍ عند اللهِ، ونطلقُ أُساراكم لا نحمّلُهُم مالا يطيقونَ، ولا نلزِمُهمْ ما عليه لا يقدرونَ، نتركُ مريضَهُم لمرضِه ونسمَعُ ضَراعتَهم وننصِتُ لما يقولونَ، فتأمّلْ في ذلكَ بنفسِكَ، واعملْ بمقتضاهُ وأمرْ بهِ ابناءَ جنسِكَ.»

فلما وَصَلَهُ الكتابُ، واستوعبَ ما تضمَّنَه من الخِطابِ، تيقَّنَ إنَّ ما أُمليَ عليه وأُمرَ به حقٌ وصوابٌ، فلم يُمكنْهُ بعدَ ان تأمَّلَ وأمعَنَ، الاّ أن امتثلَ وأذعَنَ، وبعثَ للحضرةِ العليّةِ مَنْ حَضَرَ لديه مــن أُسارى المسلمينَ على الفورِ، ونادى في قومِــه بالبحثِ عمَّنْ بقيَ مِــنْ أُسارى الايالةِ المولويةِ في المُدُنِ والقرى والنجدِ والغورِ، واجابَ بما فيه تلطفٌ واستِعطافٌ، واقرارٌ بتقصيرِهِ في شأنِ الاسارى واعترافٌ، وطلبَ الدخولَ في حرمةِ سيِّدِنا ايده اللهُ مثلَ ما تقدَّمَهُ من الأجناسِ، والزمَ نفسَهُ الطاعةَ والخدمةَ في الحركةِ والانفاسِ، وبثَّ ذلكَ في قومِه، وقرَّرَ لهُم مالم يصلوا لفهمِه، فانسوا بذلكَ وانشرحتْ لهُ صدورُهم، وقد اشتاقوا لما بَعْدَ الصبحِ قبلَ أنْ يتمَّ فيهِ امرُ أميرِهمْ، وصار يُحدِّثُ عن أمرِ المهادنةِ بعضُهُم بعضاً، الى ان شاعَ ذلكَ بالبلادِ الاصبنيولية طولاً وعرضاً.

ولما وَصلَ الأُسارى للحَضرةِ العليّةِ باللهِ، وبأيديهِم كتابُ الطاغيةِ مضمَّنُه أنّهُ على الخدمةِ والطاعةِ لما يأمرُهُ بِهِ مولانا المنصورُ باللهِ، وإنَّ مَنْ حَضَرَ لديهِ من أُسارى المسلمينَ يَبعَثُ به في الحالِ، وسيلحقُ بهم من بَقِيَ من اخوانِهم من غيرِ إمهالٍ، وإنَّ محبّتَهُ ثابتةٌ على اوثقِ أساسٍ، وإنَّهُ احقُّ بالخدمةِ عمَّنْ تقدَّمَهُ مِنَ الأجناسِ

فاجابَ سيّدُنا ايّدهُ اللهُ جواباً مُقدَّراً عن سُؤالٍ، دافعاً للهَواجسِ النَّفسيَّةِ في الحالِ: «امّا ما تقتضيه المُروءةُ والهِمّةُ العَليّةُ هو مقابلَةُ الخيرِ بمثلِه، وإنْ كانَ وقوعُهُ مِمَّن ليسَ هو مِن اهلِه وهــذا طاغيةُ الاصبنيول ذكَرْناهُ في شأنِ الأُسارى

---

(١) الفرايلية كلمة اسبانيّة Frailes : معناها الرهبان وتطلق على عامّة رجال الاكليروس معاً

فتذكّرَ، ووعظناه فاتّعظَ واستبصرَ، وظهرتْ منهُ علامةُ الإيجابِ لهذا الأمرِ المُعتَبرِ، وفعلَ أمراً غيرَ معهودٍ من جنسِهِ، مِنَ الإخلاصِ في الخدمةِ بقلبِهِ وقالبِهِ في معناهُ وحِسِّهِ، فقد وجبَ تأثيرُهُ عمّن تقدّمهُ من الأجناسِ المُصالحينَ وتأكّدَ تمييزُهُ عن جميعِهم بمُباشرةٍ جائزةٍ غيرَ ممنوعةٍ في الدينِ:»

فأمرَ اعزّهُ اللهُ بسراحِ جميعِ الأسارى مِن جنسِ الاصبنيُولِ في الحِينِ، وقدّمَ اثنين مِن الفرايليةِ كانا في الأسرِ منذُ حينٍ، وبعثَ لهُ بعدّةٍ مِنَ الأسُودِ، مُواصلةً نشأتْ عن محضِ الكرمِ والجودِ، واصحبهُم كتابهُ الشريفَ، مُعرّفاً بتسريحِ أسراهُم أتمَّ تعريفٍ، وأمرَ ببعثِ المراكبِ لحملِ أسراهُم اليه، صُحبةَ مَنْ يعيّنهُ للإتيانِ بهم وابلاغِهم لديه.

ووعدَ اعزّهُ اللهُ بسراحِ جنسٍ مِنْ غيرِ جنسِهِ، لتكونَ له بذلك مزيّةٌ بينَ الاجناسِ في يومِهِ وأمسِهِ، وقصْدُهُ بذلك أيدَهُ اللهُ إظهارُ المنّةِ على الطاغيةِ والتنبيهُ على انَّ المُسلمَ عِندَهُ اعزّهُ اللهُ واحدٌ في ذاتِهِ ونفسِهِ، سواءٌ كان مِنْ إيالتِهِ المباركةِ او مِن إيالةِ الغيرِ، اذ المساواةُ بينَ المُسلمينَ في دينِنَا واجبةٌ ومراعاتُهم اكيدةٌ في دفعِ الشرِ عَنهُم بحَسبِ الامكانِ وجَلبِ ما فيه منفعةٌ لهم وخيرٌ، وقد اكتفى ادامَهُ اللهُ بالإشارةِ للطّاغيةِ على يدِ حاكمِ سبتةَ اعادَها اللهُ دارَ إسلام

وكان الطاغيةُ وقومُهُ في غايةِ التشوّقِ لما يردُ من جوابِ مولانا الإمامِ، فكانَ وردُ الجوابِ من سيدِنا على الطّاغيةِ أعظمَ عيدٍ، سُرَّ بهِ من جنسهِ القريبُ والبعيدُ، وثبتَ قبولُ سيدِنا اعزّهُ اللهُ عليهم بالمُهادنةِ عن محضِ الفضلِ والكرمِ، واتّصلَ بهم ما وعدَ به سيّدُنا اعزّه اللهُ من تسريحِ جنسٍ غيرَ جنسِهِ إذ ولاّهُ المولى عليهِم من قِبلهِ الحكمَ، فعظمتْ عليه منّةُ سيدِنا العظيمَة، وملكتْ رقابَهم إجابتُهُ نصرَهُ اللهُ للمُهادنةِ الناشئةِ عن مواهبهِ الجليلةِ الجسيمَة

فشمّرَ الطاغيةُ عن ساعدِ الجِدِّ، وهيّأ هديةً بلغَ فيها غايةَ الجُهدِ، وعيّنَ لحملِها كبيرَ الفرايليةِ (١) واحدَ الفسيانِ واصحبَهُم كتابهُ طالباً لقبولِ هديتِهِ والاعترافِ بما تفضّلَ به سيّدُنا عن جودٍ وامتنانٍ، ووردتْ مراكبُهُم لحملِ أساراهُم فركبُوها، وحملوا معهُمْ الفرقةَ الموعودُ بسراحِها فاستصحبوها.

وفي جملةِ ما طلبَ مِن سيّدِنا المنصورِ باللهِ ان يتفضّلَ عليه ببعثِ أحدِ خدّامِ حضرتِهِ العليّةِ باللهِ ليطأ بالنعلِ أرضَهُ، ويستوعبَ من اقليمِهِ جُلّهُ وبعضَهُ، لأنَّ وفودَ البعضِ من خدّامِ سيّدِنا على بلادِهِ، ومرورَهُم بالمدنِ والقرى والفلواتِ بين رعيتِهِ وأجنادِهِ، يُعلمُ منه ويتحققُ قبولُ سيدِنا على هذا الجنسِ، ولم يبقَ لأحدٍ في المُهادنةِ شكٌّ ولا لبسٌ، فطرقَ سيّدُنا

---

(١) هو الاب برتولومي خيرون P. Fray Bartolomé Girón من رهبان الفرنسيسكان ترأسَ البعثة التي ارسلها كرلوس الثالث الى مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب لتمهيد عقد معاهدة صلح بين اسبانيا والمغرب وافتكاك اسارى الفريقين المتحاربين، فحظيت هذه البعثة بمقابلة السلطان في ٢ فبراير سنة ١٧٦٦ م ١١٧٩ هـ. فما كان من مولاي محمد بن عبد الله الا ان بعث بسفارة مغربيّة برئاسة احمد بن المهدي الغزّال، فابحرت تلك السفارة من طنجة فوصلت سبتة في ٢٥ مايو سنة ١٧٦٦ منتصف ذي الحجّة ١١٧٩ ثم تابعت سفرها الى اسبانيا فتجولّت في ربوعها وزارت اكثر مدنها وحواضرها وقراها، وكانت اينما حلّت موضع الاحترام والاكرام، قد تركت مدريد في ١٠ ربيع الاوّل عام ١١٨٠—١٦ أغوسطس سنة ١٧٦٦ مسيحيّة ووجتها (لا كرنخا) La Granja حيث قابلت الملك هناك في مصيفه واتفقت واياه على اهم بنود المعاهدة وأخذت طريق الأوبة الى الوطن في ٢٨ جمادى الاولى عام ١١٨٠ حاملة نتيجة المخابرات، وقد عرّجت في طريقها على كثير من الاماكن والمدن الاسبانيّة وصفها المؤلف في رحلته، امّا الضابط الذي رافق البعثة الاسبانيّة وذكره الغزّال بقوله: «فشمّرَ الطاغيةُ عن ساعدِ الجد وهيأ هديّةً بلغ فيها غايةَ الجهد وعيّنَ لحملِها كبير الفرايليّة واحد الفسيان:» (اي احد الضباط) فلم نتوفق الى معرفة اسمه

المنصورُ بالله تُحيطةَ وقال: «إنَّ ما طلبَهُ الطاغيةُ من بعثِ أحدِ خدَّامِنا لبلادِهِ هو منّا على بالٍ، غيرَ إنَّ اقتصرَ منّا مخالفٌ لما قصدٍ، مباينٌ لما ارتقبَ ورصدَ، وانما اهتمامُنا بذلك ما اوجبتْهُ الرحمةُ بأسارى المسلمين، وأكدتْهُ الشفقةُ على مَن هنالك مِن عبادِ اللهِ المؤمنين، وفيه تصريحٌ لما اشرنا بهِ للطاغيةِ مِن أنَّ المسلمَ عندنا واحدٌ، سواءٌ كانَ مِن إياليتِنا او من إيالةِ الاباعدِ، وان يتفقّدَ مَن عينَه لذلك احوالَ الأُسارى ويختبرَ أمورَهم ويستوعبَ حديثَهُم وأخبارَهم ويواصِلَهم بما انعمنا بهِ عليهم، ويؤنسَ وحشتَهم بالنظرِ اليهم، والحلولِ لديهم، وان يُذكِّرَ جميعَهم، ويَعظَ جليلَهُم ووضيعَهم، ويلقّنَهم انَّ الحياةَ مَطيةُ المَماتِ، والحياةُ الحقيقةُ هي من بعدِ الفواتِ، ولا نعمةَ بعدَ الإسلامِ، وانما الحياةُ اضغاثُ احلامٍ! حتى يستيقظوا من سِنةِ الغفلاتِ، ويتداركوا بموعظتِهِ إيّاهم ما مضى بما هو آتٍ، مِن المواظبةِ على ذِكرِ اللهِ تعالى وإداءِ الصلواتِ، وان يُحسنوا ظنَّهم باللهِ، ولا ييأسوا من روحِ اللهِ، فإنَّ انتظارَ الفرجِ عِبادَه، والرضى بقضاءِ اللهِ يعقبُهُ العفوُ والحصولُ على الحُسنى والزيادَه، وأن يحصيَ كلَّ واحدٍ باسمِهِ ولقبِهِ، واسمِ رئيسِهِ ومركبِهِ، ويُميّزَ مَن هو حاملٌ لكتابِ اللهِ من غيرِهِ، ويُنزلَ كلَّ واحدٍ على قدرِ قدرِهِ، ويواعدَ الأُسارى منّا بخيرٍ، وإننا إن شاءَ اللهُ لا نتركُهُم في ضيقٍ ولا ندعُهم في ضَنكٍ ولا ضيرٍ، والأشياءُ موقوفةٌ الى أجلِها ولكلِّ اجلٍ كتابٌ، ويحضُّهم على الصبرِ افانّما يُوفى الصابرونَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ!:»

فاجاب ايّدَه اللهُ الطاغيةَ لما طَلَبَ، وبَلّغَهُ من قَصْدِهِ الأملَ والاربَ، وعيّنَ لمواصلتِهِ عدةً مِنَ الإبلِ والعتاقِ مِنَ الخيلِ، حَيثُ حدَّثَ سفراؤُهُ بما له في ذلك مِنَ المحبّةِ والميلِ، وقدَّمَ لهذا الأمرِ المعتبَرِ، والغرَضِ المحتَّمِ بالعقلِ والنظَرِ، احدَ كُتّابِهِ، وخديمَ أعتابِهِ، وملازمَ ابوابِهِ، والمُحافظَ على أوامرِهِ في ذهابِهِ وإيابِهِ، راويةَ هذه الاخبارِ المرسومَه، ومُقيّدَها على الأمرِ المولَى غيرَ معتبَرٍ ما يتعلّقُ بها من الأمورِ المقررةِ المعلومَه:

غزّالُ امداحِهِ(١) والمضاهي لنجباءِ مُدّاحِهِ، لخلوصِ محبّتِهِ، وصدقِهِ في خدمتِهِ.

ولمّا حانَ وقتُ التشييعِ، ووصلَ إبانُ التوديعِ، لقّنَهُ ايّدَهُ اللهُ ما يكونُ عملُهُ فيما وُجّهَ اليهِ، وأمرَهُ بفعلِهِ وحضَّهُ عليهِ، مِنهُ ما تقدّمَ ذكرُهُ من حديثِ الأُسارى حَرفاً حَرفاً، وتقريرُهُ لديهم لفظاً ومعنى نعتاً ووَصفاً، ومنهُ ما هو مناسبٌ للملاقاةِ بالطاغيةِ ومخاطبَتِهِ لما يَسوغُ شرعاً، وتقتضيهِ الطريقةُ الاسلاميّةُ قولاً وفعلاً جلباً ودفعاً، والاعتناءُ بأمورِ الأُسارى هو المقدَّمُ والاكيدُ والانفعُ، وما عداهُ انما هو بحسبِ التبعِ.

وقد أمرَ نصرَهُ اللهُ باحضارِ سفراءِ الطاغيَه، وسألَهم هل بقيَ لطاغيتِهم مِن مطلبِهِ باقيَه، فاجابَهُ سيدُنا ايدَهُ اللهُ وفّاهم باكثرِ مِمّا طلبوه، وامتنَّ عليهم بما لم يقدروا على إداءِ بعضِ البعضِ منه او يقربوه، ودفعَ لهم من غيرِ جنسِهم مِنَ الأُسارى الساقطينَ في الأسرِ عدّه، وأمرَهم ايّدَه اللهُ بالرفقِ بهم في طريقِهم الى أن يصلوا لطاغيتِهم ويُلبثُ امرُهم عندَه، وإنَّ سيدَنا ابقاهُ اللهُ سرّحَهم مراعاةً لهرمِهم وعدمِ الانتفاعِ بهم، ولا فائدةَ في بقائِهم في قيدِ الإسرِ بعدَ التعطيلِ الاَّ مجرّدُ عذابِهم.

مِنَ الواجبِ عليهِ ان يُسرّحَ مِن أُسارى المسلمين مَن بلغَ مبلغَهم في الهَرَمِ والكِبَرِ، ولم تبقَ فيه فائدةٌ تُعتبَرُ، والمجازاةُ منه والمكافاةُ، الرفقُ بأُسارى المسلمينَ وأن يراعيَهم اتمَّ المُراعاةِ، وبَعثَ بالجميعِ ايده اللهُ مَعَ خديمِهِ المذكورِ، وأمرَهُ بمباشرَتِهم والرفقِ بهم في السيرِ الى ان يصلوا برَّهم في حبورٍ وبسطٍ وسرورٍ وتَشيّعَ الخديمُ مَعَ سَيدِهِ وسَندِهِ، وفي أحشائِهِ مِن مَرارةِ التوديعِ مالم يقدرْ على جلَدِهِ، وبانَ عنهُ ودموعُهُ تنذرفُ، وفكرتُهُ وفكرُهُ عن مشاهدةِ سيدِهِ لا تميلُ ولا تنحرفُ، وتصدّقَ لوداعِهِ الشرفاءُ والطلبةُ والحكّامُ، والكلُّ داعٍ له بتعجيلِ الأوبةِ في عزٍ واكرامٍ، والحُصولِ على كاملِ القصدِ ومنتهى المرامِ

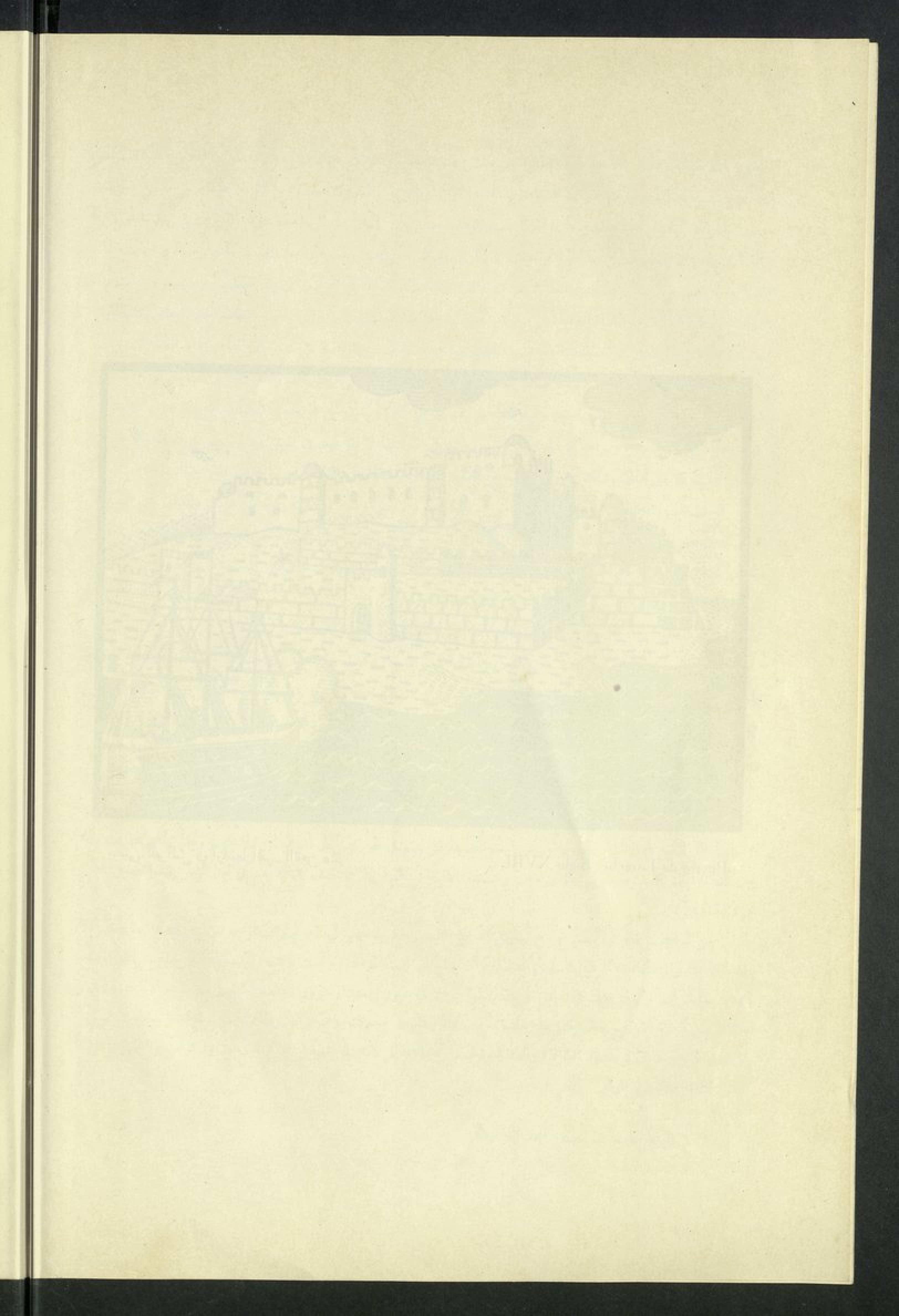
---

(١) تورية يقصد بها اسمه: احمد الغزّال



Puerto de Larache. Siglo XVIII.

مرسى العرائش في اواسط القرن الثامن عشر



وقد سافرنا في الحال مصاحبين السلامه، في نعم وافرة وخير وكرامه، قاصدين من مكناسة الزيتون ثغر طنجة بالأمر المطاع، مستعملين الخطا على ما أمرنا به من الرفق في المسير بالقوم من غير ازعاج ولا إسراع، فما عبرنا من سفرنا نحو ليلة ويوم، الأوهاجس طرق فكري احال بين الجفن والنوم، وزهدني في حديث من اسايره من القوم، ذكرني ما أمرت به من الجانب المولوي أسماه الله من أن اقيد في هذه الوجهة الميمونة ما سمعت ورأيت، ووعيت ودريت، وأحدث عما أشاهده من المدن والقرى، وأصف جميع ما ابصرته في الإقامة والسرى، فجعل الخديم ذلك بين عينيه واقامه مقام الواجب عليه ولم يزل يتشوق لما امامه، ليستعمل في تقييد ما يشاهده بنانه واقلامه، يستوعب من خير البلاد الاصبنيولية بعضه وجله، ويقتصر على ما شاهده في الإقامة والرحله، ولم يتعرض لما هو من طريق المؤرخين، من حشو مؤلفاتها بتكرار اخبار المتقدمين، يعمدون في ذلك على النقل، ويأتون بما هو مستحيل ومالا يجوزه العقل، ولا فائدة بالاتيان بما هو مقرر معلوم من الأخبار، ومحصوله الاعادة للاشياء بلفظها والتكرار، وقد جاء بما شاهده بالعيان، على قدر الاستطاعة والامكان

واستفتح ما جمعه بما يجب أن يتلى ويذكر، ويتضح به الاعلام وينشر، من السبب الموجب لهذه الرحله، المستحسنة من راويها حديثه ونقله، ذي الأصل فيها ما نشأ عن الجهاد، ومدارها على توابعه في الجمع والافراد، فجعل براعة استهلاله لما هو الاصل في نفس الأمر، وقدم السبب على المسبب في المقدمة حسبما يستحسن ذلك بشر ويسلمه زيد وعمرو، واي مقدمة ابرك وأسعد، وأسمى وأصعد، مما اشتملت على ذكر الجهاد وفضله، وإنابة مولانا المؤيد بالله واهتمامه باهله، فهو الباذل مجهوده للمجاهد فيما يعود عليه بخير، والكافل للأسير والمسرح بالامان في المقام والسير، واما ما بعده من الأخبار، فهو من جملة ما يتحدث به عن الاقاليم والأمصار، غير أنه لم يكن عن نقل وانما هو مشاهد بالابصار، وليسأل مقيده من مطالعه القبول والرضى، والنظر اليه بعين التجاوز والاغضا، فان الكرام تلتمس الاعذار، وتقيل العثار، وتستر العيوب فيما تبديه وتخفيه، والإناء ينضح بما فيه

ولما حللنا طنجه، ولم يبق الا عبور اللجه، اذ أمرنا بان يكون منها العبور والمجاز، ولا نقيم بها الا بقدر ما ترد علينا المراكب ونقطع للخيزرات عن فور وانجاز

اتصل بحاكم سبتة خبر ورودنا لطنجة في الحال، فكتب يتلطف في الطلب والسؤال، على أن نساعده في مراده، ونساعنه في قصده، وغاية مأمله أن يكون المجاز على بلده، لما له في ذلك من المزية عند طاغيته، وظهور الفائدة منه عند موليه في توليته، فاجبناه أن لا سبيل الى ذلك، حيث لم نؤمر بالعبور من هنالك، وحيث حصل على اليأس مما طلب، وتحقق عدم الحصول على الأرب، استعمل الحيله، وجعلها لمطلبه اعظم وسيله، فأمر رئيس المراكب الواردة علينا من قبله أن يظهر جزعا بعد ركوبنا في نفسه لهبوب رياح مخالفة لامله، وقد غلب عليه البحر، ولم يجد بدا من دخوله سبتة عن جبر وقهر، ولم تزل بحريته تصعد بجبال المراكب وتهوي، وتنشر قلوعها وتطوي، وهو فيما بينهم يأمر وينهي يحدث ويروي، وكأنه يعاني أمورا هائله، وطائفته في حركاتها مشفقة ذاهله، على أن البحر لم تحدث به فراتن يجزع منها، ولا تراكم امواج ينشأ الجزع عنها، وقد اعتمد في ستر حيلته على عدم معرفتنا باحوال البحر واموره، وما يحدث به من المعارض في ركوبه وعبوره، وانما خشي علينا مما عسى ان يقع، ولوى ترسيته بمرسى سبتة كأن مركبه انحل وانصدع، فجازيناه خيرا، وحمدت الله تعالى لسلامة الجميع سرا وجهرا، ونزهت نفسي عن تكذيبه فيما ادعاه اذ لا فائدة في كشف ما ستر بعد الوقوع، ولا مرية أن التغابي واجب عما فات تداركه في المندوب والممنوع، والمراد من ملأن الحيلة في الوصول اليه، والحلول بلدته والورود عليه، بذل مجهوده في إكرامه إيانا، وان نشاهد من إكرامه ما يدل على محبة طاغيته عيانا، لأنه مأمور من طاغيته بذلك، وقد شاهدنا مصداق ما حدث به لما حللنا هنالك، وهذا موجب دخولنا سبتة اعادها الله دار إسلام

وذلك بتاريخ منتصف ذي الحجة الحرام، عام تسعة وسبعين ومائة والف من هجرته عليه الصلاة والسلام.

الخبرُ عــن مدينةِ سبتَة

لمّا قربْنا منها أطلقَ حاكمها من المدافع العَدَد الكثير وأمَرَ باخراج الفلائك المفروشة بالقماش المَرقوم وشحنها بالفسيان وأعيان قومه وقصدت المركب الذي نحنُ فيه والكلُّ معلنٌ بالترحيبِ لفظاً وإشارة، فما كان من الاشارة نَزعُ الشماريرِ (١) مع عكس رؤوسهم أمامنا وما هو باللفظ: «الاعلان بنصر سيّدنا أيَده اللّهُ:» ولم يعرفوا من العربيّة غيره وحيث قربْنا من المؤمنين اللذين هُنالك سمِعنا ضجيجاً بالمدينة فاذا بأسوار المدينة وسُطوح الـديار مملوءةً نساء ورجالاً وصبياناً واصواتُهم مرتفعةٌ ولم نفقه ما يقولون

وقد برز لملاقتنا بساحل البحر خلقٌ كثيرٌ فسياناً وشلطاظاً وغيرهما مـن مطلق الناس مصاحبين لآلة الطرب، ولمّا اختلطنا بالقوم كشفَ الغيبُ ان الضجيج الذي كنّا نسمعه على بعدٍ هو الاعلان بنصر سيدنا ايده الله وقد ذهبنا في ازقّة المدينة في ازدحام عظيم والشلطاظُ والفسيانُ يذبّون عنّا ويردّون القوم يميناً وشمالاً بالسيوف المُصْلتة، ومع ذلك لم يزل القوم يميناً وشمالاً منكبة علينا محدقة بنا حتى وصلنا الدار المعينة لنزولنا، وهي دارُ طاغيتهم، ومحل ديوانهم وهي الآن دار متسعة ذات مقاعد وغُرَف ومنازه لها شراجيب مطلّة على بَراح(٢) يَسَعُهُ عشرة آلاف فاكثر، هو محل تسراد شلطاظهم في كل يوم وهذا الموضع له شبه بأزباكيّة مصر لاتساعه وإحاطة المقاعد به، والشراجيب(٣) والشبابيك المطلّة عليه من الجهات الأربع فمن احدى نواحيها دار الطاغية التي نحن بها وغيرها من ديار الفسيان والجهة المقابلة لها دارٌ عريضة في غاية الطول يسكنها الشلطاظُ ومــن الجهتين الاخرين كنائسُ صاعدات منهم ديور حاملة للنواقيس منها المسجد الذي كان للمسلمين ابقوا بابه على حاله وصومعته مبنيّة على قوس الباب وجعل اعداءُ الله بها ناقوساً، وفي احــد وجوه الصومعة المقابل للقِبلة آجرة مكتوب عليها ابركة محمد صلّى الله عليه وسلّم! وبداخل الباب خطٌّ مشرقيٌّ مــن عمل الجبّاص(٤) متلاشٍ وفوقه خطٌّ آخرُ محفورٌ في اللوح في غايــة الاتقان لم يحدث فيه تغيير مكتوبٌ فيه «النعمةُ الشاملةُ والعظمةُ الكاملةُ» والخطُّ مستديرٌ بالموضع الذي تدور فيه الباب، وعــن يمين الداخل اقواسٌ دائرةٌ بالصحن سُدّت بالبنيان وهي الآن بيوت يسكنها بعض ضعفاء الفرايليّة

---

(١) شمرير وشمريرو ج شمارير: قبعة وقبعات والكلمة من اصل اسباني: Sombrero

(٢) البَراحُ: المتّسع من الارض لا شجرٌ فيه ولا بناء.

(٣) الشرجب والشراجيب في لغة عامة فاس النوافذ والشُرَف امّا عامّــة المغرب الشمالي فتنطق بها بالسين فتقول سرجم . ج سراجم وسراجيم، وقصر الشراجيب متنزّهٌ مشهورٌ بناحية شلب وفيه يقول الأمير الراضي بن المعتمد بن عبّاد يخاطب ابن عمّار:

وسلِّم على قصر الشراجيب عن فتى له ابداً شوقٌ الى ذلك القصرِ

(٤) الجبص لغةٌ في الجِبسِ وهو الجِصُّ: جسمٌ حجريٌّ ابيضُ اللّون برّاق يُستعمل في البناء عوَض الكلس والعامة في المشرق تسميه جفصين وعامّــة المغرب تنطق به بالكاف السريانيّة فتقول كبص وكبّاص. والجبّاس اوالجبّاص هو صانع الجِبس اوبائعه ومستعمله والكلمة من الدخيل والاقرب انها مأخوذة من الفرنسيّة عن اللاتينيّة عن اليونانيّة: Gyps, Gypsum

وبالصحن ساريتان من الرخام المرقوم بالنحت وقد علاهما خطٌ مشرقيٌ ابلاه القِدَم وقد سُلِخَ بعض مواضع الكتابة ولم يبقَ الاَ لفظ أأمير المسلمين ابو سعيد بن احمد! فقط.

وقد بنوا بازاء هذا المسجد كنيسة متصلة به ومدخلها واحد فعبرنا الكنيسة فاذا هي قدر قرية متوسطة وبها من الفرايليّة عددٌ كثيرٌ وقد استوعبنا بالعبور جميعها، منها محل مصلاهم المشتمل على تصاوير وصلبان وغيرهم وهناك من المصابيح الذهبيّة والفضيّة والسناجق من الديباج والفُرُش والشليات المموّهة بالذهب شيءٌ كثيرٌ وبحيطانها الواحٌ معلقةٌ عديدة مكتوبة، فسألنا عنها فاذا هي «زمامات» اشتملت على مَن افتدي من أُسَاراهم من يد المسلمين من اوَّل الزمان واسماء الملوك من المسلمين المفتدى من ايديهم الكفرة، واسماء الفرايليّة المتوسطين في ذلك

وقد شاهدنا بعض مواضع داخل الكنيسة ما اظنُّ وصلها احدٌ من المسلمينَ قبلنا وهي مواضع دفنهم يسمونها ابيت الموت! وهذا البيت فيه عدَّة بيوت بعضها فوق بعض، وقدر كل بيتٍ ما يسعُ الميت مستلقى او على جنبه، فهم كالقبور غير أنَّ ابوابَ كل بيتٍ من هذه البيوت من جهة الرأس او الرجلين، وبيانها كمَن وضع صندوقاً فوق صندوقٍ مفتوح احد الطرفين، فاذا مات احدهم حشروه فيه واغلقوا عليه بالبُنيان وكتبوا عليه اسمه وصوَّروا فوقه صورة آدمي قد تلاشى لحمه ولم يبقَ الاَّ العظم وسمُّوا الصورة بالموت، وقد انفصلنا عنهم حامدين الله تعالى على نعمة الاسلام التي لا نعمة بعدها

ولما جنَّ الليلُ من يومنا سمعنا اصواتاً مرتفعة وضجيجاً بالابراج الذي بازاء الدار المسمى عندهم بالبلاصة، ففتحنا الشراجيب لنرى ما هُنالك، فاذا بجماعةٍ من النصارى عليهم ثياب سود وبايديهم فنارات مرفوعة على عُصِيٍ وامامهم رُقعة كتّان قدرها اربعة اذرعٍ طولاً وعرضاً مشبوحة بين عُصِيٍّ وفيها تصويرة بالرقم حاملٌ لها اثنان من كبارهم ذاهبين امام القوم وهم يقرؤُونَ ويتضرعون، فسألنا عن ذلك، فاذا بالنصارى هم طَلَبَةُ البلاد والتصويرة فيما يزعمون «السيدة مريم» وحملهم اياها ليلاً ومرورهم بها بازقَّة المدينة فيها كفَّارة الذُّنوب الصادرة من اهل المدينةِ في يومهم، ولهم على ذلك خراجٌ له بال

ولنذكر كيفيّة تسراد الشلظاظ في كل ضحوة بالبلاصة المذكورة على ما شاهدناه عياناً، فان نداءهم للتَّسراد ضرب النواقيس بضرب مخصوص فيه علامة للجمع ثم نداءٌ ثانٍ وهو ضرب الطنبور من البلاصة الى الدار التي بها الشلظاظ وهم يضربون ليأتوا امامهم لمحل تسرادهم ومبلغ العسكر الذي يُسَرَّدُ كل يوم خمسمائة تظلُّ في عسَّتِها وتمسى، ومن الغد تسرَّد خمسمائة اخرى ثم تذهب للعشيّة وتستريح الخمسمائة الاولى، وكلّما ظلَّت الخمسمائة وأمست في عسَّتِها تُفتدى بها من الغدِ بمثلها، وتقدمهم للتَّسراد على حالة هي من العَجَب بحيث يأتي الشلظاظ في اثر اصحاب الطنبور على ثلاثة صفوفٍ آخر مثل الاوَّل ثم مثل الثاني، وهكذا الى تمام الخمسمائة وقدر ما بين الصفوف من التوسُّع والصفوف التابعة لها قدر ما اخذوا نصيبهم من الارض، فلو فتح ضابط وقيسَ به ما اخذت اشباحُ الصفوف وما تركت من الوسع الفاصل بينهما وبين التابعة لها لوجدتها واحدٌ لا يزيد القدر المعمور على الفارغ قدر اصبع وذلك مما يتعجَّبُ منه، والموكَّل بتسرادهم امامهم على فرسه اذا أمر بتحريك عِدَّتهم او ما يتعلق بأمور التسراد من تقديم او تأخير اجابوه اجابة رجل واحد

والمدينة ثلاثة اسوار: اثنان داخل القنطرة المضروبة على رجل البحر(١) المحدق بالمدينة، والثالث خارج القنطرة، والباب الذي هو متصل بالقنطرة هو اكبر الابواب، داخله قنطرة من اللوح مثل القنطرة الخارجة عنه مرتفعة، فاذا نزلت للارض من داخل الباب فهما ككفتي الميزان، فاذا جنَّ الليلُ وسُدَّت الباب يرفعون القنطرة الخارجة بنزول الاخرى داخل الباب زيادةً في التحصين

---

(١) رِجلُ البحر: خليجهُ

ولهذه الاسوار ابراجٌ كالشواهق، ومـن خارج السُّور حفيران وارشاف واعربات(١) ومخادع يهرعونَ اليها من باطن الارض، وابوابها داخل المدينة، وباحـد ابواب المدينة اثر كُرَةٍ خرقت الباب، واصلها مـن رمي المسلمين على عهد مولانا اسماعيل رحمه الله(٢) ابقوها على حالها، على أنهم اذا حـدث لهم شيء في سور او باب بادروا لاصلاحه، واثر هذه الكُرَة تركوه واجمعوا على بقائه تذكرة لهم، وسمّوا الباب «باب الكُرَة» وما زالوا يتحدثون بها، وكلُّ مَـن وَلَدَ له ولدٌ وعقل يذهب به والده للباب، ويلقّنه ان النقب الذي بالباب هو من رمي المسلمين ليربى على عداوة الاسلام

ومن ذلك الزمان هم مجدُّون في العسَّة والحراسة الى الآن، ومما يتعجَّبُ منه ان العسَّة داخل ابواب المدينة لا ينامون ولا تفارقهم عدَّتهم على ماهم فيه من التحصّن خوفاً من الاسلام، اما العسَّة خارج المدينة هي في الغُراب(٣) والارشاف والسُّور الموالي للبر وفائدته ونتيجته بيّنةٌ ظاهرة فاي فائدة للعاسِّ داخل الابواب الموالية للمدينة، والابوابُ مغلقةٌ امامه وخلفه ومبيته على قَدَمٍ ويده على زناد مكحلته(٤) متهيّء لاخراجها؟ فهذا والله دليل على ما هم فيه من الجزع والفزع، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب والبسهم ثوب الروع والخذلان

ومن جملة ما رأيتُ من خوفهم مـن الاسلام ان ضربوا حبلين رقيقين من اعلا سور باب المدينة الى البرج المقابل له من خارج، وجعلوا في الحبلين ربيعة صغيرة جداً لسرٍّ في ذلك، وهو: اذا حدث امرٌ ليلاً خارج الباب يَكتب به صاحب العسَّة المعيَّن لذلك ويجعل الكتاب داخل الربيعة فَيجذبُها اليه العاسّ الذي داخل الباب، ويذهب بالكتاب لحاكم البلاد في ايِّ وقتٍ كان من الليل فيجيبُ بما يظهرُ له في الوقت ولا يُؤخر الأمر المحدث الى الغَدِ خشية التفويت، وديارُ المدينة صاعدة في الجوّ،

---

(١) هكذا في الاصل

(٢) حاصر مولاي اسماعيل سبتة وضربها بعدما استرجع العرائش من الاسبان وفتح آصيلا، سنة ١١٠٢هـ ١٦٩١م.
جاء في كتاب الاستقصا لاخبار دوَل المغرب الاقصى مانصه: «ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا الى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها وامدهم السلطان بعسكرٍ مـن عبيده وأَمرَ قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة وكذلك أمر أهـل فاس أن يبعثوا بحصتهم اليها فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفاً، وتقدّم السلطان اليهم في الجدِّ والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحاً ومساء وطال الامد حتى ان السلطان رحمه الله اتهم القواد الذين كانوا على حصارها بعدم النصح في افتتاحها لئلاً يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عـن بلادهم مع أنهم قـد سئموا كثرة الاسفار ومشقات الحروب واستمرَّ الحالُ الى أن مات القائد ابو الحسن علي بن عبد الله الريفي وولي بعده ابنه القائـد ابو العبَّاس أحمد بـن علي والقتالُ لا زال والحالُ ما حال، وفي كلِّ سنة يتعاقب الغزاة عليها والسلطان مشتغلٌ بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم ولم يهيء الله فتحها على يديه

ودارُ القائد احمد ومسجده اللذان بناهما بازاء سبتة أيام الحصار لا زالا قائمي العين والأثر الى اليوم

حكى الغزّال في رحلته: أنه رأى باحد ابواب سبتة خرقاً قديماً لم يصلح فسأل أهلها عنه فقالوا: «انه مـن اثر الرمي الذي كان يرميه الجيش الاسماعيلي وهو اثر كُرَةٍ خرقت الباب ونفذت الى داخل البلد وتركناهُ على حاله ليعتبر به من يأتي بعدنا ويزداد احتياطاً وحزماً:» او كلاماً هذا معناهُ والله تعالى اعلم

(٣) الغُرابُ: نوع من السُّفُن الرواكد القديمة والمراد بها العوائم الخشبية المستعملة لمراقبة الشواطي.

(٤) نوع من البندقيات المغربيّة ويقال لها ايضاً: ام كحلة

لها مقاعدُ استوعبها شراجيب مطلّة على الازقّة، ونساؤهم ملازمون للشراجيب يُسلِّمنَ على الذاهب والآيب ورجالهنّ في غاية الأدب معهنّ

والنسوة رغبةٌ وغبطةٌ في الحديث والمنادمة مع غير ازواجهنّ في الجماعة والخلوة ولا حجرٌ عليهنّ في ذهابهنّ حيث شئنَ وقد يأتي النصراني داره فيجد امرأته او بنته او اخته مع نصراني غيره اجنبي يشربون ابعضهم متكيءٌ على بعض! فينشرح لذلك ويرى الجميل للنصراني المنادم لزوجته او غيرها من محارمه على ما قيل، والذي يؤيد ذلك ما شهدناه من اعيانهم حيثُ حللنا بلادهم من استأذانهم على دخول نسائهم علينا بقصد السلام، وذلك عندهم بالأمر الاكيد المحتّم، فلم يسعنا الاّ الايجاب، فدخل علينا عدة منهنّ وجلسنَ على الشليات،(١) وقد تزينّ ولبسنَ افخر الثياب، وما زال الترجمان يترجم على لسانهنّ بالسلام والترحيب، فنردُّ عليهم بما لا بدَّ منه، وجعل الازواج كل واحدٍ يعرِّف بامرأته وبنته واخته ان كانت، ولا يكمل فرحه الا اذا استحسنت زوجته او بنته

وفي الغد طلب منا الحاكمُ الوصول اليه لداره واتى باكداش(٢) ركبناها وذهبنا اليه بطريق طويلة عريضة جداً لبعدها من المحل الذي نزلنا به، وعن يمين المار اشجارٌ مصطفةٌ لا ثمار لها، وانما جعلوها للظّل فقط، وعن اليسار سورٌ متصلٌ بالبحر حاملٌ لعددٍ من المدافع

ولما وصلنا دار الحاكم تلقانا بالرحب والسعة وبالغ في الاكرام وظهور البشاشة، وجعل يحدّث عن أمورٍ كانت في نفسه وقد احسن العبارة حتى اداّها بلطافة، فأُجيب عن جميعها بالمعقول، فاذعن وامتثل، ولا مرية انّ لسانَ المرء دليلٌ على عقله! وهذا القائدُ رجلٌ مسنٌ جداً، وعقله ثابتٌ في أمور دنياه، وله تدبيرٌ فيما هو مكلّف به

وصف مستشفى سبتة

وحيثُ انصرفنا عن الحاكم رجعنا من غير طريقنا اختلاساً من القوم المنتظرين أوْبتنا بالطريق الاولى، وقد عثرنا على باب في غاية العلوّ والضخامة، محمول قوسها على اربعة سواري من المرمر، وبين كل ساريتين صورة آدمي واقفٌ على قدميه من الحجر فاذا هو باب الأُسبيطال(٣) الذي تُعالجُ فيه مرضاهم، فعبرناه فاذا به عدّة بيوتٍ مستديرة بصحنه، وبالصحن اشجارٌ عديدة، اذ كان في غاية الطول والعرض، والبيوت منها ما هو معمور بالأدوية: معاجنٌ واشربتٌ وادهانٌ، واوعيةُ الأدوية محمولة على مرافع من الارض الى السقف، وبيوت اخرى مملوءة بالاعشاب، ثم بيوت يسكنها القائمون بمؤون المرضى من الطبخ والنفخ والمباشرون لهم في جميع أُمورهم، وباقي البيوت بالطبقة السفلى هي خاصة بالمرضى من اهل البَلْغم(٤) والعياذ بالله، وبالطبقة العُليا مقاعد ممتدَّة، نافذة بعضها لبعض على الجهات الأربع، وقد استوعبها سرائرٌ حاملة للمرضى، كل سرير بينه وبين الذي بجنبه قدر ما بين المباشر لهم، وكذا المقابل له في كل مقعدٍ من الاربعة، وفراش ووسادة وما يغطّى به، ولباسهم الذي كان حال

---

(١) شليات: ج شلّية كلمة مستعملة عند عامّة المغاربة وهي من اصل اسباني Silla اي كرسي

(٢) كودشه: لفظة اسبانيّة معناها العَرَبَة فقد جمعها المؤلّف على اكداش Coche P: Coches:

(٣) الأُسبيطال: هو المستشفى والكلمة من الاسبانيّة Hospital

(٤) البَلْغم: خِلطٌ من اخلاط البدن الاربعة وهو خمسة اقسام: حلوٌ ومالحٌ وتَفِهٌ وزجاجيٌ وجصيٌ: معرَّب فَلِغما باليونانيّة ومعناها التهاب

الصحة مؤمَّنٌ عند القيِّم، ولباسُ العلاج معيّنٌ من الاوقاف، يلبسونه عند دخولهم الأُسبيطال، فاذا عُفيَ الشاكي يلبس ثوبه المؤمَّن وينزع عنه ثوبَ العِلاج فينقى ويدخر لغيره، والأُسبيطال لا ماء به فهو كغيره من ديار المدينة وليس هناك الاَّ الآبار

* * *

وقد شاهدنا داخل احد ابواب المدينة ماء يأتي مـن ناحية رباط المسلمين وليس بها ماء جارٍ غيره على ضعفه وقلته، وعن يسار القِبلة جبلٌ مطلٌ على البحر قريب من سور المدينة جداً بنوا به داراً وجعلوا بها عسَّة لارتفاعها، وشيَّدوا تحت الدار سوراً في غاية الطول، وسمُّوا هذا الموضع «بالقَصَبة» وعن يسار هذه القصبة ربوة بنوا بها ايضاً داراً هي معدَّةٌ عندهم للنزهة وبها كنيسة صغيرة يذهب اليها فقهاؤُهم كل يوم احدٍ يُصلُّون بها

وكانت مدة اقامتنا بالمدينة ستة ايام، وكنا في ايام الاقامة نتعاهدُ الاماكن التي بها المجاهدونَ المرابطونَ على المدينة تبرُّكاً بها، فنخرجُ من الباب المقابلة للمرابطين التي بها الخمسمائة من الشلظاظ فنجدهم واقفين على قَدَم في عسَّتهم والمسلمونَ في مقابلتهم بنحو الاربعين نسمة وقدْرَامهُمُ المسلمُونَ في البرِّ حتى انَّ بينهم وبين سور المدينة قدر الرمي بالحجارة

فانظر عزَّة الاسلام وهيبة الله تعالى التي القاها على عباده المؤْمنين، حتى ان حاكم سبتة طلبَ منا ان نتكلّم مـع المجاهدينَ على أن يتركوا رعاة ما شيتهم يسرحونَ قرب موضع رباطهم بقليل، وقد اشتكى من التضييق به في الرعي، فتكلمنا مـع المجاهدينَ في ذلك فحصل مِنهم الايجاب رعياً للبَكِيَة ورحمة بها لقوله صلى الله عليه وسلّم «انَّ في كُلِّ ذي كَبدٍ رَطْبٍ حسنة او اجرا» ! كما قال عليه الصلاة والسلام !

وفي الأَحدِ والعشرينَ من ذي الحجة من عام تاريخه، ركبنا من مرسى سبتة قاصدين الخزيرات(١) وقد حضر لتشيعنا خلقٌ كثيرٌ خاصة وعامة، واخرجوا من المدافع ما اخرجوه عند الملاقاة، واخذنا في العبور، فما بعدنا عن المرسى بقليل، الاَّ وهبَّت رياحٌ غير موافقة لعبورنا، نشأَت عنها فراتن عظيمة، حتى يئسنا الحياة، وتحققنا الغرق، ومكثنا على هذه الحالة التي يشيب لها الرضيعُ، من تقلّب الجفن ودخول الماء عليه مـن الجهتين ما يزيد على ثماني ساعات، والمسافة المعلومة المعبورة التي بين سبتة والخزيرات مسافتان فقط(٢) وقـد حفَّت بنا الالطاف مـن الله تعالى، وحضرت معنا بركة مولانا المنصور بالله، وحصلنا على النجاة والحمد لله

الخبرُ عـن مدينةِ الخزيرات

لما رسينا بمرساها برز لملاقاتنا بشطِ البحرِ خلقٌ كثير، واطلقوا عدَّة من المدافع وبعث حاكمُ البلاد عدَّة فلائك بعد ان زيّنها بانواع الديباج، وركب فيها اعيان قومـه، فتلقونا بالرحب والسعة، وقـد اقتفوا اثرَ صاحب سبتة في البشاشة والاكرام، ونزلنا بدارٍ هي مـن خيار ديار المدينة، وحاكمها شاهدنا من ميله للمسلمين مالم يكن في غيره، وكذلك قاضيهم، واعيان الفرايلية، ولم يصحب احداً منهم تقصيرٌ، وما زال القوم يتردَّدون علينا الى الليل من يومنا، فتهيأْنا للنوم

(١) هـي الجزيرة الخضراء فقد حرفها الاسبان، فابدلوا الجيم بالخاء لعدم وجود هـذا الحرف في لغتهم وقالوا الخزيرا والخزيرات: Algeciras

(٢) المسافة بعرف البحَّارة هي: ساعة ونصف الى ساعتين

ظناً منا انهم يؤخرون زيارتنا الى الغد لاقبال الليل وادبار النهار، فلم نشعر الاّ والقاضي والحاكم واعيان الفسيان، قد اقبلوا علينا بعد العشاءين، معلنين بالترحيب والسؤال عن الحال، وهل استرحنا من الميد الذي المّ بنا من فراتن البحر. الى غير ذلك من السؤال الذي فيه ثقل على النفس، وفي الوقت لم نجد بداً من مباشرتهم مع ما نحن فيه من التعب وبقايا بعض الميد وانحراف المِزاج، ثم قال الحاكم وشاركه القاضي في قوله: ان ورودنا عليكم الآن لأمرين: الاوّل تعهدكم واختبار احوالكم بحيثُ اذا عرضت لكم حاجةٌ نفوز بقضائها، الثاني الاستئذان على دخول نسائنا وابنائنا وبناتنا ليسلمنَ عليكم مع نسوةٍ جِئنَ معهنَّ من اعيان نساء الفُسيان بقصد رؤيتكم والسلام عليكم ولا يدخلنَ الاّ ان اذنتم لهنَّ وهنَّ بالباب ينتظرون ما تأمرونَ به، فكان جوابنا ان قلنا لهم: «نحن ضيوف عندكم ليس لنا أمرٌ من شيء. فما رأيتموه صواباً وهو عادة عندكم لا نجبركم على تركه ولا علينا فيه ثقل: » فانشرحوا من جوابنا غاية الانشراح

ونهض بعض الفسيان يناديهنَّ فدخلنَ بعدد كثير نساء وابكار، ومن دونهنَّ في السن، الجلُّ في غاية الحسن، وقد لبسنَ ما حسن من الثياب وجلسنَ على الشليات، وقد بالغوا في الترحيب بنا اكثر من رجالهنَّ «على لسان الترجمان» وجعل كلّ يعرّف بزوجته وبنته، القاضي والحاكم فما دونهما، وقال القاضي: «ايُّ امرأةٍ في النسوة الحاضرات ترضيك ومن فيهنَّ احسن واجمل من الاخرى: » وقصده بالسؤال المباسطة والمداعبة، فاجبته بما فيه جبرُ خواطرِ الحاضرين من النساءِ والرجال، بقولي: «إنَّ هذا المجلس هو بستانٌ، والنسوة التي به اصناف النوار، وللناس فيما يعشقون مذاهب: » فاستحسنوا الجواب، وفرحت بذلك النسوة، وانشرح ازواجهنَّ حيث لم يحصل تفضيل لاحداهنَّ على الاخرى، ثم اشار القاضي الى ثلاث بنات مراهقات في اجمل صورةٍ ان ينشدنَ، فاذا باصواتهنَّ ارقُّ من الرباب، ما سمعت مثلهنَّ قط، وقامَ كلٌّ من بالمنزل من النسوةِ يرقص، وكيفيّة رقصهنَّ: كلُّ ذكرٍ مع انثى دائرين في المحل، والنسوة يدخُلنَ ويخرجنَ بين الرجال في الدائرة احياناً ثم يرجعنَ في مقابلة الرجال، فيأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه، ثم يفترقان ويتأخر الرجلُ عن المرأة القهقرى، ثم يقصدها ايضاً وتقصده حتى يجتمعا على الصِفة المذكورة، وهكذا يفعل كل ذكرٍ مع انثى المعيّنة للرقص معه، وحين تعيّن الانصراف، قال القاضي والحاكم والجماعة: «هذه الفرجة والنزهة تعظيماً لكم وفرحاً بهذا الصلح الذي تفضّل به علينا سلطانكم وامتنَّ به على سلطاننا نسأل الله تعالى ان يجعله دائماً: » وانصرفوا عنّا ونحن نحمد الله على نظافة ديننا وطهارته.

ولنذكر صفة المدينة وما اشتملت عليه من الأشياء: بناءات وغيرها، فنقول باختصار: المدينة فسيحةُ الشوارع، متسعةُ المسالك، مرصّفةُ الازقّة، ديارُها متقنة في البنيان، غير أنه غير شاهق، وسطوح الديار لم تكن منبسطة، مسقفٌ جميعها بالقرمود(١) ولم تكن بها دارٌ شاهقة، الاّ ديار الفرايلية، والديور الحاملة للنواقيس، والمدينة لا سور لها، ومن ناحية غربها وادي قريبٌ منها جداً، مضروب عليه مجاز متوسط، وبازائه ارجاء واجنّةٌ وبحائر، ولا ماء بالمدينة الاّ الآبار، وشرابهم من الوادي لقربه وجودته

وعن يمين مرساها داخل البحر جزيرةٌ صغيرة شيّدوا بها بيوتاً للعسّة، هي مقابلة لجبل طارق وعن يسارها مدينة سرنْكي(٢) في وسط المسافة التي بين الخزيرات وجبل طارق، وبحسب مرأى العين ان المدن المذكورة قريب بعضها من بعض جداً

ومن غداة رواحنا للخزيرات ورد على حاكمها كتاب طاغيته، مخبراً انه بعث بخمسة مراكب لمرسى سبتة لملاقاتنا

---

(١) لغة في القرمَد اوالقرميد وهو الخزف المطبوخ: الآجرّ

(٢) هكذا في الاصل وإنَّ المراد بها: سان روكه San Roque وهي بلدة من اعمال قادس على شاطيء المتوسط

بها لنعبر عليها البوغاز، فاذا قطعنا قبل ان تصل مراكبه أمره باقامتنا عنده ثلاثة ايام في انتظار الخيل المبعوثة من عنده في البر للملاقاة، فاذا فاتت ثلاثة ايام ولم تصل الخيل فليبعث من خيله ثلاثين فارساً تصحبنا في طريقنا، والبلاد التي تتلقانا فيها خيله يكون منها رجوعهم لموضعهم، فركب معنا صاحبُ الجزيرات من خيله ما أمره به طاغيته بعد الإقامة المأمور بها

فسافرنا مصاحبين السلامة قاصدينَ مدينة طريفة، فعبرنا اليها على اثني عشر ميلاً، بين جبال صعبة، ذات اشجار وخنادق، لها شَبَهٌ بالجبال المرموشيّة، واشجارها: البلّوط(١) والسّيت(٢) والدّلم(٣) والصَّفصاف(٤)، كلّها في غاية العلو والغلاظة، ولم يكن مثلها بالبلاد الاصبنيولية على ما قيل

الخبرُ عن مدينةِ طَريفة(٥)

هي مدينةٌ مشيَدَةٌ على شطِّ البحر، لها سورٌ من عَمَل المسلمين رحمهم الله وبأرجائها من الأَجنَّة مالا يأتي عليه الحصر جلُّها اشجار العِنَب، وقد برز لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ شلظاظاً وفسياناً وعامّة القوم وفعلوا ما فعله من قبلهم من اخراج

(١) البَلّوط: شجرٌ كبيرٌ جميل والمنظر غليظ الساق متين الخشب يعرف بالسنديان وبالعفص ايضاً، والبَلّوط يطلق على الثمر والشجر معاً ويسمّى المستدير الثمر منه بالسنديان والمستطيله بالمُلول ويسمّى بالاصطلاح العلمي Quercus وبالاسبانيّة Bellota

(٢) السِيت: لعله تحريف والاقرب انه السِيب وهو نوع من التُفّاح اوانه اراد السَّياب: البلح اوشجره، اوانه أخذ الكلمة من الاسبانية: سيستو Cisto: نوع من شجر اللاذن وهو كثير في البلاد الاسبانيّة. اما السّيت فلم نجد له اصلاً في علم النبات

(٣) الدّلم ويقال له الدُلب: شجرٌ عظيمٌ عريضُ الورق لا زهر له ولا ثمر ومنه نوع يُستَخرج من قشره الفلّين وهو كثير الوجود في المغرب الشمالي وفي البلاد الاسبانيّة ويسمّى بالاسبانيّة Alcornoque وبالاصطلاح العلمي: Casnus, Chaisnus

(٤) الصَفصاف: شجرٌ كبيرٌ ينبت على ضفاف الانهر وفي الاماكن الرطبة وقيل هو الخِلاف ويسمّى بالاسبانيّة: Alamo وبالاصطلاح العلمي Populus

(٥) طريفة: مدينة من عمالة قادس على شاطيء الاقيانوس غرب البنتسولا الإيبيريّة في فم المضيق المقابل لمدينة طنجة في الشاطيء الافريقي، غزاها ابو ذرعة طريف بن مالك النخعي بجيوش المغرب عام ٩١هـ. وذلك تمهيداً لغزوة طارق المشهورة

ولطريفة صفحات خالدات في سجل تاريخ انقلابات الأمم كُتِبَ بعضها بفرند السيف والبعض الآخر بالقلم ودم القلب:

استولى عليها سنكسو الرابع Sancho ملك قشتالة وليون ونزعها من يد العرب سنة ١٢٩٢م، وقد حاول الفرنسيّون الاستيلاء عليها في حروب نابوليون سنة ١٨١١—١٨١٢ فاخفقوا

وفي تاريخ اسبانيا يُقرن اسم طريفه باسم غوسمان الصالح Guzmán el Bueno حاكم طريفة من قبل سنكسو الرابع ومن حديثه الغريب: انّه لما تارضون خوان شقيق الملك سنكسو على اخيه وأخذ ينازعه الملك عاهد العرب وهاجم طريفة بجيوش المسلمين، فتحصّن غوسمان في حصنها وامتنع، فوقع ابنه في يد ضون خوان وكان خارج الحصن، فتهدده هذا قائلاً: «أمّا ان تسلّم الحصن وأمّا قتلتُ ولدك:» فابى التسليم وقُتِلَ الولد! فقد تغنى كتبة الاسبان وقصّاصيهم في تدوين هذه الحادثة، فكتبوا الروايات وبنوا حولها الاساطير حتّى اختلطت الحقيقة بالخيال

وقد سَجّلَ تاريخ جاهليّة العرب حادثاً قريب الشبه بالذي ذكرناه وهو: إنَّ امريء القيس الكندي كان قد استودع السموأل بن عاديا. اليمني دروعاً لمّا خرج الى القيصر يوستنيانوس الثاني ملك الروم، ثم مات في الطريق، فجاء الى السموأل الحارثُ بن أبي شمّر الغسّاني احد ملوك الشام المعروف بالاعرج وطلب منه الدروع لانها كانت من افضل دروع العرب، فلم

المدافع والمحارق(١) وقد حالَ الازدحامُ من القوم بيننا وبين المدينة، ولم تنل جهداً الخيل المصاحبة لنا مع ما أُضيف عليها من خيل المدينة في مدافعة الناس عنّا بالسيوف، ولم تجد شيئاً، ودخلنا المدينة في ازدحامٍ عظيم، ونزلنا بدارٍ فسيحة الفناء محكَمةُ البناء ذاتَ مقاعد وغُرَف، وديار المدينة غير بعيدة من ديار الجزيرات، وقد شقّ المدينة نهرٌ غير جارٍ في الوقتِ وفي بعض مجراه ماءٌ راكدٌ مُنتنٌ، وعلى الوادي عدّة قناطر يُعبرُ عليها لها شبهٌ بقناطر قصر كُتامة، وفي عشيّة يومنا جاء الحاكم والفرايلي المصحب لنا لنذهب معهما للقصبة التي هنالك وهي من عمل المسلمين

وقد كنت سألتُ عن ذلك قبل، فمررتُ بازقّة ضيّقة فقيل لي: انّ هذه الازقّة والديار يميناً وشمالاً هي من عمل المسلمين لم يحدث فيها تغيير

ولما وصلنا القصبة وجدناها باقية على ما تركها المسلمونَ رحمهم الله: لها من الابراج ثمانية عشر وقدر ارتفاع السور والابراج عشر قامات وفيما بين البرج والذي يليه في نفس السور آجُرٌ(٢) مزدوجٌ مرقوم، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة وقدر مساحةِ الزّليج المذكور اربعة اذرع طولاً وعرضاً، وبناء هذه القصبة من الحجر المنجور الشّبيه بالرّخام وباعلى بابها رخامةٌ مكتوبٌ عليها بخطٍ كوفي: «بسم اللهِ الرحمانِ الرحيم وصلّى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آلهِ وسلّم تسليماً، أمَرَ عبدُ اللهِ عبد الرحمان الداخل أمير المؤمنين . . .»: وما بعده ممحو وقد مرت صقالةٌ من القصبة المذكورة لناحية البحر بنحو ستين خطوة تنتهي الى برج في غاية الطول والعرض بهخمسة مدافع احدها من النحاس مصورٌ عليه أفعى من اثني عشر شبراً واربعة من المدبر(٣) من اربعة وعشرين كلها للمسلمين، وفي مقابلة هذا البرج جزيرة في وسطها برج من عمل النصارى

يسلمها اليه فغزاهُ وحاصرهُ في حصنٍ له يُعرف بالأبلَق، ثم وقع ابن السّموءَل في يده وكان خارجاً من الحصن، فتهدده بقتله وناداهُ: «أمّا ان تسلّم الدروع وأمّا قتلتُ ولدكَ:» فابى ان يسلمها، فضرب الحارثُ وسط الغلام فقطعه وابوهُ يراهُ وانصرف.

فجاء السّموءَل بالدروع الى ورثة امريءِ القيس ودفعها اليهم وانشد يقول:

وفيتُ بأدرُعِ الكنديّ إنّي	إذا ما خانَ أقوامٌ وفيتُ
وأوصى عادياً يوماً بأن لا	تهدّم ياسَموءَلُ ما بَنيتُ

والقصيدةُ مشهورة في الأدب العربي

هذا اوانّه قد اصبح من الحكم المقرر ان لبعض ظواهر الحياة تأثيراً واحداً في البشر على السواء مهما تنوّعت نزعاتهم وشخصيّاتهم وان التاريخ سلسلة حوادث واحداث يحرك دائرتها لولب الانفعالات فيعيدها على محورها! وهذه هي حادثة الجنرال موسكردو El General Moscardó في عصرنا هي نفس الحادثتين السابقتين: حاصرته جيوش الميليشيا الحمراء في حرب تحرير اسبانيا فتحصّن بقصر طليطلة مع طلبة المدرسة الحربيّة، فوقع ولده في يد العدوّ وكان خارج القصر فخاطبه رئيس الميليشيا بنفس العبارة التي دونّاها: «أمّا ان تسلّم القصر وأمّا قتلنا ولدك:» ففضّل الجنرال أن يرى ولده مضرجاً بدمائهِ من أن ينكث بعهده ويخون وطنه، وقد خَرّجَ ارباب الفن السينمائي من هذا الحادث شريطاً مُثِّلَ على الشاشة البيضاء في هذه الايام بعنوان: «لا جديد في جبهة القصر Sin Novedad en el Alcázar».

(١) المحارق: الاسهم النارّيَة Fuego artificial,

(٢) الآجُرُّ جمع آجُرّة: ما يبنى به من الطين المشوي وتسميه العامّة القرميد

(٣) المُدَبّر: الحجرُ المنحوتُ والمهذّب بالدبُورة وهي آلةٌ تسوّى بها الحجارة وفصيحها الصاقور وهنا يقصد به المؤلف الحديد المصنوع او من انواعه

ولا عسَّة بـه الآن، وقدر ما بين الجزيرة والبر ما تجوز بـه السفن وبمرأى العين قريبٌ جداً بحيث يتكلم الرجل مع صاحبه من البر ويجيبه مـن الجزيرة وقد اشتكى اهل المدينة على طاغيتهم ضيق البلاد عنهم لكثرة مـن بها من الخلق فأمرهم بالبنيان وقد خطُّوا بازاء المدينة دياراً عديدة فهم مجتهدون في تشييدها ليلاً ونهاراً

والمدينة لها بابان بريَّة وبحريَّة وبها من الهواء الفاسد والعياذ بالله والوَخم(١) ما اشتكى بسببه الكثير منَّا ساعة حللناها، ولما جنَّ الليلُ هبَّت رياحٌ بنتن ماءٍ واديها ضاقت منها نفوسنا وكادت ارواحنا ان تذهب، فايقظتُ الخدمة والاصحاب والزمتهم ان يتهيئوا للسفر قبل الفجر من ليلتهم وبَعثتُ للفرايلي المصاحب لنا ومن معه ان يتهيئوا للسَّفر والزمتهم للنهوض، فجاء الفاريلي يلبّ التثبُّط والتَّمهّل وتعلل بانَّ رواحنا لم يكن لمدينةٍ او لموضعٍ مناسب للمبيت وان اهـل المدينة يتألّمون ويتدبّرون اين يكون مبيتنا لان طريقنا على مدينة «مدينا» وبينها وبين طريقة مسيرة يوم ونصف اليوم ولا يُمكن الوصول اليها مـن يومنا، فقدمنا الرامـة قبل الشروق واجمع اهلُ المدينة حاكمها وقاضيها ومَن بها مـن الأعيان على ان يكون مبيتنا بدارٍ هيَ معدَّة لنزول الاكابر والأعيان مِمَّن يأتي مـن مدينة «مدينا» او الذاهب اليها على أنَّ لها انحرافاً عن الجادَّة وليس بكثير

فركبنا بينَ الظُّهرين وقد حضر لتشييعنا من الخلق اكثر ممن برز للملاقاة وانصرفنا عنهم في عزٍ وكرامة وقد استعملنا السير بقيَّة يومنا وطرفاً من الليل ولحقنا الدار التي بها مبيتنا عن اثني عشر ميلاً، ومن الغَدِ شرعنا في المسير في ارض حسنةِ النبات جيّدة التُّربة مفتحة النَّوار في غايـة الخَصْب، وما شيتهم منها ما هو أسود محض ومنها ما هو مثل ماشيَتنا غير أنَّ كل نوعٍ من النوعَين يسرحُ على حدةٍ، وقد عثرنا على العَددِ الكثير من الخنزير يسرحُ مثل الغنم على غير ما هو معهودٌ من فعله مـن النفور والجرأة وقد شاهدنا بهذه المسافة مـن المدن والمداشر(٢) والبيوت والعزابة واهل الحراثة يميناً وشمالاً شيئاً كثيراً

الخَبرُ عـن مدينةِ مَدينا (٣)

هي مدينةٌ مشيّدةٌ على قُنَّة جبلٍ والارجاء المستديرةُ بالجبل في غايـة البسطِ على الجهات الأربـع وقـد استوعبها أجنَّةٌ واغراسٌ مما يلي الجبل، والخارج عنها زياتين وارض حراثة

قد حللنا بها بين الظُّهرين على اثني عشر ميلاً من الدار التي كان بها مبيتُنا في يومٍ شديدِ الحر، واوَّل من لقينا على بُعدٍ منها بنحو مسافة الخيل المبعوثة مـن الطاغية لملاقاتنا وقد أُضيف اليها من خيل المدينة عددٌ كثيرٌ واجتمع من الخلق ما ضاقت عنهُم الأرض خاصةً وعامةً مجتمعة(٤) مـن المدن والقرى القريبة من المدينة كقالص وغيرها: نساء ورجالاً وصبياناً كانهم الجراد المنتشر

---

(١) الوَخـم: تعفن الهواء المورث للامراض الوبائيّة، ويقال: بلدٌ وخيمٌ: اي غير موافق في السكن والعامَّـة تستعمل الوَخم بمعنى الوسخ

(٢) المداشر: جمع مدشر بلغة عامَّة المغرب وهي القرى

(٣) هي مدينا صيدونيا Medina Sidonia بلدةٌ مـن عمالة قادس عدد سكانها اليوم خمسة عشر الفاً، وقد ضبطناها بالالف تمييزاً لها

(٤) مخط: على لِسَانِ التّرجمان

وصعدنا المدينة في ازدحام عظيم بطريق صعبة ضيقة مرصّفة بالحجر، والطريق لها شَبَهٌ بالصعود لمدينة تازة بل هي امنع واصعب، وقد اضرّ بنا العطشُ لمكثنا في الصعود على ما يزيدُ على الساعة لازدحام القوم وانتظار عبور من تقدّمنا لضيق الطريق وامتدادها

ولمّا انتهينا الى الدار المعيّنة لنزولنا رأينا بها ما يتعجّبُ منه: من اتقان البنيان وارتفاعه وتعدُّد الغُرَف والمقاعد وتزيينها بانواع الديباج والستور المرقومة بالذهب والفُرش المنتخبة بمقاعد للنوم هي غير المقاعد المعدّة للجمع والملاقاة بالقوم الى غير ذلك ممّا يدلُّ على رفاهية اهلها وحضارتهم

ولما استقرّ بنا المجلسُ وانصرف عنا القوم اقام الفسيان المبعوث من طاغيته عدداً من الشلظاظ الواردين صحبته بباب الدار يمنعون من اراد الدخول علينا الاّ بعد الاستئذان واظهر من الأدب والامتثال والمباشرة شيئاً يتعجّبُ منه وحدّث عن عظيمه انه متشوفٌ ومتشوقٌ للقائنا وقد أمره ان يكون عند أمرنا وهو يطلبُ منّا ان نسامحه في التقصير لانه لا يقدر ان يؤدّي ما أمَره به طاغيته الى غير ذلك ممّا في معناه، فاجبناه بما يناسب في الوقت

ومن جملة ما أخبر به عن طاغيته انه أمره ان يقيم بنا في كل مدينة مدة ثلاثة ايام للاستراحة وعيّنَ له المدن التي يكون المرور عليها، وان يسير بنا ليلاً خشية الحر وكتب للمُدن المعيّنة منه ان يبذلوا المجهود في الاكرام والبرور، وقد شاع ذلك في البلادِ الاصبنيوليّة وجَعلتِ الجموعُ منهم تتعرض لنا وتسافر من المدن البعيدة قاصدين المدن التي نمرُّ بها فيتقدّمون لها قبل وصولنا اياها وهكذا في كل مدينةٍ مدينة، ولم يزل الفسيانُ واقفاً على قدَم في المباشرة والتعظيم كوقوفه بين يدي طاغيته، ولا شكّ انه مختار عند مرسله لسياسته وأدبه

وقد بعث في الحين لاهل الموسيقى واحضر اعيان البلاد الحاكم والقاضي فمن دونهما واوقدوا من الشمع العدد الكثير، فما شعرنا الاّ ودخل علينا من النسوة والبنات ما يقربُ من المائة وقد اخذنَ نصيبهنّ من الحسن وفيما يغلب على الظنّ انهنّ منتخبات من بنات المدينة منهنّ زوجة الحاكم وغيرها من الأعيان وقد لبسنَ ما حَسُنَ من الثياب وجلَسنَ على الشِلْيات.

وَصفُ حفلةِ رقص أُقيمت على شرف السّفارة المغربية
في مدينة «مدينا صيدونيا»

وكان صاحبُ الطاغية الذي ظنّناه صاحب عقلٍ وتمييز ومختاراً عند عظيمه واقفٌ على قَدَم يجلسُ كل واحدة من النسوة والبنات بالموضع المناسب لها على قدر مراتبهنّ ويأتي بنحو العشرة يسلّمنَ علينا على لسان التُرجمان ثم يأتي بعشرة اخرى، وهكذا حتّى اتى على اخرهنّ، ثم اقبل علينا يطلب منا الاذن في رقصهنّ فاجبناه لذلك، فقمنَ يرقصنَ على عادتهنّ: كل ذكر مع انثى فلم نلبث الاّ وهو قد أخذَ بيد شابّةٍ من حسانهنّ وجعل يرقص معها، فتعجبنا من فعله مع ما ظهر لنا من ثباته ودهائه وانّه مبعوث من طاغيته لاصحاب سلطان الاسلام، يجب عليه ان يفعل ما تطول به رقبة مرسله الى غير ذلك من الأمور الواجبة عليه مراعاتها قولاً وفعلاً، وعند شفاء غليله في الرقص وقف بين ايدينا متأدّباً وقد نزع الشمرير وعكس رأسه امامنا فكأنّه ادّى واجباً يجب له عليه المجازاة، فاستحسنا فعله وجازيناه خيراً، فرمى بالشمرير ثم أخذ بيدِ شابة اخرى غير الاولى وأخذ في الرقص معها حيث شكرناه وكلّما اراد الرقص مع غير التي رقصت معه يجدد الاستئذان ويعيد العمل اكراماً لنا وجبراً للخاطر ولا يسعنا الاّ المُجازاة له بالخير، فكشف الغيبُ انّ الرقص عندهم من كمال المُروءة

واداء الواجب عليهم في اكرام الضيوف من ذوي الاقدار! ومكثوا على ذلك الى ان قرب الفجر وذهبَ كلٌّ لحال سبيله والدار التي نزلنا بها لها شراجيبُ مطلّةٌ على بلاصة المدينة(١) التي هيَ محلُّ جمعهم للَعِب ولـم تكن بالمدينة بلاصة غيرها

وصف حفلَةِ مصارعةِ ثيران أُقيمت على شَرَفِ السَّفارةِ المغربيَّة

امّا البلاصة فهي كِناية عن بَراح متسع يسعُ الأُلوف مـن الخَلق والديار مُشيَّدةٌ من اربع طبقاتٍ محيطة بالبَراح المذكور وخارج شراجيبِ الديار صقالات(٢) محمولة على بُروز كصقالات السُّور يتصل بعضها ببعض على الاستدارة لاستواء البنيان في الطبقات الأَربع ولهذا الصَّقالات درابز(٣) في غاية الاتقان حافظةٌ من سقوط الجالس عليها حال الفرجة لازدحام القوم

ومـن الغَدِ اجتمع بهذه البلاصـة خلقٌ كثيرٌ قـد ستروا الارضَ بنشرهم على بسيطها كما سَتَرَ سورها اجسامُ النسوةِ التي استوعَبَت الصقالات الأَربع بالجلوس جنب هذه لهذه على شِليات مكتسيةٍ بالديباج، والنسوةُ في حُلَلٍ مختلفةِ الالوان مُحلاّتٍ باقراطٍ وما يضاف لذلك مـن يواقيت يمنطيَة(٤) فما دون ذلك، تلمعُ بلمعان الشمس كالمرآة ولابواب الشراجيبِ التي يعبر منها للصقالات ستورٌ من الكَمْخَة(٥) على الوان، بعضها من الموبَّر وبعضها من الديباج وغير ذلك، فالناظر للصقالة يشاهدُ ما يُذهله مـن استيعاب الخلق للبلاصـة في قائمها المبسوط، وقد استعدُّوا لهذا الجمع واحتفلوا له بما ليس بمعهودٍ منهم في لَعِبهم بالثيران (٦) وغيره وكل ذلك فرحاً بنا وفرجةً لنا ولهم في ذلك غبطة واعتناء، فهو من جملة اعيادهم في زمن مخصوص، ولما كان عندهم لهذا اللَعِب بمنزلةٍ أُبيحَ لهم اعادته بعد فوات أَبانه فرجةً ونزهةً للوارد على بلادهم من الاكابر والأعيان، والزمان الذي هو مقيَّدٌ بـه هو: اذا دخل شهر مايو يحتفلون بالبلاصة في جميع المُدن والقرى من البلاد الاصبنيولية كلٌّ على قدره في اليسار والاقتار ثم يأتون بعدَّة فحول من الثيران الشبيهة بالأَسد في الجرأة والشراسة، والحيلة التي يستعملونها في اقتيادهم للبلاصة: انهم يقدّمون امامهم ثيرانا آنِسات في اعناقهم نواقيس فتقتفي أَثرها الى موضـعٍ بجنب البلاصة هو بمثابة الأَواري(٧) فاذا حصلوا به تتأخر الثيران الآنِسات ذات النواقيس وتُترَك الأخرى بالمحل المذكور الى ان يخرج منها واحدٌ بعد واحـدٍ للمبارزة، وقبل خروجها بقليل يمرّ بالبلاصة نحو الخمسين من الشلظاظ واهل الطنبور ويضربون امامهم، وفي ذلك لهم علامةٌ على حصول الثيران والنداء على الفرسان المعيَّنة للبراز، فيأخـذ كلّ واحد موضعه ومن ضاق عنه الموضـع الذي يأمـن فيه على نفسه يخرج على البلاصـة ولا يترك الشلظاظ ببراح البلاصـة الاَّ الفرسان المقطوعُ

---

(١) البلاصة: كلمة اسبانية معناها السوق، او السوق العامّة: Plaza, Plaza Mayor

(٢) الصقالة: درجٌ يُصعَدُ به مـن البحر الى البر وعند العامّـة طبقات مـن خشب، وصقالة البَنا.: هي الاخشاب التي يقف عليه عند البنيان. ج صقالات، والكلمة من الإيطالية معناها سُلّم

(٣) دَرَابزين ودَرَابزُون: قوائمُ منتظمةٌ يعلوها مُتَّكأ. ج دَرَابزُونات

(٤) يمنطيَة: من الاسبانية Diamante اي الماس

(٥) الكَمْخَا: نَسيجٌ رفيعٌ من الحرير

(٦) يريد مصارعة الثيران Corrida de toros

(٧) إري وآري وآريَة. ج أَوَاري: زريبةٌ، مربطٌ، معلف

بشجاعتهم وبأيديهم مزارق، والقوم المجتمعون بأرض البلاصة يتحفّظون بسور من الخشب علوّه ما يَقرُب من قامة، وبَينه وبين سور الديار على الجهات الأربع عشر خطوات فاكثر استوعَبَها مسطبات(١) بعضُها فوق بعض مُدرجَة من فُرود الخشب يجلسون عليها آمنين، وهذه المُسطبات تسعُ العدد الكثير من الخلق فيتّصل مَن باعلاها بمَن بالطبقة الاولى من الصقالة التي تلي الأرض

وفي ترتيب جلوس هذا الخلق الكثير على التَّدريج من بَسيط الأرض الى منتهى عُلوّ الديار ما يُتعجَّب منه لغرابة صنعه، كيفَ وقد سَتَرتْ اشباحُهم اسوار الديار القائمة المُحيطة بالبلاصَة مع طَرَفٍ من بسيط جدرانها

وكيفيّة مُبارزتهم مع الثيران: يُفتح باب الموضع الذي به الثيران بحيلة، فيخرج الواحد منها كانه أسَد، ويُغلق الباب في وجه المقتفي أثره في الخروج، فيكرُّ الثور على الفارس تارةً، ويفرُّ منه تارةً، وتقع بينهما المحاربةُ الشديدة والبأس، وكلما وثَبَ الثور على الفارس يُقنِعه بالمزراق الذى بيده، فاذا تحامل عليه يُشغله عنه فارس آخر يطلب مبارزته من خلفٍ وأمام فيُسلمه الثور ويقبل على مبارزة الثاني، فاذا وثب عليه وزاحمه يطلب مبارزته الاوّل، فيترك الثاني ويعود الى الاوّل، وهكذا، فاذا ضعفت قوته تتأخر عنه الفرسان، وتتقدَّم اليه عدَّة نصارى راجلين وبايديهم حراب طولها قدر ذراع، اسنّتها على قدر السنّارة يختلسون الثور ويمكنونها من الموضع الذي امكنهم منه ظهرهُ او جنبه، فاذا زاحمهم الثور يرمون بالشمرير أمامه فيقنع، وتارةً يصول عليهم، والمتصدّى لقتله رجلٌ واحدٌ يطعنه بسيف تحت قرنه من جهة رقبته فيخرُّ ميتاً من حينِه، ويُؤتى بثلاثة بغال مزيَّنة تجره عن فوره، ثم يخرجون ثوراً آخراً يفعل به مثل الاوّل وهكذا

ولما غشي الليلُ ذهب كل لحال سبيله، وقد استحسنا لعبهم جبراً للخواطر حيث سُئلنا عن ذلك، والاعتقاد خلافه، فان تعذيب الحيوان لا يجوزُ بالشرع ولا بالطبع، ولاعتنائهم بهذا اللّعب المذكور على الكيفيّة المذكورة بالمحل الموصوف، صار من لم تكن له دار متصلة بالبلاصة يبذل المال في كراء الدار المطلّة على البلاصة، يُخصّص منها مقعداً لفرجة اهله واقاربه، ويكون على يده ما بقي من الدار، فيحصُل على فرجة اهله ويفضل بيده من المال ضعف ما اكترى به غبطة ورغبة في حضور هذه الفرجة

والمدينة حيث بنيَت على الجبل لم تكن ازقّتها منبسطة، وانما هي بين خفض ورفع، والديار في نفسها عجيبة جداً، والكثير منها باقٍ على البُنيان الاسلامي، ولا ماء بها الا الآبار في غاية العمق، وشرابهم من ماء الماجن المجتمع من ماء المطر، وهواؤها طيّب للغاية، وقد شاهدنا منها عدّة مدن: قالص وما والاها وسنطمرية (٢) وجزيرة السباع (٣) والكرّاكة(٤) وبنط ريال (٥) وغيرهم من المدن

---

(١) المَسْطَبَة والمِسْطَبَة: مكانٌ ممهّدٌ مرتفعٌ قليلاً يُقعد عليه. ج مساطبُ وقد جمعها المؤلف على مسطبات (والصاد فيها ابلغ)

(٢) هي بويرتو سنتا ماريا Puerto de Santa María أي مرفأ القديسة مريم، بلدةٌ من عمالةِ قادس على الضفّة اليُمنى من نهر Guadalete قرب شريش الثغر اشتهرت بآثارها العربيّة، وكانت العرب تقول لها: «شنتمريّة»

(٣) لم نتحقق من اسمها، ونظن أنه قصد بها: الجزيرة الصغيرة Isla Menor المطرّقة بسواعد النهر الكبير

(٤) كرّاكا: Carraca قرية من عمالة قادس على شاطىء الخليج المعروف بخليج قادس

(٥) مخط: بنط ريال: والمقصود بها: بويرتو ريال Puerto Real وهي بلدةٌ واقعةٌ في غور خليج قادس

والمسافة التي بينها وبين قالص واحد وعشرون ميلاً، أقمنا بها ثلاثة أيام، وسافرنا مصاحبينَ السلامة، قاصدينَ مدينة خريز(١) وهي المدينة الخضراء، وذلك آخريوم من ركوبنا الخيل لفلوات الأرض الصعبة التي لا يمكن فيها ركوب الاكداش بالكلية

الخبرُ عن مدينةِ خريز وهي المدينة الخضراء

عبرنا اليها على اثني عشر ميلاً، وقد ورد علينا في خلال اميالها عددٌ كثيرٌ من الخيل شلظاظاً وفسياناً على بعد من المدينة بنحو المسافتين، فرحّبوا بنا وأظهروا من البشاشة والمُباشرة ما فيه زيادة على من تقدّمهم، وسرنا معهم بما يقرب من مسافة، فاذا بقنطرة مضروبةٍ على وادي، والوادي يسمّى «وَدَليطي(٢)» لها ستة أقواس من الاقواس العظام، في الطول والعرض، وبطرقها من ناحية المدينة خلقٌ لا يأتي عليهم الحصر، والعددُ الكثير من الاكداش التي لها بال، فركبناها في أحسن زيّ، وضربت علينا النوبة والموسيقى الواردة من اهل المدينة البارزين لملاقاتنا، وذهبنا الى أن دخلنا المدينة، وكنتُ أظنُّ ان المدينة عن يسار القنطَرَة بقليل، فكشف الغيبُ انَّ ما كنتُ أحسبُ انها مدينة، إنما هي دار للفرايلية هُنالك، فقد يحسبها الناظر انها مدينة لكبرها وضخامة بنيانها وتعدد الصوامع بها، والمسافة التي بينها وبين خريز أربعة اميال عبرناها بين أغراسٍ وأجنّة، ومن خارج اغراس الفواكه وزياتين مستقيمة الصفوف في غراستها استوعبت الارجاء الأربع، الى ما انتهى اليه البصر

قيل انَّ مساحتها مسيرتها اربع ساعات، ومن حيث ركبنا الاكداش، والاكداش تتعرَّض لنا مشحونة ببنات الاكابر ونسائهم، وأمّا مطلق القوم فلا يأتي عليهم الحصر، ولما مررنا بأزقّة المدينة وشاهدنا ما شهدناه من ارتفاع بنيانها وضخامة ديارها وعلوّ ابوابها، واحكام تشييدها، واتّساع رحابها، وتعدد الاكداش الذاهبة والآتية بطُرُقها، وحضارة اهلها، وسعتهم في المال، وتنافسهم في الملابس والمراكب، كلّت العبارة على استيفاء ما اشتملت عليه من أمور الدنيا التي تساوي عند الله جَناحُ بعوضة

فنقول باختصارٍ: هي من المدن التي تقدّم ذكرها بمنزلة الحاضرة من البادية، ومن أعلى احدِ ابوابها رُخامة مكتوب عليها: أ بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد، الله الصمد! فقط، وسور المدينة وابوابها من عمل المسلمين، وقد هَدَّ القِدَمُ الكثير من سورها، ولم يكن للكفرة اعتناء بهدِّ ما بقيَ منه ولا باصلاحه

ولمّا زادوا على البُنيان الاسلامي من خارج السور، بقي السور داخل بنيانهم المحدث في غاية التلاشي، وما هو من البنيان داخلُه وخارجُه في جدّةٍ واتقان، وأثر هذا السور ابقوه على حاله، شاهداً انَّ البلاد كانت للمسلمين، وهذا أثرُهم، اعادها الله دارَ اسلامٍ آمين

---

(١) هي شريش ويقال لها شريش المقابلة او شريش الثغر Jerez de la Frontera وكانت تُسمّى قديماً Xirici de la Frontera ويقال لها ايضاً شريش الخضراء، وكتبها المُؤلف بلفظها الاعجمي، وهي مدينةٌ حافلةٌ عامرةٌ من مقاطعة قادس قرب نهر وادلتي Guadalete اشتهرت منذ القدم بحضارتها وعمرانها ورفاهيّة اهلها وحسن لطفهم وبمن نبغ منها من العلماء الاعلام، عدد سكانها اليوم ٨٥٠٠٠ لها شهرة عالمية بجودة خمورها المعتّقة، استردها الملك فرديناندو سنة ١٢٥١ م الآ ان العرب استرجعوها اوّل مرة، ثم عاد الاسبان فغلبوا عليها، ثم عاد العرب فأخذوها ثانية، ثم عاد الملك الفونس الملقّب بالحكيم Alfonso El Sabio فاستولى عليها سنه ١٢٦٤.

(٢) واديلطي Guadalete نهرٌ مشهورٌ في مقاطعة شريش من عمالة قادس يصب في خليجها

وقد نزلنا بدارٍ مختارة مـن ديارهم، اشتملت على مقاعد عديدة، وغُرف ومنازه، الكلُّ استوعبه ستورٌ من الكَمْخَة حيطاناً وسقفاً مُمَكّنة في القائم والمبسوط بمسامير مذهبة، والمبسوط في جميعها من عمل التُّرك

وبجنب هـذه الدار بستانٌ فيه أصناف النوار وبعض أشجار التين، ومـا زال القومُ يتردّدون الينا بقصد السلام علينا والترحيب بنا

ومن غَـدَاة وصولنا أخذوا في تزيين بلاصتهم من مدينتهم، واحتفلوا لها بزيادات كثيرة عما شاهدناه بالمدينة التي قبلها، إذ لا نسبة بين الاولى وهذه في الكبر والعِمارة، وسعَة اهلها في المال، وجَمع المراكيس(١) بها والأعيان من الفسيان، ومن بعض الزيادة التي بهذه الديار المحيطة ببلاصتهم انّ ابواب المقاعد التي يعبر منها للصَّقالات المذكورة جعلوا عليها ستوراً من الكمخة على ألوان، منها ما هو من الديباج المذهّب، غير أنَّ كلّ لونٍ مباين للذي يليه في الطبقات الاربع واقيـةً لحر الشمس، كما موَّهوا الستور التي بين ابواب المقاعد مـن خارج بالقماش من الصِّفَةِ، وهذه المقاعد معيَّنة حال الفرجة لاربابها، منها ما هو بالمِلك ومنها ما هو بالكِراء، والفاصل بين كل مقعدٍ والذي يليه من خارج في بسيط الصَّقالة لوحٌ من الخشب عُلوه خمسة أشبار، السرُّ في جعل الفاصل من خمسةِ أشبار استيعاب مَن بالصَّقالة بالنظر، بحيثُ لا يُحجَب عن جميعهم مَن بسائرها من الرجال والنساء، فالجالس على الشليات اذا أرسل طرفه يميناً وشمالاً يُشاهد ما يُشاهد منه بالصَّقالة التي هو بها

وامّا الصقالات الثلاث يُمنى ويُسرى والمقابلة له لا يفوتُه منها شيء، حيث لم يحجبه عنهـا حاجبٌ، ولما حَللنا هذه البلاصة تلقانا حاكمُ البلد وأعيانها بالرحب والسَّعَة، وصعدنا لمقعد احسن المقاعد، وجعلـوا به ستوراً من الديباج وشليات لم يُرَ مِثلَهُنَّ، وقد استقلَّت الصقالة التي نحن بها بالنسوة والبنات المقطوع بحسنِهنَّ، ولبسنَ من الحلل ما يناسبهنَّ، وقلدوا من اليواقيت ما لا يوصفه واصفٌ، والحللُ مختلفـة الألون، والقيّـم على كل مقعد مقعد يرتّب الصفوف، ويجلس النسوة والبنات، جنب هذه الى هذه، ويخالف بين الالوان حال الجلوس، فالناظر للمقاعد المطلقـة بانواع الستـور على اختلافها في الألوان، وتخالف الالوان والحلل التي على النسوة يحسب أن ما شاهده من ذلك بطائح من النوار مختلفة الألوان

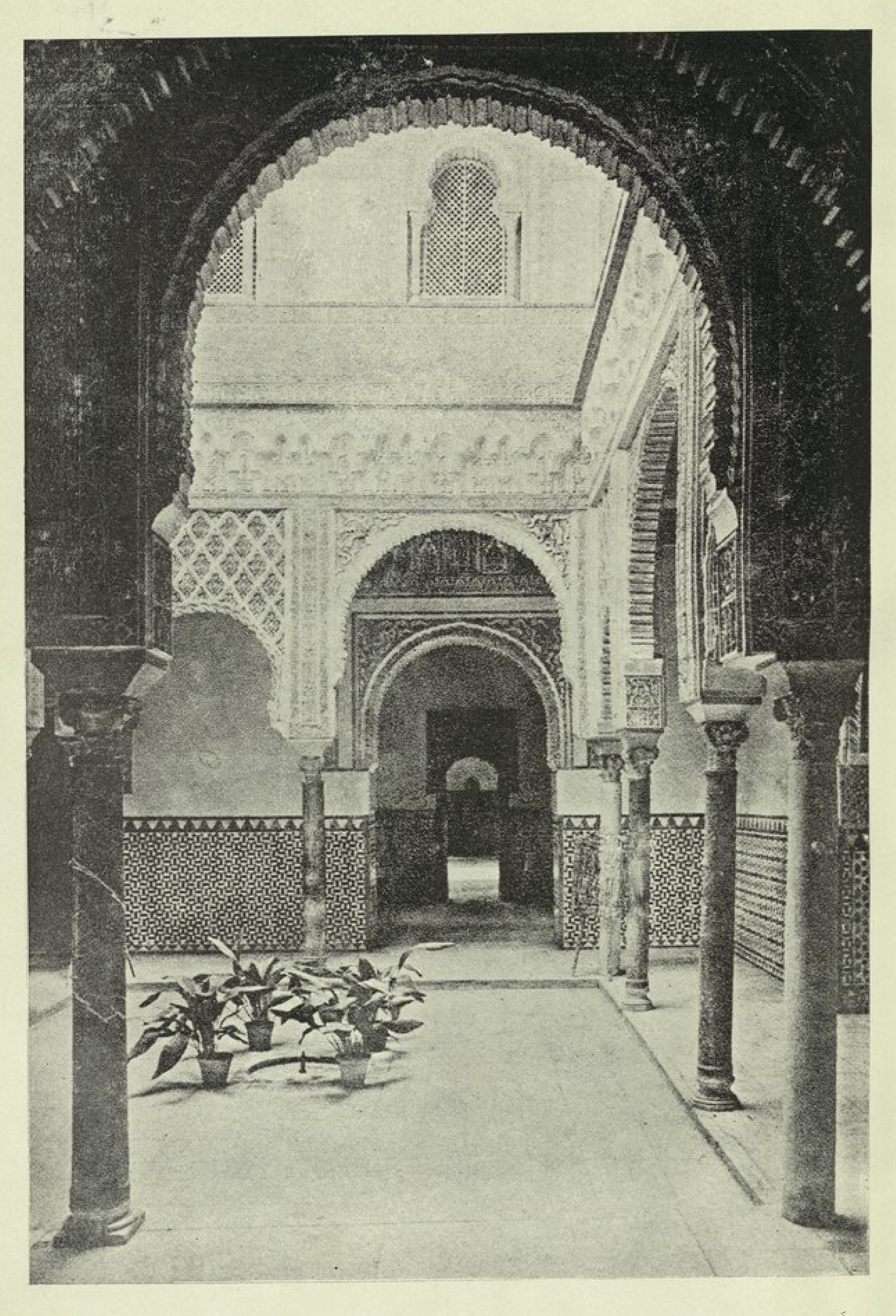
وأمّا كيفيّة لَعِبهم ومبارزتهم للثيران لا زائد على ما تقدّم ذكره في ذلك

ولما حان انصراف القوم لاقبال الليل تقدّم الينا أحد المراكيس وهو من أعيان القوم لقرابته من طاغيته ومكانته المكينة عنده، وبَيتُ مال عظيمه الذي هُنالك تحت يده، ومفتاحُه من الذهب معلّقٌ في عنقه بسلسلةٍ من الذهب أيضاً، بحيثُ كلُّ مَن رآه يقدر قدره ويخاطبه بما يناسب مرتبته من الأدب، والحاكم بنفسهِ الى نظره، فرحّب بنا وعظّم وخصَّ وعمّم وطلب منا الوفاء بما كنّا وعدناه به مـن الوصول الى داره قبل، فاجبناه بما طلب على أن يكون ورودنا عليه بعد العشاءيـن، فانشرح لذلك وانصرف كلٌّ لحال سبيله، وبالوقت الموعود به بعث بكدشين مع حاكم البلد واصحبهما عدّة من الخَدَمَة، وبيد كل واحدٍ منهم شمعتين فذهبنا في عزٍّ وكرامة الى أن حللنا الدار، فاذا بالباب القاضي وأعيان الفسيان والمراكيس وخَدَمَة آخرون حاملين للشمع الذي قدر القامة، فاقبلوا علينا بالترحيب والتعظيم، وأخذوا بايدينا وصعدوا بنا الى أعلى الدار بمدارج من الرخام تسع خمسة وعشرين رجلًا جنباً لجنب كل واحد يليه الآخر الى أن انتهت بنا المدارج لثلاث مقاعد، كل مقعد طوله ما يزيد على اربعين خُطوة، وعرضه خمسة عشر، وقد ستروا حيطان المقاعد بالقماش المسمّى ببركال(٢) و الموبَّر والرابط بين طرفَي القماش حَمائل منسوجة بخيط الذهب، عرضها اربعة اصابع، وجعلوا هذه المقاعد الثلاث، احدها استقلَّ بالنسوة،

---

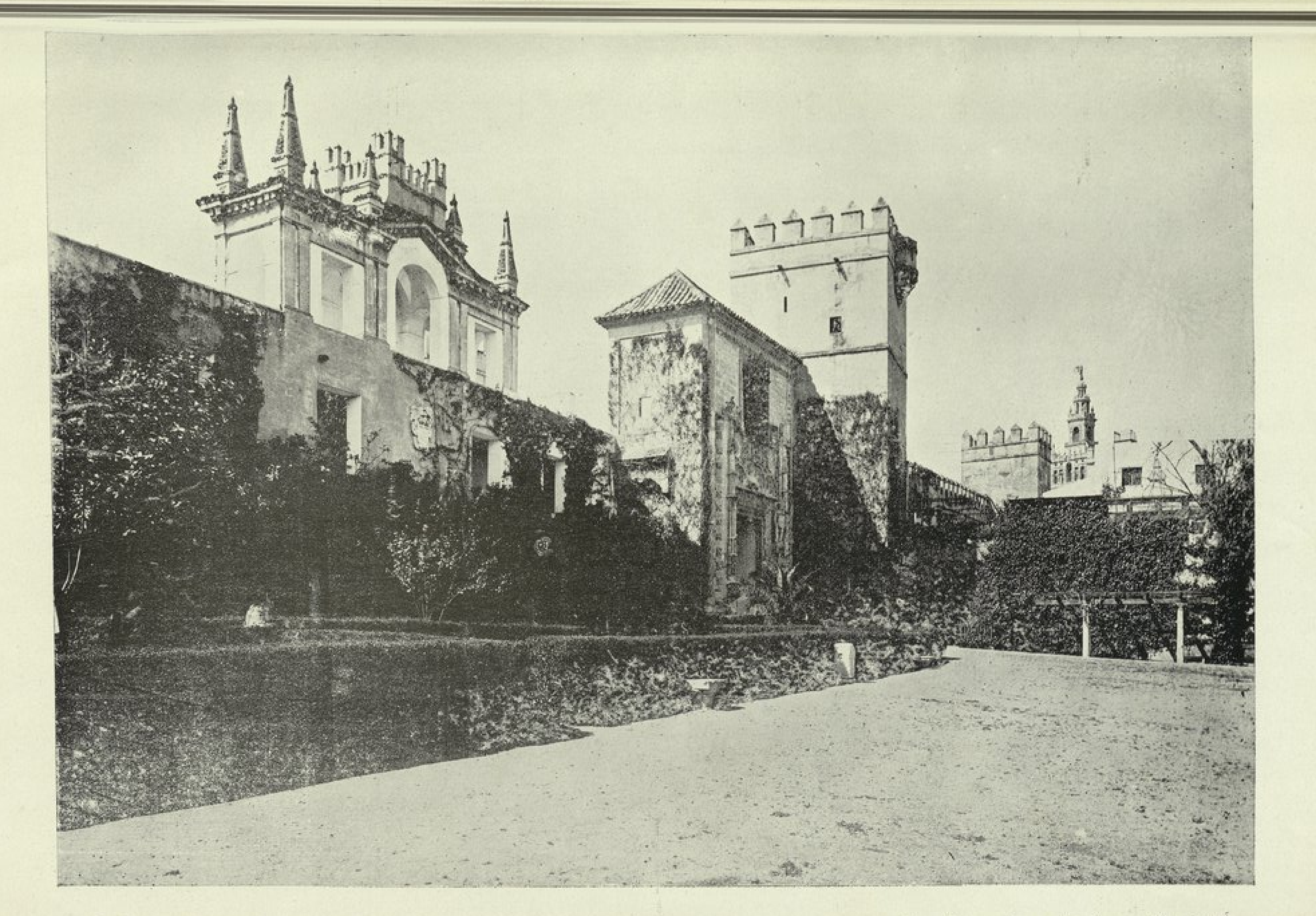
(١) جمع ماركيس Marqués وهو من ألقاب الشرف العالية

(٢) مخط : بركاض والمراد : بركال Percal نسيج مشهورٌ عند الاسبان



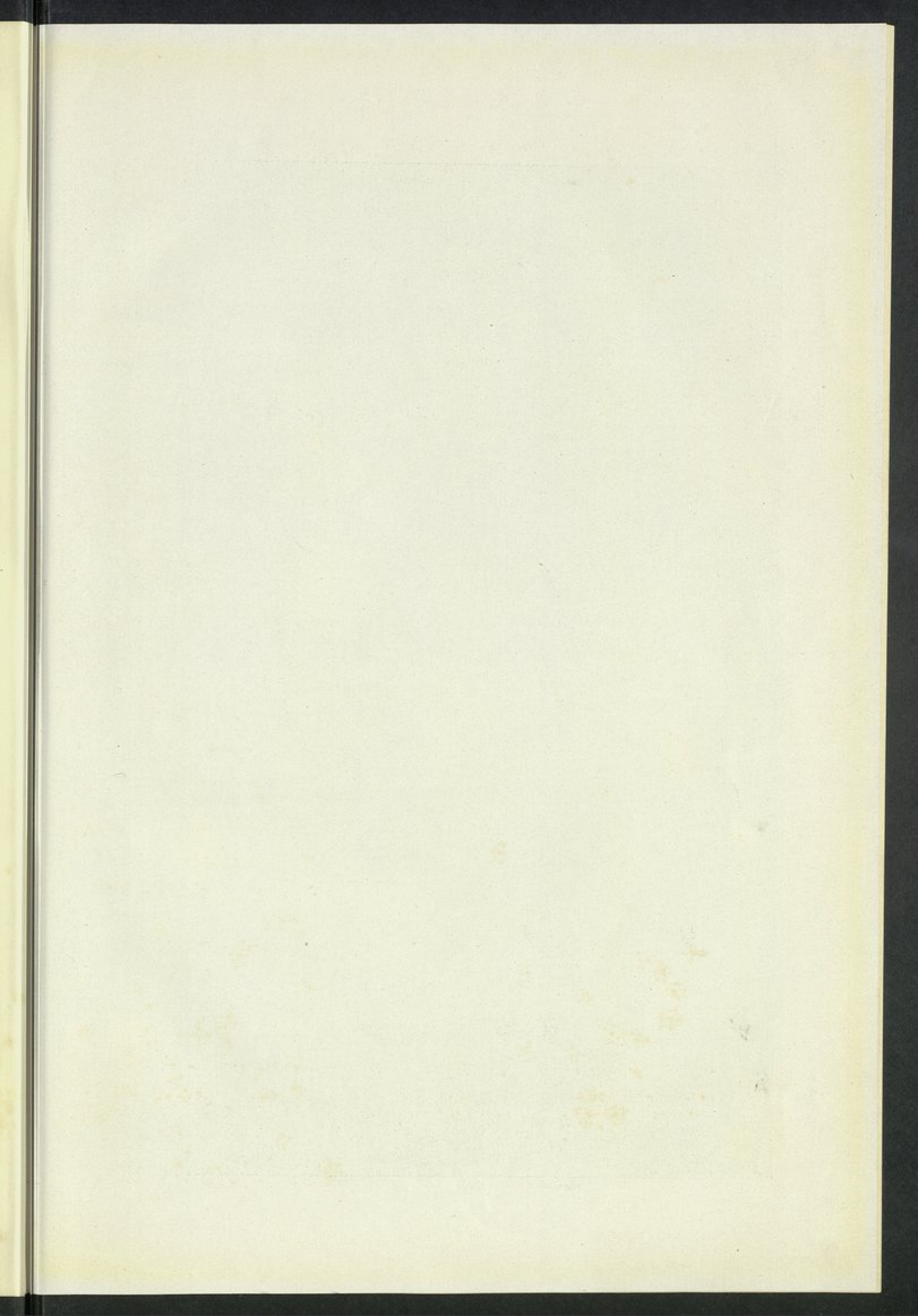
Sevilla.—Alcázar: Patio de las Muñecas.

أشبيلية–القصر : باحة الدمى



Sevilla.—Alcázar: Vista exterior.

أشبيلية--القصر : منظر خارجي تظهر منه العوبة الهواء



والثاني بالأعيان، فسياناً ومراكيس والقاضي وبعض الفرايلية، الثالث خاصٌ باهل الموسيقى، فذهبوا بنا المقعد الذي به النسوة والبنات، لان الليلة هي ضيافة نسائهنّ، وتلك عادةٌ جاريــةٌ في اعرافهم، فلما أقبلنا عليهنّ قمنَ على قدَمٍ، وجعلنَ يُرحّبنَ ويُبدينَ من الفرح بنا ما لا يكيَّف، والترجمان يترجم بيننا وبينهنّ، وربُّ الدار والقاضي والكثير من أعيانهم كلٌّ يعرّف بزوجته وبنته أو بهما معاً، وكلما شكرتُ واحدة غارت الاخرى، فنُعبّر بما يدلُّ على استحسان الكل منهنّ، فاذا بربّ الدار الذي هو معظّم فيهم لوُفور عقله وكِبَر سِنّه، وله مكانةٌ عند سلطانه، الى غير ذلك ممّا يستدلُّ به على دهائه وعظمته في قومه، قام بنفسه على ثقل حركته وطعْنِهِ في السّنّ، وأخــذ بيد بنتين مُراهقتَين في غايــة الحُسن، وأوقفهما بين يَدَي اهل الموسيقى وجَعلتا يُغنّيان باصواتٍ حِسانٍ ما سمعتُ ولا رأيتُ أحسن منهُما صورةً وصوتاً، واهل الموسيقى يُجيبونهما

وبعد الفراغ من غنائهما، اتي بهما الرجل المسنُّ العاقل الامين وجعل يسألني، هل اعجبني غناؤهما، وكيف كانت المُغنيتان؟ فشكرتُهما له حتّى أني قلت له لم اسمع صوتاً مثل صوتهما، ولا رأيتُ من يُشاكلهما في الحُسن، فانشرحَ لذلك، وجعل يُعرّف في الحاضرين بما اجبتُهُ به، فقال: هما بِنتاي، فدعوتُ لهم الله يُسلِمهما (اي يهديهما الى الاسلام) وجعل يندب البنات التي حضرن هُنالك للرقص واحدةً واحدة، وكلما قامت واحدة يعيّن هو واحداً من أعيانهم للرقص معها، وقد اعتذر عن رقصه هو بنفسه لثقل حركته فعذرناه

وما زال مَن حضر من أعيانهم يحدِّث عن محاسِنِ زوجته، ويلزم الترجمان ان يبلغ ذلك الينا لنجيبــه بما يقصّه عليها من استحساننا، ولهم بذلك اهتمامٌ وولوع، يفتخر بعضهم على بعضٍ بذلك

ولمّا انفصل الجمعُ رجعنا لموضعنا، ونحن نستعيذُ بالله ممّا عليه هؤلاء الكفرة من عدم الغيرة وتوغلهم في الكفر، نسأله سبحانه أن لا يؤاخذنا بما اقترفناه من مخاطبتنا ايّاهم بما أوجبه الوقت وتعيّن في الحال، وبعد اقامتنا هُنالك خمسة ايام (١) استعملنا السير ليلاً لاجل الحر الخارج عن الحدّ، وعدم وجود الماء بالطريق المعبورة في يومنا، وكان رواحنا لمدينة لابريخة عن خمسة عشر ميلاً، جلُّها أشجار الزيتون، وارض حرّاثة على الجهات الأربع

الخبرُ عــن مدينةِ لابريخة (٢)

هي مدينةٌ متوسطةٌ بين الكِبر والصغر والحضارة والبَداوة، بل اهلها بادُون محض، وبُنيان ديارها غير شاهق، وبها قَصَبَةٌ في غاية العلوّ بُنيت بقنّةِ جبلٍ وهي من عمل المسلمين رحمهم الله، وهذا الجبل صغيرٌ في الاستدارة، عظيمٌ في الصعود، والأرجاء محيطةٌ به على الجهات الأربع في غاية البسط، حتّى ان سور القصبة مشيّدٌ على شفير حافة الجبل، والحفيرُ دونه باقٍ على حاله، ولم يبقَ مــن سورها والابراج الاّ ما دون القامة، وبها عدّة مواجن يجتمعُ بها ماءُ المطر، وقد شاهدنا من هذه القصبة ببسيط ارجاء المدينة غدراناً عديدةً كالاودية، ومنها يظهرُ لمعان الوادي المنحدر من مدينة أشبيليَة على بعدٍ بائنٍ جداً

وقد استقلّ غربها باشجار الزيتون، وشرقها اختص بالحراثة، وبداخل المدينة عدّة سواني تُسقى منها بعض الاغراس هُنالك، وامّا شرابهم فمن عين قريبةٍ من المدينة، وهُناك العدد الكثير من معاصر الزيتون، اقمنا بها بقيّة يومنا، وسافرنا

---

(١) كان دخول السفير المغربي الى مدينة شريش في التاسع مــن شهر يونيو سنة ١٧٦٦م وخرج منها في صباح الخامس عشر منه وذلك حسبما وَجدْناه مُسجّلاً في وثائق بلديّة تلك المدينة، وقد دُوِّن ايضاً في تلك الوثائق وصف الحفلات الشائقة التي أُقيمت على شرف السّفارة المغربيّة

V. Tomás García Figueras: Embajada de El Gazzal. Nuevos datos para su estudio. Casa de Miguel Boscá Mata. Larache, 1937.

(٢) لبريخة: البريجة Lebrija بلدةٌ من أعمال أشبيلية مشهورة بآثارها الرومانيّة والعربيّة

ليلا، وكلما رحلنا عن دار يتقدّم امامنا بعض اصحاب الطاغية المصاحبين لنا في طريقنا للدار التي بها مبيتنا ليعلم اهلها فيتهيئون للملاقاة، ويعيّنون الدار المناسبة لنزولنا وينتخبون من الفُرُش ما يدلّ على امتثالهم لامر طاغيتهم من التعظيم والتبجيل، ويبرزون للملاقاة نساء ورجالاً وصبياناً ويبدون من الفرح والمباشرة مالا يكيّف، وبعث صحبتهم القيّم الذي هو مُعدّ معنا الطعام بحيث اذا حللنا المدينة نجد الدار مهيّأة مما يحتاج اليه من طعام وغيره، والمدينة التي كان رواحنا اليها، هما مدينتان تتصل الاولى بالثانية، والفاصل بينهما طريق في غاية الطول والعرض، احدهما للسلطان بلا فرنكه والاخرى لوزيره بلاصيوص فسُميتا المدينتين باسميهما

الخبرُ عن المدينتين بلا فرنكا وبلاصيوص(١)

حللناهما عن خمسة عشر ميلا وهما مدينتان صغيرتان، واهلهما للبداوة أميَل، ولا مرية انهما من بقايا الاندلس، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو(٢)، هو من أعيان العدول عندهم، وقد اظهر من الميل الينا ما غلب على الظنّ انّه مُسلم، وصار يشير باشارة خفيّة ويُكثر من الالتفات على مخاطبته ايّانا ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر، وجاء ببنتٍ له عليها أثر العُربان بعيدة من الشبه بالروم خَلقاً وخُلقاً، وفي عشية يومنا وردت عدّة بنات من مدينة وطريرة(٣) كنّا رأيناها ضحوةً عن يمين عبورنا قريبة منا جداً ولم يمكننا الدخول اليها، وبقي في الخاطر شيء منها حيث كانت من مُدن الاسلام، والمراد منّا ان نتعاهد اماكنهم ونترحّم على تلك العظام النخرة، باستعمال الخُطا على معاهدهم، فاذا بالبنات الواردة منها بقصد السلام علينا هُنّ واهل المدينتين واحدٌ في الخَلق والخُلق وقد غلب عليهم الحسن، ودمهم دمُ العرب واخلاقهم مباينةٌ لاخلاق العجم، وميلهم للمسلمين وتحننهم للجنس واسفهم عند التشييع، يقطع انهم من بقايا الأندلس، وقد طال عليهم العهد، وربّوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله

والكثير من ألقابهم موجودة عندنا في الاسلام، كغبريرة (٤) وقرطناش (٥) وبريشه (٦)

---

(١) Palacios y Villafranca : بلدتان صغيرتان من أعمال أشبيلية

(٢) Blasco

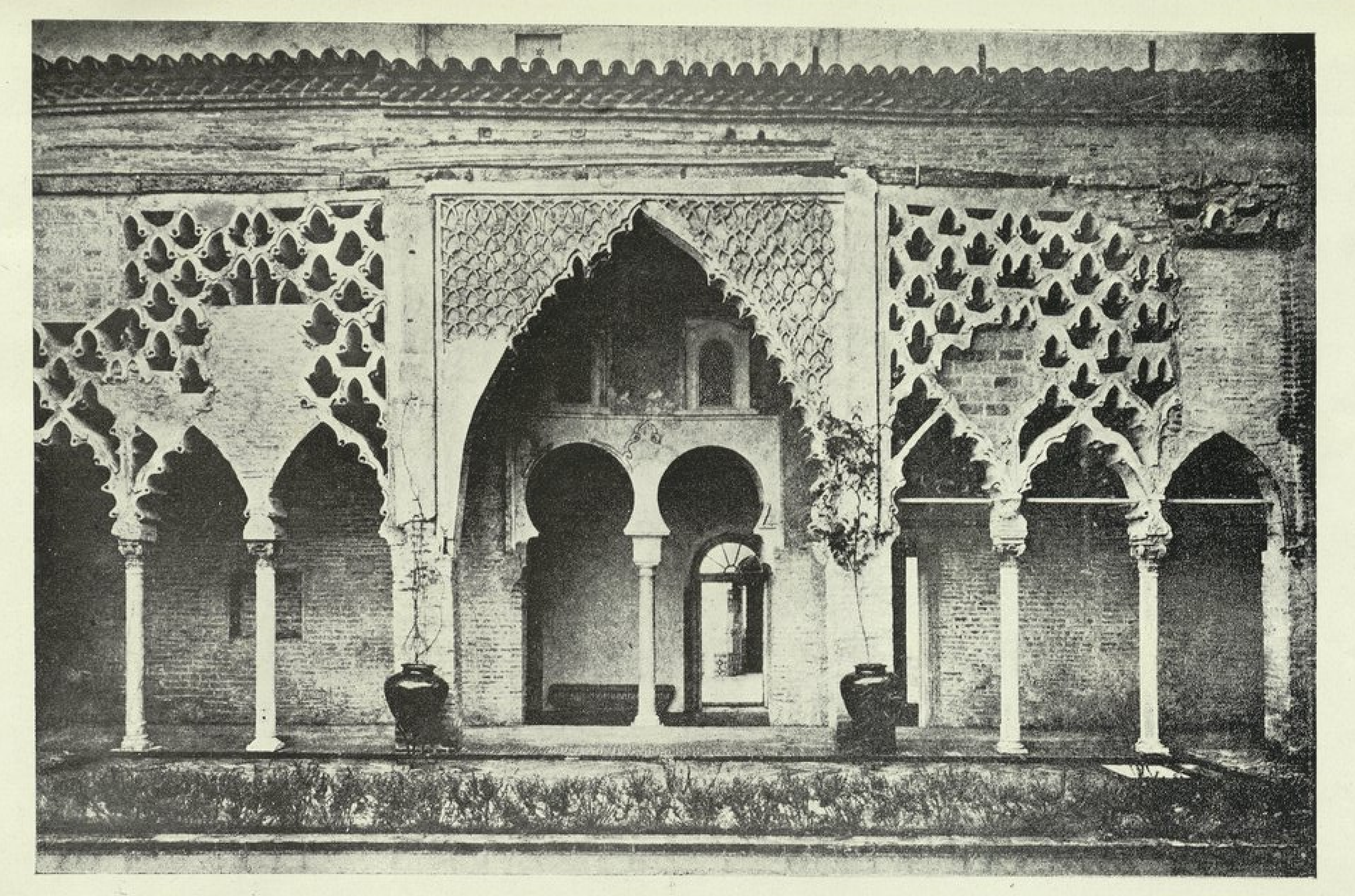
(٣) أطريرة Utrera : بلدةٌ من عمالة أشبيلية كانت من مواطن العرب المتنصرة، مشهورة بجمال نسائها

(٤) غبريرة وكبريرة Cabrera أسرةٌ اندلسيّةٌ عُرفت في المغرب ثم انقرضت، امّا في اسبانيا فلا تزال فروعها منتشرة

(٥) قرطناش او قردناش Cárdenas أسرةٌ اندلسيّةٌ مشهورة، لا يزال بعض افرادٍ من فرعها المغربي في تطوان

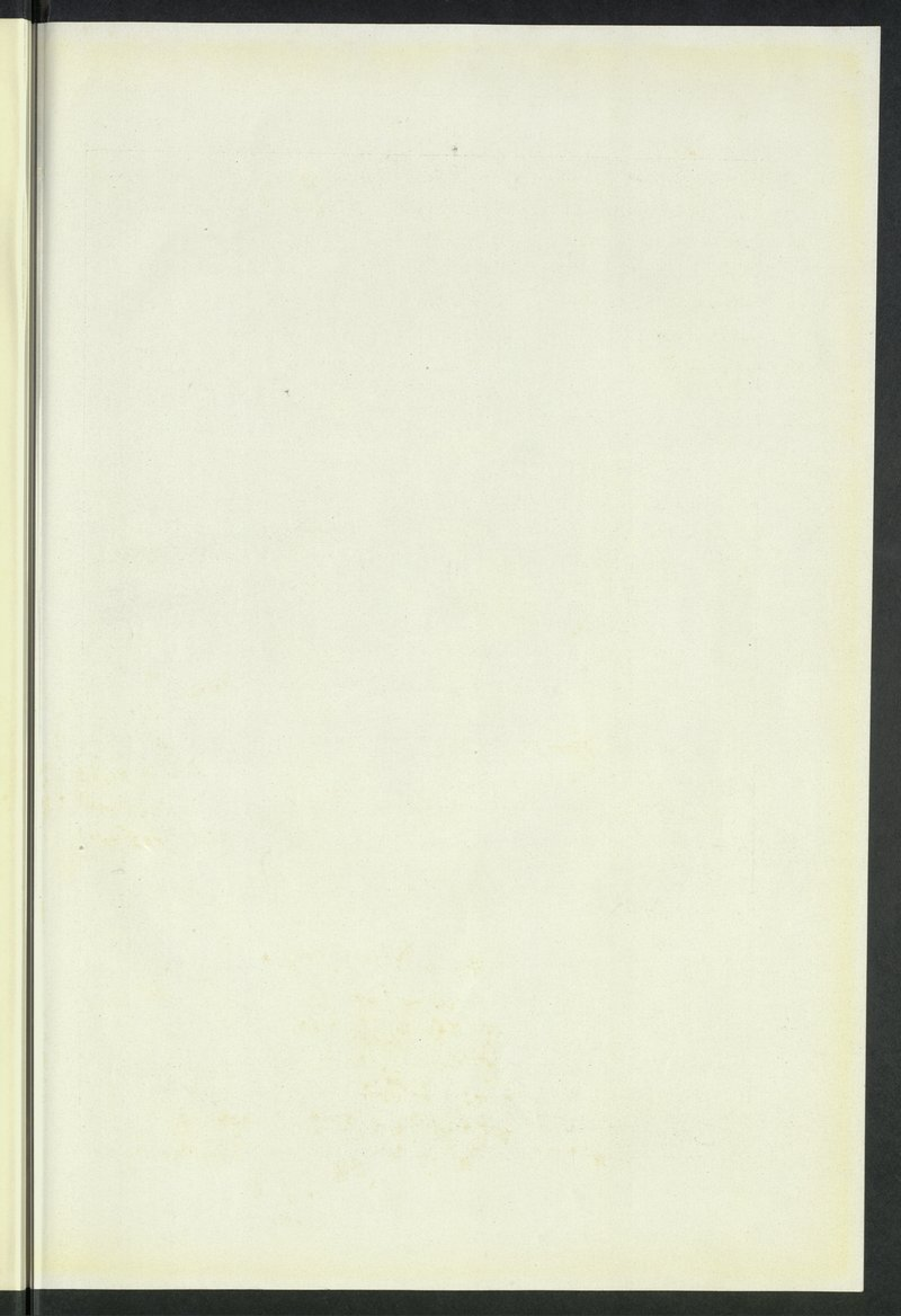
(٦) بريشه : Brixa أسرةٌ ارستوقراطيّةٌ مغربيّةٌ من فروع العشيرة الحُميديّة الكريمة اشتهرت باخلاصها في خدمة العائلة العلويّة الشريفة المالكة في المغرب الاقصى، منها العالم المشهور الفقيه الحُميدي الذي نزح من مكناس الى تطوان فانتشرت سلالته في هذه العاصمة، ومنها الحاج عبد الكريم بريشه سفير مولاي الحسن الى اسبانيا في مسائل سوس عام ١٢٩٩هـ والشهم الكريم الحاج العربي بريشه الذي ارسله مولاي الحسن الى بلجيكا فانكليترا للمخابرة مع السلطات هُناك لتمهيد ارسال بعثة مغربيّة الى مدارس بروكسل، والحاج العربي هذا هو والد الشهم النزيه سيدي عبد الواحد بريشه حاجب صاحب السمو الملكي الخليفة المعظّم مولانا الحسن بن المهدي اعزّه الله، وقد اخلص السيد عبد الواحد في خدَماته كما اخلص اباؤه واجداده في خدمة العرش العلوي

اما لقب بريشه فهو من جهة أم الجد الاوّل لهذا الفرع، ويمكن ان تكون الأُم اندلوسيّة الاصل، امّا آل الحُميدي فهم مغاربة اقحاح ولا يمكن ان نسلّم بانهم من نازحي الأندلس



Sevilla.—Alcázar: Patio del Yeso.

أشبيلية—القصر : باحة العظم والجبس



وابن بيدس (١) وارميرو (٢) وافوريكو(٣) والشربي (٤) واللبّ(٥) واولاد خويا (٦) وخيرون (٧) وراغون (٨) وبائص(٩) ومنضوصه(١٠) وغير ذلك، ثم رحلنا بين العشائين لبعد المسافة التي بيننا وبين مدينة أشبيلية عن خمسة عشر ميلاً، والمراد من ذلك ان يكون وصولنا اليها بعد الظهرين، فلذلك استعملنا السّير من اوّل الليل، لان المدن المعتبرة يقدمون الكتب المتضمن طلبهم منا اللحوق لبلادهم اول النهار ليتهيأ جميعهم للملاقاة، وابرازهم للترحيب خارج المدينة وداخلها الى غير ذلك، مما يجب عليهم من اداء الحقوق التي اوجبها عليهم طاغيتهم، فلم يسعنا الا الايجاب، وكلّ مدينة نشاهد مباشرة اهلها ما فيه زيادة على من تقدّمهم، كلّ ذلك من فضل الله تعالى وما اودع الله في سيدنا المنصور بالله من السرّ والعظمة في نفوس الاسلام، وانقياد الكفرة لأمره المطاع، حتى انهم اذا ذكر اسم سيدنا أيده الله وهم حاضرون لا يسعهم الا نزع الشمارير عن رؤوسهم، طاغيتهم فما دون تعظيماً لجناب سيدنا وتبجيلاً، وفي ذلك آية يستدلّ بها على عزّ الإسلام ونصر دين الله القويم، وتأييد سيدنا المؤيد بالله وعظمته

الخبر عن مدينة أشبيلية (١١)

لمّا اشرفنا عليها شاهدنا من عظيم بنيانها، وارتفاع ديارها، وتعدد الصوامع بها ما ذكرنا بمصر في طولها وامتدادها وصعود مآذنها، وجري النهر بناحيتها، وعمارته بالأجفان التي لا حصر لها، وقد برز من الخلق للملاقاة مالا يأتي عليه الحصر خاصةً وعامةً نساء ورجالاً، وقد تقدّم القوم، الحاكم والقاضي وجماعة من أعيانهم باكداش عديدة، واهل الموسيقى مصاحبون للجميع، ولمّا اختلطنا بالقوم ترجّل جميعهم وادّوا الواجب كما يجب، وبالغوا في التعظيم والتبجيل والمباشرة اللائقة بالمقام الاسلامي الذي جعل الله لعباده المؤمنين من غير اعتبارهم لذلك

---

(١) ابن باديس (بيدس) Aben Baides : عائلة لا تزال فروعها في المغرب

(٢) رميرو Ramiro : عائلة اندلوسية مشهورة في اسبانيا

(٣) لم نتحقق من ضبط اسم هذه العائلة ولعله فريدريكو Federico او Frego او Ferrero وكلها أسر اندلسية ويغلب على الظنّ ان المقصود فريدريكو، وهذا الفرع انقرض من المغرب، ولم يبق من آثاره الا المثل العامي المغربي التطواني القديم الذي يشير الى رجل من هذه العائلة اشتهر بتنظيمه وترتيبه للأشياء ثم مات وترك كلّ حاجةٍ في محلّها «راح عمّي فريدريكو وترك كل شي بطريقه» اي انه مات وترك كلّ حاجةٍ في محلّها

(٤) الشربي : عائلة معروفة وفروعها منتشرة في المغرب

(٥) اللبّ Lope او López : عائلة اندلسية انقرضت من المغرب وآثار رسوم ديارها باقية في تطوان، منها دار خربة تعرف بخربة لبّ

(٦) اولاد خويا : منهم في القصر الكبير

(٧) خيرون Girón : عائلة اندلوسية مشهورة وتعرف اليوم في المغرب بالخيروني

(٨) راغون او اراغون Aragón : عائلة اندلسية مشهورة، كثيرة التشعب في اسبانيا، اشتهر من الفرع المغربي الحاج عبد الكريم راغون التطواني الذي ارسله مولاي محمد بن عبد الله الى الاستانة بمهمّةٍ رسميّة، ومن فروع سلالته بقية في تطوان

(٩) بائص وبايص Baeza و Baza : عائلة اندلوسية كبيرة، نزحت الى تطوان ولا تزال فروعها منتشرة في المغرب

(١٠) منضوصه Mendoza : عائلة اندلسية، الفرع المغربي انقرض، أمّا الفرع الاندلسي فلا يزال في اسبانيا

(١١) مخط : شبيلية

وانما خضوعهم وإذعانهم وامتثالهم وانقيادهم بالخاصيّة لاهل توحيده، ولو كان ذلك خاصاً بأمر طاغيتهم لظهرت المباشرة من بعضٍ دون بعض، ولمّا كانت نورانية الإسلام هي الفاعلة استغرقت الكلّ منهم في الخدمة والامتثال، ثمّ بعد ذلك قدّموا لنا أكداشاً ركبناها لجودتها عن الاكداش التي كنّا بها، وكل ذلك زيادة في التعظيم والترحيب، وضربت علينا الموسيقى وغيرها من آلات الطرب، وذهبنا في خَلق كأنهم جَراد منتشر، واحدق بنا الشلطاظ بالسيوف المُصْلتة لردّ القوم عنا، ومع ذلك سرنا في ازدحامٍ عظيم

ولمّا انتهينا لشطّ الوادي وجدنا به أشجاراً ممتدّة بساحله في غاية العلوّ والضّخامة لا ثِمار لها، وإنما هي للظلّ فقط، فعبرنا بينها وبين سُور المدينة ما يقرُب من ساعةٍ لاجل الازدحام، وأهل المراكب يُخرجون المدافعَ عن يسار العبور، وأبراجُ المدينة يُخرجون المدافعَ عن اليمين، فأُخرج من المدافع بذلك اليوم نحو الثلاثمائة مدفعاً، ودخلنا المدينة في هيئةٍ لم تعهد منهم الاّ في دخول طاغيتهم على ما حدّث به الجمُّ الغفير، ولم يزل القوم منكبّين علينا حتّى دخلنا الدار المُعيّنة لنزولنا بأمر طاغيتهم، فاذا هيَ داخل قصبة أحد مُلوكِ الإسلام: وقيل إنّها كانت للمُعتمِد بن عبّاد رحمه الله، وهيَ عندهم مُحجّرة لم يسكنها أحدٌ ولا يدخلها الاّ اذا اتى طاغيتهم بنفسه او القيّم على نظافتها وتفقّد احوالها ممّا عسى ان يَحدث بها من سَيل المطر وغيره، وحيثُ كانت مُحجَّرة بقيت على جدّتها الى الآن، فهي من الديار التي لم تكن مثلها بالبلاد الاصبنيولية بالكليّة الاّ ما كان بغرناطة على ما قيل

وقد شاهدنا منها ما يَكلُّ الواصفُ عن بعضٍ بَعْضِه من ضخامة البُنيان وتعدُّد القِباب(١) والغُرَف والمقاعِد والمنازه، وقد استوعب جميعُها الرَّقم المُعجَب(٢) من عمل الجبّاص والنجّار، والترليج(٣) بالتسطير(٤) والخطوط المشرقية والكوفية وصنائع أبدعَ المُهندسُ في انشائها غير معهودةٍ، والتمويه بالذّهبِ في الخشب، وبعضهُ بالجبص حيطاناً وسقفاً، وبازاء هذه الدّار رياضات وبساتين احاطت بها من الجهات الثلاث يأتي ذكرها كما نَصفُ كيفية بناء القبّة الواحدة من الديار المذكورة، ويُحالُ عليها ما عداها «إن شاء الله» كلٌ في محلّه

والمرجعُ لمَا هو الأكد والأولى من الكلام على مُباشرةِ القوم ايّانا وفرحهم بنا وتردُّدِ أعيانهم علينا:

ومُنذُ حللنا الدارَ وهم واقفونَ على قَدَمٍ في تنظيم الشّمع بمناراتها الفضّية والبلّورية وتزيين المقاعد بالفُرُش المنتخبة للنوم زيادةً على المقاعد المعهودة عندهم للجماعة، ودفعوا للقيّم على عمل الطعام ما هو كافٍ لضعفِ الضعف من جماعتنا من أصناف المأكولات على اختلافها

والمباشِرُ لذلك ولدُ حاكم البلد نائباً عن ابيه لمرضه، فإذا هو نصراني صاحب عقلٍ ومروءةٍ في ابناء جنسه، وقد احسن المباشرة والأدب، ولم ينفصل عنّا قطُّ، وفعل مِنَ الخير ما وَهَبَ في ابلاغه لطاغيته

ومن الغد بعثَ القاضي يستأذن في المجيء الينا فأذنّا له، وقد تقدّمهُ ثلاث رجال من الأعيان نائبين عن اهل المدينة في السلام علينا ولتنُوهم ما يقولون، وقد صاحبهم عددٌ كثيرٌ من الخَلقِ، فتقدّمَ الرجال الثلاثة وتأخّر مَن عداهم من القوم فجلسوا أمامنا وتكلموا كلاماً خفيفاً جامعاً شاملاً لِما اقتضاهُ الوقت «من أنهم بُعثوا من اهلِ المدينة معترفينَ بفضل

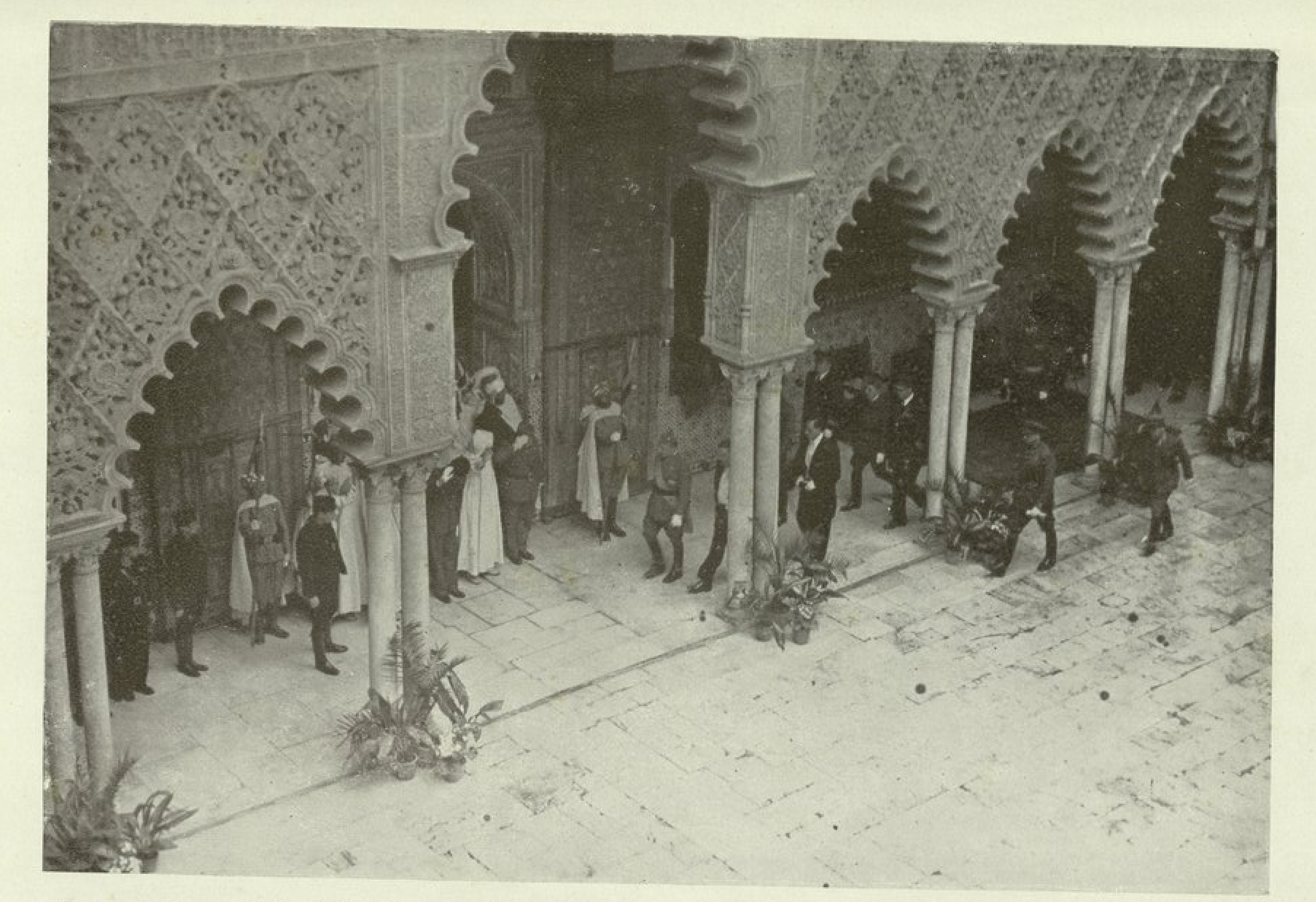
---

(١) القِبابُ جمع قُبّة: بناءٌ سقفُهُ مستديرٌ مُقعّر Cúpula, Cúpulas

(٢) الرّقمُ: ضربٌ مُخطّطٌ من الوشي

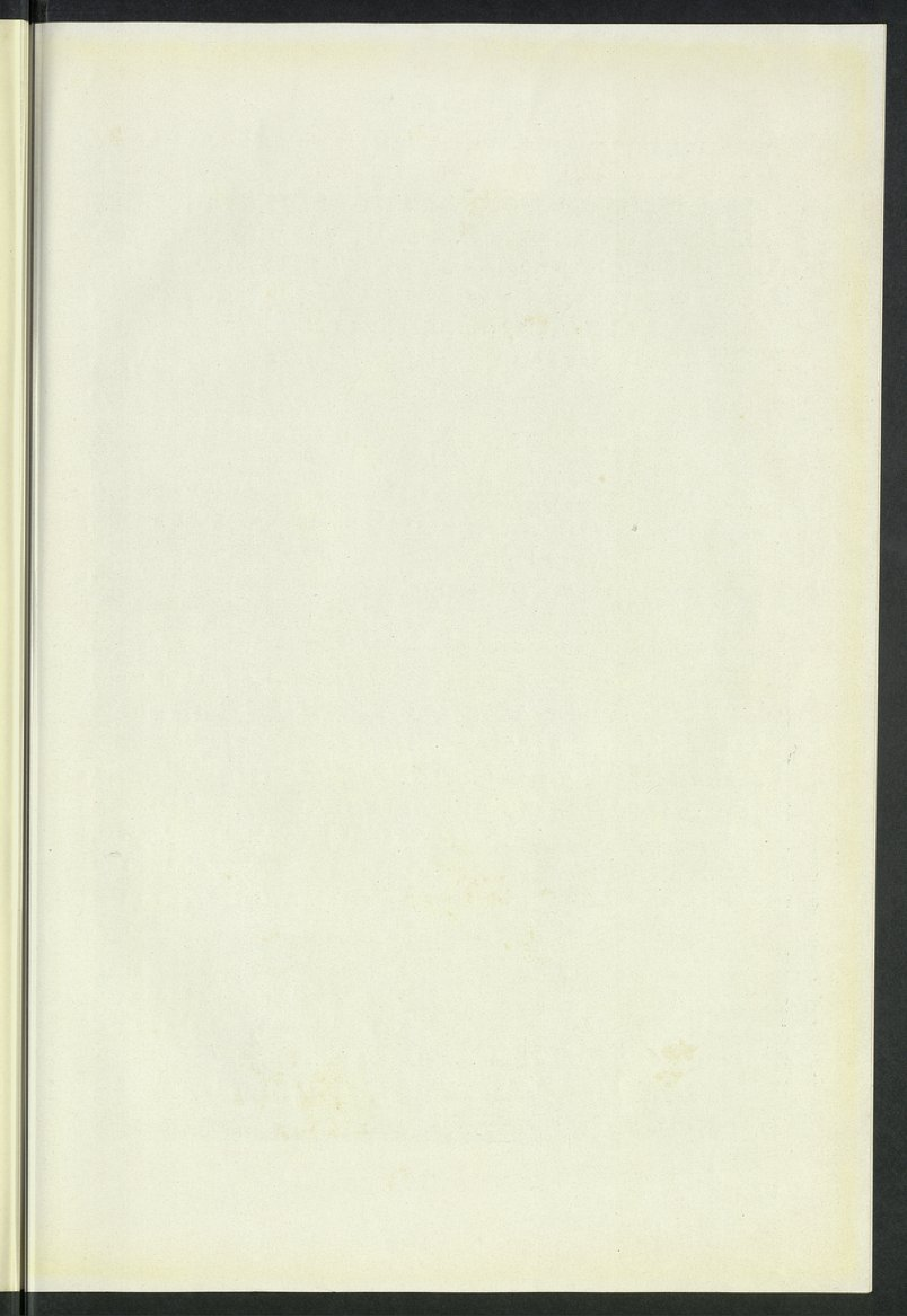
(٣) الزّلج والزّليج: (القيشاني) Azulejos

(٤) رسومٌ وخطوطٌ هندسيّة (تسطير)



Sevilla.—Alcázar: Salón de Embajadores. - Recepción, por el Caudillo, de los peregrinos marroquíes a su regreso de La Meca (1937).

أشبيلية– القصر : قاعة السفراء . رسم أخذ عند استقبال رئيس الحكومة الاسبانية الجنرال فرنكو وفود الحجاج المغاربة بعد عودتهم من الحج المبارك عام ١٩٣٧



السلطان أيده الله حيثُ امتنّ على جنسهم بهذه المُهادَنة، وهم يطلبون من الله تعالى أن تكون دائمةً متّصلةً، وقد أمرهم طاغيتهم بالفرح بالباشدور (١) والامتثال لأمره، وكلُّ ما يحتاجُ اليه سيّدنا ويأمر به يُقضى جميعه وما نحنُ الاّ عبيدٌ وخُدّام، والمدينة مدينتُكُم» فاجبناهُم بما يُناسِبُ، وحدّثناهم بما تَطيبُ نفوسُهم «من قبولِ سيدنا على عظيمِهم وانّه مُقدَّمٌ على عُظَماء الرُوم ومُميَّزٌ عنهم، حتّى أنّهُ ايده الله سَرَّحَ لهم عدّة من الأُسارى من غير جنسه، اذ ولده هو الحاكمُ فيهم الى غير ذلك مِمّا في معناه من امتنان سيّدنا على طاغيتهم وتفضيله عليه:»

وقد انصرفوا عنّا فرحين مسرورين، يحدّثُ بعضُهم بعضاً بذلك، وفي أثَرهم وَرَدَ علينا القاضي وجماعة مع أحد وزراء الطاغية، كان بعثه الى هُنالك لغرضٍ ولم يُعرف به أحدٌ، وكأنّه استكتمهم وجاء مُصاحباً للقاضي مسلِماً ومُختبراً، ولمّا رأى ما يَسرّهُ خَبَراً ومُخبراً، عرَّف حينئذٍ بنفسه، فجدّدنا السلامَ عليه وخاطبناهُ بما يناسِبُ، وانصرف من غداة ملاقاتِنا إيّاه لحضرة عظيمه، مُخبراً بما رأى وسمع، وقد طلب منّا ولدُ الحاكم ضحوة اليوم الثالث أن نذهب معه للوادي بقصد الفرجة والنُزهة، وجاء باكداشٍ ولم يسعنا الاّ ركوبها جبراً لخاطره، وذهبنا بوسط المدينة في جمعٍ عظيمٍ، فلمّا انتهينا الى الوادي عبرنا القَنْطَرة، فاذا بوَسَطها ذاوعٌ محمولةٌ على صواري واقية لحرّ الشمس، وبظلها زَرابي(٢) وشلْيات عديدة، وطلب منا الجلوس هُنالك ففعلنا، ولم نرَ في ذلك كبير فائدةٍ ولا فُرجة نَستحسنها، فلم نشعر الاّ والمُعلّمون النجّارة، والكثير من البحريّة ما يَزيدُ على المائة يقلعونَ الواحَ فراش القَنْطَرة باقراصٍ وحركاتٍ مسرعة لقلعِ الألواح والفرود، فسألنا عما يفعل القوم، فقال لنا ولد الحاكم: إنه يُريدُ فصلَ القنطرة واخراج أحد السُفُن الحاملة لها عن المحل الذي به مُرسَاة، ليحصل لنا اليقينُ بما هي عليه وتنكشفُ حقيقتها حتّى نكون منها على بصيرةٍ في الظاهر والباطن، وانفصال هذه القنطرة يَشيعُ بالبلاد الاصبنيوليّة، ويعلم منه أنّنا أدّينا بعض الواجب من الفرح بكم، فان فصل القنطرة عندنا لا يكون الاّ لأحدِ أمرين: إمّا السَّيل الفادح الذي يُخشى من تتابُعِهِ علينا، فنَحْتَفِلُ لها بجمعٍ عظيم، ونخرج مركباً أو مَركبين عن تَرسِيتهمَا، فاذا رجع السيلُ عادت لمحلّها في الحال وامّا وُرُودُ سلطانِنَا للبلد فنستعمل ذلك فرجـةً له وفرحاً به، وانتم عندنا بمنزلة سُلطاننا، ولو كانت لدَيْنا فُرجة أعظمُ من هذه لابتَدَرْنا لها، فجزيناهُ خيراً، وطلبنا منه ان يُبقي القنطرة على حالها ويَكْفي بالعلم بها واليقين ما حَدَّثَ به وشاهدناهُ عياناً، ولا زائد على الاكرام الصادر والفرح بنا من غير انفصال القنطرة، واخّرتُه عن ذلك جُهدي لما في ذلك من المشقّة الفادحة مع تعطيل الذاهب والآيب من المدينتين مع ما يَضيعُ من الفُرُد والمسامير لاخراجها غير سالمةٍ، اذ نَزْعُها من المحل الذي هي به بعُنْفٍ، فلم ينصت لذلك، وتمادى المعلّمونَ على انفصالها، فحصلوا على المُراد في أقرب مدّةٍ، واسبحُوا أحد المراكب، فاذا هو من المراكب العِظام، مستديرٌ بكبرطَيـهِ صواري(٣) في غاية الغلظ صاعدات، وقد شاركتها فُرُودٌ من اعلاها مبسوطةٌ باعلى رأس الصواري، وعليها تُسمَّر الفُرود المبسوطة للمُرور عليها، وقدر الفُرجة الذي بين المركب والذي يليه قـدر فردٍ طوله ثلاثونَ شبراً، وطول هذه القنطرة مائتان خُطْوَةٍ وعشر خُطوات، وعرضها ثلاثون خُطْوَة، ولها ستائر حافظة للمار مـن السقوط عند الازدحام، وبوسطها قُبّة مـن اللّوح يسكنها من عُيّـنَ لحراستها مـن آفات النار ثمّ اعِيدَ المَركَب لمَوضعها والقيت عليها الفُرُود واثبتت بمسامير قدر الذراع، ورَجعتِ القنطرة لمحلها في أقرب من

(١) الباشْدُور: Embajador سَفيرٌ

(٢) الزَرْبِيَّة. ج زَرابي: ما بُسِطَ واتُكيءَ عليه، وفي المغرب تطلق على كافة انواع السجّاد

(٣) الصاري: عمودٌ يُركز في وسط السفينة يُعلّق به الشراع. ج صَوارٍ

سَاعتيـن، وعَبَرنا عليها في الحال للمدينة المقابلـة لمدينة أشبيلية، وهي مدينة قريبة منها في الكبر وضخامة البُنيان وهي المُسَمَّاة بطرانَة (١)

وقـد برز اهلُها لملاقتنا، وفعَلوا ما فَعله اهل أشبيلية مـن تعظيمٍ وترحيبٍ، ومُنذُ حَلَلنا القنطرة واهل المَراكب يُخرجونَ المدافع الكثيرة، وعند الأَوبَة تلقانا بطرف القنطرة من ناحية أشبيلية خلقٌ كثيرٌ خُيولاً واكداشاً وراجلين اكثر ممّا شاهـدناه في الملاقاة الاولى، وذهبنا في ازدحامٍ عظيم خارج المدينة وداخلها الى الدار المعيَّنة لنا، وما زالت الجموع مجتمعة هُنالك الى الليل، الكلُّ ينتظر رؤيتنا، فتحصَّل من هـذا انَّ هذا الجنس الاصبنيولي على قَلبِ رَجلٍ واحـدٍ، وذلك الرَّجلُ مُستغرقٌ ببعضه وكلّه محبة سيِّـدنا أيده اللّهُ قلباً وقالباً، والظاهِرُ دالٌّ على الباطنِ

ومن العجَب استغراقهم في محبة الإسلام، على ان هذا الجنس هو اشدُّ عداوةً وبغضاً للمسلمين، حتى انَّه يُلقَّب بالعدو الأزرق، ثم استحَالت عداوتهُ محبَّةً ومودَّةً، كلُّ ذلك مـن مَددِ مولانا المؤيد بالله والأسرار التي اودَعَ اللّهُ تعالى في عبده

وممَّا يغلب على الظَّنِّ مـن ظُهور انقيادِهم وامتثالِهم واذعانِهم ومحبَّتِهم وفرحهم بالمسلمين انَّهم اذا عُرِضَ عليهم الاسلام لاجاب جميعهم لو لَم تَكُن بين ظهورهم الفرايليَّة، وهم اكثر القوم فرحاً بهذه المُهادنة ويبدونَ من الفرحِ بالمسلمينَ مالا يُكيَّف، ويُسامحونَ بكل عزيزٍ عندهم في هذا الصّلح الاَّ ما كانَ من محافظتهم على دينهم، وهذا ما ابدَتهُ الفراسَة في القومِ عند مباشرتهم واختبار احوالهم من غير لفظٍ ولا إشارة، الاَّ ما كان من بعض بقيَّة الإسلام، فمنهم من لفظ، ومنهم من إشارة، نسأل اللّه تعالى ان يهدي جميعهم للإسلام

ولنرجع للكلام على كيفيَّة الدار المذكورة ووصف بعض ما اشتملت عليه مـن بديع الصنع ورائق النقش وضخامة البُنيان على ما اقتضته حكمةُ المُهَندسين في ذلك، ولم يكن مثلها بمدينة أشبيلية ولا في غيرها، وذلك أمرٌ مُسَلَّمٌ عند العجم، معترفون بالعجز عـن مثل ذلك لان حكمتهم استقلّت بنحت الحجارة وضخامة البنيان وارتفاع الابواب واستيعاب القِباب والمقاعِد والتصاوير وتذهيب بعض السَّقف وتزيين الحيطان بالقماش المرقوم المُسَمَّر بالمسامير المذهَّبة وتعدُّد المَرايا والمنارات البلّوريَّة، وما في معنى ذلك، وما عَدى ذلك من عمل الجبَّاص والتَّرليج والنجارة، فلا طاقة لهم بذلك، ولا شكَّ انَّ في عمل المسلمينَ حُسنٌ ونظارَةٌ وحليَةٌ تميل لها النفوس، وفيها نزهةٌ للناظِرين

فنقول على سبيلِ الاختصار: هيَ دارٌ متسعةٌ جداً لها أربعة قِباب، والمباحات الدائرةُ بين القِباب محمولةٌ على اثنيـن وخمسين سارية من الرُّخام، وكذا الاقواس من الرُّخام ايضاً، ومثل السواري والاقواس المذكورة في الطَّبقة العُليا، وصفَـة القبَّة الواحدة هي في نفسها ستينيَّة(٢) ولها ثلاثة ابواب دون الباب الاكبر الموالي للصَّحن، كلُّ بابٍ له ثلاثة أقواس محمولة على ساريتين من المرمر، نافذة لمقاعد وقِباب بظهر القبَّة وعن يمينها وشمالها، وسقفُ الستِّينيَّة على شَكل نِصف نَرَنجـة (٣) اشتمل على تسطير مُمَوَّه بالذهب، وما فَضِلَ عن استدارة نصف النارَنجة فمن عمل الجبَّاص المعروف عندهم بالرُّخـوي(٤) غير أنَّه مموَّه بالذهب

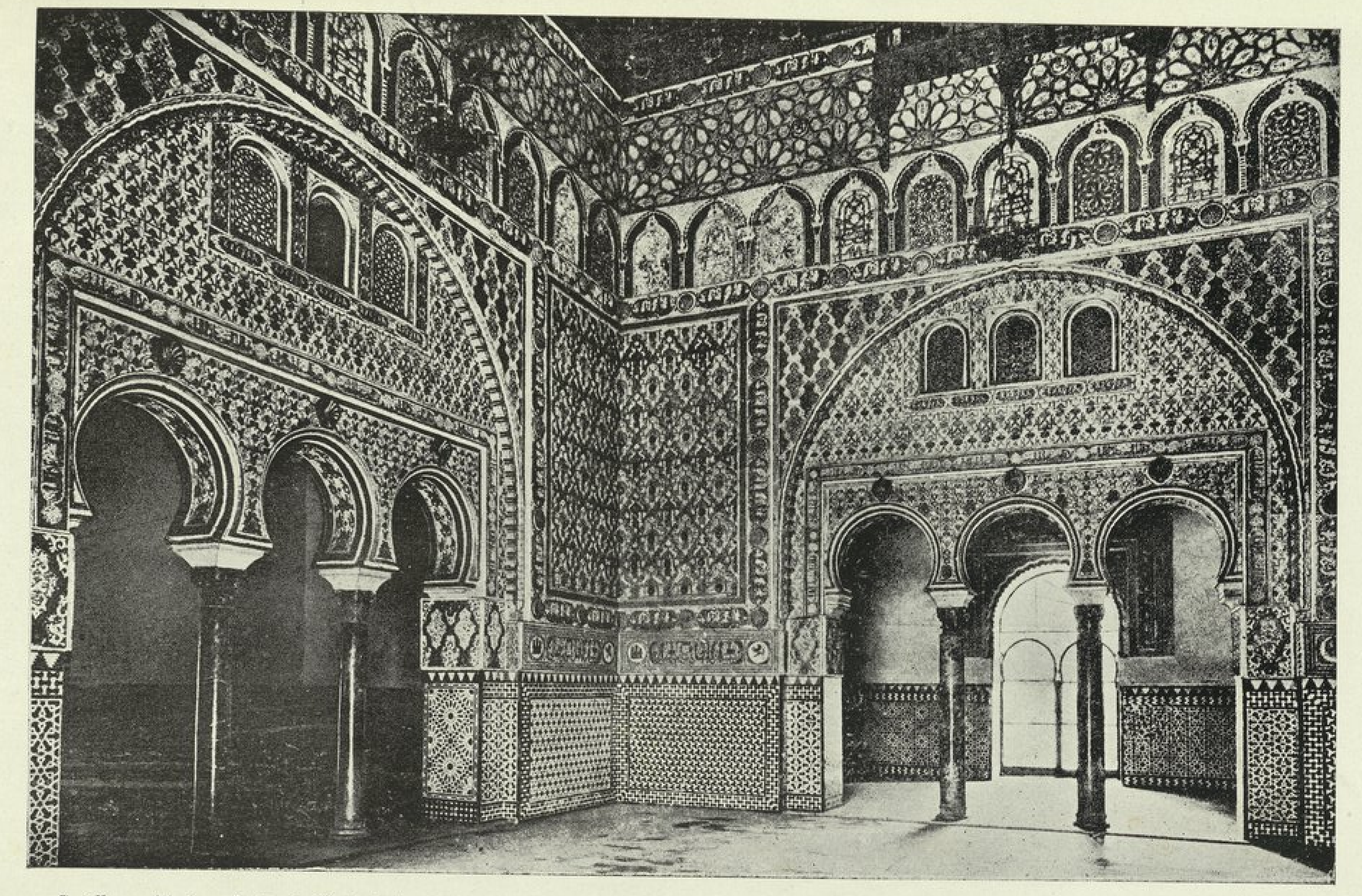
---

(١) هي: تِريَانَه Triana والقَنطَرَةُ التي وصفها الغزَّال هيَ قنطرة جسر النهر الكبير التي تصل تِريَانَه بأشبيلية

(٢) تقسيمٌ هندسيٌّ مؤلّف من ستّين قسيمَة، وهـذه القبَّة التي وصفه الغزَّال هيَ قُبَّة قاعة السفراء في قصر أشبيلية Salón de Embajadores

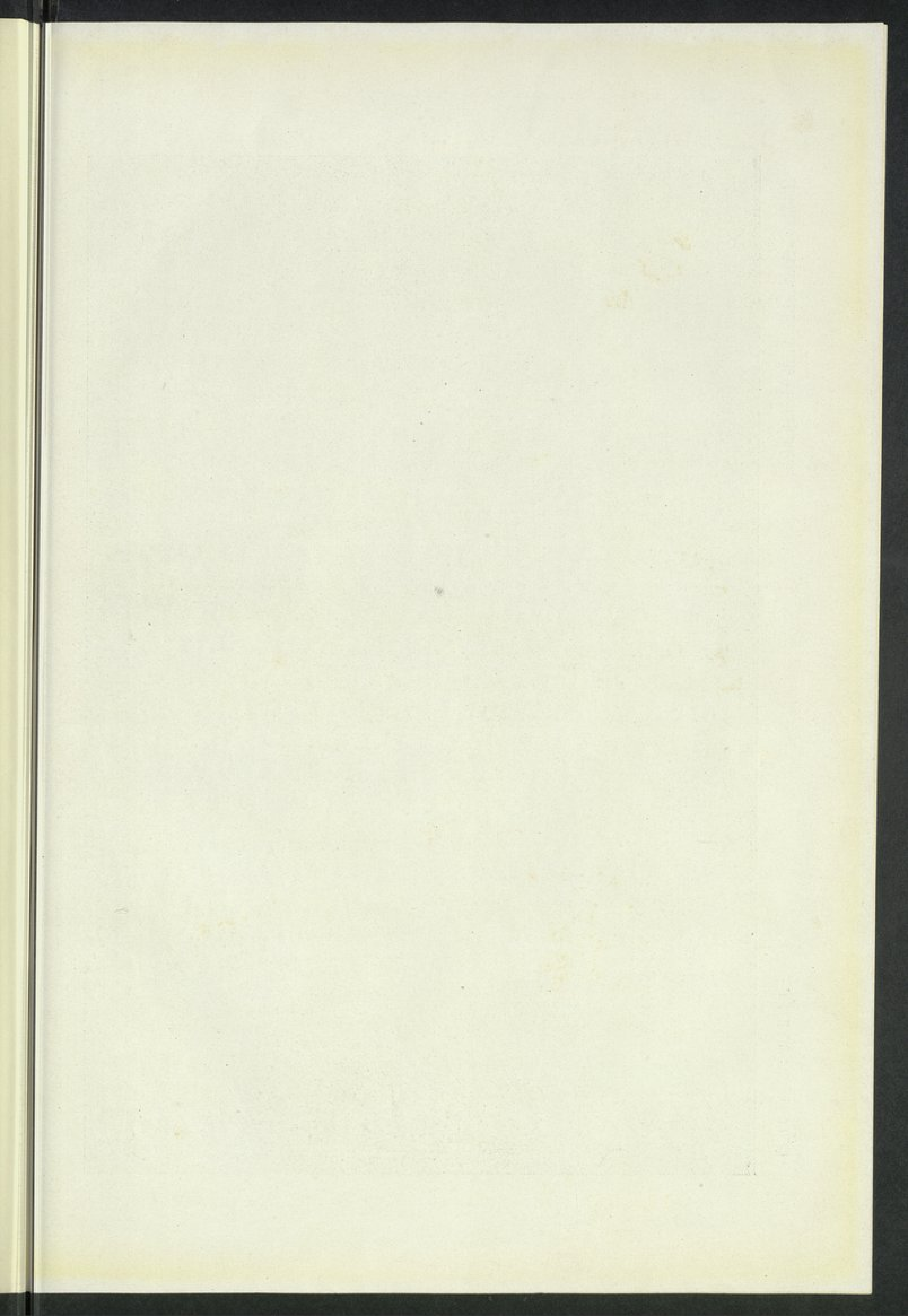
(٣) شَكلٌ هندسيٌّ بهيئة نصف نارَنجة Media naranja والاصح انَّه بشَكلِ نصف ليمونة

(٤) فـنٌّ مبنيٌّ على قسيمات تؤلِّف النقط الاوليَّة لخطٍّ منكسرٍ رُسِمَ بنقط محدَّدَة ومتحجِّرة Estalactitas وموِّهت بالذهب وبالألوان المختلفة



Sevilla.—Alcázar: Salón de Embajadores.

أشبيلية—القصر : قاعة السفراء



وبدائرة القبّة مما يلي الأرض ازرٌ (١) من الزلّيج بالتسطير والقضيب، والخطُّ فوقه، وما فوق الخطّ الى السقف هو من عمل الجبّاص، تسطيرٌ وتشجيرٌ وتوريقٌ، بعضُه مموّهٌ بالذهب وبعضُه بألوانٍ مختلفة، ودُفوف(٢) هذه القبّة في غاية الطّول والعَرض بالتسطير والتقشير، والخطُّ مستديرٌ بقوائمها، والقِبَاب الثلاثة مثلها في الابواب النافذة للمقاعد وأُزُر الزلّيج وعمل الجبّاص، غير أنّ سقفها مبسوطٌ بالعمل المُسمّى عندهم بالبِساط(٣)، وقد استدار بحائط المباحات المقابلة للصّحن أُزُرٌ من الزلايج على الصفة المذكورة، والخطُّ فوقها، ثم رقم الجبّاص الى السقف، منه المُموّه بالذهب، ومنه بالألوان، وسقفُ المباحات لم يكن مبسوطاً وانّما هو من العمل المُسمّى بالجفنة (٤)، استوعبَه تسطيرٌ مذهّبٌ، وقد خالطَه بعض الألوان، والصّحنُ مفروشٌ بالرُّخام الأبيض وبوسطه خَصّة مرقومةٌ علوُّها من الأرض قدر قامة، وبوسطها ايضاً خَصّة اخرى دونها في الحجم يَصْعد منها الماء في الجوّ قدر ارتفاعها من الأرض، وبقدر مساحةِ هذه الدار بقِبابها الأربع بَرَاحٌ خارجٌ عنها مستديرٌ بها من الجِهات الثلاث، شيّدوا به من المقاعد والقِبَاب العَددُ الكثير، منها ما هو نافذٌ للقِبَاب المذكورة، ومنها ما يَدخل اليه من الصّحن، ثم بَرَاحٌ ثانٍ خارجٌ عن الاوّل وحكمُه في البُنيان حكم الذي قبله، وأمّا ما وراء ذلك فبساتين مُحيطة بهذه البناءات من الجهات الثلاث، والمَدارج التي تَصْعَد للطبقة الثانية هي عن يمين الداخل للدار المذكورة خارجةٌ عنها، وعن اليسار بابٌ مشيّدٌ في غاية العلوّ يقابل باب المدارج المذكورة، وداخلها أربعة مقاعد في غاية الطول محيطة بصحنٍ هُنالك، ثم بعده بَرَاحٌ قدر المقاعد الأربعة مع الصّحن، ومنه يدخل للرياضات الثمانية وقد تساوى عُلوُّ المقاعد والبَرَاح المتصل بها بالطبقة العُليا من الدار مع عُلوّ المساحات الخارجة عنها المشيّد بها ما ذكر من المقاعد والقِبَاب، فصارت الطبقةُ العُليا في الطول والعَرض تسعُ العددَ الكثير من الديار المعتبرة

وقد شيّدوا بهذا البَرَاح المتسع من القِبَاب والمقاعد والغُرَف والمنازه والمخازن والحمّامات والمساجد ما لا يأتي عليه الحصر، منها ما يُشاكِلُ القبّة الموصوفة، ومنها ما هو أحسن وأجمل، ومنها ما هو دون ذلك، وقد أَبدَعَ المهندسُ في ذلك كلّ الابداع، وسقفُ هذه البناءات منها ما هو بالمطلع والشِّيتان (٥) ومنها ما هو بالبِساط المشتمل على أنواع التسطير والخطوط المشرقيّة والكوفيّة، وامّا عمل الجبّاص والنجّارة والترليج في جميع هذه البناءات فشيءٌ يتعجّبُ منه في القائم والمبسوط، كلُّ ذلك من عمل المسلمين رحمَهم الله، ومن هذه الطبقة يمرُّ العابرُ للصّقالات المحيطة بالبساتين من الجهات الأربع، كلُّ صقالة بوسطها مدارج نافذة لصَقالةٍ اخرى تحت التي فوقها، وقد ضُربت على بسيط الصّقالة العُليا أقواسٌ محمولة على سواري وضعها المهندس على شكلٍ غريبٍ في البُنيان، جعل في بسيط الصقالات والسواري والأقواس المنعقدة عليها قدر شبرٍ مبني بالآجُرّ المموّه بالجير، ثم قدر شبرٍ ايضاً بالحجر، وهكذا

والسرُّ في ذلك هو: انّ كلّ حجرٍ فيه عدّة منافذ ترمي بالمياه في الجوّ والأنابيب منها مُعوّجٌ ومنها ما هو صاعدٌ للهواء، وقدر الانابيب في جري مائها قدر دم الفصادة او اكثر بقليل، والعَجَبُ هو نفوذه من سائر الأحجار في حالٍ واحدٍ مع تفاوته في الارتفاع الفادح وانخفاضه البائن والمتوسّط، وامّا ما هو بأرض الرياض لم يبقَ له ما شاهدناه باعلى الصّقالة فائدةٌ ولا كبير

---

(١) أُزُر جمع إزار: ما يُلبَس به من البناء من جصٍّ وغيره لتقويتِه وتنميقه Revestimientos

(٢) دفوف: Tímpanos

(٣) Plano, liso

(٤) الجفنة والجُفينة Al-jafana Aljofaina (Escudilla)

(٥) المطلعُ والشيتان: ضربان من صنعةِ البناء والنحت بالجصّ وغيره

عمل يتعجّب منه، وذلك انّ لأحدِ البساتين طُـرقٌ مرصّفةٌ بالآجـرّ، وفي كل منعطف شَكل خصّة مرشومة بالآجرِ المُزدَّج وبوسطها ثقبٌ يصعد منه المـاء دون القامة بقليل، ثم يتبعه رشاشٌ يميناً وشمالاً من بسيط الخَصّـة من الآجرّ بين الخَصص، كلُّ آجرّةٍ بها عدّة انابيب منها ما جريانهُ منعطفٌ، ومنها ما هو غير منعطف، وبأعلى السور تصويرة آدمي وبيده بوقٌ متّصلٌ بفيهِ يزعق فيه ولا يَسكُتُ الاّ اذا انقطعَ الماء، وبهذا الرياض عدّة صهاريج استوعَبَ جميعُها تصاوير تَدفق الماء من فيها ومن ثديها ومن صُرّتها، ثم بوسط احدِ الصهاريج خصّةٌ جعلوا فوقها قُبّـة قدر وسعها، وبأعلاها تصاوير عديـدة، واسبَحُوا بهذا الصهريج فَلوكة اعدُّوها لاهلِ الموسيقى يركبونها عند نزهتهم بالرياض المذكور، وهذا الرياضُ اشتمل على ثمان بساتين، احدُها استقلَّ باشجار الفواكه مُختلفة الثِمار، الثاني اشتمَل على أشجار اللشين(١)، الثالث بحائرِ وخُضَر، الرابعُ اختصّ بأنواع النّوار، ثم الأربعة الأُخر استقلّت بهندسةٍ غريبةٍ في النبات والتلاعب بالمياه والتصاوير وما يُضافُ لذلك

فالاوّل رياضٌ استقلَّ بحركة المياه على الصِفة المذكورة، ونباتُه نورٌ غريب، الثاني رياضٌ من الريحان، له بابان، فالعابرُ من احدِ ابوابه يمُرُّ بازقّة ضيّـقة من الريحان غير كثيفة، علوُّ سورها دون القامة وغلظه ثلاثة اصابع يذهب مستقيماً ثم ينعطفُ يميناً وشمالاً حتّى يستوعبَ الرياض بالعبور ولم يُدرِ من اينَ دَخَـل ولا من اين يكون خروجـه الاّ بدليل عارفٍ بما هُنالك، وقد ضلَّ فيه بعض اصحابنا حتّى بعثنا له مـن يُرشده، فهو بزيادة على مدينة النُحاس المخبـر عنها وعلى المَحنَشَة المعروفة عندنا

الثالثُ رياضٌ به عدّة صورٍ من الآدمي، لباسُهم الريحانُ، نابتٌ من الأرض وقد كسى اشباحَهم بحيث لا يُرى منهم الاّ الرؤوس وزند اليدين فقط، كلُّ واحدٍ من الصُـوَر بيده ماعون حِرفته، وغالبهم اهل الموسيقى، الكلُّ يحسبُهُ الناظر، ولا غَرابة في اقتدارهم على التصوير وانّما الغَرابةُ في نبات الرّيحان من الأرض واستدارته بذواتهم من غير ضخامة في النبات، وانّما انتشاره على أشخاصهم كمَن لبس قميصاً أخضر، وقد يُمكن ذلك في ستر ذواتهم، فكيف يُمكنُ صعود النبات من الأرض لستره الذراعين والساعدين واستدارته بهما الى الزندين؟ ففي ذلك غَرابة لا تنكر

الرابعُ فيه عدّة احواضٍ، والفاصل بين الحوض والذي يليه حاجزٌ بالبُنيان قدر ذراع من الجهات الأربع، وقد اتّصل به من داخل البنيان أشجارُ الورد، غير أنّ نباتها على صفة غير معهودة لاتصال الأغصانِ واختلاط بعضها ببعض حتّى صار نباتها كنبات السِدر(٢)، وعلوّها من الأرض قدر علوّ الحاجز المذكور بالبُنيان، وعرضهـا في النبات دون الطول بيسير، ومن أعلا النبات مستوٍ في البسط وما زاد على الاستواء طولاً وعرضـاً يُقصُّ بالمِقراض، ثم يخطّـونَ داخل هذه التربيعة تصاوير من آدمي او أُسودٍ او تشجيرٍ او كتابة او غير ذلك، الكلُّ بنقل الريحان

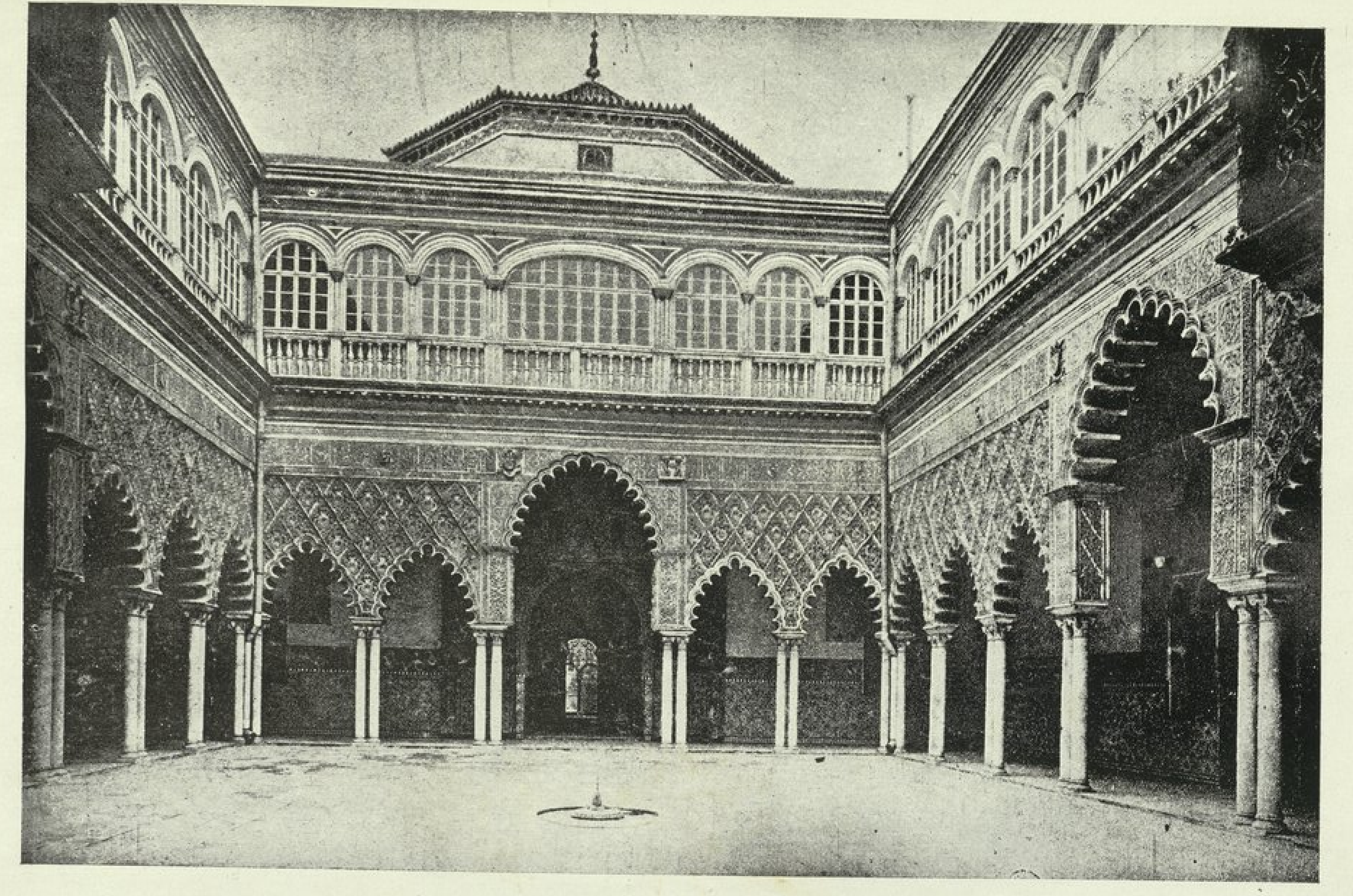
وليس ريحانهم كريحاننا وانّما له شبهٌ بالحبق(٣) يخرجُ من الأرض على ساقٍ، فاذا صعد في النبات قدر ستّة اصابع انتشرت أغصانُه يميناً وشمالاً فيختلطُ نباتُ كل نُقلَـة بنبات التي بجنبها فيمرُّ النبات مستوياً في طوله وعرضه، وما يخرج عن الاستواء يُقصُّ بالمقراض، وارتفاع هذا النبات من الأرض قدرَ شبرٍ وعُرضُهُ ستّةُ اصابع وما فضل من الأرض بعد ان خطّوا ما شاءوا من التصاوير وغيرها بالنَقل المذكورة، فهو فارغٌ لا نبات به، وسورُ هذا الرياض ملتصقٌ به أشجارُ النارنج، وتربيتُهُ في الغِراسة غير معهودة في برّ الاسلام

---

(١) اللشين: هو النّارنج او البُرتقان عند عامّة المغرب

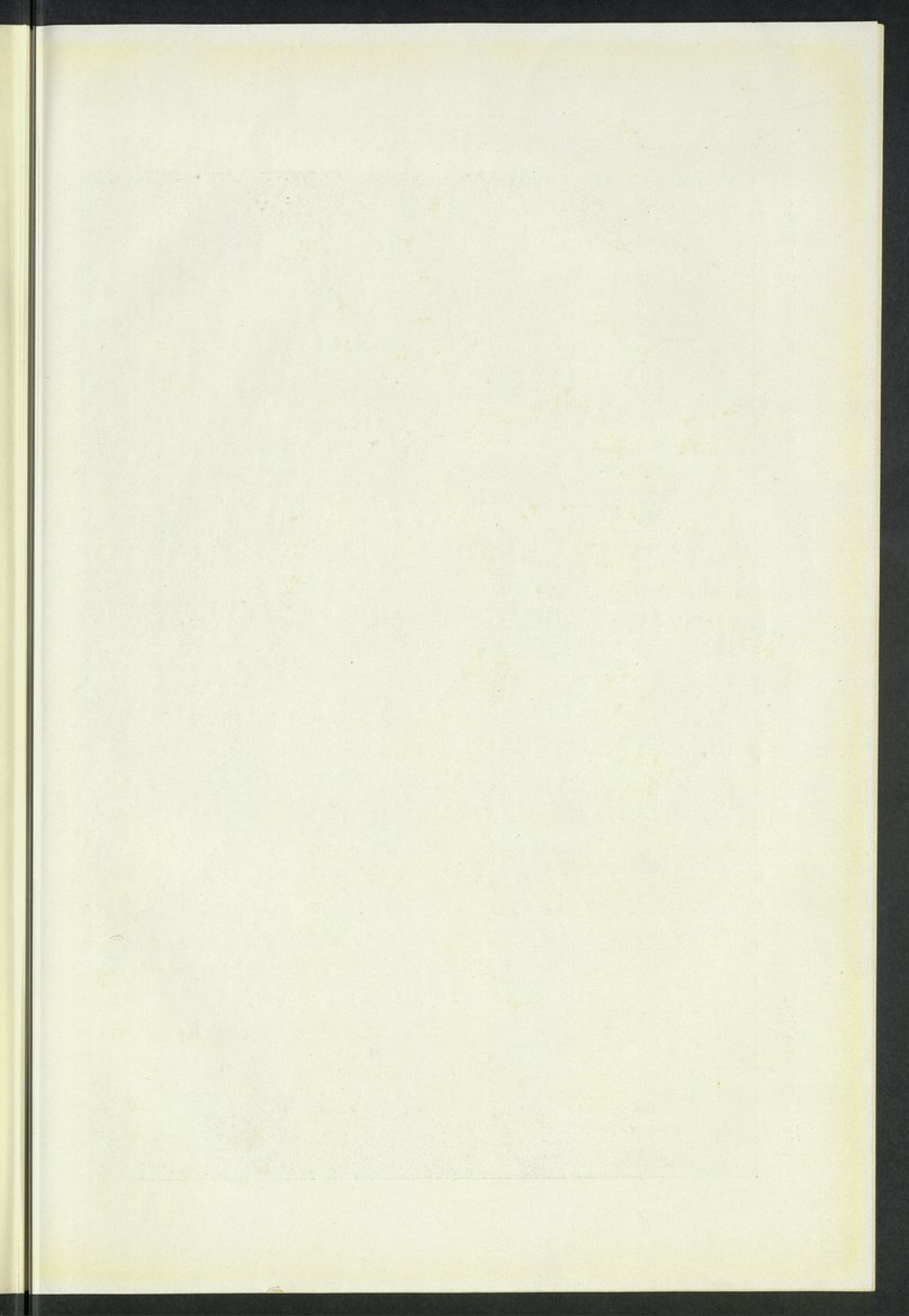
(٢) السِدرُ: شجرُ النبق، ج سِدَر وسُدُر

(٣) نباتٌ طيّبُ الرّائحة يُسمّى بالاسبانية Albahaca (Al habaca) وبالاصطلاح العلمي Ocimum minimum



Sevilla.—Alcázar: Patio de las Doncellas.

أشبيلية – القصر : باحة الفتيات



وكيفيتها انهم يغرسون أشجارَ النارَنج الطريَّة مُلتصقةً بالسور غصناً جنبَ غُصْنٍ فتختلطُ الأغصان عندَ طلق اللِّـقاح بَعضها ببعض فتنتشرُ الخضرةُ في القائم من الأرض والمبسوط، وفي ذلك نظرة

وفي يوم حُلولنا المدينة ذهبنا للجامع الأعظم الذي كان للمسلمين رحمهم الله، وقد تهيأ لملاقاتنا القاضي والكثير من الفرايلية، فصعدنا للمسجد بعشرة درجات لارتفاعها عن الأرض المشيّدة بها، وقد استدار بجُدراتها من خارج بُنيان كالصَّقالة قدر الارتفاع المذكور حافظاً لجدار سورها، ومن نفس السُّور سواري ناتِئَـةٌ منه، وفيما بين السَّارية والتي تليها ثمانية أشبارٍ، فهي بمثابة الأبراج من السور، وزيادةً في الاتقان والتوثيق، والسور والسواري من الحجر المنجور الذي لا يُمَيِّزُ اتصالُ الحجر بالذي يليه فوقاً وتحتاً، يميناً وشمالاً الاّ بعد التأمُّل التّام لتخليصه في النَّحت والتقويم

فعبرنا المسجد من آخر ابوابه الذي هو السابع عشر، فاذا بالمسجد محمولٌ على مائة وعشرين سارية كلّ سارية مُسطَّرة على أربعةٍ وعشرين شطراً، عَرْضُها اربعةٌ وستُّونَ شبراً وطولها خمسة عشر قامة، وبين السَّارية والتي تقابلها ثمانيةٌ واربعون قدماً، وبزوايا المسجدِ قِبابٌ اشتملت على تصاوير قائمَة على اقدامها، ومنها ما اختصَّ بجمع دخائر منارات وحسَكٍ وغير ذلك! ممّا لا يُعبَّر عنه لعَدَم المعرفة بما يُسَمَّى به! الكلُّ من الذهب المرَصَّع باليواقيت «يمنطِيَة» وغيرها، ثم مصابيح عديدة ذهبيَّة وفضيَّة، ثم بوَسَطِ المسجد تربيعةٌ بين سواري أربعة متسعة جداً محجَّرة بشباكٍ من النحاس اتخذوها لمُصَلاَّهم، وجعلوا بها صُلبانهم وقد استوعبها من التصاوير العددُ الكثير من ارضيتها الى السقف وداخل الشبَّاك النحاسي شباكٌ آخرُ من العود متَّصل به من عمل الخرَّاط المشتمل على ما رَقَّ وراق من التشجير الرائق المُحكَّم، وبداخل هذه التربيعـة شلْيَات وكراسي يجلسونَ عليها حال قراءتهم، وهُناك مدارج في غايه الضيق يصعد عليها البَاحات بنصف عُلـوِّ التَّربيعة محمـول عليها صناديق الموسيقى، وبازائها جِعاب طولها من قامةٍ الى شبر، كلُّها من الرصاص وبعضها من النحاس، فاذا حركوها بما لها من الحركات يُسْمَعُ صوتها من خارج المسجد بنغماتٍ مُختلفات

وبصحن الجامع خمسٌ وعشرونَ شجرة من النارنـج وخصَّتان وصهريجٌ واحدٌ به بيوت عـدَّة يسكنها الفرايليـة، وصموعتُها خارجةٌ عن المسجد بقليل، تُشاكـل في التَّشيد صَوْمَعَة الكُتبيَّـة في العلُـوِّ والضخامة، والصعود لها من غير مدارج، الاّ انَّ هذه زادوا في فحلها عُلواً فادحاً على ما اقتضاه نظرهم محل النواقيس بها، وعددُ النواقيس التي بها الآن خمسٌ وعشرونَ ناقوساً، احدُهم وهو الاكبرُ وزنه مائةٌ وخمسة وثمانونَ قنطاراً، قيل انه يسمع صوته مَسيرة يوم

ولمّا رَجَعْنا من الجامع تلقانا ولدُ الحاكم باكداشٍ ركبناها، وقد تقدَّم امامنا، وقد اختلسنا بقوله: نذهب من غير الطريق التي اتينا عليها لئلاّ نحصل في ازدحام، لانَّ القوم في اوْبتنا، واستحسنّا ما اشار به علينا، فلم نشعر الاّ ونحن ببلاصةٍ ذات أشجار عديدة طويلة جداً خارجة عن المدينة قريبة من سورها، وللاشجار خمسة صفوف، في غاية الامتـداد، وهُناك من الخَلق ما لا يَأتي عليه الحصر، فاذا بالموضع محلُّ مُستراحهم ومن أعظم متنزَّهاتهم (١) وبه يجتمعُ كلُّ أنيسٍ بأنيسه وحبيب بحبيبه من الذكور والاناث في كلِّ عشيَّة، منهم من تحمله الاكـداشُ نساءً ورجالاً، ومنهم من يأتي راجـلاً، وهُناك مسْطَباتٌ من الرُّخام بين صفوف الأشجار يجلسونَ عليها لهذا الغـرض، واصحابُ الاكـداش يَعبرونَ بين صفوفِ الأشجار ثم يعودونَ ويستمرُّونَ على ذلك الى الغُروب، يفعلون ذلك كل عشية على التأبيد ما لم يمنعهم المطرُ الغزيرُ وتتابعـه

وقد استثقلنا العبور في ذلك الجمع ومزاحمة القوم، فاذا بالقاضي في كدشٍ مصاحب لزوجته وغيرها ممن رغب في مؤانسته من النسوة، فتحققنـا انَّ ذلك عندهـم لا حرجَ فيه ولا مَنقصة تلحق فاعله، وقصد ولدُ الحاكم بالمرور من هُنـاك نُزهة لنا

---

(١) مخط: منتزهاتهم

وفرجة، وقد كان طَلَب منّا مصاحبته لهذا المحل، فاعتذرنا له بتلطُّفٍ، فاستعمل هذه الحِيلة حتّى حصل على مُراده، وقد اجتمع علينا كلّ من حضر هُنالك من الخَلق ولم نخلص منهم الاّ بعد الكدّ والتعب لِمَا لهم من الغِبطة والرغبة في ملاقاتنا والسلام علينا والترحيب بنا، وقد ظهرت عزّةُ الإسلام وعظمة مولانا المنصور بالله في نفوسهم بالخاصية اوالحمدُ لله!

ومن الغَدِ حتَّمَ علينا ولدُ الحاكم ان نذهب للدار التي تُصنَعُ فيها المدافع والقراريط (١) ومقصوده بذلك اطلاعنا على الأُمور التي نُسأَل عنها من قبل طاغيتهم عمّا شاهدناه بمدينة أشبيلية فيجدنا على بصيرة في الأشياء المؤكّدة عنده، وفيما اظنّ انه مأمور من طاغيته بذلك، ثم الدار التي يقرؤون بها الصبيان ما يتعلّق بأُمور البحر الى غير ذلك، فاجبناه لما طَلَب وذهبنا معه، فاذا بالطريق المعبورة نافذةٌ للأُسبيطال في غاية الكبر طولاً وعرضاً، فاستوعبناه بالعبور فاذا فيه بيوتاً عديدةً ومقاعدَ طويلةً، وبصحنه أشجار النارنج وخَصَص من الماء العَذب، وقد استقلّ بالنسوة المرضى والقيّم عليهنّ مثلهنّ من النسوة ولم يكن هذا الأُسبيطال لطاغيتهم وانّما بناه احد اكابر النصارى وجعل عليه اوقافاً كثيرة ومحّضه للنسوة اللواتي لا اهل لهنّ ولا مال، وبجنبه الدار التي تُصنَع فيها المدافع وهي دارٌ كبيرةٌ اشتملت على بلاطات عديدة كلُّ بلاطٍ منها استقلّ بعمل يتعلق بأُمور المدافع

فالبلاطُ الاوّل به عدّة مدافع كَمُلت صنعتها ولم يبقَ لها الاّ الحمل على القراريط

الثاني به عددٌ من المدافع أُخرجَت من البريم وأُنقلت للخَرْط، والمحرك للمدافع حال الخرط ناعورة تَدُور بحركات لا تعب على محركها، والمعَلِم الذي يُخرطه بِيَده آلة يمرُّ بها على المدفع من رأسه الى ذنبه حتّى يخلص

الثالثُ فيه ايضاً مدافع في البريم، وكيفيّةُ تبريمه منها ما يبرَّم مثل المكحلة مبسوطاً وهو المدفعُ المتوسط، ومنها ما يُبرَّم قائماً وهو المدفع الكبير، يُربَط بين السواري بكُمْناة في الهواء وفمُهُ مقابل الأرض والبريم مُمكَّنة في جوفه تدورُ بثلاث نواعر اثنتان مبسوطتان والثالثة قائمة، فالمبسوطةُ الموالية للأرض تُحرّكُ القائمَةَ والقائمةُ تُحرّكُ المبسوطةَ التي فوق وفي وسطها البريم المتمكّنة في جوف المدفع، واستقلّت حركةُ هذه النواعر الثلاثة بحركةِ بهيمةٍ واحدة، حركات في النزول شيئاً فشيئاً حتّى يستوعب البريم منه القدر المحتاجُ اليه

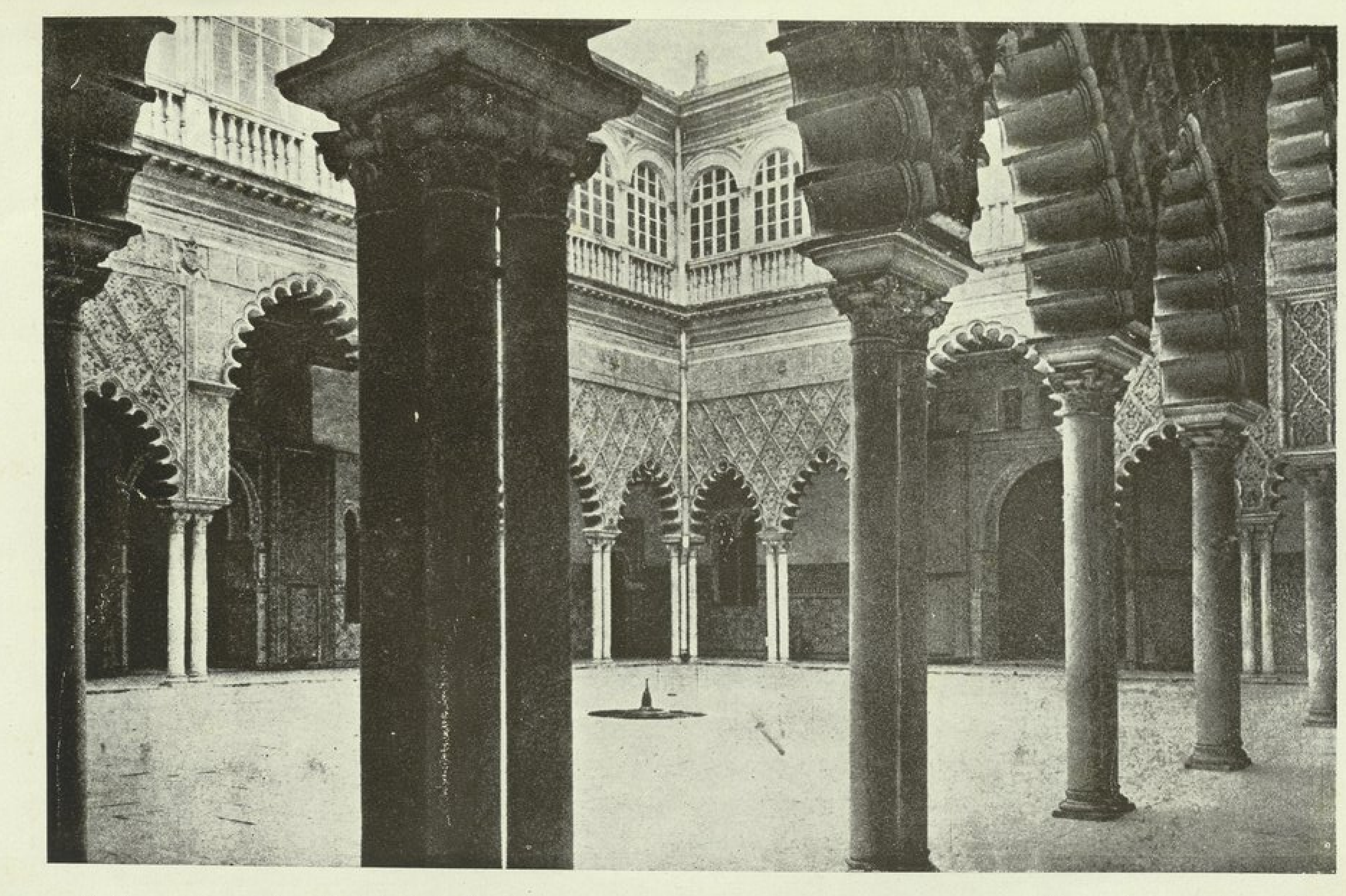
ثمّ البلاط الرابع وهو الموالي للمحلّ الذي يفرغ فيه المدافع وبه عددٌ كثيرٌ من القوالب، وقد وقفنا على الموضع الذي يذوب فيه النحاس، فاذا هو مرتفعٌ عن أرض البلاطة بثلاث قامات وصورتُه كالصّهريج وقد علّتْهُ قُبّة لها بابٌ واحدٌ يدخل منه النحاسُ ثم يلقى عليه الحَطَب ثم يُسدُّ بالبُنيان وله منافس يخرج منها الدُّخانُ وتنفذ منها الرياحُ لداخل الفُرن وبعضها متسعٌ لزيادة الحطب، ان احتيجَ اليه، وهُنالك بلاطات أُخر مملوءة بالنُّحاس، ولجنب هذه الدار دارٌ تصنع فيها القراريط، بها من المعلمين اثنان وثلاثون مُعلّماً من الحدّادة يصنعون ما تحتاجُ اليه القراريط من العمل، وبهذا المحل معلمون أُخر استقلّت خدمتهم بالعمل الغليظ مثل المخاطِف وما في معناهم فهم اثني عشر مُعلّماً والمتعلمون ضعف الضِّعف، وبازاء الاكيار سواري من المعدن باعلاها جرائر بها سلاسل تُدني المخاطف للنار بحركات، فاذا أَخذَ القدر المحتاجُ اليه من الاصطلاء تخرجه وتلقيه على الزُبرَة (٢) ثم يتصرَّف فيه العملحتّى يستوفى الغرضُ من ذلك

ثمّ عبرنا داراً قريبةً من هذه، فاذا هي قدر قرية في غاية الطول والعرض وبها عدّة مقاعد كلُّ مقعدٍ به عدّة من

---

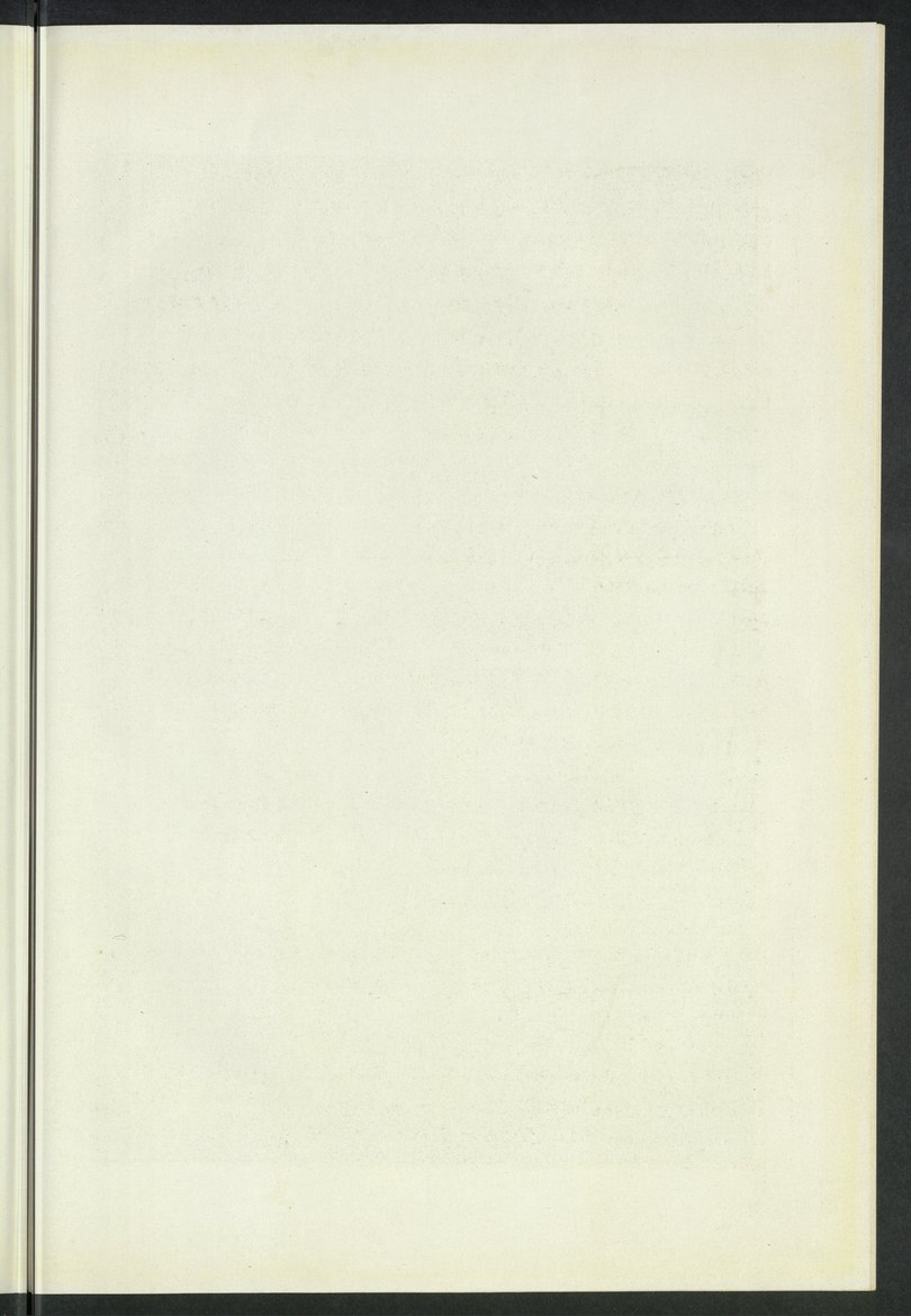
(١) القراريط : Carreta P. Carretas عَجلَةٌ لنقل المدافع او لنقل غيرها من الأشياء

(٢) الزُبرَة : السَّندان ج زُبر وزُبَر



Sevilla.—Alcázar: Vista del Patio de las Doncellas.

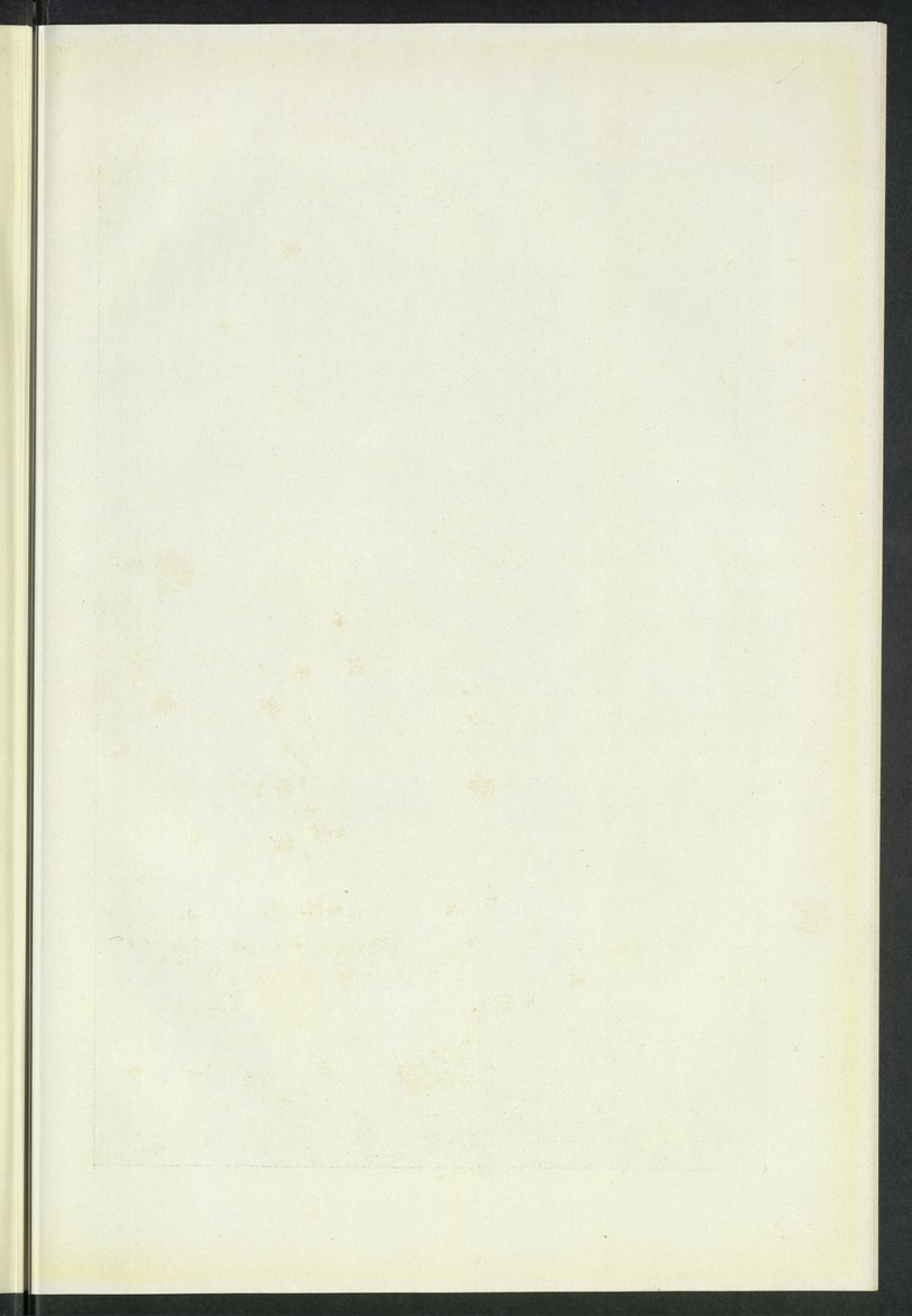
أشبيلية—القصر: منظر آخر لباحة الفتيات





Sevilla.—Alcázar: Jardines.

أشبيلية—القصر : الرياض



الصبيان على قدر الطَّبقات في التعليم، مِمَّن يتعلّم الحروف الى من فوقه، ثمَّ الذي فوقه وهكـذا، وعدد هؤلاء الصِّبيان الحاضرينَ في الوقت مائة وخمسونَ وهذا العددُ عندهم لا ينقص، وكلّ من استكمل عِلمَـه وذهب لما هو مهيّأ اليه من السفر في البحر، يخلفه غيره، والصبيان لا يخرجون من هذه الدار المذكورة قط، وموضع نومهم له شَبَـهٌ بالأسبيطال الذي به المرضى، كلُّ واحدٍ منهم بسريره، وبين السرير والذي يليه قدر ما يَمرُّ الانسان، وتحت كـل سريرٍ صندوقٌ به حوائج صاحبه، وباحد المقاعد سفينةٌ صغيرةٌ قدر الفُلوكة مشتملةٌ على جميع ما تحتاجُ اليه السُّفُن اجمالاً وتفصيلاً بحيث يقرأُ الصَّبيُّ الـكُـتُب المشتملة على علوم البحـر وما يتعلّقُ بآلة المركـب، وكل مسـألـة ترسخُ في ذهنه من طريق القراءة تؤيّدُها مباشرته للمَركب الحاضر معَهُ فيحصل على اليقين علماً ومباشرةً، فمنهم عدَّة دمانيجيّـة ثمَّ الاسطيرياس(١) ثم الرَّيّاس فما دونهم ممَّن يتوقف عليه المركب في حركاته، ولا يخرج احدٌ منهم من المحل المذكـور حتى يَسْتَـكمل معرِفَته للأمر الذي هو معيَّن اليه ويسافر من حينه رئيساً كان او من تحته، ومعلّمو الصبيان ثلاثـة شيوخ طاعنينَ في السنّ غاية، ثم عـدَّة ممَّن دونهم في العلم والسن يباشرون تعليم الصبيان الصغار المبتدئين، وقد اوقفوا الصبيان امامنا حال التشيـع صفوفاً أدباً وتعظيماً لنا فأمرناهم بتسريحهم ثلاثة ايام رحمة بهم واستراحة مما هم فيه مـن السجن، وقد اجاب المعلّمون لذلك، فخرج الصبيان ولهم ضجيج يقولـون: «أبيبا راي مُرّوك بيبا!» (٢) ومعناهـا بالعربيّة «الله ينصر سلطان مرّاكُش» الله يعيّـش الباشدور؟(٣) . . .

ولمَّا كانت آخر ليلةٍ من اقامتنا احتفل ولدُ الحاكم ليلة لم نرَ مثلها في جميع ما رأيتُ: جمع فيها اهل المدينة وأحضر مَن بها من النسوة والبنات خاصةً وعامّةً ولبسنَ من الثياب ما يشاكلهُنَّ في الحسن وقلـدنَ من اليواقيت اليَمَنطيّـة وغيرها، ولا شكَّ ان القصدَ منهم إظهار القوة والسعة في المال وما هم عليه من البسطِ والنِّعَم، وقد هيّأ لهذه الليلة العدد الكثير مـن الشيلّيات بما يزيد على الأربعة آلاف استوعب القِباب والمقاعد والمباحات وصحن الدار وكذلك بالطَّبقَةِ العُليا من الدار واوقد من الشمع ستة آلاف وثمانمائة شمعة ما بين المنارات البلّوريّة والحسك المتصلة بالمرايا المستوعبة في حيطان المقاعـد والقِباب والمباحات والحسك الموضوعة بالأرض بين صفوف الشيليات والشمع المنظَّم على متنِ الدرابيز بالطَّبقة العُليـا وكذلك بالحلقة المتّصلة بالسطح ثمَّ الشمع المجعول بالرياض الذي بجنب الدار وسيأتي ذكره، والكـثير من هذا الشمـع من ثلاثة أذرع طولُه، وعرضه قدر الساعد فاكثر، وقد حضر لهذه الليلة جميعُ مَن بالمدينة من الأعيان، مراكيس وفسياناً وغيرهم من ذوي الأقدار في جنسهم وكبار الفرايليّة وغيرهم والقاضي ومَن يماثله في المرتبة، وجعلوا بكل قُبّة من القِباب جماعة من اهل الموسيقى، والموضع الذي نحن فيه يتردد الينا النِسَاء فيجلسن بين ايدينا هنيئة ثم يذهبنَ ويأتي غيرهنَّ وولدُ الحاكم واقفٌ على قـدَمٍ يقرب ويبعد ولم يجحف بحق احـدٍ منهنَّ فتحصَّل من هذا استيعابنا بالنظر نسوة المدينة وبناتهنَّ كما لم يفت احد منهنَّ رؤيَتنا في ليلةٍ واحـدة

وعند الفراغ من عمل ولد الحاكم مـن التقريب والتبعيد للنسوة، اقبل علينا طالباً ان نذهب للرياض الذي بجنب الدار لنجد به بعض الاستراحة من تعب الازدحام، فلم نجد بداً من مساعدتِه وقـد اقتفى اثرنا كلّ مَـن كان في الدار فوقاً وتحتاً نساء ورجالاً، فاذا بالرياض يضاهي ضياؤُه نور الشمس من اتِّقاد الشمع بالصَّقالين اللّتين بأعلى السُّور، والقدر الذي بين الشمعة والتي تليها قدر ذراع فما دون، وطول الشمعة ثلاثة اذرع، ووضعوا بجُدُر السور وفي المقابل له من الترصيف

---

(١) من رُتَبِ الوظائف البحريّة

(٢) ¡Viva el Rey de Marruecos: Viva! —(٣) ؟ لم يذكر في الاصل التعبير الاعجمي : ¡Viva el Embajador!

منارات من الكاغيد على شكل القادوس(١) واقية للهواء في كلّ واحد شمعة، والفُرجة التي بين الفنار والذي يليه قدر ذراع، وهُناك طُرق أُخرى في وسط الرياض على الصفة في الترصيف واتقادِ الشمع بها يميناً وشمالاً، ثم فنارات أُخر مُعلّقة بالأشجار وهُناك صهاريج استوعب حواشيها انتظامُ الشمع وكذا الصهريج المتقدّم ذكره صاحب الفُلوكة استوعب جميعه شمعٌ مع كبر الفلوكة الحاملة لاهل الموسيقى، فهيّئوا موضعاً بشطِّ هـذا الصهريج، فما شعرنا الاّ والنسوة يتزاحمنَ على المحل الذي نحن به، الكلُّ يطلب رُؤيتنا الى ان تفاقم الأمر لِلجاجٍ فيما بينهنَّ من شدّة الازدحام، فطلبنا من ولد الحاكم ان نعود للدار وتعلّلْتُ بعلّةِ النوم وما المّ بنا من الألم الناشيءِ عن السهر، فاجاب، فلمّا تزحزحنا من المحل علم الكلُّ بالانصراف فتهيّئوا للتشييع وذهب كلٌّ لحالِ سبيله

ومن الغدِ استعملنا السير بعد الاعتراف لولد الحاكم بما هو عليه من النجدة والأدب والصواب ووعدناه بابلاغ ما رأينا منه من الترحيب والاكرام لطاغيته، وذهبنا في حفظ الله وأمنه قاصدينَ مدينة قَرمُونة عن ثمانية اميال

الخَبرُ عن مدينةِ قرمُونة (٢)

مدينةٌ في حجرِ ربوةٍ وبقُنّة الربوة قَصَبَةٌ للمسلمينَ رحمهم الله، سورها في غاية الطول والعرض باقٍ على حالـه، غير أنّ أبراج القصبة وسور المدينة هُـدَ البعض منه، وبداخل القصبة دارٌ جيّدةٌ كانت على عهد عمّارها مـن المسلمين للمتولّى أمر المدينة معدّة لسُكناه، والآن يسكنها حاكِمُ البلدة، وأبواب المدينة صارت الآن في وسط بُنيان احدثه الكفّار خارجاً عن المدينة الاسلاميّة هو قدر المدينة مُتّصلٌ بها مـن خارج، على ان البُنيان القديم أفضل وأحسن مما احدثه الكُـفّار في الارتفاع واحكام التشييد، وقـد برز لمُلاقاتنا على بعدٍ من المدينة خلقٌ كثيرٌ بخيولٍ واكداش، فرحّبوا بنا واظهروا مـن الفرح والبشاشة ما لا يكيَّف، وعبرنا المدينة بين رجال ونساء وصبيان الى ان انتهينا الى الدار المهيّئة لنزولنا، وهي من خيار دور المدينة، وما زال حاكمها وقاضيها يستأذنُنا في دخول الأعيان علينا بقصد السلام والترحيب بنا ولهم رغبة وغِبطة في التحدّث معنا وسؤال الاوّل كالثاني، فلم يسعنا الاّ الايجاب

واهلُ المدينة اهل نظافةٍ وحُسن، ولهم ميلٌ للمسلميـن وتحنُّن والكثير منهم ينتسبون ا فللّه الأمرُ مـن قبل ومن بعد! وأرجاء المدينة في غاية البسط وجودة التُربة وقـد استقلَّ شرقها بغروس فواكه وأشجار الزيتون وغربها بالحراثة

اقمنا بها يومنا وسافرنا منها ليلاً قاصدين مدينة الفوينطي عن خمسة عشر ميلاً بين أشجار الزيتون مستقيمة الصفوف في الغراسة

الخَبـرُ عن مدينةِ الفوينطـي (٣)

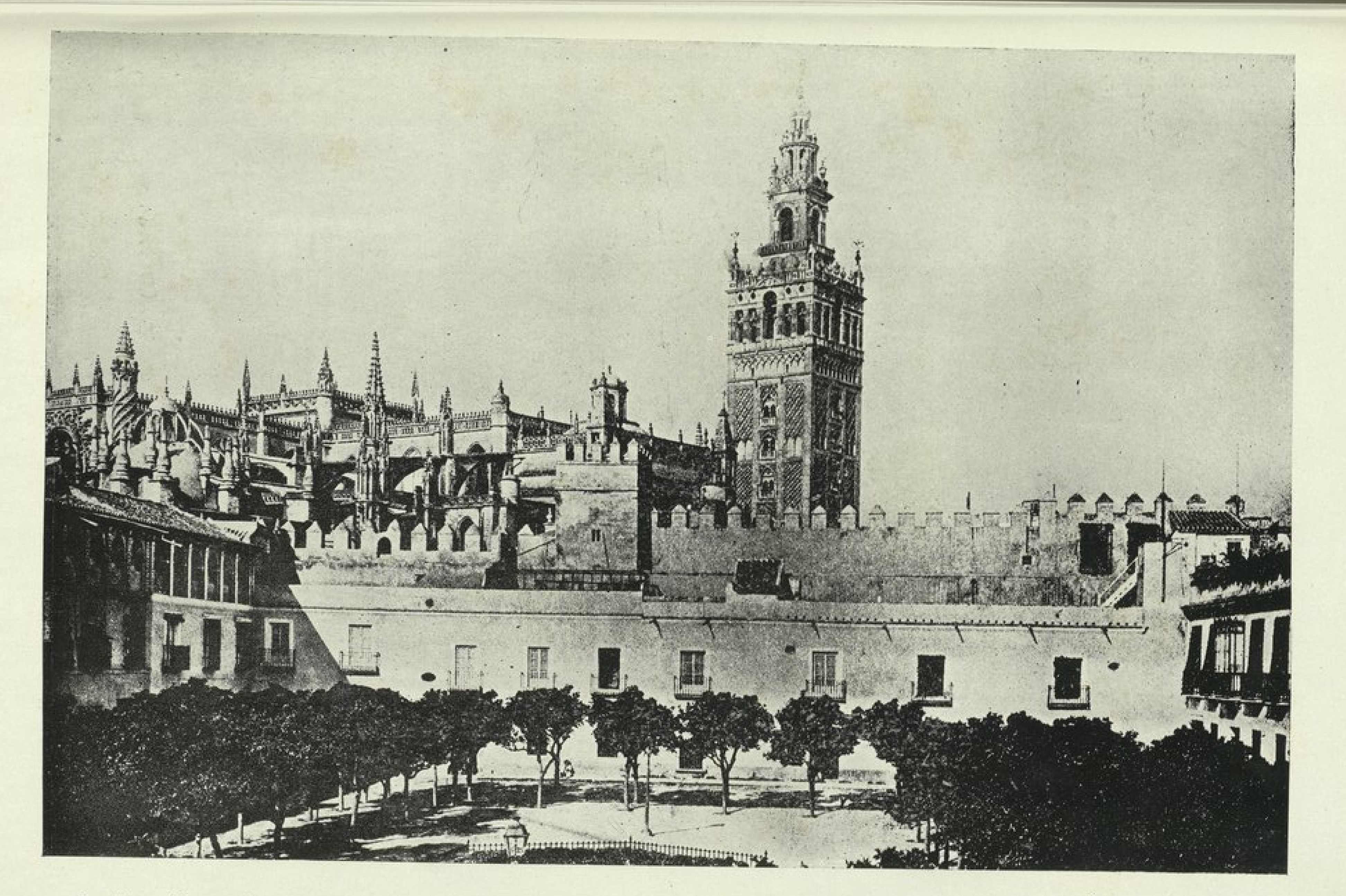
هِيَ مدينةٌ صغيرةٌ بالنسبة للتي قبلها مُشيّـدة على ربوة، وحكمها حكـم الذي تقدّم ذكرها حرفاً حرفاً من تشييدها على ربوة، والقَصْبة للمسلمين وبها دارٌ يسكنها المتولّى أمرها في الوقت كما كانت على عهد الاسلام، الى غير ذلك

---

(١) القادوس: إناءٌ يُخرج به الماء من السواقي ج قوَادِيس

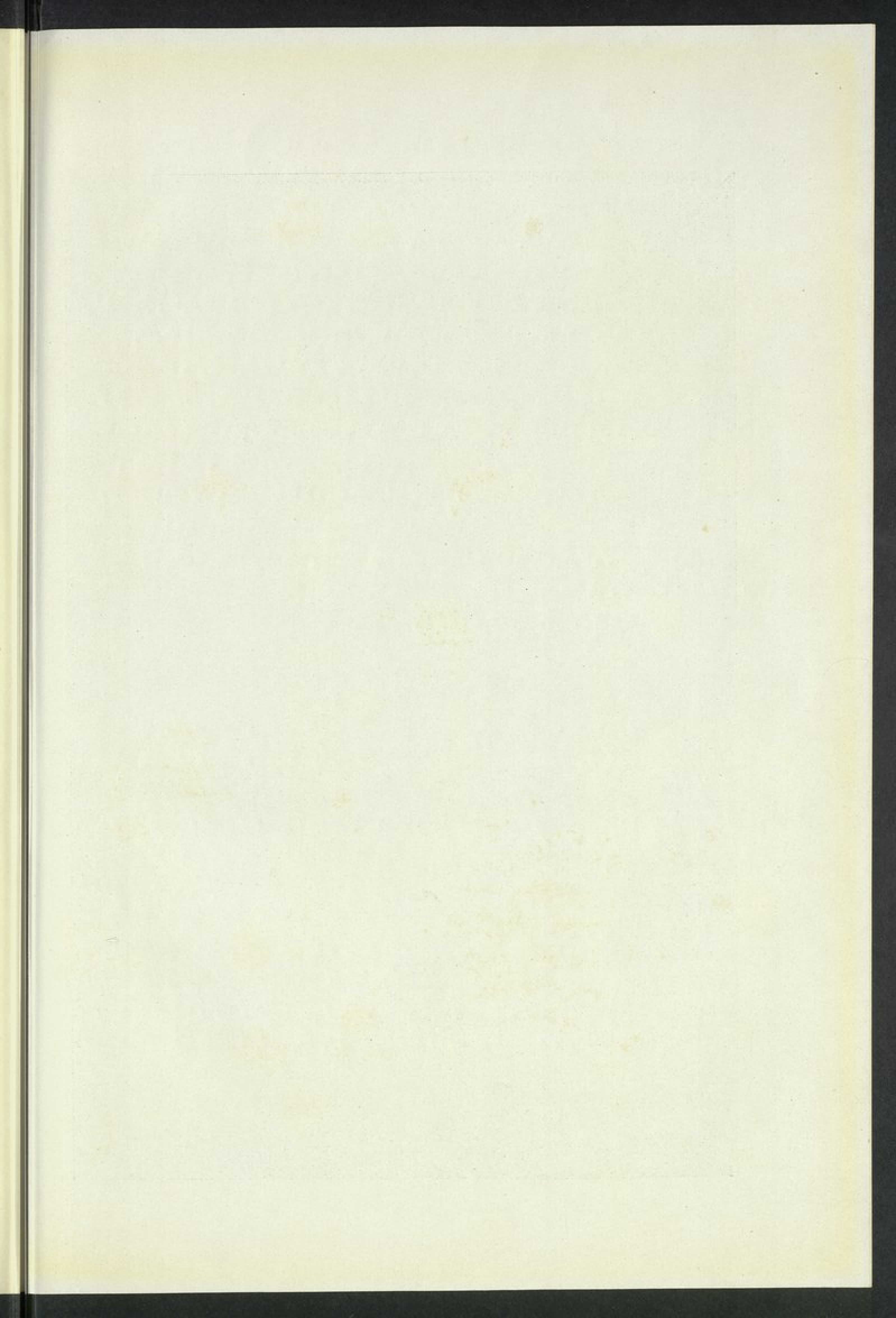
(٢) قَرمُونَة (كَرمُونه): Carmona بلدَةٌ قديمةٌ من عمالة أشبيلية عدد سكانها اليوم ٢٥٠٠٠ اشتهرت بما اكتشفهُ الأثريون مؤخّراً من عاديّاتها وآثارها القديمة

(٣) الفوينتِ: La fuente de Campana قريةٌ صغيرةٌ من عمالة أشبيلية



Sevilla.—Alcázar: Patio de los Estandartes.

أشبيلية—القصر : باحة الأعلام، وتظهر منها العوبة الهواء. (La Giralda)



ممّا هو مقرّر قبل، الاّ انّ اهل هذه المدينة بادُون محض، وقد برز منهم لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ وفعلوا ما فعل مَن قبلهم من الترحيب والتعظيم، وتحت المدينة خنادقُ عديدةٌ وقد ضربوا على كلِّ خندق قنطرة ذات أقواس ضخام

اقمنا بها بقيّة يومنا واستعملنا السير آخر الليل لاجل الحرّ الخارج عن الحد، قاصدينَ مدينة أَسيخا على مرحلة قدرها اثني عشر ميلًا جميعها أشجار الزيتون وأرض حراثة

الخَبَرُ عن مدينةِ أَسيخا (١)

لحقنا بها ضحوةً وقد تلقانا اهلها بالرحب والسّعة وشاهدنا من فرحهم بنا ما فيه زيادة عمن تقدّمهم

والمدينةُ على شفير الوادي المسمّى بشينيل عليه قَنطَرةٌ في غاية الضخامة واتقان البُنيان أقواسها احد عَشَرَ وعن يسارها عدّةُ أرجاء متعدّدَة الأحجار، وجريان الوادي مستوٍ مع الأرض استواء تامّاً من غير حافةٍ ولا جرف، وبه دواليب لسقي بحائر وخضر، وبشطِّه أشجارٌ مستوية الصفوف من الأشجار العظام في العلوّ والضخامة غير أنّها لا ثمار لها وانّما هيَ للظلِّ ذاهبة مع الوادي الى ما انتهى اليه البصر

قيل: انّه كان على شطِّ هذا الوادي مقاعد وأَجِنّةٌ معدّة للنُزهة على عهد المسلمين رحمهم الله وبعدهم قد اندثرت تلك المراسم وبادت لم يبقَ الاّ الآثار من الجُدُرات فقط، وهذا الوادي يجد المقبل عليه في نفسه نشاطاً وانبساطاً بالخاصية لما حاز من النظارة والحُسن في جريانه وبسط أرجائه وطيب هوائه وعذوبة مائه، وبكلِّ عشيّة يخرج اليها جلّ مَن في المدينة نساءً ورجالاً منهم بالاكداش ومنهم راجلين يستنشقونَ النسيم المتولّد بارجائه من جريانه، وقد شاهدنا منهم العدد الكثير ذاهبين بشطِّه في اكداشهم آيبين، وقد أُخبرنا ان ذلك دأبهم وديدنهم بكلّ عشيّة في سائر الفصول

وأمّا ديارُ المدينة منها ما هو باقٍ على عهد الاسلام من ضيق الشوارع والتشييد بالآجُرّ وتَقبيتِه، ومنها ما غيَّره الكفّار وشيّدوه بالحجر المنجور على عادتهم في بناءاتهم

وبالجملة ان جميعها ديار في غاية الحُسن، وبهذه المدينة عدّة مساجد إسلاميّة عبرنا جميعها فاذا بمسجدها الأكبر له صحنٌ به سبعة أشجار من النارنج والمباحات الدائرة بالصحن محمولة على اثني عشر سارية من الرُخام وداخل العنزة أربعة وعشرونَ سارية حاملة لبلاطات الجامع علوُها كالشواهق وصومعتها كذلك، وللجامع خمسة ابواب، وامّا سور المدينة فقد سقطت ابراجه وباقيه متلاش، والبُنيان داخله وخارجه

اقمنا بها يومان للاستراحة، وفي اليوم الثالث استعملنا السير ايضاً قاصدين مدينة الرَّاملة عن ثمانية عشر ميلاً

الخَبَرُ عن مدينةِ الرَّاملة (٢)

مدينةٌ مشيّدةٌ على ربوةٍ وديارها غير شاهقة وشوارعها متسعةٌ، وهي بين الكبر والصغر يليها من القرى العدد الكثير واهلها اهلُ فلاحةٍ وقد استوعب أرجاءَها أشجارُ الزيتون من الجهات الأربع وبها خلقٌ كثير وقد انضمَّ اليهم عند

(١) مخط: ايسخا، هي استجة وبالاسبانيّة Ecija: بلدةٌ عريقةٌ في القدَم، من عمالة أشبيليَة على ضفّة نهر شنيل عدد سُكانها اليوم ٣٠٠٠٠ اشتهرت في عهد العرب وكانت تُعرف باستجة

(٢) الرملَة: La Rambla قريةٌ من عمالة قُرطُبة عدد سكانها ٨٠٠٠

الملاقاة خارج المدينة من القرى القريبة منها قومٌ لا يأتي عليهم الحصر، واظهروا من الفرح والمباشرة ما فيه زيادة على مَن تقدّمهم، ونزلنا بخيار ديار المدينة المشتملة على العدد من المقاعد المزيَّنة بالفُرُش المنتخبة مع ما يضاف لذلك من اتّقاد الشمع واحضار الموسيقى وغير ذلك ممّا فيه تعظيم واكرام

وبصحن هذه الدار عدّة من أشجار النارنج، قيل انه من غرس المسلمين، وهناك قَصَبَةٌ كانت على عهد الاسلام هدّها القِدَم ولم يبقَ منها الاّ برجٌ في غاية الطول والعرض، وقد هيّأ اهلها فرجة عند اقبال الليل بان جعلوا فُرْجاً من الكاغيد(١) كانّه صومعة داخله نواعير ومحرّقات شحنوها بالبارود على ما اقتضت حكمتهم ثم صوّروا ثورين من الكاغيد ايضاً وشحنوا جميع جوارحه بالبارود وقد حمل كلّ ثورٍ رجلٌ، ولمّا اتصلت النارُ بذنب الثور جعلت المحارقُ تخرج من جميع جوارحه، ومن أعجب ذلك اخراج المدافع من البرج ثم يتبعها من المحارق العدد الكثير غير انّ اخراجها على شكلٍ غير معهود، وذلك ان في اخراج المحرقة الواحدة وصعودها للجوّ صنعة غريبة، وهي اذا توسّطت الجوّ تعدّدت في اخراجها عدّة محارق ثم تتبعها محارقُ أُخر ثم أُخر فتتعدّد اصوات المحارق في الجوّ كل واحدة بعشرة، وبين العشاءين ورد علينا للدار التي نحن بها عدّة من الخيل فرسانها عليهم ثياب بيض وبرؤوسهم عمائم وبايديهم شمع توقد قدر كل شمعة ثلاثة اذرع، وقد تقدّمهم رجلان حاملان لوحة قدرها في الطول والعرض أربعة أشبار مكتوبٌ عليها بالقلم العجمي اسم الباشدور وتاريخ وروده على بلادهم وعلّقوها بباب الدار التي نزلنا بها وانصرفوا عنا بعد ان ادّوا الواجب وقد اكرمهم رب الدار ولم يفتهم منا اكرام

ولرب الدار بتعليق هذه اللوحة مزيةً وافتخاراً لتعليقها بباب داره في ابناء جنسه، واللوحة كُتِبَت بأمر اهل المدينة، وقد أمر لرفعها على الباب المذكور الخاصة منهم والعامّة

وبآخر تلك الليلة استعملنا السير قاصدين مدينة قُرطُبة عن خمسة عشر ميلًا

الخبَرُ عن مدينةِ قُرطُبَة

هِيَ مدينةٌ عظيمةٌ هائلةٌ مشيّدةٌ على شفير الوادي الكبير الجامع لأودية الأندلس، وبشرقها جبلٌ غير شاهق معمورٌ بالزياتين، والأجنّة التي لا يأتي عليها الحصر، وكذا الديارُ التي به، وهذا الجبلُ قريبٌ من المدينة اسْمُهُ سِير مُورين(٢) شهرتُه أغنت عن التّعريف به، ولمّا اشرفنا على المدينة من ربوةٍ وشاهدنا ما شاهدناه من تَشيد ديارها وصعود مأذنتها وتَمييز جامعِها الأعظم لعُلوّه عن جميع المباني واستدارتها بالسور الاسلامي، وجدنا في نفوسنا من الأسف عليها ما ضاقت ارواحُنا من اجله أكيف وقد تذكّرنا مَنْ كان بها من المسلمينَ رحِمَهم اللهُ، فاللهِ الأمرُ من قبل ومن بعد! نسألُ الله تعالى ان يعيدها دار إسلام، وعلى بعدٍ منها مما يَقرُب من مسافةٍ برز لملاقاتنا من الخلقِ ما ضاقت عنهم الأرض، وقد قدّموا لنا اكداشاً ركبناها وهي غير بعيدةٍ من اكداش أشبيلية، وذهبنا في وسط القوم بين اهل الموسيقى وغيرهم من آلة الطرب، والأعيانُ راجلون امامنا والشلظاظ يحدُون القوم عنّا، وكلما قربنا من المدينة تكاثرث الخلق حتّى انهم ستروا ارجاءها بنشرهم على الأرض نساء ورجالاً وصبياناً الكلّ يُرحِّب ويُبدي من الأدب في مباشرته ما يعجز عن تكييفه

فلمّا انتهينا الى القنطرة المضروبة على الوادي وجدنا بها من الخلق ما اوْجَبَ وقوفنا دونها نحو الساعة في انتظار فراغها من القوم الذاهبين امامنا، فاذا هي قنطرةٌ من أعظم القناطر في العُلوّ والضخامة، لها من الأقواس ستة وبطرفها من ناحية

---

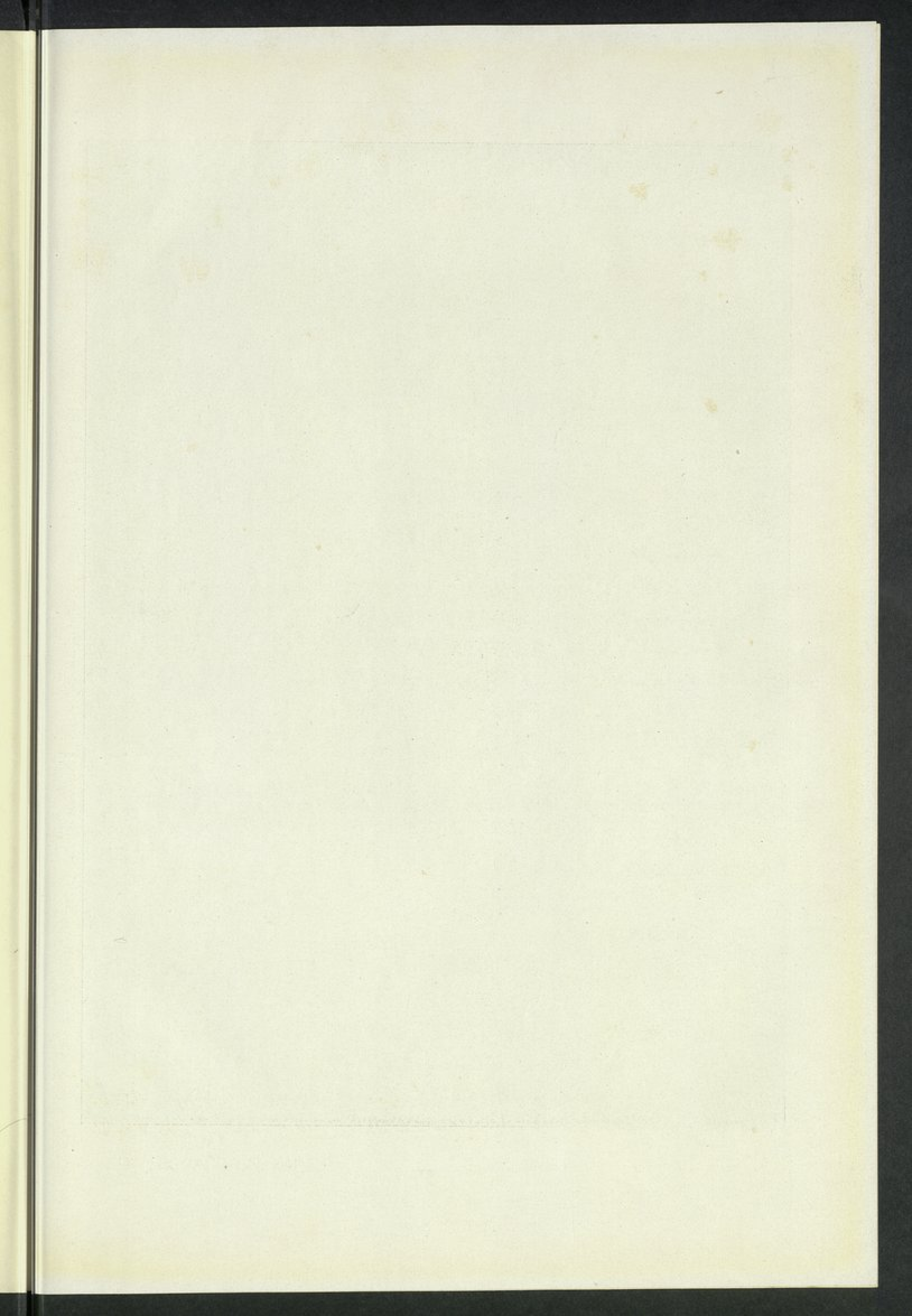
(١) الكاغِد والكاغَد: القرطاس، والكلمة مستعملة عند عامّة المغاربة بهذه المعنى

(٢) Sierra Morena



Córdoba.—Interior de la Mezquita Grande.

قُرطُبَة—المسجد الأَعظم منظر داخلي



المدينة بابُ المدينة والجامعُ الأعظم قريبٌ منها جداً وقد عبرنا ازقّتها في صفوف من الخَلقِ بين ديارٍ في غاية العُلُوِّ من خمس طبقات فاقل، لها شراجيبُ مطلّة على الشوارع معمورة بالصبيان، ولهذا الجمع مـن الخلق داخل المدينة وخارجها ضجيج منذ اشرفنا عليهم الى ان حللنا الدار المعيَّنة لنزولنا، ومعنى لفظهم بالعربية الله ينصر سلطان مرّاكُش!

والدارُ التي نزلنا بها من اجلّ ديار المدينة واجملها هي لحاكم البلاد ولم يأل جهداً في انتخاب الفرش، وسط السور حيطاناً وسقفاً من الديباج، وقد اقتفى أثر صاحب أشبيليَة في الاكرام والبرور غير أنه لم يساعده الوقت للاتيان بكل ما اتى به صاحب أشبيلية لعمارة بلاده واتساعه في المال

ومن الغَدِ ذهبنا للمسجد الأعظم مصاحبين القيّمين عليه من الفرايليّة وحاكم البلاد وقضيها والفسيان المصاحب لنا في طريقنا المبعوث من طاغيته، فعبرنا من احَدِ ابوابه فاذا هُوَ من أعظم مساجِدِ الدنيا في الطولِ والعَرض والعُلُوّ الفادح حتّى انّ الأقواس المنعقدة على سواريه العديدة فوقها أقواسٌ أُخر لعُلُوّ سمكه

ومنذُ عبرنا هذا المسجد لم تَفتُر لنا عِبرةٌ ممّا شاهدناهُ من عَظَمَتِهِ وتذكّرنا ما كان عليه على عهد الإسلام وما قُرِئ فيه من العُلُوم وتُليَت فيه من الآيات وأُقيمت به من الصَلَوات وما عُبِدَ به اللهُ تعالى، وقد تخيّلَ في الفكر انّ حيطان المسجد وسواريه تُسَلِّمُ علينا وتهشُّ الينا مـن شدّة ما وجدناه مـن الأسَف حتّى صرنا نخاطِبُ الجماد ونعانِقُ كلّ ساريـةٍ سارية ونقبِّل سور المسجد وجداره

ولمّا انتهينا الى المِحراب الاسلامي فاذا هو باقٍ على حالـه لم يَحْدث به تغييرٌ غير أنَّ الكفرة حجّروه بشبّاكٍ من النحاس بحيثُ لا يَدخله احدٌ، ولم نَدرِ ما السِرُّ في ذلك الى ان فتح اللهُ على فهمِ موجبه حسبما يسلّمه كلُّ مؤمن، وذلك ان هذا المِحراب اشتملت قوائمُهُ وبناءاته على آيات قرآنيّة طَهّرَها اللهُ سبحانه ونَزَّهها عـن لمس الكفرة ومُباشرتهم لها وقد حماها اللهُ جلَّ وعَلاَ بما القاهُ في قلوب المشركين، ولا مِريَة انّ اسلافهم تشاءموا مـن عُبوره لامرٍ حَدَثَ بسبب دخولهم ايّاهُ كان فيه وَبالٌ عليهم فحجّروه بسبب ذلك، وما زالوا مقتفين اثرهم في تحجيره، والمؤيّـد لهذا الفهم هو لجاهم لسكناه واحتياجُهم اليه غاية، ومع ذلك مُنِعُوا منه جَبراً لانّهم يتّخذُونَ بيوتاً بهذا المسجد كيفيتها: انّهم يأتون للبلاطِ المتّصِل بسور الجامع يقطعون من كلّ ساريتَين او ثلاثة بلوح من الجهات الثلاث هي بيوت سُكنَى أعيانهم، اواي نسبة لهذه البيوت لنفس المحراب المشتمل على قُبّتَين والرَّقم وحُسْن التشييد!

فعلى كُلّ حالٍ انهم ممنوعونَ منه بسببٍ، وقـد جارَيتُ الكلامَ على شأنِه مع بعض الفرايليّة لنستخرج ما عِندَه وقد استحسنت فعلهم في تحجير المحراب وصادقته فيما يزعم: «من اننا لا ندخل المحراب الاّ وَقتَ الصَلاة فقط ومن دخله في غير وقت الصَلاة يخافُ على نفسه الهلاكَ والعياذُ بالله:» فاجاب هو كذلك اوهذا كلامٌ صحيـحٌ، فهُناك تحقّق ما كنت اظنّهُ ولم يبقَ لي فيه شكٌّ ولا ريب!

وقد ألزمتُ كبير الفرايليّة القيّـم على الجامع فَتحَ المحراب فاعتذر بعدم وُجود المفتاح في ذلك الوقت، فلم نقبل عُذره، وقد عابَ عليه ذلك الحاكمُ والفسيان المصاحب لنا فلم يسعه الاّ الإجابة

فذهبَ وعادَ عن فورٍ وبيده المفتاح، ففتح ودخلنا المِحْراب من قُبّة متّصِلة به خارجة عنه، وهو في نفسه قُبّةٌ وشكله في البنيان مُثمّن كلُّ ثُمُنٍ استقلَّ بلوحةٍ مـن الرُّخام طولها عَشرةُ أشبارٍ وعَرضها سَبعَةأشبار وقد استدار بأعلى الرُّخامات خطٌّ كوفيٌّ في غايَةِ الحُسْن والاتقان مُفتتحٌ:

ا بسم الله الرحمان الرحيم، حافِظُوا على الصَّلَوَات والصَّلاة الوُسطَى وقُومُوا لله قانِتين! ثمَّ بَعدَه! أمَرَ الإمَامُ المُنتَصِرُ بالله عبد الله الحَكَمُ أمير المُؤمِنِينَ اصلَحَهُ اللهُ بعونِ الله بتَشيِيد هذا المِحراب رَغبَةً في جَزيل الثَّواب وكريمِ المـآب، فَتمَّ

ذلك في شهر ذي الحجّة الحرام سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ا ثمّ يتلوه ما كان تتميماً لدائرة المحراب قوله تعالى «اومن يسلم وَجهَهُ الى الله وهُوَ مُحسِنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور»، ثمّ بدائرة ثانية فوق الدائرة الأولى «يا ايُّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربَّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على النّاس فاقيموا الصّلاة وءاتوا الزّكاة واعتصموا بالله هو موليكم فنعم المولى ونعم النّصير» وبخارج المحراب يميناً وشمالاً: «بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربّنا بالحق ثمّ يتلوه: ا أمر الإمام المُنتصِر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين! مثل ما تقدّم ذكره حرفاً حرفاً والتاريخ آخره، وبوسط القبّة الخارجة عن المحراب المتّصلة به ثلاثة مقابر في صناديق من الرّخام لم آل جهداً في البحث عنها ولم اقف لها على اثر وقد غلب على الظّنّ انها للسلمين ولو كانت للكفّار لاعتنوا بها بالتمويه عليها بالرّقم والكتابة حسبما هي عادتهم في مقابر أعيانهم سيما وهم جاهلون بما هنالك، وقد أخذ الكفار بوسط الجامع تربيعة في غاية الوسع بين سوار أربعة عقدوا عليها قبة صاعدة في الهواء بعد ان هدّوا عدّة من سواري المسجد الرّخاميّة وجعلوا موضعها سوار بالبنيان استدارة الواحدة منها اربع وستّون شبراً فوسعت التربيعة بوسع السواري بعضها من بعض وقد استدار بالسواري شبّاك من نحاس المذهب وداخله شبّاك آخر من العود متّصل به اتخذوا هذا الموضع لمصلّاهم وجعلوا به صلبانهم مع تصاوير عديدة حائطاً وسقفاً بعضها من الذهب وجلّها من اللّوح والحجارة، وداخل هذا الموضع شليات وبسوط وصناديق الموسيقى وجعاب من النحاس وبعضها من الرّصاص فاذا حرّكوها بما لها من الحركات تتولّد منها نغمات تسمع من بعد بائن، وقد تقدّم ذكر ذلك مفصّلاً بجامع أشبيلية.

ثمّ مواضع أخر منها ما اشتمل على ذخائر منارات ذهبية وفضية ومنها كالقبّة المنظّمة بما يعجب منه من أصناف اليواقيت والزّمرد والجواهير وغير ذلك ممّا لا نعبّر عنه لعدم المعرفة بما يسمّى به

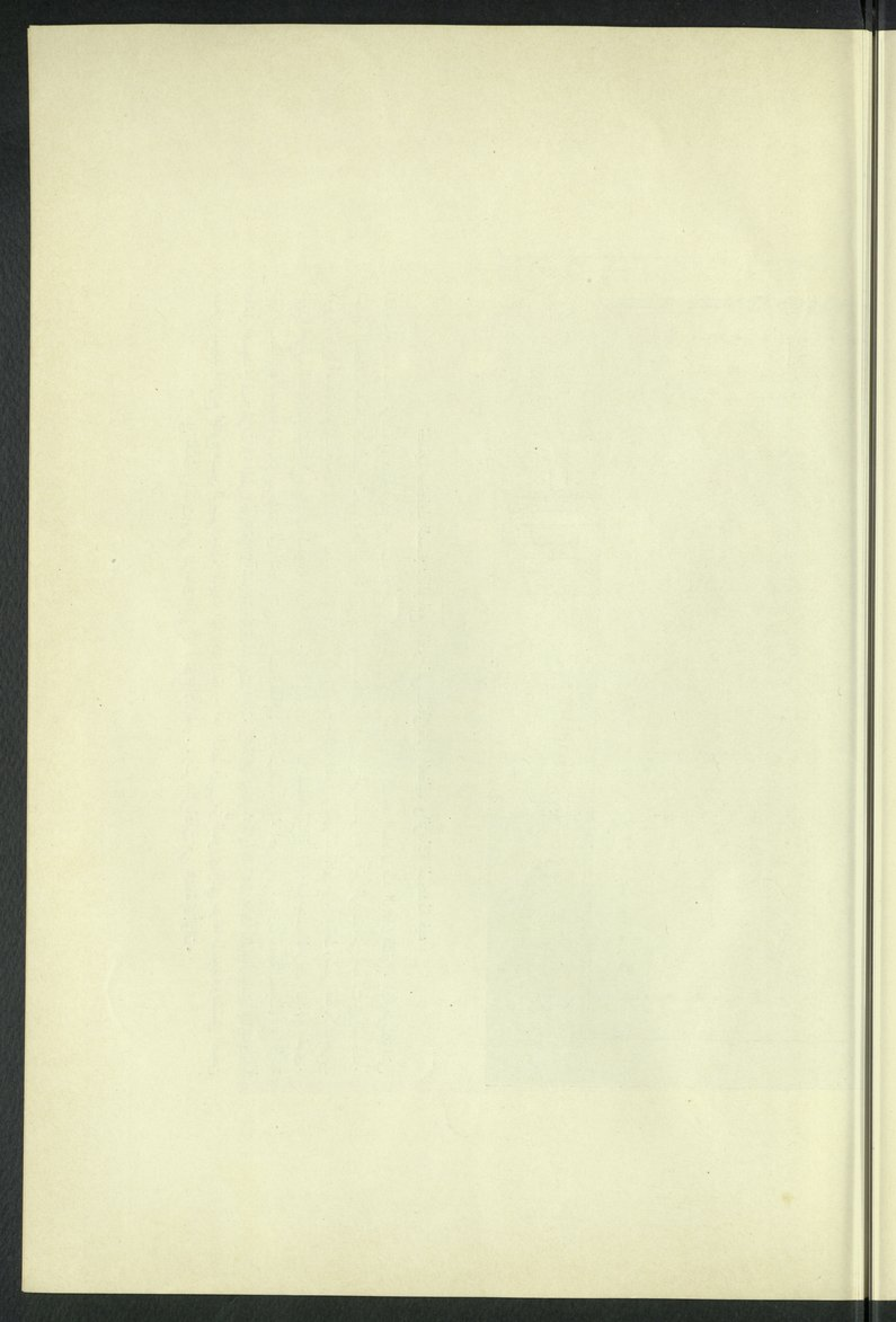
ثمّ فتحوا لنا خزانة فاذا فيها ما شكل برجاً مثمناً بشرف من الذّهب وبعضها من الفضّة وهو بنفسه بعضه فضّة وجلّه من الذهب جميعه منظّم باليواقيت النفيسة يمنط فما دونها كلّ ذلك من اثر ملوكهم، اذ عادتهم ان كلّ من ولي أمر رعيتهم يفعل مثل من تقدّمه او يزيد عليه في كلّ كنيسة من كنائسهم

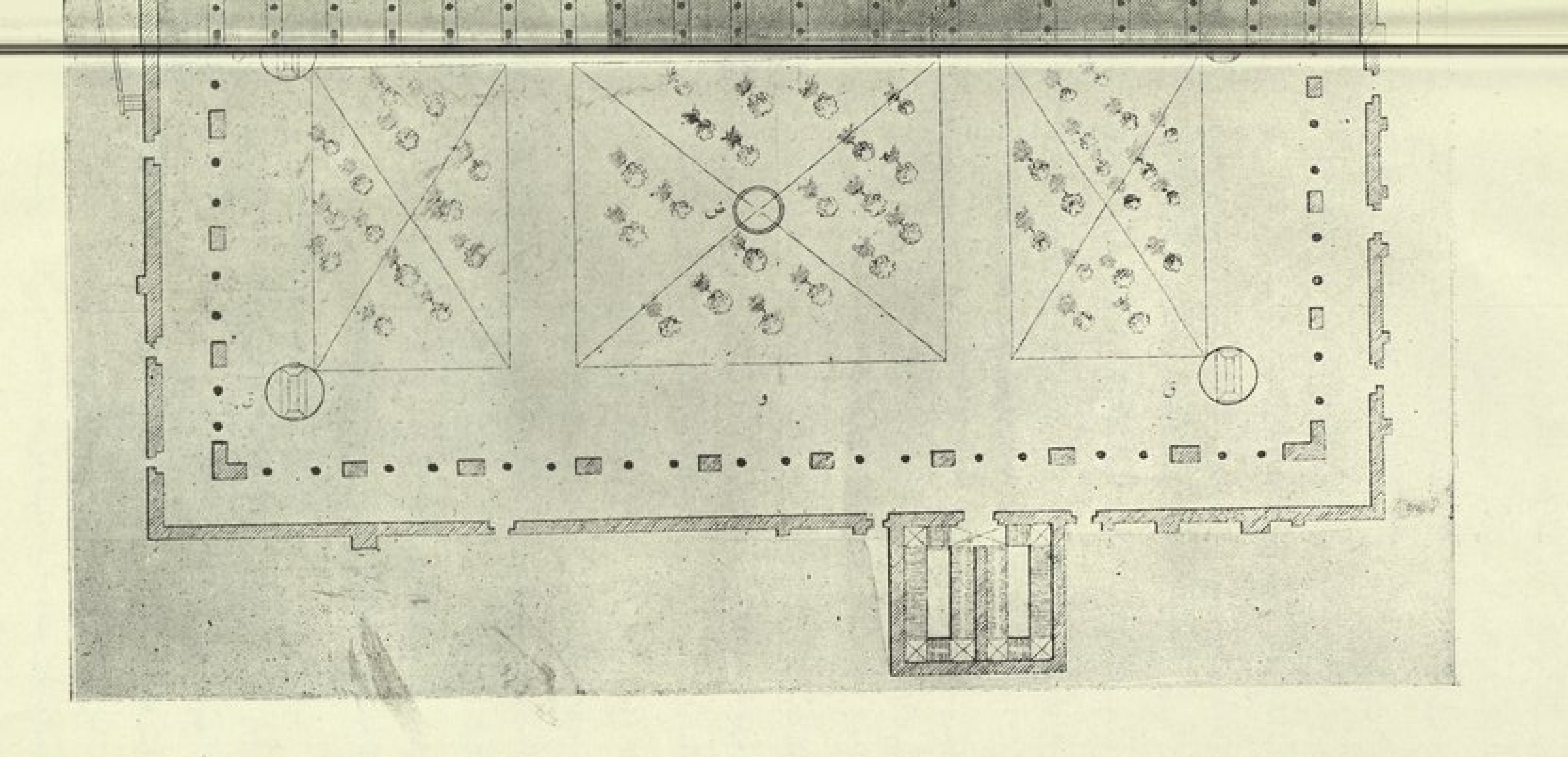
وهذا الموضع هو بمثابة الخزائن الحافظة للامتعة والذّخائر، ثمّ مواضع أخر تسكنها الفرايلية وهي الابهاء التي بين السّواري المتّصلة بسور المسجد، ثمّ قبة مثمّنة لا يسكنها احد وانّما عندهم معظّمة محترمة لا يدخلها الا من ومن...

وقد استقلّ كلّ ثمن منها بسارية من الرّخام حاملة لثمانية من الفرايليّة يحسبهم النّاظر انّهم في قيد الحياة، فمنهم من هو باك ومنهم من يداه مبسوطتان للهواء ومنهم من عيناه شاخصتان لسقف القبّة، الكلّ واقف على قدميه

وهذا الموضع لا يدخله أحد من غير الفرايليّة الاّ من اراد ان يغفر له، ولا يصل اليه الاّ بعد بذل المال الذي له بال، فوضعوا لنا شليات هنالك استرحنا بالجلوس عليها، وجعل كبير الفرايليّة يحدث عمّا كان عليه هؤلاء الفرايليّة في قيد حياتهم من العبادات والطّاعات وما زالوا على حالتهم المعهودة لهم والمعروفة منهم

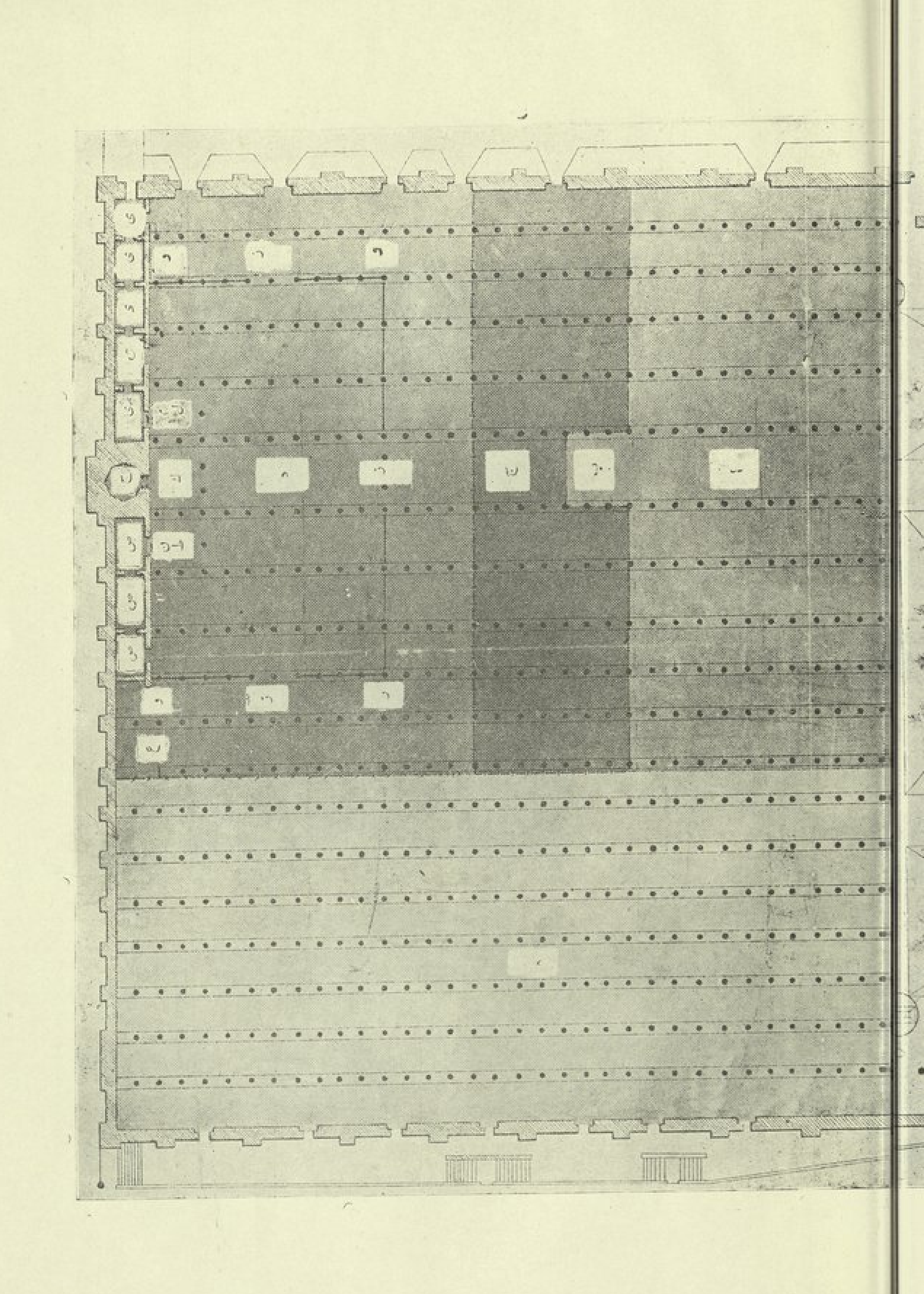
ثمّ قبّة قريبة من المحراب يصعد لها بعشر درجات هي من عمل المسلمين اظنّها لاستراحة الخطيب لم يكن مثلها في البناءات العجيبة لما اشتملت عليه من رائق الصنع المشتمل على تزليج وتجبيص وتمويه بالذّهب في الخشب والجبص وتعدّد الألوان والخطوط المشرقيّة والكوفيّة وغير ذلك مما يتعجّب منه، وانّها باقية على حالها الاسلامي الى تاريخه، وسواري هذا المسجد الرّخاميّة اثنتا عشر سارية وثمان وعشرون سارية

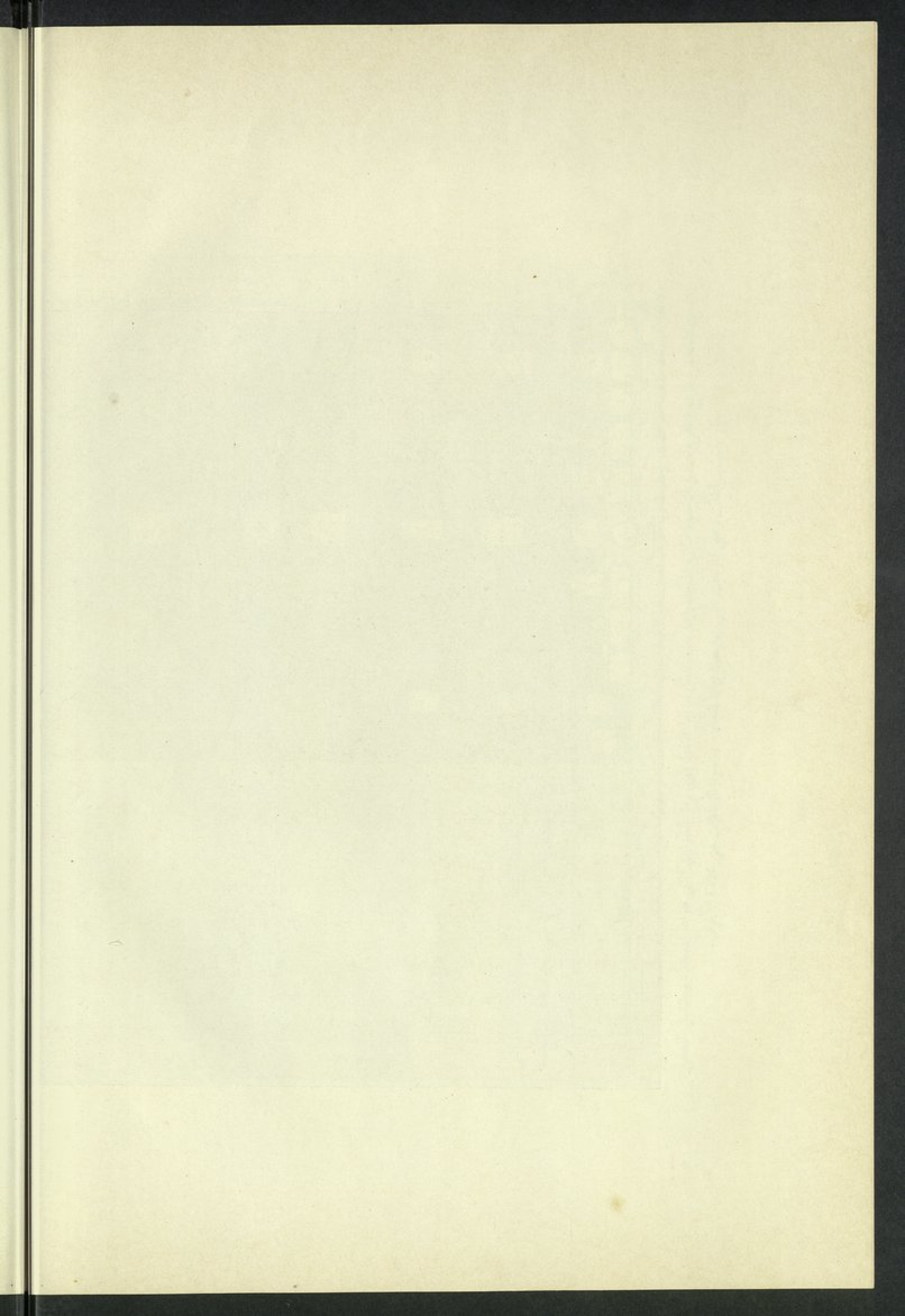


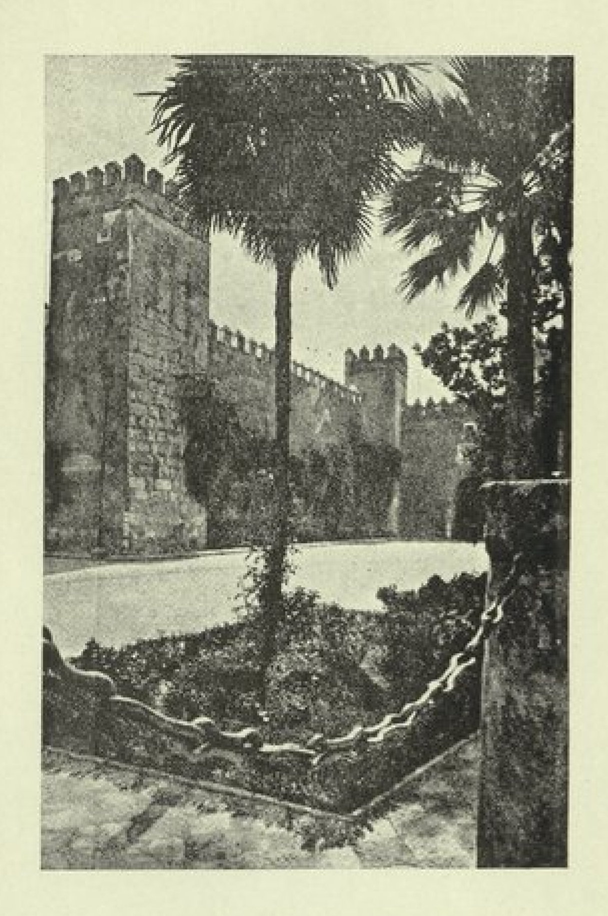


تصميم مخطط المسجد الجامع القرطبي التاريخي العظيم والزيادة المحدثة فيه

(ا) مساحة مسجد قرطبة الأصلية (ب) محرابه الأصلي (ج) الزيادة التي احدثها في المسجد السلطان عبد الرحمان الثاني. (د) الزيادة التي احدثها السلطان الحكم المستنصر الثاني. (ه) الزيادة التي احدثها السلطان المنصور ابن ابي عامر وهي آخر الزيادة التي أحدثت في المسجد. (ووو) زوايا السدة الملوكية داخل المسجد المعدة لصلاة الأمراء ووزرائهم وحاشية القصر ويظهر شكلها مربعاً بخط رسمي مقابلاً للمحراب (ززز) ابواب السدة الملوكيّة. (ح) محراب المسجد. (ط) المنبر. (ىىىى) ساباط المسجد القبليّة. (ك) قبة جنب المحراب (ل) قبّة أخرى. (م) باب ساباط المسجد (ن) ابواب تؤدّي الى المنازل التي كانت تسكنها خدمة المسجد. (ص ص ص) منازل خدمة المسجد. (ع) فرجة داخل المسجد. (ف) خزان الماء المطر (ض) خزان آخر (ققق) بيوت الخلاء ومحلات الوضوء، منها ما كان مختصاً بالرجال ومنها بالنساء. (ر) صحن المسجد (المربع الخارج من الرسم) منارة المسجد (ة) باب النخل. امّا النقط فهي رمزٌ للسواري التي حواها المسجد، ويشتمل الصحن على ثلاث رياضات وهي المربعات التي بها نماذج الأشجار. ورسوم الزيادات هي مختلفة الألوان.

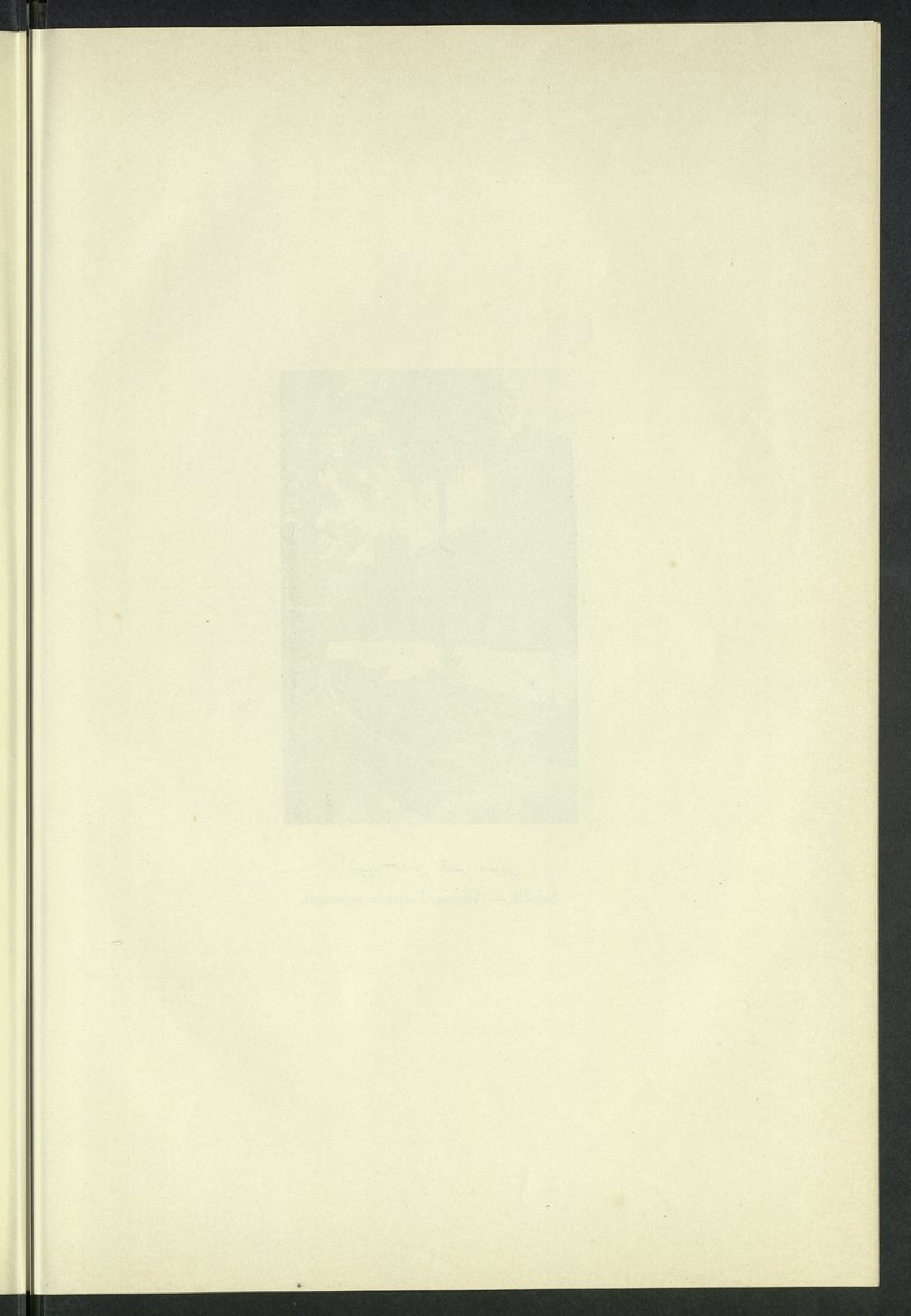






أشبيلية—مدخل القصر العمومي

Sevilla.—Alcázar: Entrada principal.



وعلى ما قيل انّها كانت أربعةَ عشَر مائة سارية وسبع سوار فقد غيّر النّصارى بعض السواري الرّخاميّة بغيرها بالبُنيان فاذا اعتُبِر موضع السّواري المحدثة ونُسِب لموضع السّواري القديمة حَصَلت على العَدَد المحدَّث به، وطُولُ هذا المسجد بالسّواري بِست مائة قدم، وقدمان وعرضه ثلاثمائة وخمسة واربعون قدماً، وطـولُ صَحن الجامِـع قدر طُولها والعرض دون عرضها بقليل، والمباحات الدائرة بالصحن محمولةٌ على سوار من الصِفة، وبِوَسطِه أشجارُ النارنج عَدَدُها ثمانية وتسعون، وثلاثة من النخيل وشجرة من اللَوز ومثلها من الزّيتون وأربعة وعشرونَ من شجر البلَنز في غاية الطول، وبه صهريجٌ واحدٌ وتِسع خِصَص يَصْعَدُ منها المـاء منها بقُرب قامَةٍ، ومُشيّد على أحد أبواب صومعتها ومَدارجها مائتا دَرَجَةٍ واثنان وَعشرونَ درجة، وابوابُ الجامع ستّة عشر، سُدَّ منها بابان وبقيـة الأربعة عشريعبر منها الآن

وقد استدار بسور الجامع مُحَفّظَاتٌ يصعَدُ لها بعشر دُرج وعَرضها عشرة أشبار وسورها القائمُ مُوثِق بسوار ناتئة من السّور مُتّصلةٍ به بل هي من نفسه، فهي بمثابة الأبراج من السّور بين كلّ ساريةٍ والتي تليها عشرةَ أشبار، وبناء السّور وسواريه من الحجر المنجور ولا يُميّز بين الحجر والذي يليه الاّ بعد التأمّل وامعَان النظر لاتقانه في النّجارَة والتقويم، وقد استوعبنا المَسْجِد بالعُبور من يَومنا ولم يبقَ الاّ بَعْض البُيوتِ التي يسكنُها الفرايلية لم يسعنَا عُبورها لاقبال الليل وادبار النّهار، وخرجنا مِنَ المَسْجِد قُرب الغُروب وبَقي في الخَواطِر شيءٌ مِـنَ البُيوت التي لم تُعبر، على انها ليست من الأُمور الاكيدَة وانّما هِيَ بيوتٌ تَسْكنُها الفرايليّة عبرنا الجُلّ مِنْها وتحقّقنا ما هُنالك، ومعَ ذلك وَقع في النَفس شيءٌ، وكلّما ادافعُ الاهتمام بعودي لعُبورها تجدّد، فلم يَسعْنا الاّ ان أَلْزَمْتُ حاكِم البلد بالعَودِ للجامع، فاجاب، فاذا بعتبة داخـل اوّل بَهو دَخلته: لوحتان من الرّخام مُتّصِلة بالأرض مكتوبٌ على كلّ واحدة منها: «أبسم الله الرحمان الرَّحيم وصَلّى اللهُ على سيّدنا محمدٍ وآلهِ وصَحْبِهِ وسلّم!» وما بعده تاريخُ الجامع ومَـن زادَ فيها على الاوّل من الملوك واحداً واحداً، فلمّا أشرفتُ على الصَّحِيفَتَين بادَرَتني العَبرة وسقطتُ على الحجرتين أمرغ عليهما شيبتي وانحى عَنهُمَا الغُبار بلحيتي، ولَم أستطع رفع رأسي عنهُمَا من القَشعَريرَة التي ادركتني عند مُشاهدتي لذلك، وفي الحال جَمَعْتُ كبار الفرايليّة وأقَمْتُ حُججاً نَشأت عـن غيرَة إسلاميّةٍ لم يسعهم معها الاّ قولهم: «هم جاهِلُونَ بِمَا هُنَالك:» فقلتُ: «الآن رُفِعَ عنكُمُ الجَهْل فما انتم صانعون؟ الاّ ان قالوا: «ما تُشِيرُ به علينا وتأمُرنا به في هذا وغيره» قلتُ لهم: «امُركُم بِقلْع اللوحَتين وجَعلُهمَا باعلى سُور المَسْجِد:»

فاجابوا لذلك بعد ان راجوا وماجوا وجَعل كبيرُهم يُواعد بِقَلْعِهما، فجلستُ جَنبَ البيت الذي به اللوْحَتَين وقلتُ للقاضي والحاكم والفسيان المُصاحبينَ لنا: «لا نبرحُ مـن هُنَا الاّ اذا قُلِعت هذه الحجارَة او اقيم بهذا المحل الاّ ان يأتي أمر الطاغية بذلك»

وما زال الحاكم والفسيان يتلطّفان في السؤال والطّلَب في الامهال الى الغَد لفوات النهار، وعَـدَم الامكان في قَلْعِهما ورفعهما للمَوضع اللائق بهما في الحال، فلم يسع الاّ الإجَابَـة بعد ان اخرَج الفرايلي من هذا المحل وقبضَ من يده المفتاح الذي به الحجرتان، ومن الغَد جُعِلتا بأعلى السور كما كانت في القديم على ما أُخبِرتُ به

فكشفَ الغيبُ انّ الاهتمامَ الواقعَ في النفس بالعود للجامع واستعاب ما بَقِيَ مـن الابهاء بالعبور هو الهامٌ من اللهِ تعالى وارشاد لعبده وغيرة منه سبحانه وتعالى على اسمه واسم نبيه عليه الصلاة والسلام

وقد ادَّخر اللهُ هذه الفضيلة لسيدنا المنصور باللهِ وجعل تطهير هـذه الأسماء الشريفـة على يده الكريمة واثبتها في صحيفته، كلُّ ذلك اعتناء من اللهِ تعالى بسيّدنا وتأييداً له، ولو كانت نتيجة هـذا الصلح وفائدتـه الدنيوية والاخرَوية التوصّل لقلع هاتين اللوحتين مـن المحل الذي كانتا به واعداء اللهِ تطأ عليهما لكفت فِخاراً وعَظَمة بجناب سيّدنا ايّده

الله، واعتناء لرضى الله تعالى ورضى رسوله صلّى الله عليه وسلّم مع ما يترقّب به من فكاك المسلمين من الاسر واستخلاص كُتب الإسلام من بلاد الكفر المختلفة عن عمّارها من المسلمين رحمهم الله فيما سلف

وقد بشرنا بالحصول على المؤمّل حيث افتتحنا هذا الأمر الذي وجهنا اليه بالأمر المطاع بقلع هاتين اللّوحتين وقد كان ذلك اوّل الفتوحات والحمد لله

وامّا اهل هـذه المدينة القرطبيّة فجلّهم اهل حرف، ولم يوتوا سعة من المال، والمدينة في غاية النظافـة وبينها وبين أشبيليّة مناسبة في الحضارة والكبر، غير أنّ أشبيليّة اكثر منها عمارة بالخلق والمـال، ولها سور من عمل المسلمين هدّ بعضه وجلّه باقٍ على حاله، وتحت قنطرة واديها عدّة أرجاء، والأجنّة والأغراس دائرة خارج سور المدينة متّصلة به لا يأتي عليها الحصر، مشتملة على فواكه صيفيّة وخرفيّة، وبقرب جامعها الأعظم قصبة كانت لملوك المسلمين رحمهم الله، يسكنها الآن قاضي البلاد، وبشطّ الوادي خارج القنطرة عـدّة ديار واصطبلات لخيل الطاغية، هنالك اقمنا بها ثلاثـة أيـام وسافرنا قاصدين مدينة الكرابي عن خمسة عشر ميلا وقد تعيّن ذكر ما اشتملت عليه، فنقول:

الخبـر عن مدينـة الكـربيـو(١)

هيَ مدينة صغيرة بالنسبة لغيرها، بُنيت على بسيط من الأرض من الوادي الكبير وبارجائها أشجار الزيتون التي لا يأتي عليها الحصر، وأهلها اهل بادية، وقد احاط بالمدينة سور من عمل المسلمين رحمهـم الله متلاش غير أنّ أبراجه ما زالت قائمة، وبالوادي دواليب تسقى بها بساتينهم وبحائرهم، وبقرب من هذه المدينة عدّة مداشر وقرى، وبخارجها ثلاثة قناطر مضروبة على خنادق هنالك، أخبرنا انّ الخنادق في زمن الشتاء هي من الأودية العظام

اقمنا بها يومنا وكان منها رواحنا لمدينة أندوخر عن واحد وعشرين ميلا جميعها زياتين وأرض حراثة

الخبـر عـن مدينـة أندوخر (٣)

هيَ مدينة مشيّدة بشطّ الوادي الكبير يعبر لها على قنطرة في غاية العلوّ والضخامـة لها من الأقواس ثلاثة عشر وبين كلّ قوس والذي يليه قوس صغير غير واصل للماء معين للأقواس المذكورة حال السّيل، وقـد برز لملاقاتنا اهلها بعدّة اكداش وخيول على بعد من المدينة مع ما انضمّ اليهم من الخلق المجتمع من المدن والقرى القريبة منهم ما لا يأتي عليهم الحصر، وقد ابدوا من الفرح والترحيب ما اقتفوا به اثر من تقدّمهم

وهيَ في نفسها من المدن المعتبرة في الكبر والضخامة واهلها اهل حضارة، وقد أخذوا نصيبهـم من الحسن وأخبرنا انّ الكثير منهم من بقيّـة الأندلس ولا يستبعد ذلك لانّ أخلاقهم ليست كأخلاق الروم وفي ميلهـم للإسلام ومحبّتهم ما فيه اكبر علامة لذلك، وبأرجاء المدينة من البساتين والأغراس شيء كثير، وهناك قصبة للمسلمين رحمهم الله، ومن

---

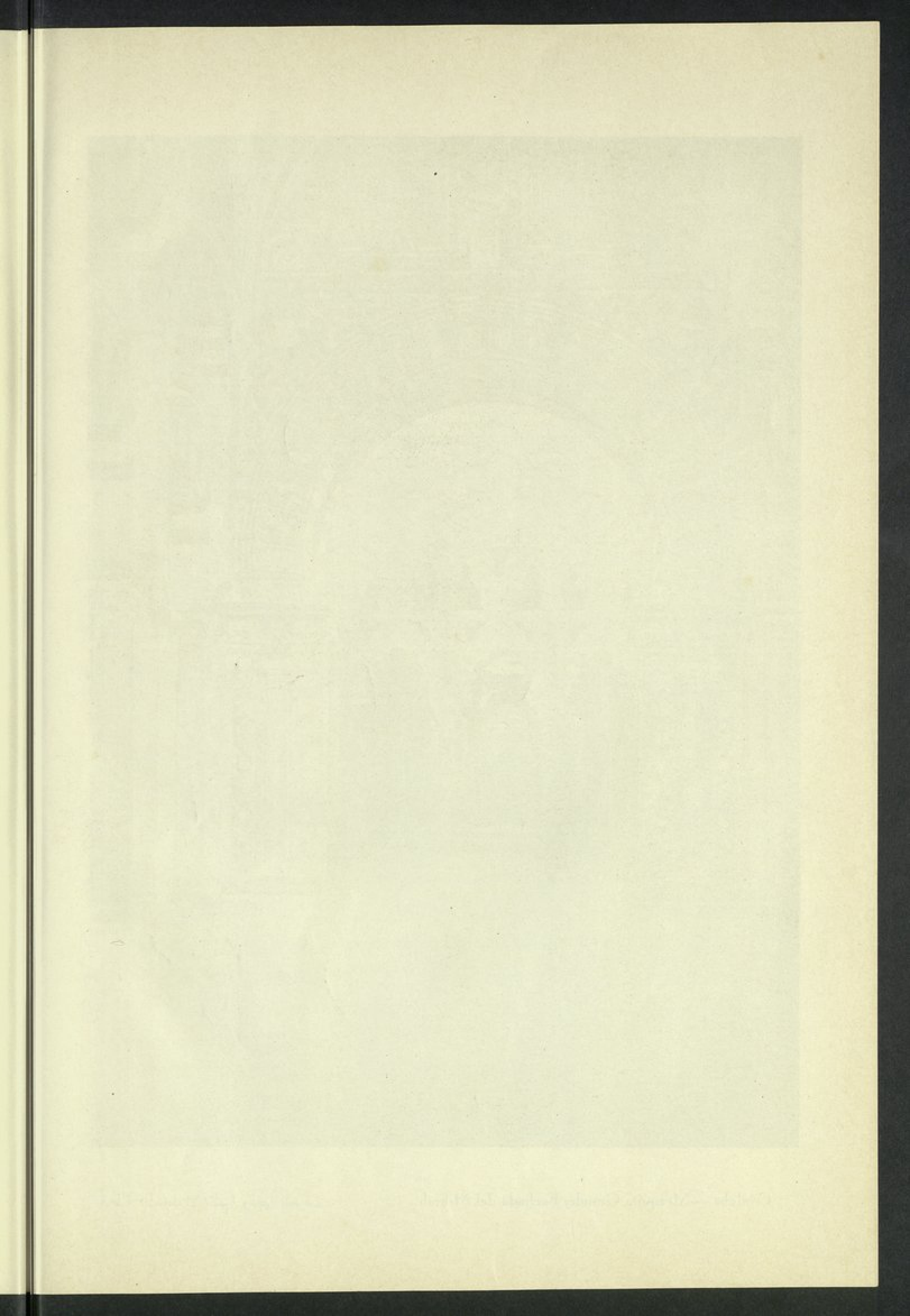
(١) مخط: الكرابي ومخط ٢: الكرالي، وهي El Carpio بلدة من مقاطعة قرطبة على ضفة النهر الكبير

(٣) هي اندوجر: Andújar بلدة مـن مقاطعة جيان اشتهرت في حروب تحرير اسبانيا سنة ١٨٠٨–١٨٠٩ وكانت مركز معسكر خوسي الاوّل



Córdoba.—Mezquita Grande: Fachada del Mihrab.

قُرطُبَة—المسجد الأَعظم : واجهة المحراب



جملة فرحهم بنا واكرامهم وتعظيمهم إيّانا ان هيئوا فرجةً بالمحارق (١) فيها زيادة على ما شاهدناه قبل من تعدد الأبراج وحشو كلّ محرقة بعدّة محارق، وقد طلبوا منّا المقام عندهم ليتداركوا ما فاتهم من الإكرام فجازيناهم خيراً واعتذرنا لهم، وسافرنا ليلًا على العادة قاصدين مدينة بايلان على اثني عشر ميلًا، وقد تعيّن ان نخبر عن بعض ما اشتملت عليه فاقول:

الخبر عن مدينة بايلان (٢)

هي مدينة صغيرة حضرية واهلها اهل رفاهية وحسن خلق وأخلاق، وقد بالغوا في الترحيب عند الملاقاة خاصة وعامّة نساء ورجالًا وفعلوا ما فيه زيادة على من تقدّمهم من التعظيم والتبجيل، لانّ عادة هذه المدن المعبورة البحث عمّا فعله من تقدّمهم، وللثاني رغبة وغبطة في الزيادة على الاوّل

قد استوعب أرجاء المدينة زياتين، وفيما بينها وبين سور المدينة قدر ميل، وهذا الميل أرض حراثة تتّصل بديار المدينة، وقد استدارت بسور المدينة أشجار التوت، وبأحد نواحيها قصبة للمسلمين محدثة من الجهات الثلاث والجهة الرابعة باقية على حالها لها ستّة أبراج وفي وسط ابراج القصبة برج في غاية الطول والعرض لم يحدث به تبديل ولا تغيير اتّخذوه لخزن الزرع، وقد صعدنا لسطحه من مدارج في غاية الضيق اشتملت على مائتي درجة تنقص أربعة بقصد الفرجة واستيعاب نواحي المدينة، فرأينا منه مدينة عظيمة في حجر جبل وبازائها قصبة، الكلّ في غاية الجدّة، فسألنا عنها فاذا هي مدينة من مدن الإسلام اسمها بلتشّة (٣) باقية على حالها الإسلامي وكذا قصبتها، نسأل الله تعالى ان يعيدها دار إسلام على يدي سيّدنا الكريمتين وما ذلك على الله بعزيز

وقبل هذه المدينة بميل تركنا الوادي الكبير يميناً ودخلنا أرضاً ذات أشجار وجبال ووعر فادح فلم يسعنا الّا ترك الأكداش وركبنا خيلًا من خيول الشلطاظ الذاهبين معنا واستعملنا السير بين جبال صعبة بها معادن الرصاص، وكان رواحنا لدار بين جبلين معدّة لمن يعبر سبيله من هنالك ولم تكن طريقه غيرها قطّ، واسم هذه الدار لبنط مراند (٤) عبرناها عن ثمانية عشر ميلًا، ومن الغد سافرنا بين جبال شاهقة انتهت بنا الى جبل له شبه بعقبة الحجاز، وبقنّته بنيان جعلوه علامة على حدّ اقليم الأندلس، واوّل اقليم مانشا (٥) واوّل مدينة من الاقليم المذكور كان بها مبيتنا مدينة البيسيو (٦) عبرناها على اثني عشر ميلًا

الخبر عن مدينة البيسيو

مدينة بدوية واهلها اهل فلاحة وأرضها أرض حراثة وبها تنتج البغال وقد شاهدنا بفحصها من البغال تسرح في

---

(١) المحارق والمحاريق بعرف المغاربة هي الأسهم الناريّة: Fuegos artificiales

(٢) Bailén بلدة من مقاطعة جيان اشتهرت بانتصار الاسبان على الفرنسيّين سنة ١٨٠٨

(٣) Vilches بليدة من مقاطعة جيان

(٤) هكذا في المخطوطة ولعله اراد لفظة فنتا Venta ومعناها: فندق، والظاهر انها محطّة للمسافرين بين بايلان والبيسيو

(٥) La Mancha مقاطعة قديمة في اسبانيا الوسطى على حدود اقليم الأندلس ومقاطعة طليطلة

(٦) البيسيو: El Visillo

أَزيَــدِ من ميل، ومنها تَستَمِدُّ البلاد الاصبنيوليَّــة بالبغال، وبقُربٍ منها وادٍ جارٍ لناحيتها، عليه قَنطَرَةٌ عبرناها ضَحْوَةً من غداةِ ليلتِنا في اثناء سيرنا لمدينةِ بلطَبينيس(١) حللناها عن اثني عشر ميلًا ولمْ يأْلُ جهداً اهلُها في الترحيب والاكرام

الخَبَرُ عــن مدينــةِ بَلطَــابِنِيس

هِيَ مدينةٌ بين الكِبر والصِغر واهلها بادُون محض، وبنواحيها الأَربع من الأَجِنَّــة وأَغراس الفواكه ما يزيد على ستَّة اميالٍ على ما حدَّث به اهلُها، وأمَّــا برأيِ العين فشيءٌ لا يُكيَف، وقد نزلنا بدار عجيبــة جداً من أحسن ديار المُدُن المعتبرة، وقد بالَغَ اهلُها في الترحيب والاعتذار على الداعي الموجب وطلبوا منَّا الإقامة عندهم ليتداركوا ما لم يُمكنهم وُجودُه في اليوم الذي حللنا بلادهم، فجازَيناهم خيراً وقلنا لهم لا زائدَ على الإِكــرام الصادر منكم والمُباشرة الناشئة عنكم، واعتذرنا لهم بما هو مقبولٌ من عَدَمِ امكان الإقامة، وأَخذنا السير في الثُّلُثِ الآخِرِ من الليل قاصدينَ مدينة مَنسَناريس(٢) عبرناها عن اثني عشر ميلًا

الخَبَرُ عــن مدينــةِ منسَناريس

مدينةٌ بدويَّةٌ بين الكبر والصِغر تلقنا اهلُها بملاقاةِ مَن قَبلَهُم بالرَّحب والسَّعة والتَّعظيم والاجلال، ونَزَلنا بخيار دورهم هِيَ لحاكم البلاد ولم يألُ جُهداً في اتقاد الشَّمع وانتخاب الفُــرُش وقد اَتى بأهل الموسيقى، على انَّ البلاد بدويَّة محض، فتعجَّبنا من وجود ما استقرَّ اجمالاً وتفصيلًا، فكَشَفَ الغيب انَّه احتَفَل لذلك قبل ان نصل اليه، وقد اقتفوا اثرَ مَن تَقَدَّمَهم باطلاقِ المحارق غير أنهم اتوا في اطلاقها بكيفيَّــةٍ غريبة، تَصْعَدُ المَحرَقَةُ من الأرض للجوِّ قَدرَ القامَتين ثم تنحطُّ فإذا الأَرض يتولَّدُ منها صوتٌ كصوتِ المَدفع، فسأَلنا عن ذلك فاذا صانعُهــا اراد ان تَقتصر في الصعود على قامتين لان خاصية صعودها في الجوِّ تصيب نوادر الزرع من خارج المدينة

وبأَرجاءِ هذه المدينة أجِنَّةٌ عديدةٌ وأَرضُ حِراثةٍ، سافرنا منها آخر ليلتنا قاصدينَ مَدينةِ ارينسِيَــا(٣) عن واحــدٍ وعشرينَ ميلًا، وفي خلال هذه الأَميال عبرنا في وسط مدينة اسمها بلرط، وبآخر المدينة قَنطَرَةٌ مضروبة على غدير من الماء لا ينفدُ ماؤُه في الفصول الأَربعة ولم تكن طريقٌ غيرها للعابر

ولهذا القَنطَرَة ثلاثةٌ وثلاثونَ قوساً من الأَقواس المتوسطة في العُلوِّ العظيمــة في الضخامة، والمدينة متَّسعة جداً غير انَّها بدويَّة كاهلها، وديارها مموَّهةٌ بالجير داخلًا وخارجاً ولها من احَدِ نواحيها أَشجارٌ مُستوية الصُّفوف في غِراستها لا ثمار لها

الخَبَرُ عــن مدينــةِ ارينسِيَــا

مدينةٌ كالتي قبلها في البداوة وانَّها بين الكِبَر والصِغَر، وبَرَزَ اهلها للمُلاقاةِ خاصةً وعامــةً، واظهروا من التعظيم والتبجيل والإِكرام ما قدروا عليه، وكان نزولنا بدار احَدِ تجارهم وهي دارٌ غير بعيدةٍ من ديار المُدُن المعتبرة، واعجب

(١) يريد : Valdepeñas وهي بلدةٌ مــن مقاطعة سِيوداد ريال تكتنفهــا سهولٌ واسعــة، اشتهرت بمزروعاتها وبخمورها الجيِّــدة

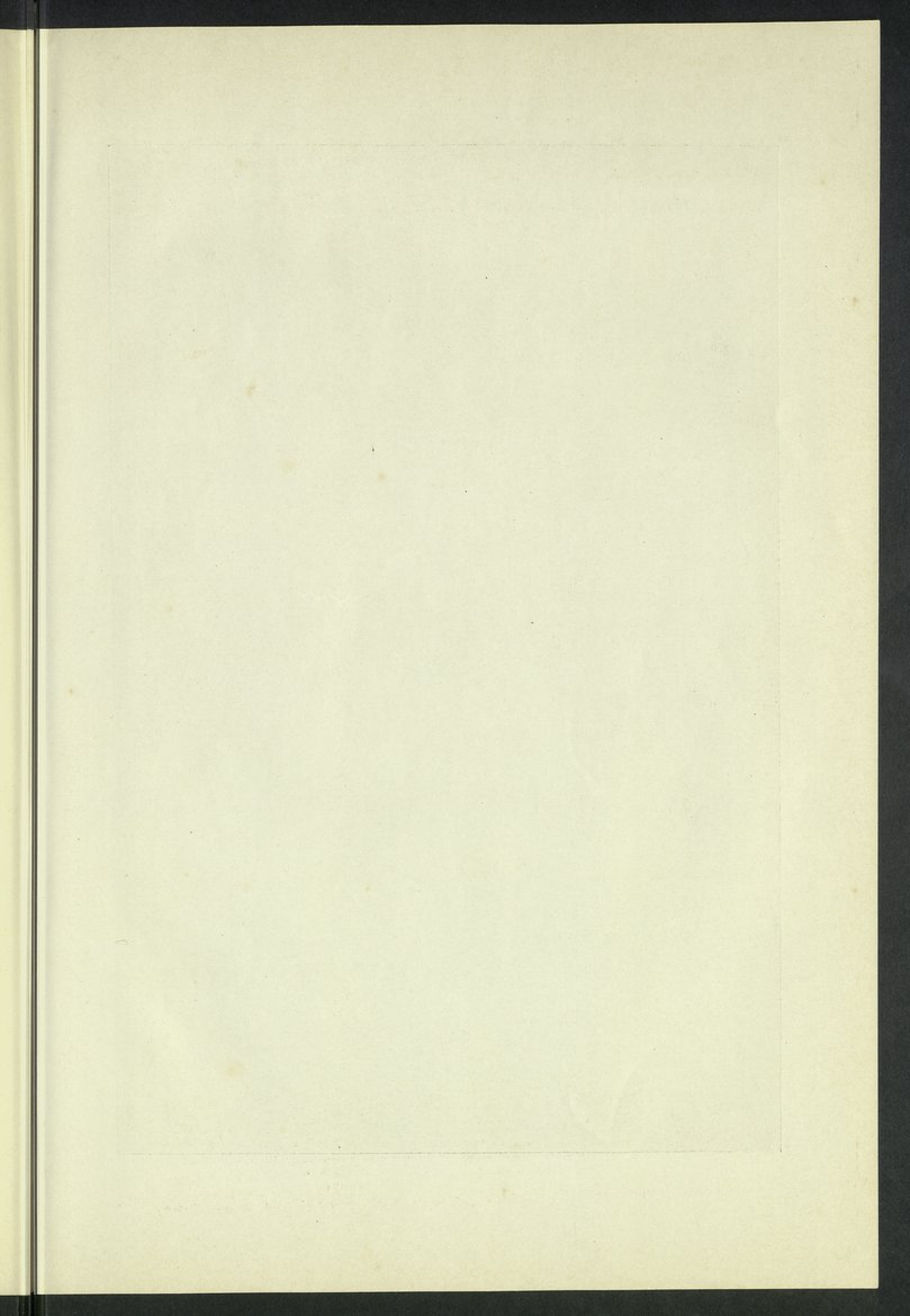
(٢) Manzanares : بلدةٌ من عمالة سِيوداد ريال Ciudad Real عدد سكانها اليوم ١٦٠٠٠

(٣) Herencia بلدةٌ من مقاطعة سِيوداد ريال



Córdoba.—Mezquita Grande: Los Arcos.

قُرطُبَة—المسجد الأعظم: العقود والحنايا الفنية



ما رَأَيتُ عند صاحبِ الدار عدَّةَ حُمرٍ كأنَّها البخت لا تَخرُجُ من اصطبلاتها الاَّ في وقتٍ مخصوصٍ بقصد النِتاج، ثمَّ تعود لمحلها، ذكَرَ لنا انَّ ثَمَن الواحد منها سبعُ مائة ريال وقد عَبَرَ بعضُ اصحابنا رَأس احـد الحُمُر فاذا طوله ثلاثة أشبار ولم يأْلُ جُهْداً ربُّ الدار ولا اهل المدينة في الفرح والترحيب بنا عند المُلاقاة ولا حال التشييع، ثم ارتحلنا قاصدينَ مدينة طِنبليكِي(١) عن واحدٍ وعشرينَ ميلًا

الخَبَرُ عن مدينةِ طِنبِليكي

مدينةٌ متوسّطةٌ بدويّةٌ، برزَ اهلها لملاقاتنا وقد اقتفوا اثَرَ اخوانهم فيما هم مأْمورون به من طاعتهم من المُباشرة والإِكرام والوقوف على قدَمٍ في الترحيب والتعظيم

وعند اقبال الليل اطلقوا محارق، وعند طلق كل واحدةٍ يرفعُون اصواتهم بكلامٍ تعبيرُهُ الله ينصر سُلطان مرّاكُش! والدار التي نزلنا بها تحسبها من ديار الحواضر ما دون أشبيلِيَة وقُرطُبَة، ومنها كان رواحنا لمدينة مُورَة(٢) عن اثني عشر ميلًا

الخَبَرُ عن مدينةِ مُورَه

مدينةٌ مشيَّدةٌ في بسيطِ الأرض ولها من الجهتين جبلين، على قُنّةِ كلِّ جبلٍ منها قَصَبةٌ من عَمَل المسلمينَ بحراسة البلادِ، كلُّ قَصَبةٍ مطلّةٍ على ما يزيد على اثني عشَرَ ميلًا من الأَرض والجهتان الأخريَان لم يحجب المدينة حاجبٌ لبسطِ الأرض، وبها من أجنَّة العِنَب ما لا نهايةَ له، والمدينة متسعةٌ غايةً غير انَّ بُنيانها غير شاهقٍ ولا مُنتخب، وانَّما هِيَ أرضيةٌ وبنيانها بالآجرّ وعليها اثرُ القدمِ وسكانُها اهلُ باديةٍ، اقمنا بها بقيّة يومَ الحلـولِ بها وسافرنا منها قُرب الفجر قاصدينَ مدينة بلاصيك لاصاكي(٣) عن خمسة عشر ميلًا

الخَبَرُ عن مدينةِ بلاصيك لاصاكي

هِيَ مدينةٌ صغيرةٌ بالنسبة للمُدُن واهلها اهلُ حضارة، ودِيارُها مُتقنةُ البُنيان فسيحةُ الشوارع

برزَ لملاقاتنا من اهلها خاصةٌ وعامّةٌ نساء ورجالاً مصاحبين للأكداش وقد بالغوا في الترحيب واظهار البَشاشة والفرح بورودنا على بلادهم، وذهبنا في وسط القوم الى ان وصلنا الدّار المُهيَّئة لنا، فاذا هي مُزيّنةٌ بفُرُشٍ منتخبةٍ وسُتُورٍ مناسبة، واحضروا اهلَ الموسيقى في الحال زيادةً في الإكرام والبرور، وقبل وُصولنا لهذا المدينة بقليل قطعنا الوادي الكبير المُسمّى بانطاخو(٤) وهو المارُّ بمدينة طُلَيطُلَة عن يسار عُبورنا، وعلى شفير الوادي غابةٌ ملتفّةٌ بالأشجار هي مُعدَّةٌ لاصطياد الطّاغية

---

(١) Tembleque : قريةٌ صغيرةٌ من أعمال طُلَيطُلَة

(٢) Mora بلدةٌ من اعمال طُليطُلَة سكانها ١٠٣٠٠

(٣) لم نتحقق من ضبطها

(٤) مخط: انطاخو: هو طاجو (طاخو) Tajo نهرٌ مشهورٌ في اسبانيا وكان يعرف في عهد العرب بوادي تاجة

مُحجَّرةٌ لا يصطادُ بها غيره ولا يؤخذ منها حطب، وقد شاهدنا بالغابةِ بعضَ الوُحـوش: غزلاناً وغيرها تسرحُ آمنة وبشطِّ الوادي دارٌ عجيبةٌ هِيَ لنزول الطّاغِيَة ومحل استراحته حال اصطياده لا يسكنُها أحدٌ الاّ المُوكَّل بنظافتها، ولهذا الوادي قَنْطَرةٌ وليست بقَنْطَرةٍ وانّما هِيَ بمثابـة المَعَدِيّة عندنا الاّ انّها مـن اللّوح مسمّرة على قاربين، عرضُها ما يسعُ عشريـنَ رجلًا جنبَ كلّ واحدٍ لصاحبه، والطولُ ضعف العرْض، وبالعَدْوَتين صوارٍ ممكّنة مـن الأرض، وبها كمنات غلظُها قدر السّاعِد تتّصل بالمَعَدِيّة، فالعابرُ يجد بها الموكّل بقطع الوارد حتّى يُمكّنها من الأرض، يحمل فيها اكداشاً وبغالاً وخيلاً وغير ذلك، فاذا اردتَ الرجوع للشطّ الآخر بعد الحمل ودونه يَجذبها ايضاً القيّم عليها مـن الجهة الأُخرى فيصلُ العابرُ في أمنٍ وآمانٍ من غير مشقّةٍ ولا خوفِ آفةٍ، ولهذا المَعَدِيّة احتفاظاتٌ مـن اللّوح يميناً وشمالاً خشية الازدحام من الدواب وغيرها زيادةً في التحفّظ على العابر

ومن المدينة المذكورةِ كان رواحنا لمدينة ايلاصكاص(١) عبرنا اليها عن تسعةِ اميال

الخَبَرُ عن مدينةِ ايلاصكاص

مدينةٌ حكمها حكمُ التي قبلها بحيثُ لم يخالفها في شيءٍ مـن أرضها ولا في اهلها خَلقاً وخُلقاً وقد اقتفوا اثر اهلها في الملاقاة والترحيب وما يُضافُ لذلك، والمدينة بدويّة محض ومنها كان رواحنا لمدريد عـن عشرين ميلًا عبرناها بين مُدنٍ وقُرى عديدةٍ

والمدينةُ الموالية لمدريد هِيَ مدينة كبيرة يقال لها الخِطّافِ(٢) يسكنُها الشلطاظ وعليها أَثرُ القِدَم والطريقة المُوصِلة لمدريد هِيَ في وَسَطها، وكانت تتردّدُ عليها رُسُلُ الطاغِية منذ خرَجنا من قُرطُبَة بالترحيب والسّلام من طاغيتهم، ثمّ يعودونَ اليه مخبرينَ بمحل مبيتنا كُلّ ليلةٍ، فلمّا كانت الليلةُ الأخيرة مـن سفرنا وكُنّا ازمعنا على ان نقصد الدار التي هُو بها وهي على بعد مـن مدريد بنحو ستّة اميال، لانّ عادتَه ان يسكُنَ زمن المصيف والخريف دياراً خارجة عن مدريد ينتقل من هذهِ لهذهِ لما اشتملت عليه هذه الديارُ من الهواء الطيّب حال المصيف

وقد لحق بنا في اثناء الطّريق احد مـن أعيانه مصاحباً لكتابه مُضمّنه التهنئة بالقدوم، وأَمرَ الفسيان المُصاحب لنا ان يذهب بنا لمدريد ويكون نُزُولنا بداره، وقصده بذلك الاكرام والتعظيم، لانّ مدريد هِيَ حاضرةُ الحواضر عنده ولا نسبةَ بينها وبين الدار التي هُوَ بها الآن، فَقدّم بعض المراكيس الذي يتّكل عليه في مُهمّاته ليُهيّءَ الدارَ ويُزيّنها بالفُرُش وما يُضافُ لذلك، وأَمَرَه ان يتهيّأ لملاقاتنا مُصاحباً لأَعيان البلاد والشلطاظ وآلة الطّرب والقونصوات(٣) والبشادورات من سائر الأجناس ففعل ما أُمِرَ به وزادَ عليه!

الخَبَرُ عـن مدينةِ مدريد(٤)

قد بَرَزَ لملاقاتنا على بعدٍ من المدينة بمَا يَقرُب مـن مسافَةِ مُصاحباً خَلقٍ لا يأتي عليهم الحصر، خاصةً وعامّةً نساءً

---

(١) Illescas بلدةٌ من مقاطعة طُليطُلَة

(٢) Getafe بلدةٌ قرب مدريد

(٣) يريد: القناصل Cónsules: جمع قُنْصُل: معتمدٌ ترسله دولة الى مدينةٍ من مدن دولةٍ أخرى

(٤) مخط: مادريد: هي مدريد Madrid عاصمةُ اسبانيا وهي من العواصم الأُوربيّة المشهورة والعرب كانت تسميها مجريط



Córdoba.—Mezquita Grande: Puerta del Perdón.

قُرطُبَة—المسجد الأعظم : باب الغفران

ورجالاً وصبياناً الكثيرُ منهم في الاكداش ثمَّ الخُيول ثمَّ الراجلين، وقد ضاقت عليهم الأرضُ مع وسعها، وكان يوماً مشهوداً، فكان ما قَبْلَهُ بالنسبة لما شاهدناهُ كالغدير من البَحْرِ، على انَّ ما شَهدْناهُ من اجتماع الخَلقِ بالمُدُن المعْورة المعتبرة شيءٌ يَعْجُزُ عن تكْييفِهِ ثمَّ انَّ هـذا الجمع لم يبقَ تعجُّباً مِمَّا ومعَ ما هم عليه مـن هذه الجموعُ الوافِرَة لا قُدْرة لهم على مُباشرة القِتال صَفاً صَفاً الاَّ ما كان من رَمي المدافع والنُّبَبِ واستعمال الخدائـع وما في معنى ذلك

وامَّا المحاربةُ عَلى بسط الأرض بالخُيول والرُّمات مكافحةً من غير حِصْنٍ فلا طاقةَ لهم بذلك، فان المائة الفِ منهم تقاومُها العشرةُ آلافٍ مـن المسلمينَ بِنَصِّ الكِتاب العزيز، ولولا ان حماهُم البحرُ لاستوعبَهُم الهلاك في اقرب مُدَّةٍ، وهم عارفونَ بذلك، فلذلك استعملوا جُهْدَهم في تحصين المُدُن بالمدافع وغير ذلك المتّصِلة ببرنا بجعل الأبراج والبساتين وتعَدّد الأسوار وتنظيمها بالمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ويُوهِمُون انَّ مُدُنهم مثلها في التحصين دفعاً لِما عسى ان يقع في نفس الإسلام من الاهتمام بالقَطْعِ اليها مثل ما تقدَّم في الأخْذِ الاوَّل، فإن عُوض هذا لمحاربتهم للأندلس واستلائهم على الجزيرة، فيحلف عن ذلك بالحقيقة والشريعة، أمَّا بالحقيقة اوكان أمرُ اللهِ قدراً مَقدوراً تعالى ان يكون في مُلكِه مالا يُريد! وبالشريعَةِ اَقُل لو كانَ فيهما آلِهَةٌ الاَّ اللهُ لفسدتا، فإنَّ تعدُّدَ الأُمراء وانتصار بَعْضهم على بعض واتباع الاهوا، يُفضى الى الخَراب والمحق والعِياذُ باللهِ!

وامَّا العدوّ الكافر فقد وعدَ اللهُ تعالى عبادَه بالنصر عليه والظهور فلا يلتفت للكَثْرة منه ولا للقلّة، وهذا أمرٌ مُسلَّمٌ

وقد استعملنا السير في وسط هـذه الجموع وشلظاظهم تَدْفع عنَّا القوم بالسيوف، وأعيانهم راجلين امامنا متأدبين كانَّما على رؤُوسهم الطير

فانظر الى عزّةِ الإسلام وما اودعَ اللهُ تعالى في سيّدنا المنصور باللهِ من السّر والعَظَمَة، وقد انتهى بنا السير الى قنطرةٍ عظيمة هائلةٍ عبرناها في ازدحامٍ عظيم، مضروبـة على الوادي الذي بقُرب المدينة اشتملت على تسعةِ أقواس في غايـة الطول والعَرض، وابتداءُ بُنيان هـذه القَنطَرة قبل نفس الأقواس وبعدها بالترصيف والستائر بما يقربُ من المِيل، وبطَرَفي القَنطَرة أقواسٌ مَعْقودَةٌ على سواري مـن الرُّخام، والمسافـة التي بين القَنطَرة والمدينة ما دون نصف ميل بقليل، وبساحل الوادي عرشاناً من القَصَب واقِيَةَ للنسوَة من حرّ الشمس حال تصبين اثوابهنَّ بالوادي، وارجاءُ المدينة في غاية البسط، عامرة بأشجارٍ لا ثمار لها جُلّها بطرفي الطُّرقات يميناً وشمالاً، ولقُرب غرس الأشجار بعضُها من بعض واستواء صفوفها صارت تَحْجُبُ الأرض من نُفُوذ نورالشّمْس لانتشار الأغصان من أعلاها واختلاطها بالجوّ وامتداد هذه الأشجار بالطُّرقات العديدة، منها ما نهايته عشرُ مسافاتٍ الى الأربعين الى ما دون، فالعابرُ يذهب بينَ صفوف الأشجار الى البلاد التي يريـد مظَلّلاً، وقـد استوى في العبور العارفُ بالطريق والجاهِل بها لذهابه بين صفوف الأشجار، والأشجارُ واصِلةٌ اليها هذا في كُلِّ مدينةٍ مدينة

ومن خارج سور المدينة المدريديَّة مُتَّصِل بها أجِنَّةٌ كثيرَةٌ اشتملت على فواكه خَريفيَّـةٍ وصيفِيَّـةٍ على ما شاهدناه قبل الدّخول اليها لانَّ الموكّلَ من قِبَل الطَّاغية على ملاقاتنا كان يعرجُ بنا حال العُبور على هذه الاماكـن، وقد تلقتنا قُرب المدينة اكداش هِيَ الطّاغية فركبناها ودخلنا المدينة في هَيْئةٍ عظيمةٍ وعزٍّ وكرامـةٍ لم تَحْصُل لمن قبلنا من رُسُلِ الملوك المتقدّمة ولا شاهدوا ما شاهدناه

ولمَّا حللنا دارَ الطَّاغِيَة في جمـع عظيم، جَعَلَ الشلظاظُ يدفعون عنَّا القومَ، ولم تزل أعيان الدولَة تتردَّدُ الينا بقصد الترحيب والسَّلام بقية يومنا ومن الغَدِ وبعده الى ان اعترانا من ذلك الَمٌ نشأ عن التَعب والنَّصب حيثُ لم نجد استراحة مقدارَ لَحظَةٍ لِمَا للقوم من الغِبْطة في الحديث مَعنا والسؤال عن سيّـدنا ايّدهُ اللهُ، والرَّغبة في الاطـلاع على ما هو عليه برٌّ

الإسلام وذكر كلِّ مدينةٍ مدينة على حدتها الى غير ذلك من السؤال الموجب لطول مُقامِهم لدينا، وسؤالهم الأوّل كالثاني وهكذا

ثمّ ورد خبر موتِ أمِّ الطّاغية، فلم يلبثوا الاّ وقد لبسوا مَلاَبِسَ سُودٍ، وذَهَبوا مُعزِّينَ لطاغيتهم، فحَصَل لنا بعض الاستراحة، ومُنذُ بَلَغَ خبرُ موتها والنواقيسُ لا تَفتُر من الضّربِ لَحظَةً تسعةَ أيامٍ بضَربٍ مَخصُوص، فيه علامةٌ على موتِ احد من أقارب الطّاغية، زوجته او أمّه

ودخل الطاغية دارَ الحجبَة الى امَدٍ مَعلوم عندهم لا يتكلّمُ مع أحدٍ ولا يدخل عليه الاّ من كان من خاصّته، وقد اقامَ مقامه الوزيرُ في مُباشرتنا ومؤنستنا برسائله وكُتُبه مضمّنُها: «انّ عظيمه كان في غايةِ الانتظار والتشوّق لملاقاتكم، وقد حدَثَ هذا الأمر الموجب لبعض التأخّر عن حصوله على المقصود من رؤيتكم، وعن قريب ان شاء الله تكون الملاقاة ويحصُل الكلّ على مُراده وان عرَضَت لكم حاجة نفوذٌ بقضائها:» افانّ طاغيتهم أمرهم بذلك وحضّهم على الامتثال لِما نأمرهم به! فنجيبهُ بما يناسب في الوقت

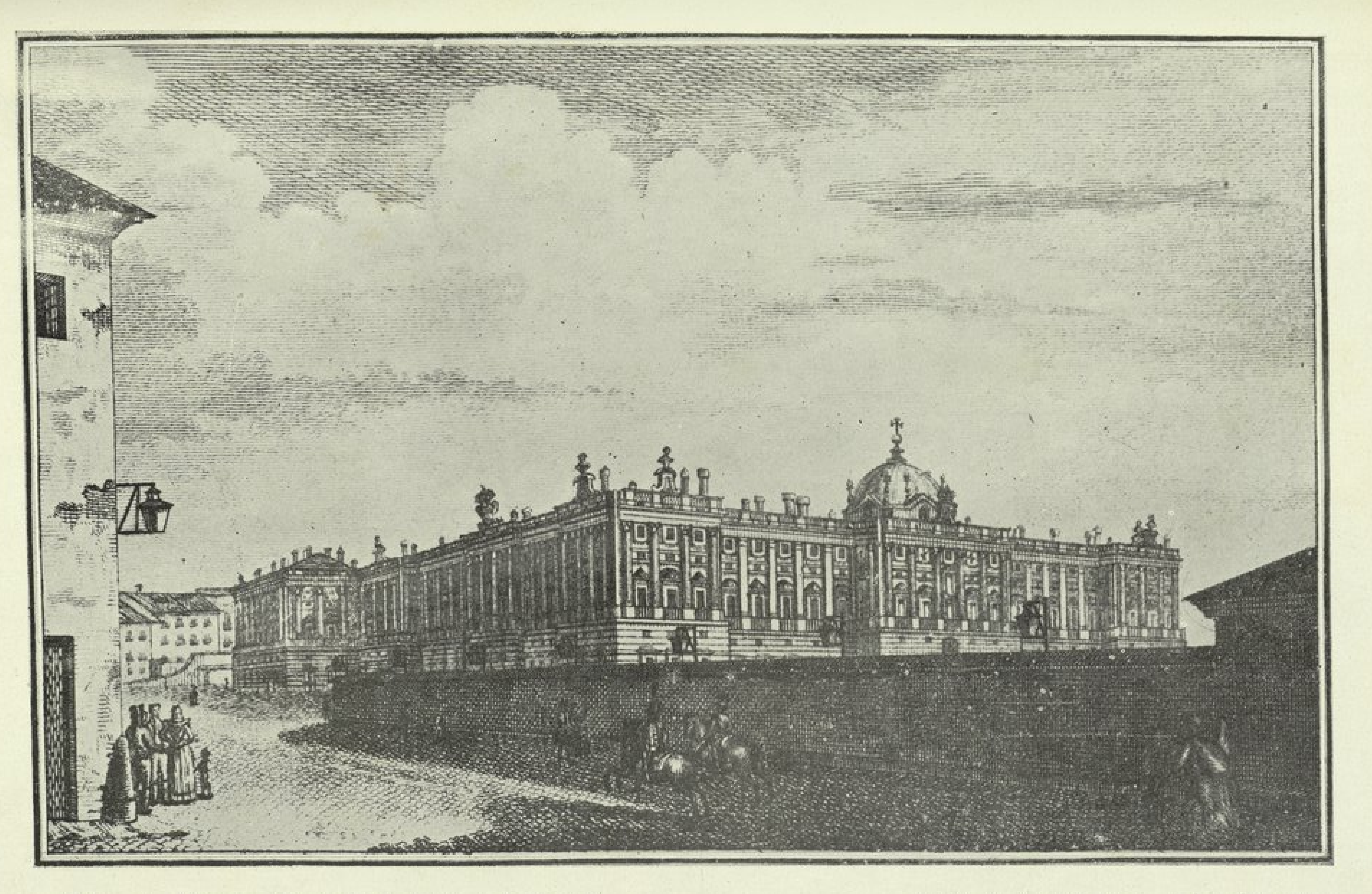
وحيث تأخّرت المُلاقاة بالسببِ المذكور، فانّنا نشرع في الكلام على الدار التي نزلنا بها وذكر ما اشتملت عليه من ضخامة البنيان وارتفاعه في الجوّ وما يُضافُ لذلك ممّا يَضيقُ عنه التّكييفُ ويَعجزُ عنه التعبير

فنقول على سبيل الاختصار: هي دارٌ تسعُ دائرتها مائتي دارٍ من الديار الكبار المعتَبرة، قِبابها ومقاعِدها لا تُحصى ولا تُستقصى، كلّ مقعدٍ او قُبّة تشتمل على أربعةِ أبواب وقوائم الأبواب في البنيان مع عتبتها العُليا والسُّفلى من حجرٍ واحدٍ غير مُنفصِل، منها ما هُو من المرمر ومنها ما هو من الحجر الأبيض ومنها ما هو بالأصفر الذي يشاكل اللّوبان ثمّ من الحجر الذي هو مُشجّر اصلاً ومثله في الأخضر، وكذا غيره في البياض والسواد، الكلّ من معادن هُنالك، كلّ مقعدٍ او قُبّة يستقلّ بنوع من أنواع الحِجارة المذكورة، يُشاهِدُ فيها الناظرُ وجههُ كالمرآة لجودتها في الصّقل، ثمّ بزوايا القِبب والمقاعد رُخاماتٌ في غاية البَسطِ كلّها من المعادن المذكورة، ومنها ما فيه زيادة هندسيّة يُتعَجّبُ منها وهيَ جعلُهم تشجيراً يَشتملُ على الوانٍ مختلفةٍ على بَسط الصحيفة من المرمَر الشديد السّواد، والتشجير المذكور فوق الصحيفة كانّه من نفسها حيثُ لم يعلم على بَسطها جرم اللّون الموضوع، فان قِيلَ انّه صَبغٌ فكيفَ يمكنُهُ الصّبغُ مع تعدّدِ الألوان واتصال قُضُب التشجير بعضُها ببعضٍ مع مخالفتها في الألوان؟، فاذا اتّصل اللّون الواحد بغيره وقَعَ المزجُ، فان قيل يُؤخّر اللّون الثاني عن الاوّل حتّى يتمكّن الصّبغ الاوّل من الصحيفة ثمّ يمُر عليه بلونٍ آخر وهكذا، يُعارضه: اذا جُعِل اللّون الثاني فوق الاوّل المخالف له واتّصل الجرمُ بالجرمِ المَجعُول فوقه ينشأ عنه عُلوّ على بَسيطِ الرُّخامة، والرُّخامة هِيَ كالمرآة في الصّفاء والصّقالة والبَسط! فهذا والله ما يتعجّب منه

وهذه الرُّخامات منها ما يحمل عليها مواكن(١) ومنها ما يتخذونها للكتابة، جميعها محمولٌ على كراسي من الجِبْس المُموّه بالذهب، وعلوُّها من الأرض نِصف قامة، وسقفُ هذه القِباب والمقاعد منها ما هو شبكةٌ من قصَب الذّهب متّصلة برخام مَبسوطٍ بالسقف، ومنها ما استوعبته تَصاوير، ومنها ما هو مُشجّرٌ بألوانٍ عديدة، وبحيطان المقاعد والأبواب عليها ستور من الديباج المذهّب وغيره من القماش الرفيع كالكمْخَة والمُوبَّر وما شاكلها في الصفة، الكلّ مسمّر بمسامير من الذّهب، وكلّ مقعد او قُبّة لجنبها مقعد للنوم وهو دون المقاعد في الكبر واحسنها في الفرش والسُّتور، وبها دخاشيش من القماش المسمى ببركاضو(٢)، وامّا الشليات فقد استوعبت المقاعد والغُرَف والمنازه، كلّها من الديباج المذكور

(١) جمع مكّانة او مغانة وهي الساعة عند عامة المغاربة

(٢) بروكادو Brocado نوع من النسيج الرفيع وهو غير البركال Percal الذي ذكرناه سابقاً

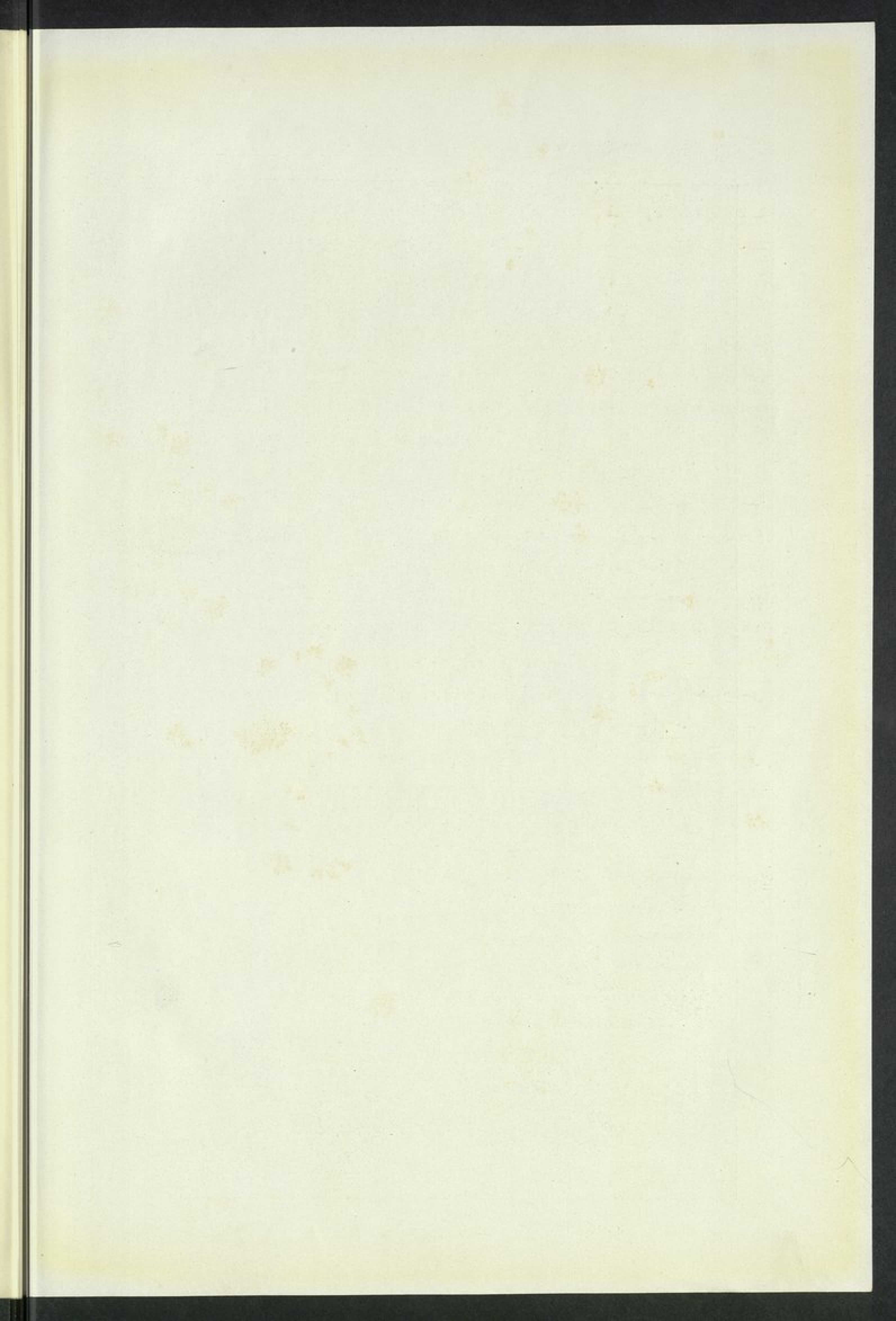


Vista, entre Oriente y Norte, del Real Palacio de Madrid.

(Biblioteca Nacional de Madrid.)

القصر الملكي في مدريد—الواجهتان: الشرقية والشمالية.

(مكتبة مدريد الاهلية)



وبناء هذه الدار جميعُه بالحجر المنجور في قائمه والمبسوط، ولم تكن بها خَشَبَةٌ في سائر بناءاتها الاّ ما كان بقوائم الأبواب، وامّا ألواحها فمن خالص البلّور، والقوائم التي هِيَ من الخشب مُمَوَّهة بالذهب، وقد استوعب حيطان المقاعد والغُرف من أعلى مرآة طولها خمسة عشر شبراً وعرضها تسعة أشبار جميعها من ماء واحدٍ غير منفصل، وقد عثرنا على قُبَّةٍ مشيَّدةٍ بين بساتين محيطة بها من الجهتين، والبساتين مشتملةٌ على فواكه مختلفة المطاعم، ولهذه القُبّة عشرة أبواب نافذة كلها للبساتين المذكورة يميناً وشمالاً، والأبواب العشرة هيَ كالابهاء.(١) لها شبابيك من النحاس المذهّب وعليها ستور من القماش المذكور، وفيما بين الباب والذي يليه مرآة متّصلة بدائرة القُبّة خارجة عن الابهاء التي هِيَ الأبواب النافذة للبساتين على الصِفة المذكورة في الطول والعرض ومن أعلا هذه المرآة القائمة مرآة أُخرى مبسوطة، فهي من المرايا التي بين الأبواب بمنزلة التاج لها الرابط بين المرآتين صفائح من الذهب، وبنحو الثُلثين من علوّ هذه القُبّة مباحات نافذة بعضُها لبعضٍ على الأربع جهات محمولة على بُروز، لها حَفائظ من النحاس المذهّب مطلة على وسط القُبّة، وقد استوعب هذه المباحات تصاوير قائمة على أقدامها جنب هذه لهذه

وامّا سقفُ القُبّة فشبكة من قُضب الذهب على شكلٍ غريبٍ في الصنعة، وبصدر القُبّة المقابل للدار قُبّة صغيرة مثمّنة من البلّور قَسَمَ المهندسُ كلّ ثُمنٍ منها على ثمانية أشطار، فاجتمع الاشطار مائة وثمانية وعشرونَ شطراً، ثمّ قسَمَها عرضاً على ما جعلها مربّعة الأشطار فصارتِ القِسمة على شكل بيوت الجَدْوَل، غير انّ كلّ بيتٍ قدر شبرٍ في طوله والعَرض، وجعل في كل تربيعة لوحاً من البلّور متصل الاطراف بعضها ببعض وبه تعريج خَفيٌّ حكمَت به الاستدارة الاصليّة في التثمين، والسرّ في ذلك انه اذا عَبَرَ عابر هذه القُبّة تَعَدَّدَ جرمه بتعدُّدِ الألواح البلّوريّة، فالشخصُ الواحد يَبْلغ عددَه العددَ الكثير بتمثيل كلّ لوحٍ من الألواح لشخص العابر، والباب الذي يدخل منه على الصِفة، فاذا أُغلِقَ بعد عُبور العابر واراد الخُروج يَضِلُّ عن الباب ولا يَهتدي من اينَ دَخل القُبّة الاّ اذا أُرشِدَ

ثمّ عبَرنا قُبّة أُخرى الى جنب هذه القُبّة فاذا هِيَ اكبر واضخم من التي قبلها بكثيرٍ، وبها من العَجب ما ليس بغيرها، وذلك لمّا عبرنا من بابها نحو عشر خطوات تلقّتنا درابيز من المرايا، والدرابيز مطلّة على مهواة والقدر الذي بين الدَرابيز وأرض المهواة قدر ما بينهما وبين سقف القُبّة، وهذه الدرابيز مستديرة بمباحات نافذة بعضها لبعضٍ مقسّمة على اثنين وخمسين قِسمةً، كلُّ قِسْمَةٍ بين ساريتين والسواري في نفسها مثمّنة هي من المَرَاءات صاعدات من متن الدرابيز وقائمة السواري، وبوسط الدرابيز الرابطة للمَرَاءات صفائح من الذهب، وقد نزلنا المهواة من مدارج الرُخام، فاذا هِيَ قُبّة في غاية الطول والعرض أرضها من اللوح، وفيما بين بعض اللوح والذي يليه فُرْجة قدرُها أربعة اصابع تنفذُ لمهواة في باطن الأرض عمقها قدر نصف علوّ القُبّة فاكثر، وتقابل الفُرجات التي بين الالواح الارضيّة قُلوعٌ مطويّة على فُرود من الخشب قرب السقف، وبجنب القُبّة صناديق الموسيقى ونواعير واكداش وغير ذلك من الأشياء التي لا يُعبَّر عنها ولا ندري ما تُسمّى به، منها فَرْدُ خشب طوله عشرة أشبار وعَرضه ثلاثة أشبار على الاستدارة، فاذا اوقفوه يَتولّدُ منه صوتٌ هائلٌ يشبهه صوت السَّيل العظيم المُنْطِر بالحجارة، ولا يزال يُصوِّتُ مدّة وُقوفه، فإذا ضعُف صوتُه يجعلون عاليَه سافلَه فيَشتدُّ صوته ايضاً وهكذا، ولا ينقطِعُ صوته الاّ اذا أُسنِد للأرض، فسألنا عن ذلك فاذا القُبّة معدّة عندَ الطاغية للفُرجة، وما بها من الأشياء المذكورة هيَ آلة لاهل اللَعِب بها، والمباحات المستديرة بنصف القُبّة هي محلّ جلوس الطاغية مع زوجته واولاده وخَواصِه للفُرجة وهي المسماة عندهم بالكُمِيدِيَة (٢)

---

(١) الأبهاء جمع بَهو

(٢) كوميديا : Comedia مهزلة ج مهازل، روايات هزليّة، مُضحكات الى غير ذلك

وبسور البساتين المحيطة بهذه القبّة والقباب المتّصلة بها تصاوير مـن أعلى السور وبجدرانه ينحتّونَ من نفس الدُّور محارب، ويجعلونَ بكلِّ محراب صورة آدمي قائماً على قدَميه، ومثل ذلك من خارج السور ايضاً، وبوسط أحـدِ البساتين رُخامة علوّها من الأرض قدر قامتين وعرضها ستّة أذرع عليها فرسٌ مـن النّحاس وراكبه من النحاس ايضاً وبيده عصى، والفرسُ قائم على تاليتَيْه ويداه مرفوعتان على بسط الرّخامة والفرسُ وراكبُهُ في غاية الضخامَة، ويزعمون أنّه هو الباني للدار التي نحن بها وهو من أعيان ملوكهم واسمُه فلبِ كوارطُ(١) اي الرابع

وببعض الأغراس المذكورة النبات الذي يخطُّون بنقله مـن تشجيرٍ وتصاوير وغير ذلك ما شاءوا، وقـد تقدَّم ذكره بترجمة أشبيليّة فلا فائـدة في اعادتـه، ويتّصِل بخارج سور الـدار بُستان الطاغية وهو في غاية الطول والعرض، أشجاره مُستوية الصفوف لا ثمار لها، وبه صهريج كأنّه البحر وقد استدارت به قِباب من جميع نواحيه مضروبة على سواني عديدة وماؤُها نافذ للصهريج ولا مَددَ له الاّ من ماء السواني المذكورة، ودوران دواليبها على التأبيد

وللبُستان طُرق عديدة مارّة بين الأشجار، والقيِّمُ على هذا البُستان مجتهد في نظافة طُرقه ورشها بالماء حال المصيف مع سقي الأشجار وما تحتاجُ اليه من تَنقِيَة وغير ذلك، وله عِدّة من الخَدَمة يساعدونـه على ذلك، وتحت ظلِّ الأشجار كراسي من اللوح كلٌّ واحدٍ يسع العشرين من الناس في الجلوس عليه،منها ما هو بشطِّ الصهريج ومنها ما هو خارج عنه، وهذا البستان يَعْبره كلَّ عشيّة الغني والفقير والجليل والحقير وبه يَجْتمع كلُّ انيسٍ بأنيسه ذكوراً واناثاً، فقد اباحَ الطاغية عبوره لكلِّ احدٍ كائناً مَنْ كان وفي اي وقت كان

وبطرف هذا البستان دارٌ ارضيّةٌ مثمّنة، بكلِّ ثُمنٍ مـن اثمانها بيتان يقابل بعضها بعضاً على الاستدارة، أبوابها في الطول والعرض واحـد، وداخل الأبواب شبابيك من المعدن فاذا هِيَ دارُ الأُسود، كلُّ أَسد داخل الشباك بسِلسِلة، ومن ذلك الشباك يُطْعَم ويُسْقى، فاذا اراد القيِّـمُ على الأسَد نظافة محلـه يجذب الأسَد بسِلسِلةِ الى زاوية مـن زوايا البيت ويفتح الشّباك حتى يقضي وطره من البيت ويُعيد الشّباك والأسَد الى ما كانا عليه

وقـد رأينا بهذه الدار أسَداً على غير خِلقَة أُسدِنَا هو أقرب شبهاً بالعجلة الصغيرة التي في عمرها سنة، قيل أنه جاء من الهند، ثم دخلنا داراً ايضاً هي قريبة من دار الأُسود في غاية الكبر والضخامة لها مقاعد لا تحصى، يُصنع فيها الوَدعُ في غاية التحجير لا يدخلها الاّ من أذن له الطاغية، وقد كان قـد أمَر الطاغية بقدومنا لمواضع مخصوصةٍ عندهم بالفُرجة زيادةً فى الاكرام، منها هـذه الدار المسماة بدار الشِّنَة فتلقَّانا صاحبها بالرحب والسّعة، وقـد صعدنا لاحد المقاعد هو خاص بمن يَعجِنُ الطين كأنّه الجبص، ثم مقعد ثانٍ يصنعونَ به الاواني من فناجل وحقاق وصُحُون وغراريف وكيسان مِمّا رقَّ وراق، ولا فرق بين صانع الاواني بأرضنا وصانعها هُنالك في العمل الاّ ما كان من الطين، وقد مثّل بين ايدينا شجرة من الياسمين مفتّحة الأزهار ومبسوطة الأغصان، ومثلها من أشجار الوَرْد الكلُّ على خلقته يحسب الناظر انه خلقي، فكشف الغيب انّه من الطين اخـذَ ما احتاجَ اليه بعد التصوير بعد الاصطلاء، والعجب في خضرةِ والأوراق وبياض النُّور او الحُمرة، كلٌّ على خلقته وجميعـه من الطّين، وهذا ممّا لا يجوزه العقل ويُحَار فيه ذهن مُشاهده عياناً، ثمّ عبرنا مقعداً ثالثاً به عدةٌ مُعلميـن يستعملون رقْم الفناجل وغيرها من الاواني بالألوان والذهب، وقدْ جارَيْتُ الكلام معهم في الصّنعة والمُراد ان نستخرج ما عندهم من عمل الذّهب في الاواني وبما يَلْتصِق الذّهب على الرّخـام والجبص وغير ذلك، وقد اوهَمْتهم بعَجْعَجَةٍ ألقتْ في نفوسهم بأني صاحِبُ حِكمَةٍ وانّ سُؤَالي لهم سؤَال تنكيت، فإن اجابـوا حَصلتُ على المُراد وان امتنعوا فما تسبَّوا

---

(١) فليب الرابع Felipe Çuarto (IV)

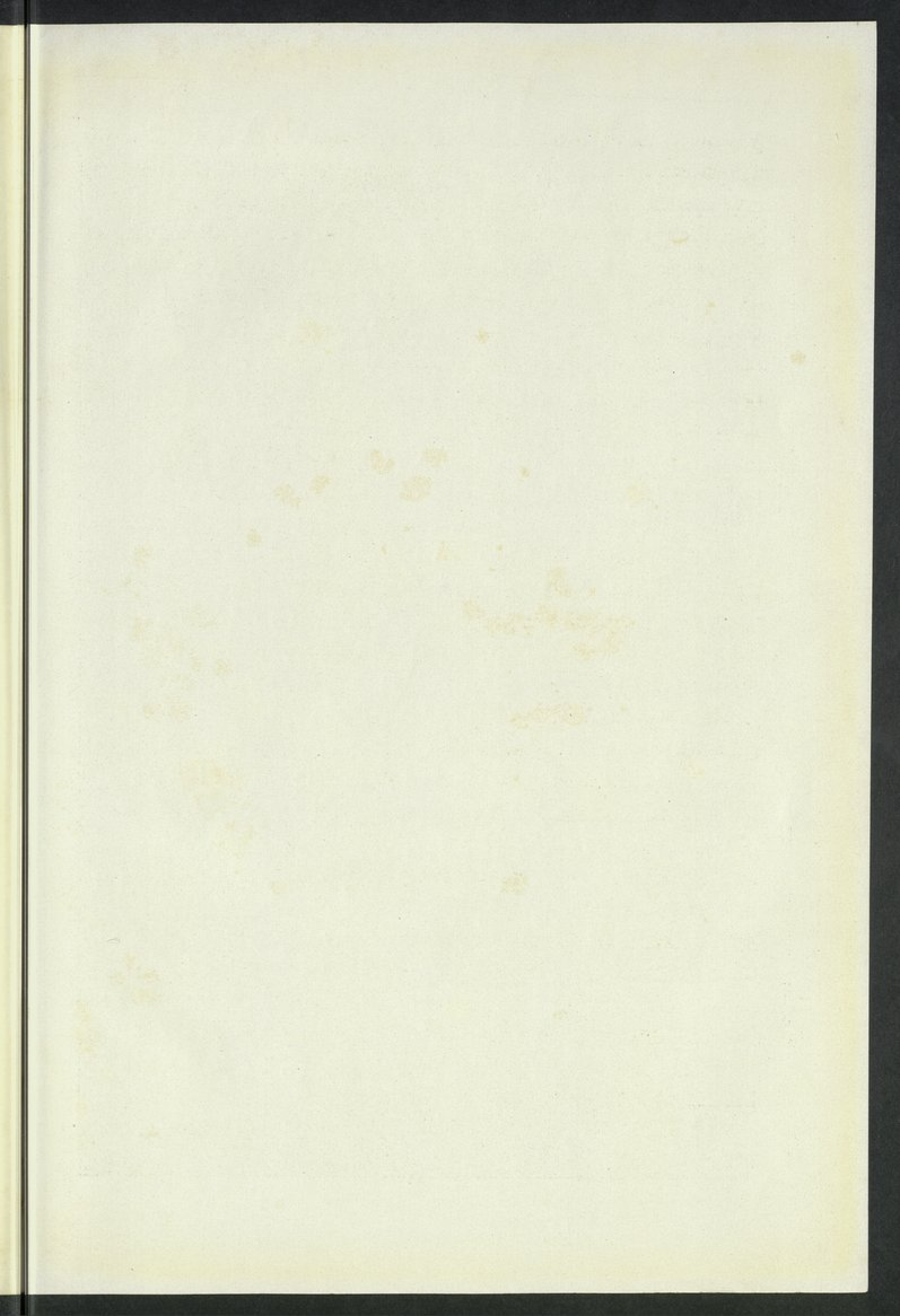


Vista de Madrid. Siglo XVIII. Tomada del lado de Segovia.

(Biblioteca Nacional de Madrid.)

مدريد في القرن الثامن عشر—منظر أخذ من ناحية طريق شغوبية

(مكتبة مدريد الاهلية)



الا في عَدمَ حُصُولهم على ما عندي من الحكمة التي هي أقربُ وأعجَبُ ممّا عندهم، ومَررتُ عنهم مُرُورَ زاهدٍ فيما في أيديهم ضنيناً بما عندي، فجاءوا معتذرينَ عن كشفِ حقيقةِ ذلكَ حيثُ حجر عليهم طاغيتهم الاعلام بذلك، فقلتُ لهم: نحنُ مسلمونَ لا يحجر علينا سلطانُنا اظهار الحكمة بل اذا اتّصل بكريمٍ علمه انّنا كتمنا الحكمة وضنّنا بتعليمها للطالب يُعاتبنا عليها، اذ ليست الحكمةُ عندنا تستقلُّ بنوعٍ واحد، وانما هي حِكَمٌ عديدةٌ اذا لقّنّا البعض منها بَقيَ الكلُّ، ومصداقُ ذلك، أُلَقِّنكم حِكمَةً في اثباتِ الذّهب على الاواني والرُّخام والخشب وغير ذلك من غير افتقار لاصطلاء الاواني بعد وَضعه عليها كيف تستعملون انتم في حكمتكم، وذلك: أن تأخذوا وزن كذا من العقار المسمّى بكذا وتُضيفوا اليه وزنَ كذا من كذا، ثم تُنقع العقاقير في ماء كذا مدّة من جُمُعة وتستقطر العقاقير فيُدَّخر ما يُستقطَر منها ويُؤخَذ منها القدر المحتاجُ اليه فيُكتَب به على الاواني، ثمّ تلقى عليه ورَقة الذّهب فتلصق على الخطِّ في الحال ولا يلحقها محقٌ بالكليّة، وذهب الورقة ابهى واجلى من الذّهب المحلول الذي تستعملونه باوانيكم، فقيّدوا عنّا هذه الحكمَة النفيسة:» فبالغوا في المكافاة عليها والمجازاة باللسان ونكّسوا رؤُوسهم امامَنا بعد نزع الشّماريرِ، واعترفوا بفضل الاسلام واهله، وصار يُحدِّثُ بعضُهم بعضاً بما سمِعَه ورآه في ذلك وغيره

ومن الغَد ذهبنا لدار الطاغية التي بناها لنفسه، واما الدار التي نزلنا بها هي لغير اسلافه من ملوك الاصبنيول، فاذا هِيَ دارٌ على شَكْلِ الدار المذكورة وبها زيادةٌ كثيرةٌ من عمل الرُّخام والتصاوير وسعة القِباب والمقاعد، ولا شكَّ ان للجدَّة بهجة ومنظر وحسن موقع في النُّفوس، والى الآن لم تكمل، وبها من المشاغل عددٌ كثيرٌ مجتمعةٌ من اهل الحِرَف على اختلافها، وبقرب هذه الدار دارٌ معدّةٌ لخزين العِدّة وحفظها وهي من المواضع التي أَمَرَ الطاغية بالعُبور اليها، وقد بالغ القيّم عليها في الترحيب واخبر انه مأمورٌ من طاغيته بمُطالعتنا على ما عنده بخزينه من السِّلاح: مكاحِل وسيوف وأقواس ومزارق ودَرَقات ودُرُوع

فالمقعد الاوّل استوعبه من الجهات الأربع خزائنُ مملوءة مكاحل مرصّعة باليواقيت والزُّمرُّد والمرجان، ثم مقعد ثان فيه ايضاً مكاحل مذهَّبة وكوابس من الفِضة، ثمّ صناديق مملوءة بمكاحل استوعب سائرها حَجَر اليَمَنْط وغيره من الأحجار، والجعاب مذهَّبة في غاية الجودة هي خاصة بالطاغية لا يُباشرها غيره حال اصديادِه، ومن هُنالك خرجنا للقنطَرة بقصد الحركة واستراحة النفس ودفع ما اعترانا من الوَخم وطول الإقامة بمحل غير موافق للطبيعة الغريزية

وقد اشار علينا بعض اصحاب الطّاغية بالحركة وان نقصد بالعُبور بستاناً عظيماً خارجاً عن القنطَرة بما يقرُبُ من نصفِ ميل، فذهبنا اليه وقد تلقانا اصحاب البُستان بالترحيب والاجلال، فعبرناه فاذا بداخل البُستان صورةُ فرسٍ من النحاس وراكبهُ من النحاس ايضاً مثل ما تقدّم ذِكره في البستان الاوّل، وحُكمُ هذا البستان في الغراسة حُكمُ ما قبله في مساواة صفوف الأشجار حتّى ان بين كلّ شجرةٍ والتي تليها ثمانية، وممّا يتعجّب منه ايضاً مساواتها في العلوّ والغلظ وانتشار أغصانها بالجوّ واختلاط بعضها ببعض لم ينفُذ نور الشمس للأرض بالكليّة، والأشجار لا ثمارَ لها ايضاً، وهُناك ازقّة بين أشجار مستقيمةٍ ضيّقة جداً يصطادونَ بها انواع الطير، وبهذا البستان خمسة صهاريج في غاية الطول والعرض وباحدها قُبّةٌ مشيّدةٌ داخل الماء لها درابيز خضر على الاستدارة، وبأقصى البستان ديارٌ يسكنها القائمونَ بشؤُون البستان، وبجنب هذه الدور رياضٌ في غاية الطول قُسِمَ على ست قطعٍ بسلكٍ منسوج، وبين السلك والذي فوقه وتحته وعن اليمين والشمال قدر ما تُولجُ فيه الأنملة، وبجنب كل قطعة من الست بيتٌ له بابٌ نافذٌ للقطعة الموالية له

وهذه الرياضات الستُّ المعبَّرُ عنها بالقطع، كلّ رياضٍ منها استقلّ بنوعٍ من الطير، يظلُّ الطيرُ يسرحُ بالرياض ويَرُوحُ للبيت النافذ لمحل مَقيله

ومن الغد يَعود للرياض، وهكذا حُكْم ما بقيَ من الطيور، وهـذه الطيور على أصنافٍ في الخِلقةِ لم يرَ مثلها في برِّ العرب بالكلية، ثمَّ منها ما اشتمل على ألوانٍ عديدة، ومنها ما استقلَّ بلونين مع مُخالفته في الخِلقة، ومنها ما تَشاكل في الخَلق وتغيّر في اللّون افسبحان القادرُ على ما يشاء يَحْكُم ما يُريد!

وبهذه الغابة من الغزلان العَدَدُ الكثيرُ انيسَةٌ غير شاردةٍ، خِلقتُها اكبر من خِلقة غِزلان بلادنا، ومنذ خرجنا من سور هـذا البستان ونحنُ ذاهبونَ في ظِـلِّ أشجارٍ كالأرزات طولاً الى القنطرة وهُناك تحتَ الشجر خلقٌ كثير، والأرض منقّاة نظيفة وقد رُشّت بالماء والقيّمين على نظافتها وبلّها كل عشيّةٍ خراجٌ له بال، لان اهل المدينة يستريحونَ هُنالك كل عشيّة على التّأبيد، فمنهم من يَعْبرُ هاتيك الاماكن بالاكداش ومنهم راجلون كلٌّ على قدْرِ قَدَره

وبناء المدينة المدريديَّة جميعُها بالحجر المنجور ودورها مـن خَمْس طبقات فاكثر لا تَجِد داراً الاّ ولها منزهٌ في علوٍّ فادحٍ زيادة على علوّ الـديار المشتملة على خَمْس طبقات وشَكْل المنازه في البنيان مثمّنٌ، فاذا بلغ الغاية في الارتفاع اقبَوا عليه قُبَّةً مُقرمَدة بالرصاص وجعلوا لها جاموراً مذهَّباً، وبعض الجوامر مُفضَّضة تلمع في الجوّ بلمعان الشمس

وعرض شوارع المدينة ما يزيد على اربعين خُطوة وترصيفها فيه زيادة على ما عُهِد من ترصيف غيرها من المدن، فقد قسم المُهَندسُ عرض شوارعها تَرْبيعةً تربيعةً أربعةَ أذرُع خطّها بالحجر المنجور المبسوط، وداخل كل تربيعة بحجر صَلْدٍ صغير على خِلقته

اقمْنا بها ما يزيد على الشّهر بايامٍ قلائل، وبكـلِّ عشيّـةٍ من مدَّة اقامتنا يجتمعُ خلقٌ كثيرٌ من النساء والرجال والصبيان ببَرَاحٍ متّسع تحت القصر الذي نحن به راغبين في رؤيَتنا ولم يسعنا الاّ الاشرافُ عليهم ونشيرُ لهم باليَد مرّتين او ثلاثة اوذلك في اعرافهم هو ردُّ السّلام عليهم وفيه اذنٌ لهم بالانصراف ا فيضجُّونَ ضجَّةً عظيمة، فاذا هم يعلنونَ بنصر سيّدنا ايّدَهُ اللهُ ويذهبونَ فرحين مسرورين، ومن الغَدِ يعودون، وهكـذا الى ان بعث الطّاغية يطلبُ منا الـوُرُودَ عليه للمدينة الذي هُوَ بها وبعث باكداشٍ ركبناها وسافرنا من مدريد بين الظهرين عاشر ربيع الاوّل عام تاريخه

ولمّا جنَّ الليلُ لحقْنا داراً معدَّةً لاستراحــة الطّاغية في سفره، بينها وبين مدريد تسعـةَ اميال، اقمْنا بها نَحْوَ السّاعة واستعملنا السير بقيَّة الليلة

وفي ضَحْوةِ الغَـدِ نزلنا قرية اسمها ورَامة(١) لحِـقْنا بها عن ثمانية عشر ميلًا فاذا هي ذات أشجارٍ وثمارٍ وعيون،

وصاحب القريَة لم يصحبه تقصيرٌ في المباشرة والترحيب غير أنّه لم يَقِمْ لدينا الاّ بمقدار ما سلّم ورحّب بنا وذهب ولم يَعُد الينا فسأَلتُ عنه فاذا هو مكلّفٌ من طاغيته بأمرٍ لا يمكِـنه ان يتزحزح عنه لحظةً وهو حِراسة الذاهب والآيب من الطّريق المُحدثة بجنبه القريبة اليه فلا يَعْبُرها عابـرٌ الاّ اذا ادّى ما هو موظف عليه وبعد الاداء يأخذ خطّ يَده بانّه دَفَع ما وجب عليه بحيث اذا طلبه الثاني مِمَّن هُم مكلّفون بالطريق ايضاً يستظهر بخطِّ يد الاوّل فَيُخلّى سبيله

وهذه الطريق احدثها الطاغيـة وانفق عليها مـالاً لا حصر له، لانّه شقَّ الجبال وهدَّ الشواهق وكم ضاعَ فيها من المسلمين رحمهم اللهُ وكم أُصيبَ منهم بالحجر عند اخراج المينات بالجبال

وطول هذه الطريق المُحْدثة ما يزيد على تسعة اميـال، ولم يزل المسلمون يخدمون بها الى الآن، وقد اشتكى من أسارى المسلمين أربعٌ وعشرونَ في الزمان الذي حللنا فيه مدريد، ولمّا أُخبِرنا أنّهم بالاسبيطال بعثنا لهم في الحـال بعض اصحابنا للاعادة واصحبناهم صلة ووعدناهم بخير واخبرناهم بما امتنَّ به سيّدنا ايّده اللهُ عليهم من الاكرام واحسانـه

---

(١) هِيَ واد الرامة Guadarrama بليدةٌ من مقاطعة مدريد تحمل اسم نهر شهير يمر بجنبها

المعهود وخيّرناهم في قبض ما وُجِبَ لهم بينَ اخوانهم من صِلة مولانا المنصور بالله الآن او يُؤخّر الى جمعهم باخوانهم، فاختاروا التأخير خشية الطمع فيهم من المباشر لهم بالأُسبيطال، وكنّا وعدنا اخواننا الأُسارى الذين يخدمون بالطريق ان تكون الملاقاة بهم بالموضع الذي هم به، ولمّا كان سفرنا ليلًا لم نشعر الا وقد جاوزنا الموضع الذي هو محل قرارهم، فكتبنا لهم في الحال ووعدناهم بالملاقاة عند الأَوْبة ان شاء الله تعالى

وقد استعملنا السير من القرية المذكورة بين جبال شواهق غير أنّ الطريق هي في غاية الصعود والانحدار ولم يكن بها وعرٌ، وقصدنا بالعبور للمدينة التي بها الطاغية بِلَكَرانْخَة، وقد تركنا مدينة سقوبيا(١) عن يسار العبور بما يقرب من ستّة اميال، والاميال المعمورة من القرية الى لاكَرانْخَة عن خمسة عشر ميلًا

الخَبر عن مدينة لاكَرانْخَة (٢)

هي احد الديار الأربعة التي يسكنها الطاغية في الفَصْلين المَعْلومين: الصَّيفُ والخريفُ، لطيبِ هوائهم وعذوبة مائهم غير أنّ هذه افضل عنده اذ والده هو الذي ابتدعها بعد ان تخير في الأرض الطيّبة الهواء. فلم يجد بُدًّا من هدِّ شواهق عظيمة، وقد بَرَعَ المهندسونَ في التّشييد بازائها واخترعوا من الحُكمِ ما لم يَسبق لهم بغيرها في البناءات والتلاعُب بالمياه والنبات، وسيأتي الكلامُ على ذلك بعد الفراغ مِمّا تأكّد تقديمه من الملاقاة بالقوم حيث أشرفنا على المدينة، فما عبرنا نحو ثلث الليل الا ورُسُل الطاغية واردةٌ علينا بالتّرحيب والتّهنِئَة بالقُدُوم على لسان طاغِيَتِهم وفي اثرهم خلق كثيرٌ من أعيان الكُرطي ووزراء ومن دونهم في المرتبة مُصاحبين لاكداشٍ مُذهّبة لم نرَ مثلها بالبلادِ الاصبنيوليّة، فرَحّبوا بنا كثيراً وابدُوا من الفرح بنا واالمُباشرةِ والتعظيم والتبجيل ما لا يُكيّف، واخبروا بانّ طاغيَتهم اصحَبهم سلامَةُ علينا واقامَهُم مقامَهُ في مُلاقاتنا ونوّبهُم عنه التّهنِئَة بالقدوم المُصاحب للسّلامة الى غير ذلك من اداء الواجب عليه

ومن جُملة ما حدّثوا عنه انّه في غاية الانتِظار للملاقاة والتشوّف لِرُؤيَتنا وما اَخّره عن البَعْثِ الينا ساعةَ وصولنا لمدريد الا ما حدَثَ من وفاة أُمِّهِ على ما اقتضته عادتهم وأعرافُهم في تأخير الأشياء المعتبرة الى امدٍ معلوم عندهم حكمتْ به الاقدمُون من الفرايليّة، وما زالوا مقتفين أثَرَ من تقدّمهم في ذلك، فقلنا لهم: «قد قبلنا عُذره، والزائر تابعٌ لغَرَضِ المُزار:»، ثم قدّموا لنا اكداشًا ركبناها وذهبنا معهم في جمعٍ عظيم الى ان اتينا للدار المعيّنة لنا، وهي في وَسَط بُستانٍ في غاية الحُسنِ والنظارة خارجة عن المدينة قريبة منها، ذات مقاعد وغُرَف وشراجيب مطلّة على البستان المشتمل على أصناف الفواكه

ولمّا استقرّ بنا المجلس طلبوا منا الاذن في الانصراف، وذهبوا لطاغيتهم في الحال مُخبرينَ بالواقع، وما زالت الاقوامُ تتواردُ علينا على قدر الطبقات والكلُّ يُحدّث عن طاغيته بما حدّث به الاوّلُ من التّهنِئَة بالقدوم

ومنَ الغدِ بعثَ الوزيرُ(٣) يطلُبُ الوصول لداره بقصد الاكرام، فركبنا وذهبنا اليه، وقد احسَنَ المباشرة عند الملاقاة وتكلّم بلسان حسن، فأُجيبَ بما هو مُناسبٌ، وخبّرَ بانّ طاغيته مُستغرِقٌ في محبّة مولانا المنصورُ باللهِ ببعضِه وكلِّه وله فَرَحٌ

---

(١) هي شقوبية Segovia عاصمة مقاطعة بهذا الاسم من اقليم قشتالة القديمة: Castilla la Vieja

(٢) La Granja : بلدةٌ من مقاطعة مدريد، هواؤها عليل وماؤها سلسبيل، كانت مَصِيف ملوك اسبانيا، وقد اشتهرت بقصرها العظيم الذي شيّده فليب الخامس على طراز قصر فرساي

(٣) هو المركيز دي غريمَلْدي El Marqués de Grimaldi

بهذا الصلح المنعم به عليه من الجانب المَوْلوي اسماه اللهُ تعالى ويَطْلُبُ اللهَ ان يجعلَهُ دائماً متّصِلاً، وقد سرَّهُ ايضاً ايصاءُ سيّدنا أيدهُ اللهُ على قومه الواردينَ على مراسيه المَحروسة بالله بالاحسان لهم والمباشرة الى غير ذلك مـن الاعتراف بفضل سيّدنا عليهم، وقد أُجيبَ عن مقاله فصْلاً فصْلاً فاستحسن الجواب وانطلق لطاغيته مخبراً بما سمعه ورآه

فتهيأَ الطّاغيَةُ الملاقاة من الغَدِ وقـد اعلمنا الوزير بذلك، فَجَعلتُ أفكّـرُ فيما اخاطِب به الطاغية عند ملاقاته بما يَسوغُ شرعاً، وقد لَخّصْتُ من الكلام ما محذور فيه، ثم مُثِّل في فكري اي داخل دار الطاغية وقد تذكّرتُ قوله تعالى: «ادْخلُوا عَليْهِم البَابَ فإذا دَخلْتُموهُ فانّكم غَالِبُونَ!» فجعلتُ أرَدِّدُها في الفكر مراراً ثـم أهديتُ لاختبار ما يقاومها في العَدَدِ لنتفاءَل بما تُبْديه القُدْرة في ذلك، فاذا المقاومُ لها «أتَنصرُونَ باللهِ! ثم فكّرتُ ايضاً فيما بعدها من قوله عزّ وجلّ «فاذا دخلْتُموه افقَام المقاومَ لهُ! فابْشِر بتأْييدِ مِنَ الله! ثمّ اختبرتُ كمال الآيَة: «فانَّكُمْ غَالبونَ! فاذا عدد نُقُطِها عام تاريخِهِ، فبُشرتُ في الحال بالتأييدِ والنصـر على اعداء اللهِ، وقد خرجَ في التوقيـع إن انتصرنا عليهم باللهِ وبُشِرنا بتأييد الله في هذه السنة المباركة، وهذا من الفتوحات الرَّبانيَّة المبَشرة بالحصول على المؤَمّل وبلـوغ المقاصد، فلم نَشعر الاّ واصحاب الطاغية بالباب مصاحبينَ للـكُدْش الذي يركبُهُ الطّاغية ومعهمُ الوزيرُ فَسَلّم علينا وقال: انَّ الطاغيـة يطلب رؤيتكم، فركبنا وذهبنا اليه واثِقينَ بالفتح والنصرِ والتأييد، فما قربنا مـن دار الطاغية الاّ وبرز لملاقاتنا هُنَاك خلقٌ كثيرٌ مـن أعيان الـكُرْطي (١) وغيرهم من البشدُورات من سائر الاجناس وما انضاف لهم من خاصّةٍ وعامّةٍ، وقد اصطفّوا مـن باب المدينة الى دار الطاغية، فلمّا اقبلتُ عليهم نَزَعُوا الشمَارير وعكسوا رؤُوسهم أمامنا ومكـثوا على حالهم مُتأدِّبيـن كأنَّما على رؤُوسهم الطير تعظيماً لجناب المنصور بالله

ولمّا دخلنا على الطّاغِية وجدناه قائماً على قَدَمَيه وعن يمينه احَدُ الفرايليَّة الملازمُ له وأربعةٌ مـن الوزراء عن شماله، فلمّا قربنا منه نَزَعَ الشّمريرَ عـن رأسِه وطَأطَأ رأسَهُ شيئاً ما، فقلتُ للتُّرجمان: «سلّم منّا عليه» ففعل، ثـم ردَّ علينا السَّلام وشفَعَه بكلامٍ طيّـبٍ لفظُهُ: الحمدُ لله على سلامَتكُم وكيفَ انتُم مع تَعَبِ الطريق؟ وكيفَ كانتِ المُدُن التي عبرتُم عليها وهل أحسنَ اليكُم عمّالُها؟» فاجبناه بما يُناسب: «من انَّ اهل المـدُن لم يصحَبْهُم تقصير في المبرَّة والاكرام الكلّ بأمرِكَ وقد كَتبْتُ بذلك لمولانا المنصور باللهِ فَتَحَقَّق ما أنْتَ عليه مـن الخدمة والمحبّة» فانبَسطَ مـن جوابنا وقال: «الله يجازيكم خيراً! وجعل يسأل عن سيّدنا ايّدهُ اللهُ، وكُلّما يُذكر سيّدنا يَنْزع الشَّمرير عـن رأسه، فقلنا له: سيّدُنا والحمدُ للهِ بخيرٍ منصورٌ مؤيّدٌ، وقد أمرنا ايّدهُ اللهُ ان نُعلمكَ ونخبركَ بما أنت عندَه من المَنْزلة التي لم تكن لاحدٍ مـن الطُغَاة المصالحِينَ فإنّك المقدّمُ فيهم والمميَّزُ أنْتَ وقَومكَ عن جميعهم مُراعاةً للامتثالِ أمر سيّدنا المطاعِ في شأن الأسارى والمحتاجين في المسلمين» فانشَرحَ من مُخاطَبتِنا ايّاهُ غايةً وقال: «ما انا الاّ واحد من خدّام سُلطانك وعندَ أمره ونهيه وكُلّ ما يأمرُنا به نفعَلُه، وقد فرحتُ بهذه المهادنة التي أنْعَم بها سيّدنا علينا نسأل الله ان تكون دائمةً»

وحيث طال وقوفُـه معنا بمَا يَزيدُ على رُبع ساعة ولم يُمكنه ان يأمرنا بالانصراف حَياءً وأدَباً، قُلتُ للترجمان: «استأذِنهُ علينا في الانصِراف فقد اشفَقتُ عليه مِن طولِ وُقوفه مَعَنَا وليُسامحنا في هذا التعب الناشيءِ عن سبب مُباشرته ايانا الموجبة لطول قِيامه، لانَّ نفوسَ الوُلاةِ ليست كنفوس مُطلق الناس:» فانشرح من مُخاطبتنا ايّاهُ بذلك مع السرور وجعل يَضْحَكُ ويَنْظُر للأعيانِ الحاضرينَ كأنّه يتعجّبُ مِمّا سَمعَ ورأى ممّا لم يخطُر له على بال، وقال: «جزاكُم اللهُ خيراً على هذا الخطابِ الحسن فقد انشرحَتْ صدُورُنا وانسَتْ ارواحُنا بحديثكم المُستطاب الناشيء عـن العقلِ الراجح والصواب:»

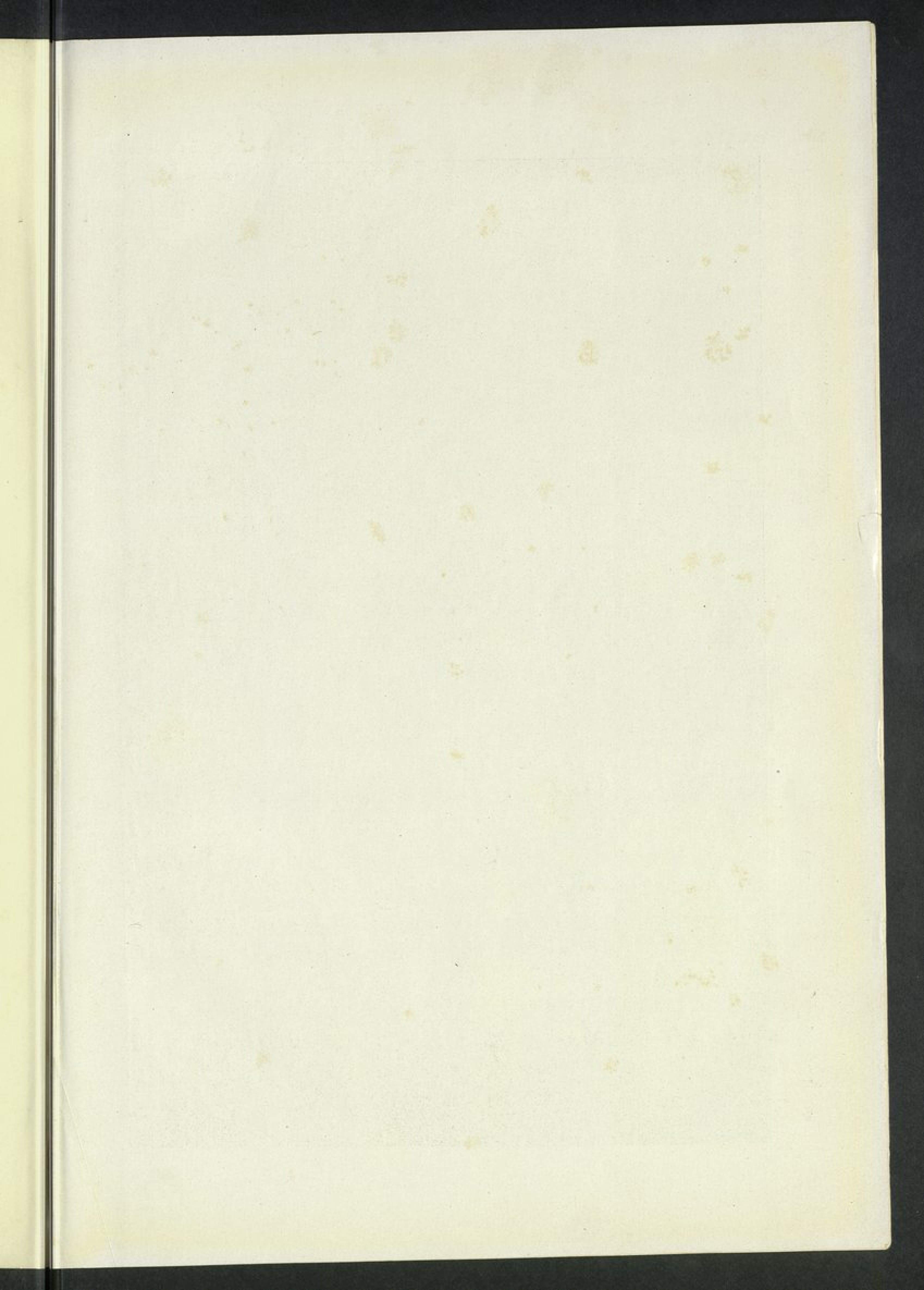
---

(١) La Corte حاشية الملك او البلاط الملكي



Vista del Palacio de San Ildefonso (La Granja).
(Biblioteca Nacional de Madrid.)

القصر الملكي في لاكرانخا—مصيف ملوك اسبانيا
(مكتبة مدريد الاهلية)



فقلتُ له: «بقيت لي عليكَ حاجة زيادة على الترحيب والمُباشرة، اذ مُباشرة الضَّيفِ بالرَّحب والسَّعة مع اظهار البَشاشة ضامِنة لقضاء المآرب والحصول على المؤمَّل:» فقال: «وما ذاكَ؟» قلتُ له: «ان تُعطي الاذن لوزيرك في الكلام معنا في الأُمورِ التي تُعْرَض لنا على الاجمال والتفصيل منها ما أُمِرنا به من مولانا المنصور باللهِ ومنها ما اقتضاهُ الحال وتعيَّن في الوقتِ لئلاً يحصل ثقل في سَردِ الاغراض على مسامعك، وإنَّا لا نَرضى ان نُثقِّل عليكَ في ذلك:» فازدادَ بذلك فرحاً، وأَمر وزيرَه في الحال ان يتعاهدنا ويتفقَّد احوالَنا وان يُباشرنا بمُباشرته لعظيمه ويَمتَثِل أَمرنا في جميع الأشياء من غير ان يستشيره في شيءٍ منها

وانصرفنا عنه في عزٍ وكرامة، وما زال يُحدِّث قومه بما كانَت به مخاطبتنا أيّاه ويقول: ما رأَينا مثل هؤلاء المسلمينَ وما هم عليهِ من الصواب والعقلِ والتمييز.»

وقد اوصى أَعيان دولته بالتردُّد علينا صباحاً ومساء، وكلٌّ يحدِّثُ عن عظيمه بِمَا هو عليه من البسط والانشراح بمَا أُجِيبَ به

وقد بَعثَ الباشدُورات المذكورون من مُلاقاتِنَا بالطاغية على تلك الحالة التي لم تحصُل لغيرنا من المسلمين فضلاً عن الكافرين، وكتبوا بذلك لطُغَاتِهم

ومن الغَدِ ذهبنا للسَّلام على اولاده بأَمرٍ منه حيثُ طلبوا مـن والدهم رؤيتنا، واولاده الذكور اربعةٌ اكبرهم مِـن عشرين سنة وبُنَيَّة واحدة، وقد لقَّنهـم ابوهم ما يقولون في مباشرتهم أيانا على ما حدَّث به الوزيـر، ثم قصدنا محـل اخيه بعدَ مُلاقاتنا بالأَولاد، فتلقانا اخـوه بالرَّحب والسَّعة؛ وما هو من اخيه ببعيدٍ خَلقـاً وخُلقـاً! فأَخذَ بايدينا وذهب بنا لقبَّـةٍ في غاية الحُسْنِ مُزيَّنـة بالفُـرُش والستور والمرايا ثمَّ الثريَّات البلُّوريَّة وغيـر ذلك مما يتعجَّب منه، وبصدر القبَّة كرسي من الرُّخام علوُّه من الأَرض نصف قامةٍ، باطرافه صفائح من الذهب وقد علاه شابٌ ما فُتحت عيني على احسَن منه صورةً قطُ وبيده شَبَّابَةٌ متَّصلةٌ بفيه وانامِلُه على ثُقَب الشَّبَّابة تتحرَّك بما تقتضيه النَّغماتُ ترتفعُ وتَنخفض، وقد توَسَّد ركبتيه كلبان احدُهما باسطٌ ذراعيـه على ركبته اليُمنى وعَيناهُ شاخصَتـان للشَّاب ولسانـه وذَنبه يتحرَّكان بحركاتٍ ضابطَاتٍ للمِيزَان فهوَ بمنزلة الوَسَّاد من اهل الموسيقى، والكلبُ الآخرُ باسطٌ يَدَيه على رُكبته اليُسرى يُحرِّكُ ذَنَبه فقط، وحالهُما في الميزان واحدٌ، ولم نَشعرْ بأنَّ الشاب والكلاب تصاوير مـن غير روحٍ الاَّ بَعدَ حين، فالنَّاظِرُ على البديهَة ولا بعد التَّأَمل يقطع انَّ ما شَاهده مـن الصُّور لم تَكن من غير روح، ولو بَلغَ في العقل وحدَّة الفهم والحذَاقة ما بلغ، وبشرَة هذا الشَّاب والدَّمُ الجاري في وجهه مع ما خَالطَه من البياض الناصع ما يتعجَّبُ منه في طَرَاوةِ المراهق

ومن العجيب ايضا حَركَةٌ في عُنقهِ خَفيَّةٌ مـعَ تكميشٍ ضعيفٍ بطرفَي فيه لجمعِه على الشَّبَّابـة حالَ النَّفخ فيها، والحركة التي بعُنقهِ نَشَأَت عن اخراج الريح من فيهِ ودفعِهِ لباطن الشَّبَّابة، لأنَّ حركة الفم والعُنق واحدة

وقد سأَلتُ اخا الطَّاغيَةِ وأَلزمته أنْ يُطلعني على حَركة ذلك وكشفِ ما في باطن الأَمر، فنهضَ في الحال وفَتَح بيده من آخر جهة الكُرْسي باباً بحركاتٍ، فاذا بناعورةٍ من النُّحاس الأصفر تَدور بدوَرَان ناعُـورةٍ أُخرى مـن خارج القبَّة بالماء، وهذه الناعورة آتية منها مسامير طُولها قدر الانمُلة تتصل باوتارٍ واصِلَةٍ لانامل الشَّاب ويتفاوت نقر الأَوتار بالمسامير التي بالناعورة على ما تَقتَضيه النغمات في رَفْـع الأنامل على ثُقَبِ الشَّبَّابـة وحطِّها وتقديم بعضها على بعض، وهُناكَ اكيارٌ تنخفضُ وتَرتفعُ بحركات الماء ايضاً، وما يتولَّدُ منها من الريح هو نافذٌ لِفم الشَّاب من باطِنه، ثمَّ حركةٌ أُخرى على شَكلِ عامُود الميزان تنحدر تارةً يميناً وشمالاً متَّصِلٌ بطرفيه اوتارٌ هـي المحرِّكَـةُ لِلسان الكلبِ وذَنَبِه، ثم وترٌ مُفردٌ مـن نفس الأَوتار المذكورة محرِّكٌ لِذقَن الكَـلْب الآخر، وعلى كَتفِ الشَّاب قُمري يخفقُ بجناحيه، الكلُّ تابعٌ لميزان النَّغمات المسموعةِ من الشَّبَّابة، ثمَّ انصرفنا متعجبين مِمَّا شاهدناه

وقد بعث لنا الطاغية آخر اليوم وحتّمَ علينا في العُبور لبُستانه المتّصِل بداره، وكان هيّأ به فُرجَةً مما صنعه المهندسُونَ في جريان المياه على صفةٍ غريبةٍ غير معهودة، فدخلنا البستان بين الظُّهرين وقد حضر معنا خلقٌ كثيرٌ نساء ورجالاً فيهم بنتُ الطاغِيَة وغيرها من بنات أعيانهم، فاذا هو بُستانُ أشجارٍ في غاية العُلوّ مستوية الصُّفوف في غِراستها، وفيما بين الشجرةِ والتي تليها سورٌ من النبات الأخضر اليانع عُلوه قدر قامتين وأغصانه مُلتفّة بالتي تليها مـن الأغصان، وقدر ما بين الشَّجرة والتي تليها عشرة أشبار

وهذا النباتُ المجعول سُوراً بين صُفوف الأشجار اصلهُ عُودٌ غلظه قدر السَّاعد وأغصانه لا تزيـدُ على شبرٍ، غير أنَّ هـذه الأغصان استوعبت الأصل على الجهات الأربع مِمَّا يلي الأرض، الى مُنتهى عُلوّه قامتان، فتتَّصِل الأغصان بالتي تَليها يميناً وشمالاً وما كان من خلفٍ وامام، وكذلك وجه السور المحسّن للطُّرق التي بين صفوف الأشجار والحاجبُ لبَعضها عن بعض، وكلّما مَررت بطريقٍ من طُرق البستان شاهدت ما شاهدته في الطُّرق الأُولى

ومن أعلى سورِ النبات بين كل شجرةٍ والتي بجنبها باب غُرسَ في وسط النَّبات من أصله نافذٌ للمحجَّةِ التي عن اليمين والشمال، وهذا النَّباتُ يُربّونه على القدر المحتـاج اليه وما فضَل عن مُرادهم يقصّونه بالمقراض

وبهذا البُستان عدّة صهاريج مدرجة ينحدرُ الماء مـن أعلاها لما دونَهُ وهكذا، فالصهريجُ الأعلى عُمقُهُ على ما قِيل خمسُ قاماتٍ فأكثر وطولُهُ والعرضُ واحدٌ، وقد عبرناه من احدِ جهاته الأربع فاذ فيه ما يزيدُ على مائتي خُطوَة

ومنها تمتدُّ الصهاريج الأُخر المنحدرة عنهُ على التدريج ومياهُه مجتمعةٌ من أوديةٍ وعيونٍ بأعلى الجبل الذي هدّهُ الطاغية وجعل به داره وبُستانه المذكور، وبَقِيَت جبالٌ عديدةٌ يَميناً وشمالاً على خِلقتها في غايةِ الصُّعود، وللصهريـج قواديسُ من الحديد كالمدافع في باطن الأرض مُتصلة بالصَّهريج الأكبر نافذة للذي دونه فيتلقاه ما يحقنُهُ ويَمنَعُه النُّفوذ لعدَّة انابيب، فاذا اراد نفوذها لوسط الصهريج او للانابيب بحاشيته يُمكّنُ قطعة من الحديد بأحدِ اوتاد من المعدن قُربَ الصَّهريج ناتئة من الأرض قدر أربعة اصابع، فيُولِجُ عَيْنَ القِطعة المذكورة بالوَتد ويَمر به يميناً وشمالاً فتصعد عدَّة انابيب في الهواء من وسط الصهريج قدر مائة وعشرين ذِراعاً ثمَّ ما دون، وكذا من حاشِيَة الصَّهريج

والانابيب الصاعدة من الصهريج ما صُعوده من فَمِ أسدٍ مُستلقى، وغيره كالفرَس والجمل والآدمي، الكلُّ بوسط الصهريج مباين للآخر في التَّلاعُب بالمياه ومخالفٌ لغيره

وهنالك خِصَصٌ تعيّنَ ذِكرها لما اشتملت عليه من الصَّنع الغريب العجيب، وذلك جعلهم بهذا البستان مَوضعاً مُثمّناً في غايةِ البَسط، وضربوا على كُلِّ تَثمينةٍ قوساً من الرُّخام مُحملًا على سواري في غاية الصِناعة من الرَّقم بالنحت فيها، منها ما هُوَ من المرمر الشديد السَّواد، ومنها ما هو من الرُّخام الأبيض، وامام القوس صهريجٌ متّصل به، وداخـلُ القوس صورةُ آدمي متصل رأسُهُ بشوكة القوس وهُوَ واقفٌ على قدَميه وامامه خصّة في غايةِ العُلوّ صاعدةٌ من الصهريج، وعند يمينها وشمالها فرسان يخرُجُ الماءُ من فيها مُعرجاً صاعداً، ثمَّ يهوي بوسط الخصَّة، ثمَّ بطرف الصهريج أسودٌ يتدفَّق الماءُ من فيها لداخل الصهريج ثمَّ من كلِّ أسدٍ ثعابين، وبمنتهى عُلوّ الساريتيـن الحامِلتَيـن للقوس عدَّة انابيب صاعدات للجوّ صعوداً فادحاً، ومثل هذا القوس بجميع ما اشتمل عليه من التَّصاوير وغيرها بكل تثمينة

وبين كلِّ قوسٍ والذي يليه طَريقٌ بين أشجارٍ مستوية الصفوف، والسُّور من النَّباتِ مُتّصـل بالأشجار على الصِّفـة المتقدِّم ذِكرها يميناً وشمالاً، وفي مُنتهى الطُّرق الثمانيةِ ثمانيةُ خِصَصٍ تشتمِل على انابيبٍ صاعدةٍ للجـوّ، وبوسط هذه التربيعة قطعةٌ من الرُّخام مثمَّنةٌ قدر عُلوّها من الأرض قامتـان مستديرةٌ بمسطباتٍ من نفسها يجلسون عليها للفُرجة، فاذا عرجتَ على جميعها بالعبور أبصرتَ الأقواس الثَّمانية مع ما اشتملت عليه منَ الخِصَص والانابيب، ثمَّ الخصص الثَّمانية التي

بآخرِ الطُّرُقاتِ استوعبَ جميعها بالنَّظر من محلّ واحدٍ، وفي ذلك عَجبٌ، ثمَّ خصَّة أخرى في غاية العُمْق والانفساح في دائرتها ما يَزيدُ على مائتَي خُطوةٍ وبوسطها حَجَرٌ كأنَّه قطعة جبلٍ مُلتصق به عِدَّة صُور آدمي وحيوانٍ، والحجــر قد استوعبه ثُقبٌ يَخرجُ منه الماء مُعرَّجاً على الاستدارة غير انَّ نُفوذَه لم يَكنْ بكثيرٍ، وانَّما صُعودُه وانحدارُه كالجواهر، وبطرفي دائرة الخصَّة انابيب مثلها مُعرَّجة مُقابلة لانابيب أُخر من الحجر الذي بوسط الخصَّة فتختلطُ المياهُ بالمياهِ فيستوعب القطر من الجوّ أعلا بسيط الخصَّة، فالنَّاظرُ لا يَري الاَّ اللّؤلؤ من المياه بين مُتَّصلٍ ومنفصلٍ، فهو في جريانه كعِقد الجوهر، وقد اجتمع في جريان هذا الماء الضِّدَّان: الاتِّصالُ والانفصالُ في الحال، ثمَّ خصَّة أُخرى مثل التي قبلها غير أنَّ في وسطها سارية من الرُّخام مثمَّنة في غاية الضخامة، وبأعلاها تسعُ انابيب صاعداتٍ للجوّ، وقد اتَّصل بأعلى كلّ ثُمُــنٍ من أثمان السَّارية صورةُ رأس أسدٍ يَدفقُ الماء من فيه، ثمَّ بين الأسد والذي يليه انابيب يَصْعدُ الماء منها وينحدرُ معرجاً للخصَّة من الجهات الثمانية، ثمَّ تقابل الانابيب مثلها من حاشية الخصَّة، ثمَّ في مقابلة رؤوس الأسدِ ضَفادِعَ بحاشيةِ الخصَّة ترمي بالمياه معرجة ايضاً، ثمَّ ما بين طرفَي الخصَّة، والسارية المذكورة كالجبقة في وسطِ الماء من النحاس يخرُجُ الماء منها على شَكل سَوْسنةٍ وقدره في العُلــوّ نحوَ ذراعٍ، ثمَّ خصة أُخرى يتغيَّرُ بها حُكم جريان الماء فيها على وجوهٍ عديدة، ومنفذ الماء واحدٌ، غير أنَّ الموكَّــل بنبعه له حركاتٌ تُغيِّــرُ أُسلوب جريانه على أشكالٍ في حالٍ واحدٍ

ودارُ الطَّاغيَة متصلةٌ بهذا البستان، وحكمُها في البُنيان واحدٌ على ما تَقدَّم ذِكْــرُهُ من صِفَة بنيان دوره التي بمدريد وغيرها من المقاعِد والتصاوير وما في معناه، وقد تكرَّر ورودنا لهذا الرياض بأمر صاحبه، وكُلَّما ذهبنا اليه يتهيَّــأ لملاقاتنا اخوته وأولاده وبنته، الكلُّ منهم يبدي من البشاشة والترحيب ما لا يُكيَّف

وبقُرب هذه الدار دارٌ يُصنع فيها الرُّخام مَرايا وألواح من البلّور التي تجعل بالاكداش والسَّراجيب وما اشبه ذلك، وبجنبها دارٌ أخرى لعمل البلّور: اكواساً ومصابيح وغراريف وثريَّات وغير ذلك

وقد أَمرَ الطاغية بعُبور الدَّارين بقصد الفرجة، ثم ان القيِّــم على الدارين طَلَب منَّا ان نؤجــل له في العبور أربعة ايَّام ليقضي فيها غرضه في تهيِّيء العمل الذي تُصنَعُ منه المَرايا، فاجبناه الى ذلك، ثمَّ ذهبنا اليه في اليوم المَوْعود به فاذا بأفران عديدة مُعلَّقات ولها فرجات من الجهات الأربــع وبأعلى الفرن مثل الفُرْجات التي تُستَعمل بسقف الحمامــات عندنا، وبازاء كُــلّ فرنٍ سِلسلةٌ يتَّصل بطرَفها الموالي للأرض لوحٌ من الحديدِ هو بابٌ للفرنِ يرتفع وينخفض بحركاتٍ، وبداخل الفُرن بُوطٌ مرتفعٌ قَدرَ ذراعٍ في طولِه والعرض وغلظه ثلاثة اصابع محمولٌ على قِطَعٍ أربَعَةٍ من الحديد متَّصِلة الأطْراف، وهذه القِطَعُ محمولةٌ على جرائرِ مِنَ المعدن فيسدُّ الفُرنُ بعد وضــعِ العَمَــل الذي تُستَعْمَلُ منه المَرايا بداخله وتُوقَــدُ عليه النار، فاذا استكمل الطَّبـْخ للأَجزاء المضافة بعضُها لبعض، أُخرج البُوط مِنَ الفُرن، والحيلة في اخراجه يأتون بقضيبٍ من الحديد برأسه تهليلٌ فهو كالسنَّارة يمكِّنُونه بخرصةٍ مُتَّصِلةٍ بالقِطَع الحاملة للبُوط ويجذبه المعلّم اليه، فاذا اخرجهــا من الفُرن يَمُرُّ بها على جرائره الى قُربِ القالب، والبُوط والجرائر والعمل المذاب واحدٌ في الاصطلاح، فاذا انتهى البُوط الى القالب الذي يُفرغ عليه العَمَلُ يُرفَعُ البوط بحركاتٍ على بسيطِ القَباب الذي قدر ارتفاعه من الأرض بنصفِ قامةٍ مــع ما هُوَ عليه من الاصطلاح، فقد جَعلُوا قرب القالب صارية من المعدن برأسها سَلسِلَة تَرْتَــفعُ وتَنخفِضُ بجرائرٍ، وبطرف السِّلسلة قِطَع أربعة من الحديد، فتحيطُ القِطَعُ بالبُوطِ وتضغطُه بحركاتٍ فتصعَدُ به الجرائــرُ التي برأسِ الصاري لأعلى القالب، وهُناكَ قِطعَــةٌ من الحديد ممكَّــنَةٌ باحدِ جهاتِ القِطَع الحاملةِ للبُوط يُستَعَانُ بها على تفريــغ البُوط عند استعلائــه على بسيط القالب، وهذا العَمَلُ غير سائلٍ وانَّما هو في الرُّطوبة كالصَّابون فقط، وعندَ وضعِه على القالب يبقى متجمعاً فيأتونَ بفَــرْدِ خشبٍ غلظُه ثلاثة أشبار في الاستدارَة مكتَسٍ بورقة النُّحاس فَيَمرُّنَ به على الذائِب من العمل فينتشرُ حينئذٍ على بسيطِ القالب في غاية الاستواء الى المنتهى، وما فضل من العمل يلفظه الفَرْدُ من الخشب المارُّ على القالب عند اتمامه

وصورةُ القالب: لوحةٌ من النحاس في غاية الاستواء والبسط ولها احتفاظاتٌ من الجهات الأربع عُلوُّها اصبُعان فقط فاقل وذلك هُوَ غلظ المرآة، ويتّصِل بهذا القالب فُرنٌ مُستوٍ في العُلوّ وهواءه معتدِلٌ، فتندرجُ اليه المرآةُ المفروغة في الحال بسهولة، والدافع للمرآة لداخل الفرن خشبةٌ مبسوطة مُموَّهةٌ بالنحاس عَرْضُها وعرض المرآة واحدٌ تُمكّن بطرف المرآة وتُغط به المرآة فتمرُّ مستقيمةً مستويةً حتّى تنتهي لوسط الفُرنِ ويُغلَقُ عليها فتمكث بالفُرن مدّة من نصفِ شهر وتُحمَل لموضع الصّقالة

وكيفيّة صقلِها جعل المرآة على الجبس بموضعٍ مُرتفعٍ قدر نصف قامة، ثمّ يجعلون فوقها مرآة أُخرى قدر رُبعها في الجرم فتمرُّ الصُّغرى على الكُبرى، غير أنّ الصُّغرى يُجعل عليها ما يثقّلها من الجبس والحجارة فهي مُتّصلةٌ بلوحةٍ من الخشب على شكلِ المائدة من غير دورٍ فيستمرُّ العملُ عليها بمرورِ الصُّغرى على الكُبرى مدّةً الى ان يكمل صقلُها معاً كُبرى وصُغرى، ويلقى على المرآة حالَ الصَّقل شيء من الرَّمل ورشّه بالماءِ حالَ العمل ليس بكثيرٍ، فاذا جفَّ الماءُ يُعادُ لهُ الماءُ على الصفة وهكذا، وغاية المرآة في الكِبَر على ما شاهدناه من عرضها ثمانية أشبارٍ وطولها ستّة عشر شِبراً، والعَمَلُ المُذابُ الذي تُستعمَلُ منهُ المرايا هو ربيعٌ يُحرق فاذا ذاب وجَمدَ صارَ له شبهٌ بالغاسول، وقد شاهدناه على الصفة المذكورة، غير أنّ ذوبان الرَّبيع لا يصوّره العقلُ ولا يَثبتُ في الذّهن، وبهذا حدّث صانعهُ وقال انّه يُضافُ اليه شيءٌ من الرَّمل ويُذاب الجميع ويُصنعُ ما ذُكر

وقد عبرنا داراً جنب هذه يصنع فيها اواني البلّور، فيها افرانٌ عديدةٌ داخل كُلِّ فُرنٍ صهريجٌ من ثلاثة اذرُعٍ طولاً وعرضاً مملوّة بمُذاب العَمَل الذي يُصنع منه البلّور اصلُهُ ملح البارود والرّصاص المُكلّس والرّملُ من معادنٍ هُنالك، والآلةُ التي يستعملونَ بها الأواني ويباشرُون بها أَخذَ العمل المُذاب من محلّه قضب من حديد مجوّفة غلظُها قدر الاصبع وطولها ثلاثة اذرُعٍ يقيسُها في العمل فيعلق بها من العَمَل المذاب ما يحتاجُ اليه الصّانع برأسِ القضيب على رُخامةٍ ثمّ ينفُخ في القضيب ثم يَدرُجه ايضاً على الرُّخامة ثمّ يُعيده للاصطلاء، وله قوالب مُخرصَنةٌ من داخلٍ ومن خارجٍ على شكلِ المِهراس فَيُولج فيها العَمَل الذي برأس القضيب فيصير مُخرَصناً ثمّ يَنفُخ في القضيب فيتّسِعُ ولا يغيّرُ النَّفخ فانّه من الخَرصَنة، ومن آلةِ هذا العمل ايضاً لقاقيط يتوصّلُون بها لغرضهم في الصَّنعَةِ على ما اقتضته حِكمَتُهم كاستدارَة فمِ الكأسِ وما في معناه، وهذه الاواني يُكرّرُ عَليها العَمَلُ وكُلّما صُنع مِنهَا شيءٌ يُعادُ للاصطلاء الى أن تكمُل الصَّنعة في الآنية وان احتاجَت لما يزادُ لها من العَمَل كيَد الغرّاف وأذان الكيسان يأخذُ مِنَ العَمَل المُذاب برأسِ القَضيب القدر المُحتاج اليه فيلصقه بطرف الكأس او الغُرّاف ثمّ يقصّ مِنهُ ما يزيدُ عَلى الحاجةِ بالمِقراض، ويُباشِرُ صنعَتَهُ بهذا اللقّاط الذي طُولُه دونَ الشِّبرِ، وهذا العَمَلُ المُذاب هو في الرطوبة كالحلوا، ومنهُ تُصنَعُ الواحُ البلّور التي يجعلونها بالسراجيب والابواب

وكيفيّة عملها ان يأخذ الصّانعُ من العَمَل المُذاب على رأس القَضيب المُجوّف قدر الكُورَة ثمّ يَنفُخُ في القضيب فيتّسع العَمَل، ثمّ يَمُرُّ بالقضيب يميناً وشمالاً فيستطيلُ العملُ، ثمّ يعود للاصطلاء، ثم ينفخُ فيه ايضاً فيتّسِعُ، ثم يمرّون بالقضيبِ في الهواء فيستطيلُ، ثم يعود للاصطلاء وهكذا حتّى يتم القدرُ المحتاج اليه، ولهم آلةٌ يقطعُونَ بها طرفي العمل المصنوع فوقاً وتحتاً في أقرب من لحظةٍ فيَبقى العَمَلُ كالقادوس العظيم المتّسع فيمرُّون عليه من داخلٍ بحجر اليَمنط فينفصلُ على شَطرين فيصيرُ كالقرمود، ثم يُنقَل للفُرنِ المُعدّ لهذا الغرَض وهو متوسّطٌ ليس بحرٍّ فادحٍ ولا بقرٍ بائنٍ، فتُبسَط الألواحُ البلّوريّة من الحرارةِ المتوسطة حتّى يعود في غاية الاستواء

وقد شاهدنا هذه الأمور بأمر الطّاغية كُلّ ذلك تأنيساً لنا حيثُ عَلِم انّنا اشتقنا لبلادِنا وعُلّقت قلوبُنا بالسَّفر، ولم يبقَ لنا أربٌ في الاقامة بالكُليّة، فأمر حينئذٍ الطاغية بجمعٍ عظيمٍ من أعيان قومه خارج المدينة بمَا يَقرب من مسافةٍ، وقدم

لنا الأعلام انه يُريد مُلاقاتُنا بهذا الجمع المشتمل على الخاصّة والعامّة مــن قومه مصاحبين لما بعث اليه سيّدنا أيّده اللهُ من المواصلة النّاشئة عن محض الفضل خيلًا وابلًا، فتهيّأتُ لذلك، وذهبنا الى ان اشرفنا على القوم وقد اصطفّوا صفوفاً على مرأى العين، ثم تقدّم لملاقاتنا اربعةٌ من الوزراء فرحّبوا بنا غاية وقد نزع الشّمرير عــن رأسه كُلّ مَنْ حَضر من القوم حين اقبلنا عليهم تعظيماً لجناب سيّدنا ايّـده اللهُ، فلم نلبث الاّ والطّاغيةُ مقبلٌ هُوَ واخوه في كُدْشٍ واحدٍ وفي أثره اكداشٌ حاملةٌ لأولادِه، فنزل عن الـكُدْش واخذ بيدي وهشّ وبشّ وجَعَلَ يُرحّب على لسانِ التّرجمان، ومن جُملة ما قال: انّ هذا اليومَ هُوَ عندهُ أعظم عيدٍ، فرحاً بما تفضّل به علينا سيّدُنا المنصور بالله الى غير ذلك مِمّا في معناه، وقــد قدّم لنا اثنين من اولادِه عمُرُ الـكبير منهُمَا سبعة أعوام والآخر قريبٌ منه، فَنزَعَا الشمرير عــن رأسهمَا وتَكلّمَا بكلماتٍ، فقال الطّاغية للترجمان عرّف ما يَقُولان لصاحِبِ سيّدِنا السلطان اعزّه اللهُ، فقال الترجمان: معنى كلامهُمَا اللهُ يَنْصُر سلطان مراكُش! اللهُ يُعيّش الباشدور اثمّ قالا انّهما على خِدمة الباشدور وان لهما محبّة فيه كثيرة! فَضَمَمْتُهُمَا اليّ فرحاً بِهما وجَعَلَ الطّاغية يَضْحَكُ من قولِهمَا، ولا شكّ انه هو المُلقّن لهما ذلك

فقلتُ: «محبّة الأباء تَظْهَرُ على الأولاد، ومحبّة الملوك تَظْهَر في الرعيّة، وقــد شاهدنا ذلك في اولادك وفي رعيّتك:» فانبسطَ مــن جوابنا غايةَ وجَعَلَ يُفهِمُ خاصّته بمَا اجَبْتُهُ بـه وطأطؤا رؤُوسهم امَامنا باجمعهم مجازاة على ما خاطبتُ به عظيمهم، ثمّ قال الطّاغِيَةُ: «انا واحدٌ مِــن خُدّام سُلطانِكَ ومــن جُملَةِ عبيده وأمرُهُ مُمتَثَلٌ فينا فاليأمر بما شاء، وهذه المواصَلَة التي انعم بها عَليّ هي لا يُساويها ملك اصبانيّة فهي عندي أعظم وأعظم:» ثمّ قدّموا له الخيلَ فَجَعَل يَمْسَحُ على كفل كُلّ فَرَسٍ فرَسٍ، ثم يستره بجلاله ويُقبّله بين عَيْنيه واحداً واحداً وقال: «ان هذه الخيل نريد ان ننسّل منها خيلًا حرائر ان شاء الله!» وكذا الجمال سرّ بها سروراً عظيماً، وحيث حانَ وقتَ الانصراف أمَر باحضار الـكُدْشِ الذي كُنْتُ اركبُهُ فقدم اليّ واراد الطّاغية ان اركب قَبْلَه تأدباً منه وتعظيماً لجناب سيّدنا ايده اللهُ، فأبيتُ ذلك، وقد حتّم عَليّ الرّكُوب قبله ففعلتُ بمرأى ومسمع من جماعةٍ من البَاشدُورات من سائِر الأجناس، وقد أخبرتُ انهم كتبوا بذلك لطُغاتهم وشاع ذلك بالبلادِ الاصبنيوليّة وغيرها من بلادِ الروم من تعظيم الطّاغية وفرحه بخُدّام الجناب المولوي اسماهُ اللهُ

وتعجّبَ الـكُلُّ مــن خضوعِه واذعانه وانقيادِه وامتثاله الذي لم يَتّفِق لغيرنا مــن رُسُلِ ملوكِ الإسلام ولا لغيرهم بالـكُليّة

وقد ألَمّ بنا ألمٌ عند الأوْبَة من هذا الجمع حتّى عاينّا الفوات، وقد راجــع اللهُ بنا وتداركنا برَحْمته وعَفْوه، وعند تقدّم الراحة قال الطّاغية للوزير: انّ هواء هذا البلاد لم يُسَاعِد اصحاب السُّلطان، وقد خِفتُ عليهــم فانّي احبُّ ان ابعثَ بهم لمدريد يقيمون بها في عِزٍ وكرَمة الى ان نرد عليهم ونُؤدّي البَعْضَ من حقهم في الضيافة والاكرام، ومن هُناك يكون تشييعهُم لبلادِهم فانْطلِق اليهم الآن واستأذنهم على ذلك

فلمّا قصّ علينا الوزير ما حدّثَهُ به طاغيته قلتُ للوزير: «ان كان مراده وغِبطته في اقامتنا بمدريد البرور والاكرام فلا مَزيد على ما تقدّم مــن فَرَحِه بنا واكرامه ايّانا، وان كان مُراده شيئاً آخر بيّنهُ لنا اجاوبُك عليه» فقال: «انه يريد ان يبعث معكم باشدُوره ويَصْحَب معه هدية لمولانا السُّلطان ورأى من الرأي بعثه مَعكُم ونحنُ مجتهدونَ في جمع الهدية وقد بقي منها مسائل بأرض بعيدةٍ نحنُ في انتظار قدومها علينا:» فقلتُ له: «هذا أمرٌ اكيدٌ يجبُ علينا مُراعاة الرأي فيه ومُساعفته لذلك، لـكن احبُّك ان تتأمّل بعقلك في كلام اقصّه عليكَ فان ظهر لك انه عين الصّواب فما عليك اذا استأذنت عليه عظيمك وان كان غيــر صوابٍ فاستره علينا:» قال وَما ذاك؟ قلت له: «اما تعلم انّنا مأمُورونَ بالذهاب لقرطاجنّــة لملاقاة الأُسارى والنظر في شؤونهم وتفريق المال عليهم ونقيم بها ما شاء اللهُ، ثــمّ بغَرنَاطَة ثمّ بقالص لاستصحاب العالم

والذي بها اسيراً، وهــذا فصلُ الشتاء مُقبلٌ، فاذا اقمنا بمدريـد في انتظار باشدوركم هـل يذهب معنا لقرطجنّة أو يقيم في انتظارنا بمدريد او يتقدّم امَامَنا لبلادٍ من عمالتكم ينتظرنا بها، كيف يكون العمل في ذلك؟» ففكّر هُنيئةً وقال: «ما ترى أنت من الرأي؟» قلتُ له: «الرأيُ والصواب هو تشييعُنا مع الطّاغِيَة من هُنَا ونذهَبُ للغرض الذي أُمِرنَا به من سُلطاننا ايّده اللهُ، وفي المـدّة التي نقضي بها غَرَضنا تَقْضُـونَ انتم غرضكُم لباشدوركم ويكون الوَعْدُ بيننَا وبينه لقَالِص، امَّا ان يتقدّمنا بقليلٍ او نسبقه بقليل، ومن هُنَاك يكون سفرنا واحدٌ للحضرة العالية بالله، ومع هذا نُساعِد طاغيتكم في مُراده ان لم يقبل ما اشرنا به في هذا الأَمر وظَهر له خلافه» فقال الوزير: «واللهِ انّ هـذا لهُوَ الرأيُ والصوابُ والنظرُ العجيبُ النّافِـع للجانبين» فذهب لطاغيتِه واخبره الخبر فاستحسنه غايةً واجاب عنه بالقبول

وشرعنا في الكلام على ما يتعلّق بالأُمور التي أُمِرنَا بقضائها من الطاغية عن الأَمر المولوي اسمَاهُ اللهُ، وقد جمعت جميعها، منها:

١ — تسريحُ الأُسارى الطاعنينَ في السن والاضرَّاء والمبطُورين ومَنْ في معناهـم من اي ايالة كانوا

٢ — ثمّ ما نجده من أُسارى الايالَة المولوية عند تسراد جميعهـم واستعـاب الأُسارى باسمائـهـم والقـابِـهِم

٣ — فِكاك رَجُلين مـن الجزائر بيَن احدهما طالبُ عِلمٍ والآخر مُتمسّكٌ بمروءةٍ، وقد تقـدّم منه الكتْبُ لسيّدنا ايّده الله طالب انقاذهِ من الأَسر مُصَاحِبـاً لكتابِ الفقيـهِ العلاّمـة المذكور وهُوَ السيّد مُصطَفَى اليـابَاذغِي، وكان سيّدنا اعزّه اللهُ حتّمَ وأكّـدَ على فِكاكهم وتسريحهم مِمّا هم فيه من الأَسر، فادرَجتُهما في الزّمام المذكـور، ثم ختمته بمسائل اشتَـكى منها الكثيرُ من الأُسارى منها:

٤ — اذا ماتَ احدُهم يتولّى دفنه اخوانه، ومترُكـه لهم

٥ — ان لا يُولى عليهم احداً من المُتَنَصِّرة حالَ الخدمة لانّهم اضرُّ عليهم من مطلق النّصارى

٦ — ان لا يمنعوا من كُتُب رسائلهم بالقلم العربي

٧ — ان يُرفق بهم في حال الخدْمَة ولا يُكلّفوا ما لا يُطيقُونَ

٨ — مَريضهم يُعَالَج بالأُسبيطال مثل غيره من المرضى، وان لا يُلزَموا بالخدْمَة وقتُ صلاتهـم ولا يهملوا فيما لا بُدّ منه من الكَسْوَة والمأْكل

على ان هذا كلّه لا يكبر على الطّاغِيَة ولا يأْمر بخلافه، لكن المُوَلّون على الأُسارى يجحفون بحقوقهم ويأْكلون أَرزاقهم ويأْذونهم لعَدَم من يُخبِر خَبَرهم للطاغية

فلمّا قرأْنا ذلك على الوزير حرفاً حرفاً وبيّنّا له كُـل مَسْأَلةٍ مَسْأَلة استيقظ لِذلك وكشف عنه الغِطاء عمّا هُنَالك وامضى الجميع بالزّمام اجمالاً وتفصيلاً بعد اعلام طاغيته بذلك

وفي الحال أَمَرَ بكسوَة جميعهم وأَوصى بالرّفقِ بهم حال الخدمة والإحسان اليهم والبُرُور بهم الى ان يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً، وقد وثقنا بما وَعَدَ به من الخير في جانبهم

ولمّا تعيّنَ الانصـرَاف شرَعنـا في الاستعداد للسفر، فقال الطاغية لوزيره: «اسأَل اصحاب مولانا السُّلطان عمّا في خواطرِهم لنفوز بقضائه ولا انتهى عندي من اكرامهم واداء بعض ما يجب من حقّهم» فجازيناه خيراً، وقلنا له: «قد وفيْتَ بما كُنّا نؤمّله من فكاك الأُسارى الذين هم من ايالة سيّدنا وغيرهم من الطاعنين في السن، ولم يبقَ به الاَّ ما وعد به على لسان الفرايلي الملازم له من اكرامنا بما لديه من كُتُبِ الاسلام، ثمّ بالرفق باخوانِنا المؤمنين، ثمّ تمييز الطلبة الحاملينَ لكتابِ اللهِ تعالى بعلامةٍ تدلّ على توقيرهم واحترامهم

فانَّ اهم الأغراض عندنا وأعظم الحاجات هــذه المسائل فما امضاهُ منها فقد حَصَل، وباقيها نحنُ في انتظار قضائه على الفور، وامَّا غير ذلك من حُطام الدنيا فلا نَلتفتُ اليه ولا نَرضى ان نخاطب به، ولدينا من الذَّهب والفضَّة واليواقيت شيءٌ كثيرٌ، فنحبُّ من الطاغية ان لا يُساومَنا بذلك ويَحْفَظ علينا مروءَتَنا، والاكرام المقبول منه زيادة على ما ذُكِـر هو ان نؤوب لبرّنا في عزٍ واكرام مِثْلَ ما كانت الوجهة اليه من فرح رعيته بنا والعمل بالخَواتم

فأمَرَ في الحال بمُكاتبة عُمَّال المُدُن التي نمرُّ بها وأمَرَهم بمباشرتنا والفرح بنا اكثر مِمَّا كان في العبور الاوَّل، وعيَّن لمصاحبتنا في طريقنا احد القُسيان (١) وهو الذي كان بعثه لملاقاتنا قبل حيثُ شكـرناه واثنينا عليه

فقد فارقناه على ماينبغي ولا خَلَّفنا وراءنا الاَّ ما يُحمد شرعاً وطبعاً ممَّا تقتضيه المِلَّةُ الإسلامية والحمدُ لله

وقبل التَّشييع بأربعة ايَّام ذهبنا لمدينة شغوبية لملاقاة الأسارى والرَّياس المسجونين بهــا، وقد تعدَّدت منهم رسائل يطلبون رؤيتنا متشفعين بسيِّدِ الشفعاء في الوصول اليهم، فاذا هُمْ أربعة عشر، فسلّمنا عليهم ورحَّبنا بهم وقــد انسنا غربتهم ووعدناهم بالخير من سيِّدنا ايَّده الله، وبشَّرناهم بان سيِّدنا مُجْتَهِدٌ في فكاك أسرهم وانقاذهم ممَّا هم فيه، واقمنا مَعَهم من الصَّباح الى العَصْر ولم تفتر لنا ولهم عبرة شفقةً منَّا عليهم وهم اكثر منَّا حسرةً عند مُشاهدة اخوانهم المؤمنينَ

وقــد احضَرْتُ حال التَّشييع الموكَّـل بهم واوصيتُه بالرفق بهم والاعتنا. بأمورهــم ووَعدْتُه ان اذكره لطاغيته بخير، وقد كانت له حاجةٌ عند الوزير في الوقت تحمّلتُ له بقضائها من الوزير في مُقابَلةِ احسانه لاخوانِنا، فانبسطَ اللَّعينُ لذلك وألزَم نفسه المبرَّة التَّامَّة بهم وان يسعَى في مباشرتهم والاحسان اليهم، وعند التشييع معهم قال جميعُهم نحنُ آيسُون مـن قومِنَا ولم يبقَ لنا طَمَعٌ في مخلوقٍ الاَّ في وَلَدِ سيِّد المُرسَلين صلى اللهُ عليه وسلّم، امَّا ان يـكون عتقنا على يده الكريمة او نحن الى الهلاك أقرب انسأل الله حسن الخاتِمَة!

وما زلنا نواعدُهم حتَّى آنَسَت قلوبهم ونفوسهم بالحصــول على الانقاذِ ممَّا هم فيه بفضل سيِّدنا ومدده، ثمَّ انصرفنا عنهُم وجَميعُهم يَدْعُو لسيّدنا بما نَرجو من الله قبوله

ولنذكُـر ما هِيَ عليه مدينة شغوبية ممَّا لا بُدَّ منه من ذكره فنقول:

الخبرُ عــن مدينَــةِ شغُوبيــة

هِيَ مدينةٌ في حجرِ جبلٍ وَقد صَعِدَ البنيان من بسيط الأرض الى اقصى الجبل، فديارُها بين خفضٍ ورفــعٍ، واهل المدينة بادون ولم يؤتوا سعةً من المال، فهم ضعفاء جداً وجل نساء المدينة يستعملنَ غزل الصُّوف، وبطرف المدينة بلاطاتٌ عديدَةٌ ينسجون بها الملف، والديار غير شاهقَة وعليها أثَر القدمِ، وبها بُنيــانٌ باقٍ على حاله من عَمَل المسلمينَ في مواضــع معروفةٍ عندهم وبقُنَّةِ الجبل قَصَبَةٌ مــن عمل الروم في غاية الضخامة والعلوّ بها عدَّة مقاعِـد معمورة بأولاد الاكابر يتعلمون ما يتعلّق بأمورِ البحر وهؤلاء الصبيان لا يخرجونَ من القَصَبة، وقد وقفتُ على موضع مبيتهم بمقاعد عديدةٍ هِيَ فوق المقاعد التي يقرؤون بها، كُلٌّ واحدٍ بفراشه على سريرٍ وتحتَ السرير ربيعةٌ وبازائه شلّيَة

ومن العجب انَّ عددَ الفرش شيءٌ كثير، وفيما بين كل واحدٍ والذي يليه قدر ما يَمرُّ به الانسان، وهُنالك ولدان صغار جداً وقد مازَحتُ عِدَّة منهم بسؤال واحِدٍ بعد واحدٍ اينَ فراشه فيهتدي اليه مــن غير تأنٍ ولا تأمل ولا يرتاب احدٌ

(١) هو الملازم الاوَّل بولس أسينسِيُو Teniente de la Brigada de Carabineros Reales, D. Pablo Asensio. V. Embajada de El Gazzal. Nuevos datos para su Estudio: Tomás García Figueras. Casa de Miguel Boscá Mata; Larache, 1938.

منهم في محله مع انهم على هيئة واحدة، وعند اكلهم يستر كلٌ واحدٍ بآنية من طعام وآنية من شراب ولا يأكل منهم احدٌ مع الآخر، واعجبُ من هذا انَّ صاحب الطعام يعرف كلَّ آنيةٍ وصاحبها ولا يتمارى فيها حال تفريق الطعام

وداخل هذه القصبة اخواننا الأُسارى المذكورين نسأل الله ان يعجّل بسراحهم على يد سيّدنا الكريمة وسراح غيرهم ممّا هو في قيد الأسر وما ذلك على الله بعزيز

وبوسط المدينة كنيسةٌ كبيرةٌ جداً وحكمها في البنيان والتصاوير والصُلبان والذخائر حُكمُ كنائسهم المتقدم ذكرها على التفصيل، وماء المدينة من نهرٍ قدره في العمق ذراع وعرضه أربع خطوات، اخذو منه ما حملوه على صقالةٍ هي من العجب مبداها قوس علوُه نصفُ قامةٍ، ثمَّ الذي يليه قامةٌ ثمَّ الذي يليه قامتان وهكذا، فلمّا جاوز الحدَّ في الصعود جعلوا فوق الأقواس الموالية للأرض اقواساً أُخر، فهي من ثلاث قامات، وبناء هذه الأقواس والسواري المنعقدة عليها من الحجر المقتّت والملوّن مسنداً بعضه على بعضٍ من غير طين، وبين الحجر والذي فوقه وتحتَهُ وعن يمينه وشماله فرجات قدر ما تدخل فيه اليد، وهذا ممّا يتعجّبُ منه، فلو كان بناء هذه الصقالة الحاملة الماء من الحجر المبسوط المستوى في نحته وتقويمه تقول بسطُهُ وتقويمه مُعين على ائتلافه حال التشييد، وامّا البُنيان لهذا الحجر الموصوف على الكيفيّة المذكورة مع استدارة الأقواس وارتفاعها ففي ذلك عجب حتّى قيل انّها من عمل الجن

ولما خرجنا من المدينة آيبينَ لمدينة لاكرانخة وجدنا بباب المدينة الشغوبيّة احدُ وزراء الطاغية مع جماعةٍ من أعيان الكرطي بعثهم طاغيتُهم لملاقاتنا هُنالك وأمرهم ان يرموا بالمدافع والبُنب خارج المدينة لنشاهدَ ما هم عليه من الاصابة في الرمي من أولاد الاكابر الذين يتعلّمونَ ما يتعلّق بأمور البحر هُنالك

ولهم قُرب باب المدينة ارشافٌ عليها عدّة مدافع ومهاريس، ثمَّ جعلوا امامها علامات، وجعلوا يرمونها بالكور ثمَّ بالبُنب وقد تجاوزوا الحدَّ في اصابة الرّمي، ومُرادُ طاغيتهم فرجتنا بذلك والتمويه بقدرنا، ثمَّ اطلاعنا على ما هم عليه من الاعتناء بما يتعلق بالحرب واظهار القوّة، فقلتُ: «انَّ حرب الإسلام لا يلتفتونَ للمدافع ولا للبُنب حال القتال، وانّما الشأن عندهم السيف والرمح والنبل، واستعمال البارود انّما هو عند الصدمة الأُولى فقط، فاذا اختلط القومُ بالقومِ فما عندنا الاَّ السيف وما أُضيفَ اليه من رمحٍ ونبل، وجَوَلان الخيل بين الصُفوف هازمة للجيش، وما كان من المدفع والمهراس انما هما آلتان من آلات اهل البحر والمدن التي حصرها العدو وتدفع بذلك عن نفسها لعجزها عن مقاومَة من حاصرها:» فقال الوزير: «ما قُلتَ الاَّ حقاً والصواب والحق في إظهار القوّة والثبات عِندَ مُكافحةِ القتال صفّاً، وهذا اختصَّ به الاسلام، وقد وهنت ما ابدى من القوّة بالانفاط والبُنب ومنعتُهُ بذلك، ولم يجد بُدّاً من قبول ما حدثتُه به

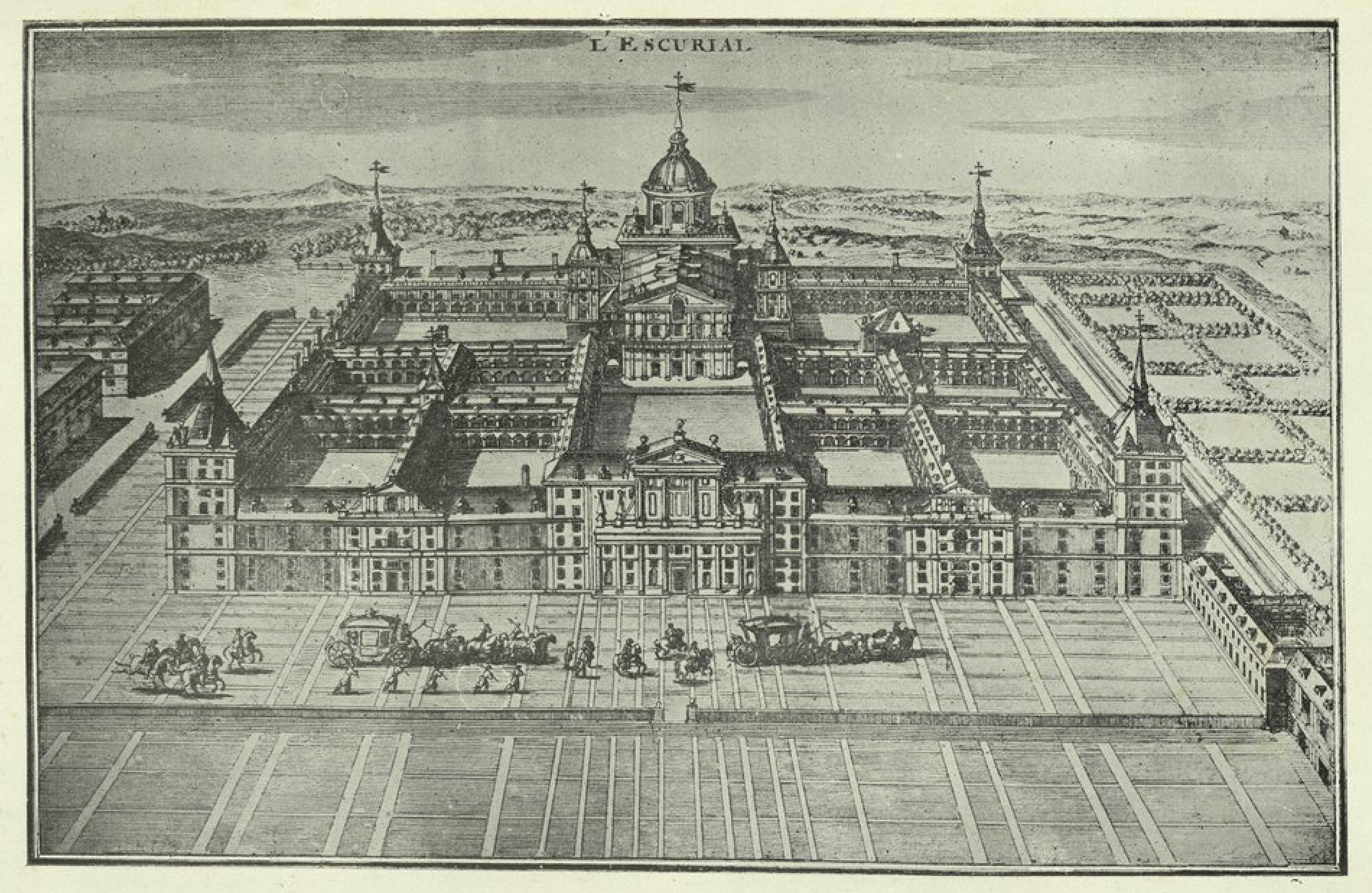
وكان وُصولنا الى لاكرانخة بين العشاءين لان المسافة التي بينها وبين شغوبية(١) ثلاثة اميال، ومن الغدِ سافرنا لمدينة الاسكوريال(٢) عن واحد وعشرين ميلاً بالطريق المُحدثَة المتقدّم ذكرها

الخبرُ عن مدينةِ الاسكوريال

هِيَ كنيسةٌ وبازائها دارُ الطاغيَة ثمَّ بنى بها أعيان الدولة الاصبنيولية دياراً عديدةً الى ان صارتِ الآن من المُدُن

(١) مخط: اشقوبية،

(٢) مخط: اشكوريال

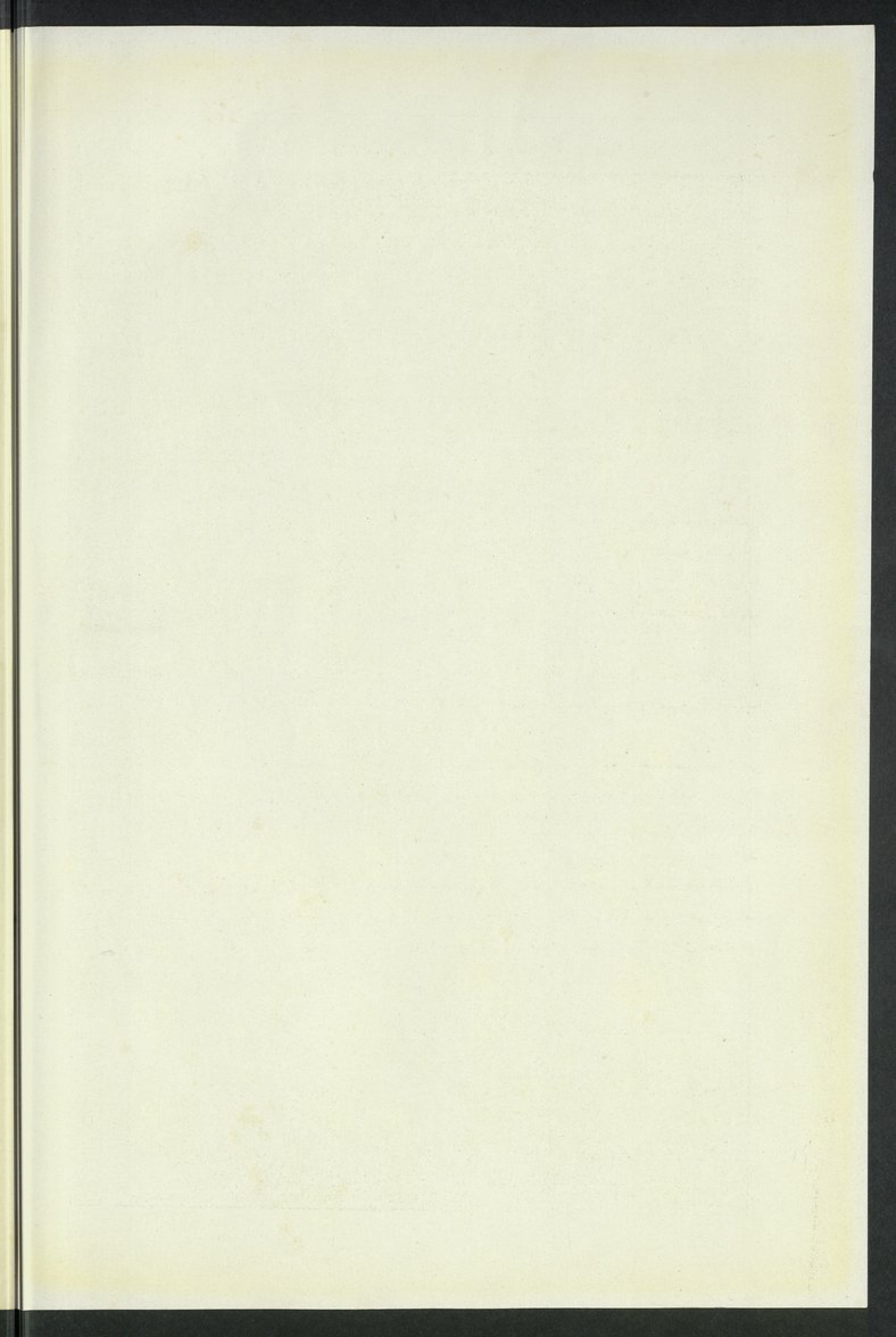


Real Monasterio del Escorial. Siglo XVIII.

(Biblioteca Nacional de Madrid.)

الاسكوريال في القرن الثامن عشر

(مكتبة مدريد الاهلية)



المعتبرة ولم يكن مثلها قط في أقاليم الاصبنيول ولا في غيره من أرض الروم، وهذا الأمر مُسلّم عند سائر الأجناس على ما قيل، وقد اجتمع فيها ما افترق في غيرها حسبما يأتي ذلك مُفصّلاً كل في محلّه

وسببُ تشييد هذه الكنيسة ان احد طغاة الاصبنيول وهُوَ فاب كنيط؟ ذهب لحصار مدينة من مُدن الأفرنسيس(١)، أقامَ على حصارها زماناً ولم يحصل منها على مُراده وقد نصب عليها مهاريس ومدافع فحالت بين المدافع وبينها كنيسةٌ عظيمة، ولمّا طال حصارُه لها ولم يجد بُداً من هدِ الكنيسة الحاجبة للمدينة عن رمي المدافع بعد إن نذر انه يجعل كنيسةً عِوَضاً عنها على صِفةٍ لم تعهد من قبله ولا يَقدرُ أحدٌ ان يُشيّدَ مثلها بعده

ولمّا حَصَل على مُرادِه شَرَع في تشييد هذه الكنيسة وسمّاها باسم الفرايلي الذي كان بها في الوقت اسمه اشكوريال؟(٢) وصَوّرَه على احد ابوابها

وبناءُ هذه الكنيسة هو شيءٌ يتعجّبُ منه، فحسب المعبّر عنه ان يقول هِيَ مدينةٌ مشيّدةٌ من حجرٍ واحدٍ أرضاً وحيطاناً وسقفاً ولم تكن بها خشبةٌ الا الأبواب فقط، وهذا الحَجرُ الذي بُنِيت به كادَ ان يكون من الرّخام وتخليصُهُ في التقويم اذا أُسنِدَ الحَجَرُ للذي يليه لا يُميّز طَرفَ الحجر من طرف الآخر المتّصل به يميناً وشمالاً فوقاً وتحتاً، ولم يظهر به اثرُ الطّين الذي يُجعَل بين الحجر والحجر، وبهذه الكنيسة أربعةَ عشَرَ مدرسةً كلُّ مدرسة من أربع طبقات وبُيوتها لا تنحصر يسكُنها الفرايلية، والكنيسة أربعة ابواب، فالبابُ الأكبر في غاية العُلُوِّ والضّخامة وفوقه صورة الفرايلي المسماة الكنيسة باسمه وهو صاحبُ الكنيسة التي هُدِمَت ببلاد افرنسيس، وداخل هذا الباب صحن متسع جداً ينتهي الى ستّة أقواس نافذة للكنيسة وبأعلى كلّ قوسٍ تصويرة آدمي من الحجر كقطعة جبلٍ وعلى رأس كلّ واحدٍ منهم تاج من النّحاس المذهب وزنُ كلّ واحدٍ منهم خمسةَ أرباعٍ وبالنسبة للتيجان المحمولة على رؤوسهم تدرك ذواتهم على أيّ شكلٍ في العَظَمَة

والعجبُ هو في مُباشرة هذه الذوات العظام في حالِ رفعها ووَضعِها بالمحَلّ الذي هي به الآن على انّ عُلوه ما يزيدُ على السّتين ذراعاً، وكلُّ صورةٍ تحتها اسمُ صاحبها فمنهم من بيده آلة الطّرب ومنهم من بيده سفينةٌ ومنهم من لا نعبّرُ عمّا في يده لعَدَم المعرفة به

وهذه الأشياء التي بأيديهم جميعُها من النّحاس المذهّب ايضاً، وفيما يزعمونَ انّ اصحاب هذه الصوَر ملوكُ بني اسرائيل غير أنّي لم اتعرّضْ لذكر انبياء الله تعالى في هذا المحل تنزيهاً لهم، على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسلام

والكنيسةُ في نفسها عريضةٌ متّسعةٌ طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها مائتا ذراع وثلاثونَ ذراعاً، وهُناك مقعدةٌ قدرُها في العُلُوِّ نِصفُ ارتفاع الكنيسة وطولها والعَرض قدر نِصف ساحتها، وهِيَ محلُّ قراءتهم وتعليمهم للصّبيان، وبصدر هذا المحلِّ صناديق الموسيقى ومثلها بالكنيسة السُّفلَى وبوسَطِ صَحنها قبر مكتسٍ بالديباج وقد علته قُبّة جاوزت الدّيور الحاملة للنواقيس، على انّ عادتهم في البُنيان الا يجاوزها عُلو بناءاتهم الا ما كان من هذه القُبّة المضروبة على هذا القبر المحزوق، والقبّة مشيّدة على أربع سواري بين كلّ ساريةٍ والمقابلة لها خمسونَ خُطوة وغلظها عِشرونَ شبراً في احدِ الوجوه الأربعة من كلّ ساريةٍ

---

(١) هكذا في المخطوطة وهذا خطأ، فان الذي حاصر المدينة هو فليب الثاني، وكان بها كنيسة عظيمة على اسم القديس لورنسو San Lorenzo حالت بينه وبين ضرب المدينة ولم يكن بداً من هدم هذه الكنيسة للاستيلاء على المدينة فنذر الملك ان يبني كنيسة اعظم منها فهدمها، ولمّا رجع منتصراً باشر ببناء كنيسة ودير الاسكوريال ويُعرف هذا الدير اليوم باسم : Real Monasterio de San Lorenzo del Escorial

(٢) هو القديس لورنسو من الشهداء، قُتِلَ سنة ٥٢٠ اما الاسكوريال فهو اسم المحل الذي بنيت فيه الكنيسة

وصاحبة القبر هي بنتُ الطّاغية الباني للكَنيسَةِ، وقد أوْصت على دفنها هُنالك بعد ان جَعلت اوقافاً على الفرايلية للقراءة عليها

وقد شاهدنا مِصْداق ذلك حِينَ عَبَرنا الكنيسة فقد رأينا ما يزيد على المائتين من الفرايلية شيوخاً وكهولاً وصبياناً محدقين بالقبر من الجهات الأربع قائمين على اقدامهم يَقرأُ كبيرهم قدر مائة كلمة ثم يتبعُونه باصوات مرتفعة ثم يعود فيعودونَ ثمَّ يخرجُ كبيرهم من الصُفوف ويذهب حتّى ينتهي الى القبر فيشير بيده الى القبر يفعل ذلك بالجهات الأربع ثم يهوي ساجداً لناحية الخزائن بصَدْر الكنيسة وفيها عدّة من الصُلبان وسيأتي ذكرها، ثمَّ يرجعُ لما كان عليه من القراءة والتّضرع ثم يفعَل ما فعَله اوّلاً من الإشارة بيده للقبر وسُجوده، وفي الثالثة يَذهب للقبر وبيده مَبْخرة يُشير بها للقبر ايضاً وينصرف جميعُهم

يفعلـون ذلك ضحـوَة كلّ يوم احـد، والخزائن المشار اليها خزانتـان بصدر الكنيسة يصعَد لهُما بدرجاتٍ، كلُّ خزَانةٍ من ثلاثِ طبقاتٍ وبين الطَّبَقةِ والتي فوقها نِصف قامَةٍ وعرضها ثلاثونَ شبراً، وقد اشتَملت الطبقات الثّلاثة من الخزانَةِ الواحِدَة على ذخائر لا يُعبّر عنها، وبمُقدَّم الطبقات المذكورَة منارات وثُريّات وحسَك وبيزار وما هو على شَكل المجانَة وما اشبَه المحبقات التي يجعل فيها النوار، الكلُّ من خالص الذّهب المنظّـم باليواقيت يَمنط فما دونه، وبينَ هذه الأشياء صورَة امرأة من الفِضَّة قائمة على قدَميها وعلى رأسها تاج مـن الذّهب المرصّع بالدُرّ واليَواقيت وبجيدها قلادة من الذّهب بها تنبيت من الحَجَر، وبوسط القلادة حجر من اليَمَنط قدر ظُفـرِ الابهام، وداخل كـل طَبقةٍ من الخزانة تِسع صورٍ من حِسَان النِسوة خلقة ولم يبد مِنهُنّ الاَّ ما فوق صدورهنّ وفي اجيادِهِنَّ قلائد من الفضّة المذكُورَة وعلى رؤوسهِنّ شَبكات من الذّهب المنَظّم بالدُر والياقوت

والخزانة الثانِيَة على شَكل الأُولى مَملوءة بالأشياء المذكورة من الذخائر غير انَّ ما بها من صورِ النِّساء أُبدلت برجالٍ ولحَاهُم من ذَهَب، ثمَّ ذهبنا لمقعدٍ هو بجنب الكنيسة فاذا فيه صناديق داخلها كسوة للفرايليّـة يلبسونها في يوم معلومٍ عندهم منسوجة من خيطِ الذّهب مُنظَّمة بالجواهر اشتَملت على صنائع غَريبَةٍ

وهذه الصناديق استوعبت دائرة المقعد على الجهات الأربع وقـد علاَها مَرافع على الاستدارة ايضاً حاملة للتّصاوير، وفيمَا بيـن كلّ تصويرة والتي تليها محبَقَة ذات أغصانٍ مفتّحة الأزهار على اختلافها، الكلُّ مـن الـذّهب المنظّم بالدُرّ والياقوت والزّمرد والمرجان وبَعض حجر اليمنط، ثمّ صعدنا لموضعٍ مرتفع فاذا فيه منارة على شَكل قُبَّة علوّها قامة واستدارتها ثلاثة أشبار، وما بين القائم والعمود تشجير مَفتُـوح في صفائح من الذهب الكلُّ به تنبيت من يواقيتٍ على ألوانٍ ودرّ وزمرّد ويمنط على قلّته، ثمَّ مقعد آخر به من الذخائر مثل ما تقدّم غير أنَّ به زيادة، منها ياقوتَة صفراء قدر بيضة الوَزّ لمعانُها بالحائط المقابل لها كشعاع الشمس هِيَ فوق رأس صليبٍ من صلبانهم، ثمّ ياقوتَة يمنطيَّة تحت رجليهِ قدر اللوزَة في قشرها

وامَّا دارُ الطاغية التي بها الكنيسة فحُكمُها حُكمُ دياره الموصُوفة من تعددِ القِباب والمقاعِد والغُرف والمنازه وغير ذلك مما تقدّم ذكرُه مُفصّلاً في غير موضع، غير أنّ هـذه مبنية بالحجر المحض ارضاً وحيطاناً وسقفاً، وكذا ما بها مـن التصاوير كُلُّها مِـن الحجارة وبجنبها دارٌ مملوءةٌ مقاعدها باواني الأدوية: اشرِبَةٌ ومعاجن وأدْهان وغير ذلك مِمَّا يتعلّق بأُمور الطبِّ

ومُتَّصِل بدار الطاغِيَة عِدَّة بساتين ذات أشجار مـن الفَواكه والنوار، وبها صهاريـج وقد احاطَ بالجميـعِ من خارجٍ أشجارٌ لا ثمارَ لها هِيَ في غاية العُلوّ والضَخامة، مستديرٌ بها سورٌ مـن الحجر من غير بُنيانٍ وانّما هو من الحجر المسند

بعضُه على بعض وداخل هذه الغابة من الغزلان ما لا حصر له، تسرحُ هُنالك آمِنَة ومعها الكثير من القنين والمَهَا جميعها تسرح في محلٍّ واحدٍ فهي كالماشِيَة عندنا

وعلى بعدٍ من المدينة بنحو ميلين موضع اصطياد الطاغِيَة، وهُنالك ديار لاستراحة الطاغية عند العَودِ من الاصطياد، وبارجاء هذه الديار صهاريج عديدةٌ نافِذَةٌ مياهها بعضها لبعض

اقمْنَا بها بَعْضَ الايَام وسافَرنا مُصَاحبين السَّلامة قاصدينَ مدينة مدريد عن واحدٍ وعشرينَ ميلًا، وفي اثناء طريقنا التقينا باخواننا الأُسَارى وفرحنا بهم وقد انسنا غُربَتهم وخبَّرناهم ان سيّدنا نصره الله مهتمٌّ بشأنهم مُستَعمل البعض والكلِّ اعزّه اللهُ في السعي في فِكاكهم وانقاذهم من الأسر، ودفعنا لهم ما أنعم به سيّدنا عليهم حسبما هِي عادته الجميلة معهم في كُلِّ سنة، وقد وجدنا الكثير منهم مثقلًا بالسلاسل والأكبال حيثُ تَكَرَّر منهم الفرار، فكَتبتُ في الحال مستشفعاً في ازالة السَّلاسل عنهم والأكبال وتسريح رجلٍ منهم اصابَهُ البارود بعَينَيْهِ فَعُمِيَ، فاجابُ الطاغية بسراح الرُجل الأعمى وازالة السلاسل عن اخوانِنَا المُؤمنين، وقد بالغنا في الايصاء عليهم للمتولّى أمرهُم من قِبَل الطاغية وبذلنا المجهود في اكرامه بالأمر المطاع لكي يَحصل الرِّفق بعباد الله

وقد ظَهرت نتيجةُ ذلك لانَّ بَصيرة سيّدنا نصرَه اللهُ منوَّرةٌ، وقد ظَهَر من اللّعين حين أكْرمَ الميلَ للمسلِمينَ والشَّفقة عليهم والرفقِ بهم وَوَعدنا بمُباشرتهم والإحسان اليهِم ما دام مولّى عليهم

وجملةُ الأُسارى المُستعمِيلين الآنَ في خدمة الطريق الذَّاهبة من مدريد للاسكوريال مائتا اسيرٍ وأربعة، وقد كانوا قبل ثلاثمائة فرَّ منهم البعضُ واكرم بالشَّهادة البعض وبقِيَ منهم الآنَ العدد المَذكور، وهؤلاء الأُسارى جلّهم من اهل الجزائر وبعضُهم من التُّرك، انسأَل الله ان ينقذهم مِمَّا هم فيه ويُفَرِّ ج عن جميعهم بمنّه وفضله انه على ذلك قدير!

وعند تسرادِهم تبيَّن ان بأسبيطال مدريد ثلاثة عشر منهم يُعَالجون به ما المَّ بهم من الألم

ومن الغَدِ وصلنا مدريد وذهبنا لعيادة اخواننا وحملنا لهم ما أنعم به سيّدنا عليهم من جُملَة اخوانهم، فسلّمنا عليهم وفرحنا بهم غاية وحدَّثناهم بما آنست به نفوسهم من وعد سيّدنا أيده الله بسراحِهم، والكُلُّ على اعتقادٍ واحدٍ من انَّهم آيِسُونَ من قومِهم ولا طَمَع لهم الاَّ في سيّدنا أيده اللهُ في انقاذهم من الأسر

وقد انصرفنا عنهم وهم داعُونَ لسيّدِنا نصرَهُ اللهُ بكلِّ خير

والمُوكّلُ عليهم في الأسبيطال والمعيَّنُ في مُبَاشرتهم نصراني فرايلي له عقلٌ راجحٌ وسمعة حسنة في قومِهِ يحسِنُ مُبَاشرة المرضَى في الاكل والشُّرب وتَنقِيَة اثوابهم وتطهير اماكِنهم الى غير ذلك مما تحتاج اليه المرضَى، والمعيّن لمباشرتهم عددٌ كثيرٌ مِن النَّصارى والكلُّ الى نظره وقد اوصيناهُ باخواننا فاجابَ بالسّمع والطاعة، على انَّهُم حدَّثوا عنه انّه يُحسِنُ اليهم ويُقدِّمهم في المباشرة على أبناء جنسه، فاكرَمناهُ وقد وعَد بزيادة الاحسان اليهم لاجل ايصائنا عليهم

ولمَّا كانت الأوبة لمدريد بعد التشييع مع الطاغِيَة، كان هذا المركيسُ بحضرةٍ عظيمة كتَب لابنته وأمَرها ان تبذل المجهود في ضيافَتِنا بجميع أنواعِ الاكرام من الاطعمة واتّقاد الشمع واحضار أهل الموسيقى، وان تجمَع بنات الاكابر عليها لهذه الضيافة، ففعلت ما أُمِرت به من والدها بعد ان قدّمت لنا الاعلام بذلك وبعثت باكداشٍ ركبناها وذهبنا مُصَاحبين للفرايلي الذي يتعاهدها في صلاتها مع عددٍ من الأعيان الذين في طبقة والدها ومرتبته عند طاغيته والكثيرُ من خدامها حاملونَ للشمع امامنا

ولمّا بلغنا الدَّار تلقتنا في جماعةٍ من البنات القريبةِ منها في السنّ وغيرهِنَّ من النسوة الكلُّ يرحِّب ويُبجِّل، فاذا دارها من خِيار الدُّور، بها مَقاعِد غير بعيدة من مقاعِد ديار الطاغية في البُنيان والفُرُش والستور والتصاوير وما يضاف لذلك

ولمّا استقرّ بنا المجلس أخذ أهلُ الموسقى في العمل، فقامت البنتُ مُنشِدَة فيهم بصوتٍ يذهل العقول، ولها اخٌ ما ظَنَنْتُ أنه يُحسِنُ الكلام ولا يُلفف بين الحروف لصِغَرِه وعليه مخايل البَلَه، فلم اشعُر الاّ وَهُوَ بينَ اهل الموسيقى وبيده ربابٌ وانامله تدبُّ على اوتاره، فتعجّبتُ من ذلك وسأَلتُ في الحال اهل الموسيقى هَلْ يُحسِنُ شيئاً او اجلسوه معهم من غير فائدة؟ فكان جوابهم ان تركوه وحدَه يَضرب وقد اجاد، فلمّا سمعت اختُه تعجُّبي من اخيها نهضَت في الحال لصندوق الموسيقى وقد كان يُباشره شيخٌ كبيرٌ فجلست محل الشيخ وجعلت تحرّكُ ما به من الأوتار وتُجيبُ عنها بصوتٍ رخيم بعدَ ان سكتت الحاضرين، وقد رأينا منها ومن اخيها ما فيه عجب، ثمّ بعد ذلك قامت ترقُص ثمّ اقتفى أثرها في الرقص من حضر بالمجلس من بنات الاكابر على الصِفة المعهودة منهم في الرقص الذكر مع الأنثى، وقد استبعدنا ذلك من بنات الأعيان وأولادهم، فكشف الغيبُ ان علم الموسيقى هو شِعار الأعيان منهم وذوي الأقدار، وآلة الموسيقى الحاضرة بهذه الدار هي لوالد البنت، والشيخ الذي كان يباشر ما بالصندوق من النغمات هوَ المُعلّم للبنتِ ولاخيها، وهذه البنت صغيرة لم تبلُغ الحلم واخوها دونها في السن

ولما فات النصفُ من الليل تشيّعنا مع البنتِ واخيها ومَن حضر مَعَ الجماعة وأظهر الكلّ من الأدب حال التشييع ما لا يُكيَف وبَعَثَ عدّة من الخَدَم حاملين للشمع امامنا الى محلّنا، وانصرفوا عنّا مكرمين

ومن غداة الليلة كَتَبت البنتُ لوالدها تخبره كيف كانت الليلة اجمالاً وتفصيلاً، فاجابَ والدها بما فيه مجازاة لها وتمنّى لو حَضر بنفسه واكّد عليها ان تطلب منّا العَوْدَ، فاعتذرنا لها بعُذرٍ مقبول، وما زالت تَتعهدنا وتُعيدُ الطلب الى ان سافرنا

وكانت اقامتنا بمدريد بعد التشييع مع الطاغية ما يَقرُب من الشهر في انتظار ما وَعَدَ به من كُتُبِ الإسلام التي كانت بالمدينه المدريديّة، ولم يكن الطّاغية بالمدينة حال التشييع فأمرَ باخراج الكتب من المحل الذي كانت به ودُفعت لنا، وزدنا على ما صَحِبنا من الكتُب من غرناطة، ثم بَعثَ الطّاغيـة لقاص بعدَ سفرنا من مدريد واصلاً لدينا، وقد كان وعد بذلك حيث لم يمكنه التّوصل بهم قبل السفر، وقد وفَى بما وَعَدا!

ثم استعملنا السَّير من مدريد مُصاحبين للشُّلطاظ والفُسيان المُعيّن من قِبَل طاغيتـه لمصاحبتنا في طريقنـا في الثامن والعشرين من جُمَادَى الأُولى من عام تاريخه قاصدينَ احدِ ديار الطاغية من الديار الأربعة المعهودة لسكناه في الفصلين المذكورين، وهي المسماة بارانخويس(١) عَبَرناها عن واحدٍ وعشرينَ ميلاً بينَ صُفوف الأشجار التي لا ثمار لها استوعَبَتِ الطريق يميناً وشمالاً خارجةً عن سوارٍ من الرُّخام عُلوُها نِصفُ قامَةٍ وفيما بين السّارية والتي تليهـا عشرُ خطوات صاعدات من صفائح الحجر الذي هو كالرُّخام بحاشيتي الطريق، وعند كمَال كلّ مسافة سارية مربَّعة مرشُومٌ عليها بالغبـاري المسافة الأُولى فاذا انقضت المسافةُ الثانية تجد بالسّارية شَكل الاثنين بالقلم الغباري ايضاً وهكذا في كلّ مسافةٍ، وفي خلال هذه المسافات لحقنا بالوادي المسمّى بالحرامة(٢) عليه قَنطَرَةٌ لم يكن مثلها بالبلاد الاصبنيوليّة فيما رأيتُ ولا ما حُدِثتُ بـه، أقواسُها خَمسٌ وعشرونَ، والسواري التي بين الأقواس من الجهتين كالشواهِق وكلّ قوسٍ فوقه قادوسٌ من الرُّخـام من أعلى القَنطَرة يلفظ الماء عن بسيط القَنطرة من الجهتين حال نزُول المطر، والقواديسُ قدر المدافـع، وتتّصل بمحفظات القنطرة يميناً وشمالاً مسطبات من الرُّخام، وبناء القَنطَرة من الحجرِ الذي هو في البياض والصَّفاء كالرُّخام

(١) هي ارنجويس Aranjuez بلدةٌ عريقَةٌ في القِدَمِ من عمالة مدريد على ضفّة نهر طاخو

(٢) Guadarrama : نهرٌ مشهورٌ في مقاطعة مدريد وطُليطُلَة ينبع من سِلسِلَة جبال تعرف باسمه

قيل انَّ اخا الطاغية الموجود الآن هو الذي شيَّدها منذ عشرين سنة، وهـذا الوادي يتَّصل بالوادي الكبير المسمَّى بطاخو(١) على قُرب من ارَنخويس(٢) بثلاثة اميال وهُوَ المارُ بمدينة طُليطُلَة المحيط بسبعة اثمانها

الخبرُ عن مدينةِ أرَنخويس

هِيَ احَدُ ديار الطَّاغية المعدَّة للاستراحة من المصيف لطيب هوائها حَسبَما تقدَّم ذِكره، وقد بنى بازائها أعيان دولته من الديار المُعتبرة حتَّى صارت من جُملة المُدُن، وقد اجتَمَعَ فيها ما افترَق في غيرها ممَّا يأتي ذكره، فنقول: دار الطَّاغية هيَ كدياره الموصوفة في ايِّما موضع، من تعدُّدِ القِباب والمَقاعِد والغُرف والمنازه والتَّصاوير وما يُضَاف لذلك من نقش ونحتٍ في الحجارة وتَموِيه السقف بالذَّهب والفِضَّة وغير ذلك ممَّا هُوَ مُقرَّرٌ وموصوفٌ، غير انَّ هذه الدار تَزِيدُ على غيرها بمسائل مستحسنة منها: جَريان الوادي بجُدُراتها، الثانية: بَسْط ارجائها واستعاب نواحيها بالأغراس، الثالث: ما أبدَعَه المهندسون في القِباب، منها الأُولى هِيَ قُبَّةٌ من الودَع الشديد البياض حيطاناً وسقفاً، وقد استوعبها تصاوير آدمي وحيوان ووحش وطير وحَشَرات من ذوات السُّموم وغيرها: الكلُّ ناتيٌ من نفس الودَع، كلُّ صُورَةٍ على شَكْلِ خلقتها في تغيير الألوان والشَّكل كالسواد في العَين والشَّعر وبياض الأسنان وغير ذلك، ولا عجب من كون ذلك من نفس الودع ولم يخالطه غيره

واتّصال هـذه الصُّور ببسيط لوح الوَدَع والالواح الوداعِيَة المشتملة على هـذه التَّصاوير لا يشاكل بعضها بعضاً، في الجرم حال انفصالها، منها ما قدره ذراع في الطول، والعرض مثله، ومنها اكبر، وموضِع كل لوح مـن الودَع مرشومٌ بخطَّة على شَكله في لوح القُبَّة التي تكتسى بالودع، وداخل الخطَّة علامةٌ بالقلم الغباري المسمَّى عندهم بالنُّومرو، ثـم علامة مثلها بجنب الواح الودَع فيهتدي بالعَلامتين لوضع كلِّ لوحٍ بمحلِّه حال اتلافها، واثبات هـذه الالواح الوداعيَة على الواح الخشب بلوالب مـن ظاهر الودع، والطراشة التي تقابلها هي في الخشب فيتَّصل كلّ لوحٍ بلوحٍ على الصِّفة حتَّى يستوعِب القُبَّة المذكورة بنشر الواحِ الودَع عليها في قائمها والمَبسوط من أعلاها، ثم قُبَّة أُخرى من المرايا، ثلاثُ مَرايا في كلِّ جهَةٍ من الجهات الأَربع طولُهَا ستَّة عشر شبراً وعرضُها ثمانية أشبار تَشتَمل على اثني عشر لوحاً من المرايا، والرابط بين المرآة والتي تليها قَضِيبٌ من الذَّهب قدر الابهام عرضاً، وسقفُها شبكـةٌ من قُضُب الذهب، وداخل الشَّبكة رقمٌ بألوانٍ عديدة، والباب الذي يُدخَلُ منه لهذه القُبَّة هُوَ واحدٌ من المرايا، فاذا سُدَّ شاكل غيره من المرايا ولم يدرِ العابرُ من ايِّ موضع كان عُبوره

والمرايا تمثِّلُ من القُبَّة التي فوقها عدَّة قِباب خارجة عنها، والناظِرُ لاحد المرايا التي بالزوايا يُشاهِدُ طريقاً في غاية الطُّول وعرضها عرض المرآة تماثلها التي تُقابلها، فاذا ارسل طرفه يميناً وشمالاً او اماماً وخلفاً تعدَّدَت الطُّرُق التي بزوايا القُبَّـة، وهذا يُدرَكُ عقلاً من مُقابلة المرآة للمرآة على الصِّفة

وبناءُ هـذه الدار قرب شطِّ الوادي المذكور المسمَّى بطاخو(٣) وهو وادٍ كبير جداً قريبٌ من وادِ سبو والمهديَّة، أخذَ منه الطاغِيَة نحو رُبعه وجَعَلَه مُحيطاً بداره وبُستانه بعد ان بنى سورَ مجراه يميناً وشمالاً بالحجر المنجور، والعرض منه ستَّة أذرع اي عَرْض الوادي، وطول السُّور من مجرى الماء الى الدرابيز المضروبة باقصاه داخلًا وخارجاً قدر قامةٍ، والدرابيزُ من

---

(١) مخط: بانطاخو

(٢) مخط: ازخويس

(٣) مخط: بانطاخو، وقد تقدم شرحه

الحديـد المموّه بالذّهب، وداخلها أرض في غاية البسط مَسَاحَتُها طولاً وعرضاً نحو الأربعمائة خُطوة تنتهي الى شطِّ الوادي الكبير المأخوذ منه ما ذُكر

وقد اشتملت هذه الأرضُ على خِصَص يَصْعَدُ الماء من انابيبها للهواء بما يزيـدُ على مائـة ذراع وبها بعضُ الأغراس لم نرَ مثلها قطّ اذ خِلقتها لم تعهد عندنا، عُلوُّها قدر قامـةٍ وساعِدُها قدر السّاعد ليس به نباتٌ ولا أغصانٌ، وبأعلا ساعِدها كرةٌ من النبات ملتفٌّ بعضُها في بعض جداً يانعة لا ثمار لها

وبالرياض قِبابٌ ومَنازه وأشجار في غلظ الأرزات العِظام وطولها، غير أنّها لا ثمار لها، وبوسط هذه الأشجار المذكورة أشجارُ الفواكه التي لا تحدُّ، ثم بُستانٌ آخرُ استقلّ بالفواكه الصيفيّـة والخريفيّـة، وقد عثرنا على دارٍ داخل احدِ أغراسِه فوجدنا بها مقعداً طولُهُ مائة خُطوَة وعَرْضه ثلاثونَ احاطت به مرافع بعضُها فوق بعض، والفُرجَة التي بين الطبقة والتي فوقها قدر ذراع، وعرضها أربعة أشبار حاملة للفواكه الرطبَة: الكمثري والتفّاح، والتفريق بين كل ثمرة والتي تليها حال وضعِها قدر اصبع مُعينٌ على الحِفظ وعدم اسراع الفساد، والفراشُ التي تحطّ عليه الفواكه ربيعٌ كالفضّة، وكذا أرضُ المقعَد استوعبها فراشٌ من النباتِ المذكور، وقد علاهُ من الفواكه ما يعجز عن حمله

ذكَرَ القيّمُ على ذلك ان هذه الثمار تَمْكثُ بقية السَّنة ولا يُدرِكها تغيّرٌ فهي مُدَّخرة لاكل الطاغية يبعث له في كلِّ ثمانية ايّام ما هو كافٍ له في المُدَّة المذكورة، اذ عادَة طُغاة الرُّوم احضارُ الفواكه الرَّطبَةِ واليابسة في اوانٍ واحِدٍ وقدر التّفاح والكمثري قدر الأُترجة وطعمها طيّب جداً وكذا السفرجل نسمةً وطعماً

اقمنا بهذه المدينة يومين وسافرنا قاصدينَ مدينة طُلَيطُلَـة عن واحدٍ وعشرينَ ميلاً، وقد كنّا في غاية الاهتمام بها ومنها في الخاطر شيءٌ كثيرٌ حيثُ عرجنا عليها حال العُبور لمدريد ولـم يُساعدنا الوقتُ في الدُّخـول، وكان القصدُ منّا بالوصول لطُلَيطُلَـة ان نتعاهَدَ الاماكن التي كانت للمسلمين ونحيّي معاهِدَهم ونقف على مقابرهم ونترَحّم عليهم ونعبر جامعها الأعظم ونبحَث عما هُنالكَ من الكتُبِ العربيّة وما نجده بالموضع الذي لا يُناسِبه نَنقُله للوضع اللائـق به الحافظ له من لَمسِ الكفَرَة فضلاً عن ان يطؤُه، لانّ الطاغِية فَوَّضَ لنا في ذلك واستحسَنَ منّا ما فعلناه بقُرطُبَة من قلع اللّوحَتَين من الرُّخام اللّتَين كانَتا بالأرض ورفعهما بأعلَى سورِ المسجِدِ، وقد اعتَذَر عن ذلك بعَدَم المعرفة بما هُنالك مـن الفرايلِيّة وغيرهم

الخبرُ عن مدينةِ طُلَيطُلَـة

هِيَ مدينةٌ مشيَّدَةٌ على رُبوَةٍ في غايةِ الصعود، وقد احاطَ بسبعةِ اثمانِها الوادي الكبيرُ المعروفُ بطاخو، وديارها من ثلاث طبقات فاقل على البناء الاسلامي، فهي بين خَفْض ورَفْع وازقّتها ضيّقَة جداً، والمدينةُ في نفسها غير بعيدَةٍ مـن فاس تشاكُلها في البيوتِ والغُرَف واستدارة الطّبَقة العُليا بالدرابيز من الخشب، وسورُ المدينة لم يُغيّر القوم منه شيئاً يَصْعَدُ بصُعُود الربوَة ويَنْحَدرُ بانحدارها، والوادي قنطرتانِ احداهما من ثلاثةِ أقواس والأُخرى من أربعـة من عمل الرُّوم، وامّا القنطرة الاسلاميّة فقد هدّها السيلُ على ما قيل ولم يبقَ منها الاّ الجدار، وبخارجِ القَنطرتَين قَصَبَة من عمل المسلمين ارحَمهُم اللهُ! لها أربعة أبراجٍ مُثمّنة في البُنيان في غاية الاتقان يحسبُها الناظِرُ انّها بُنِيَت في الحال لجودتها وجدّتها

ولمّا قربنا مـن المدينةِ بَرَزَ اهلُها لملاقاتنا بجمعٍ عظيم، وفعلوا ما فعل من قبلهم من المُدن من الترحيب والاجلال، ونزلنا بدارٍ هِيَ من خيارِ دُور المدينة

فلمّا كان مِنَ الغَدِ ذهبنا للجامع، فاذا هو من أعظم المساجِدِ اجتَمَعَ فيه ما افترَقَ في غيره، فهو أعلى من مسجد قُرطُبَة

وقريبٌ منه في طوله وعرضه اذا أُضيفت اليه البيوتُ والمقاعد والمخازن المتّصلة من نواحيه الأربع، وسواريه ليست كغيرها من السواري التي بالمساجد، كلُّ سارية مُحيطة بها ثمان سواري متّصلة بها منعقدة عليها أقواسٌ في غاية العُلوّ

وبناء الجامع وسواريه من الرخام، وقد جعلوا بين كلّ حَجرٍ والذي يليه في القائم والمقبي لوحة من الحَجَر الأسود عرضها كعرضه، وعلوها قدر الأصبع زيادة في الحُسْن والنّظارة، وبوَسَط المسجد قبّةٌ طُولها اثنان وسَبْعُون قَدَماً والعرض مِثله احاطَ بها شبّاكٌ من النّحاس المذهّب واستوعبها تصاوير عديدة حيطاناً وسقفاً، ومباحات مستديرة بنصف علوّ القبّة حاملة لصناديق الموسيقى

وقد اجتمع في هذا الجامع من الخزائن ما لم يَكُن في غيرها ممّا شاهدناه من التيجان العديدة والاساير والقلائد والخواتم والمنارات والحسك والطّيسان والصّور من الصّلبان وما لا يُعبّر عنه ولا ندري تسميته، الكلُّ من الذّهب المنظّم بحجرِ اليَنْط وغيره على ألوانٍ عديدةٍ، ومنها ما خالطه زمرّد وجواهر نفيسة، وامّا ما هُنالك من اواني الفضّة فلا تنحصر عدداً، ثمّ باحدى الخزائن ما كان على شكلِ منارِ الجامع قدره ما دُون قامَتين بيسير محمولٌ على ظهر صُور آدميين يحسبُها الناظِرُ احياء، وذواتهم من الفِضّة ولباسهم من الذّهب، وقد استوعب المنارة تنبيتٌ من أصناف اليواقيت، وبازاء هذه المنارة سواران من الذهب دائرتهما من خمسة اصابع وبسطُهما من أربعة وغلظهما من اصبع وبهما تنبيتٌ من اليَنْط وغيره من جنس الياقوت وبعض الجواهر النفيسة، ثمّ كتابٌ مرسومٌ بالذّهبِ هو عندهم بمكانةٍ مكينةٍ لا يطلعُ عليه الا مَن ومَن، قيل انّ فيه بعض التوراة!

وبالجملة ان الذخائرَ التي بالمسجدِ الطُّلَيْطلي به زيادة على ما بالاسكوريال(١) وهو عندهم من أعظم الآثار في البُنيان والذخائر، ولا خفاء انّ طُلَيْطلَة هِيَ دار مُلكٍ قديم ومرّت عليها دُولٌ كثيرةٌ مُسلمةٌ وكافِرةٌ، وجامعُها هو العتيق بالبِلاد، والذخائر التي كانت بها لم يحدث بها تفويتٌ حالَ الأخذ لنقلها لمحلٍ آخر حينَ حاصرَهم المسلمُونَ وبَقيت عندهُم محفُوظَة حتّى عادَت لمحلّها على ما حدثَ به بعض الفرايلية، ثمّ هُنالك ابهاء عديدة يَسكُنها الفرايلية، وبأعلى سورِ هذا المسجد من أحَدِ نواحيه سَبْعُونَ طاقةً من الزُجاج المُلوّن المُسمّى بالزُجاج العراقي

وابوابُ الجامعِ احدى عشر، منها ثمانية من الجهات الثلاث، والجهةُ الرابعةُ استقلّت بثلاثةِ ابوابٍ متّصل بعضُها ببعض، الوُسطى في غايةِ العلوّ واليُمنى واليُسرى دونها بنحو الثُلث وفوق السواري الحامِلَة لأقواس الأبواب سواري أُخر صاعدات في الجوّ حامِلَة للتصاوير من نَفس الحجر الذي هو في صفائه كالرخام، وبازاء احَدِ الأبواب الثلاثة منار المسجد وهُوَ في غاية العلوّ، مَدارجهُ ثلاثمائة وتسع وخمسونَ دَرَجَة، والعرض منه اثنان وثلاثونَ ذراعاً في احَدِ الوجوه الأربعة وبه من النواقيس اثنا عشرَ، احدها كبيرٌ جداً، قيل لم يَكُن مثله بالبلادِ الاصبنيولية يُسمعُ صوته مسيرة يومٍ، وزنه ثلاثمائة واربع وتسعونَ رُبعاً، وقد نقروا عليه ونحن بالصَّومعَة فبقي دويُهُ نحوَ السّاعة حتّى خَشِيْنا على انفُسنا الصَّمَم عند نقره واخرنا المُوكل به عندَ عوده اليه بالضرب، ومن البرّ ما يكون محقوقاً، ولسانُ هذا الناقوس المُعلّق بوَسطه المستعملُ لنقره هو قدرُ المدفع، والمحرّكُ له حالَ الضّرب سِلْسِلَةٌ متّصِلةٌ وطَرفُها ممكّنٌ بناعورة فاذا حرّكوها بما لها من الحركات اتّصلَ لسانُه بجنبه بعنفٍ فيُصوّت صوتاً لم يَنْهد من صوتِ مدافع ولا من بُنبٍ، وبالصّومعة جُبٌ يجتمعُ فيه ماء المطر، وبصحن الجامع أشجار النارنج وأشجارُ البَلَنز بما يزيد على العشرين، وبأحد الابهاء المذكورة خمسُ صُورٍ قائمةٌ على اقدامِها اثنان من وخش الرّقيق ذكرٌ وأنثى واثنان من الترك رجلٌ وزوجة، وواحدٌ من الشلطاظ كلٌّ على خِلقَته وهَيْئته من الحلية في اللّباس المعهود له،

---

(١) مخط: بشكوريال

غير انّ طُول كلّ واحدٍ منهم ستة عَشَرَ ذِراعاً والرأس والأيدي والأرجل وما بَقِيَ من الجوارح في خِلقةٍ هائلةٍ مُناسبةٍ لطول القامة المذكورة، فلمّا اقبلنا عليهم بديهةً فَزِعنا وجَزِعنا سِيمَا وقد استعمَلت الخُطى نحونا، لا يَتمارى فيها الذكيُّ الفَطِنُ انّها ذواتٌ من غيرِ روحٍ بالكُلّيـة، ثمّ كشفَ الغيبُ أنّها صُوَر وقد جعل اشباحها النّصارى وهُم المحرّكونَ لذواتها، جعَلوا ذلك فرجةً لنا، ثمّ صُورَةُ رُجـلٍ داخل الجامع اعظم خِلقـةً من الصُّوَر المذكورة في الطولِ والعرض، وقد عَبّرَ بعض اصحابنا ما بينَ كَعْبَيْه الى الابهام أربعَة أشبار، فانْسُب بقيّـة جوارحه لقدميه يتبيّن لكَ قَدْرَ هذا الشخص الهائـل وبيدِه نخْلَةٌ يتّكِئ عليها وكأنّه عابر سبيل، وهـذا لا غرابة فيه لاقتدارهم على التصوير، وانّما ادرَجْناه هُنا من جُملَة ما رأَيْناه بالجامع

ومن غَداةِ يومِ العُبور للمسجد أَلزَمتُ حاكِـم البلد ان يَصحَبَني للاماكن التي كانت لملـوك الإسلام وان يُرشِدَنا لمقابر المسلمينَ، وكذا ديار الاكابر مـن المسلمينَ كالقُضاة والوزراء والقُوّاد ومَـن في معناهم، لان الكثيرَ منهم يستعملونَ الكتابة في ديارهم حيطاناً وسقفاً، وقد كُـنتُ أُخبِرتُ بشيءٍ من ذلك، فاطرق الحاكِم شيئاً ثمّ استأذن عليَّ ان يَذهَب ويرجعَ في الحين، فلم يَلبثْ الاّ وهُوَ مُقبِلٌ برجُلٍ مُسِنّ جـداً غير انّه ثابتُ الذِّهنِ صحيح التّمييز له خبرَةٌ في البلاد من ذلك لنجابَتِه في قومه وطعنِه في السنّ، ثمّ جَعَلَ الحاكِـم يَسألُه بسُؤالِنا حتّى استوعَبَ ما عِندَهُ من الخبر، فكَتَبَ الحاكِم جميعَ ما تَعَلّقَ بعلم الشيخ ورَكِبتُ في الحالِ مَعَ الحاكِـم للمواضع التي ارشدنا اليها الشيخ

فاذا بمقبرةٍ للمُسْلمين رَحِمَهم اللهُ وهي ساريَةٌ من الرُخام مَكتُوبٌ عليها بخطٍ كُوفي:

ابسم اللهِ الرّحمان الرَّحيم يا أيُّها الناس انّ وَعدَ اللهِ حـقٌّ فلا تَغرّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولاَ يغرّنّكُم باللهِ الغرورا: هذا قبرُ الإمام أحمد بن أحمد بن مُغيث كانَ يَشهَدُ انْ لاَ إلهَ الاّ اللهُ وحـدَه لا شريكَ له وانّ محمداً عبده ورَسُوله ارسَلَـه بالهُدى ودين الحقّ ليُظهرَه على الدِّين كُـلِّه ولو كَـرِهَ المُشركون! توفي رحمه اللهُ ليلة الأَحدِ لثمانٍ بَقِينَ من ربيع الثّاني سنة تسع واربعينَ واربعمائة

ثم ساريَةٌ أُخرى مكتوبٌ في اوّلِها ما في الأُولى من الآيَة الشريفـة، غير انّ صاحِبَ القبرِ لم يُعرَف من هُوَ لِمَحْو المَحَلّ الذي هو مكتوبٌ به ولم يبقَ من الحروف الاّ لفظ: أربع واربعينَ في محلّ التاريخ ولا يُقرأُ ما بعدَهُ ولا ما قبله، ثم مواضع أُخر مُحِيَ جميعها وبقِيَ آثار بعض الحرُوف الاّ ما كانَ من ديار الملوك وأعيان الدّولَـة من الإسلام فقد وَجدنا بها بعض الكِتابة اشتَمَلَت على لفظ االعافيَة الباقية! ثمّ االعزُّ لله! ثمّ االملكُ لله! ثمّ االسعادَةُ الكامِلَةُ والنِّعمَةُ الشامِلَةُ! الكُلُّ مَكتُوبٌ في الجِبْصِ قُربَ السَّقف، وهذه الديار هِيَ في المدينة ما زالت على حالِها من بُنيانها الاسلامي القديم

وامّا القَصَبَةُ التي بقُنّـة الرَّبوَة فقد استولى عليها الخرابُ من داخلها، وامّا سورها فباقٍ على حاله وما زالت القِبابُ والمقاعِد والغُرَفُ والمنازة مشيّدةُ الأركان مهدّةُ السقف والبعضُ منها على حالِه القديم، وقد سَتَرَت سور القَصَبـة من خارج الأركان بل في الوجوه الأربعة سلاسِلُ معلّقةٌ واكبالٌ لا يأتي عليها الحصر، فسألنا عنها فاذا هي كانت للمسلمينَ رَحِمَهم اللهُ يقيّدُونَ بها الأُسارى من الكُفّار، ابقوها هُنالك تذكرة لهم، منها ما جاءَ من غَرْناطَة وجُلّها من طُلَيْطُلَـة

والقصَبَةُ مطلّة من الجهتَين على المدينة ومن الجهتين على الوادي

والعَجَبُ في صعود الماء، من الوادي للمدينة بهَندَسَةٍ عظيمَةٍ وهِيَ ان جعلوا ناعورة عظيمة متّسعة جـداً جَنبَ الوادي بعد ان بنوا له سُورَين احدُهما داخل الوادي والآخر بشطّه، ووضعوا من جهة المدينة صندوقاً من الحديد مُمَكّناً بالأرض محفوراً فيه اربعة قواديس وجعلوا فوقَ كُلّ قادوس عاموداً في طوله قامتان وغلظه يزيد على غلظ الساعـد باصبعين وبطرفه الأسفل قطعـةٌ من الحديد طولها ذراعٌ وغلظها ثلاثة أشبار على الاستدارة فهيَ للقواديس بمنزلة اليد للمهراس، ترتفعُ هذه

المرازم وتنحطّ بحركةِ الناعورة المذكورة تدفعُ الماءَ من القواديس المذكورة على الصَّندوق لجوف القادوس المتّصل بها هُوَ على شَكـل المدفع، طولُها عشرة أشبار وغلظُها ثلاثة أشبار

وهذه القوادِيسُ يتّصِلُ بعضُهـا ببعض مُسنَدَةً على سُورٍ مُنحدر من أعلاَ المدينـة الى الوادي، وكلّما دفعت تلك المرازمُ الماءَ من الصندوق للقواديس يَقفوه ماءٌ آخرُ وهكذا فهو كالاطرنبة تجعل في السُّفُن على ما قِيل، غير انّ هذه أعجبُ

والمدينة باقِيَة على ما تركها المسلمونَ رَحِمَهم اللهُ الاّ ما أحدثه اعداءُ اللهِ في المساجد من التصاوير وما هو معروفٌ لهم من حملِ النواقيس وما في معنى ذلك

واهلُ المدينةِ يستعملونَ نَسج الحرير بركاضو وكـمخة وغيرها وجلُّ اهل المدينة ضُعَفَاء. ولهم ميل للمسلمين

وطُلَيطُلَة هِيَ اوّلُ اقليم منشا(١) من ناحية مدريد ومن ناحية قشْتَلة(٢)

اقمنا بها ثلاثة ايّام وسافَرْنا قاصدينَ مدينة مورَة عن ثمانيةَ عشر ميلاً

الخبرُ عن مدينةِ مورَة

قد تقدّم عليها الـكـلامُ في العُبُور الاوّل، اقمنا بها بقِيَة يومنا وسافرنا من الغدِ قاصدينَ مدينةَ مادريخ(٣) عن خمسة عشَرَ ميـلاً

الخَبرُ عـن مدينةِ مادريديخوس(٤)

هِيَ مدينةٌ بدويّةٌ كاهلها، وقـد بَرَز منهم لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ واقتَفُوا اثر المُدُن المعتبرة في اخراج الاكداش واحضار اهل الموسيقى واتقادِ الشّمع وانتخاب الفُرُش الى غير ذلك، ولم يصحبهم تقصِيرٌ فيما يتعلّقُ بأمورِ الضيافة

ومن الغدِ سرنا قاصدينَ قريةً قريبةً من أن تكون سُمِيَت باسم الفاريلي صاحبها الذي بُنِيت من اجله واسمها: القاصَر دي صان خوان(٥) لحقنا بها عن خمسةَ عَشر ميلاً بين الظُهرين

الخبرُ عـن القاصار دي سان خوان

حكمُ هذه القرية حكمُ التي قبلها في البداوة، وقـد برز اهلها للمُلاقاة والاكرام وما يضافُ لذلك، غير أنَّ هذه اختصّت بِحِكمَةٍ في صُنعَةِ البارود المنتَخَب المشكور عِندَهـم بالبلادِ الاصبنيوليّة حتّى ان صانِعَه رمى كورة بمهراس وزنها أربَعة وستونَ رطلاً بثلاث اواقي من هذا البارود المذكور مـن غير ذلكَ ولا سجنٍ عليها داخل المهراس حسبما شاهدناه،

(١) La Mancha

(٢) Castilla

(٣) هِيَ مادريديخوس Madridejos بلدةٌ من مقاطعة طُلَيطُلة عدد سكانها اليوم ما يقرب من ٨٥٠٠

(٤) مخط: مادريخ

(٥) هِيَ Alcázar de San Juan: اي قصر القديس يوحنا: وهِيَ قريَةٌ من مقاطعة سيوداد ريال

فتصعدُ الكورة في الجوّ صعوداً فادحاً وتسقطُ على بُعْدٍ من المهراس بمائة وستينَ خُطوة لجودة البارود المصنوعِ عِندَهُم بتلك القرْيَة وبها تُصنَعُ السُّيوف كسيوفِنا

اقمْنا بها بقية يومنا وسافرنا قاصدينَ مدينة صكيلموص(١) عن خمسة عشر ميلاً

الخبرُ عن مدينة صكيلموص

مدينةٌ بين الكِبَر والصِغَر وديارُها أرضيةٌ واهلها للبَداوة أميَل، وقد احاط بالمدينة عدّة أرجاء المسندة برحاء الريح وقد اقتفوا اثرَ من قبلهم في الترحيب حال بروزهم للمُلاقاة وعندَ التشييع، وقد سرنا من غداة ليلتنا ضَحْوة قاصدينَ مدينة اسمها مَناي(٢) عن خمسةِ عشر ميلاً

الخبرُ عن مدينة مَنايا

مدينةٌ غير بعيدةٍ من الأولى في البَداوة ومُشاكلة مَنْ بها خَلقاً وخُلقاً، ولم يزل احدٌ منهم جهداً في المباشرة واظهار البشاشة حتّى انّهم يسمحون بكل عزيزٍ عندهم رَغبَةً فيما يَصِلُ لطاغِيَتهم من المُباشرة والاكرام حيثُ أُمِروا بذلك، لانّ القُسيان المُصاحِب لنا يكتُبُ ما صَنَع كُلُّ واحِدٍ من أعيان المُدُن على حدّته فيتنافسونَ في ذلك

ومن غَداة اللَّيلَة سافرنا لمدينة لا الرودة(٣) لحقنا بها عشيةً عن أربَعة عشر ميلاً

الخبرُ عن مدينة لا الرّودة

مدينةٌ مُتَّسِعَةٌ جداً وديارُها شاهِقَةٌ واهلها اهلُ فلاحَةٍ غير أنّهم بادُونَ محض، ومع ما هم عليه من البَداوة فعلوا ما فعلوه اهل المُدُن، وقد احتفلوا بنا قبل حلولنا ببلدَتهم حيث علموا ان مرورنا عليهم، فيجدّونَ ويجتهدون في بروزهم للمُلاقاة وما بعدها حتّى ننصرفُ عنهم في عزٍّ واكرام

ومن هذه المدينةِ كان رواحُنا لمدينةِ لا خينيتا(٤) عن تسعة اميال

الخبرُ عن مدينةِ لا خينيتا

مدينةٌ عليها أثَر القِدَم وديارُها كديار المدينةِ التي قبلها في التشييد الذي هو غير شاهِقٍ كما حكيتها في براوة، وبالجُملة حُكمُها حُكمُ التي قبلها في الفعل والخَلْق والأخلاق

اقمنا بقيّة يومنا، ومن الغَدِ سِرنا قاصدينَ البسيطي(٥) عن تسعةِ اميال، وفي خلال هذه الأميال خرجنا عن أقليم

---

(١) Socuéllamos : بلدةٌ من مقاطعة سيوداد ريال، جنوبي نهر زنكارا Zancara

(٢) Minaya : قريَةٌ من مقاطعة البَسيطي

(٣) La Roda بلدةٌ من مقاطعة البَسيطي عدد سكانها ما يقرب من ١١٠٠٠

(٤) La Jineta بلدةٌ عريقةٌ في القِدَم من مقاطعة البسيطي

(٥) Albacete عاصمة مقاطعة تحمل اسمها تبعد عن مدريد ٢٧٩ كيلو متراً، عدد سكانها ٤٥٠٠٠

مانشا ودخلنا أقليم مَرْسِية وفيما بين الاقليمين المذكورين علامـةٌ وهيَ ساريَةٌ مكتوبٌ عليها : أأقليمُ مَرْسِيةا، ثمَّ بعد العَلاَمَة بقليلٍ عثرنا على مدينةٍ كبيرةٍ جداً عن يسار عُبورنا في حجر جبلٍ شاهقٍ وبقُنَّةِ الجبلِ قَصَبةٌ لها اثني عشر بُرجاً من عمل المسلمين رَحِمَهُم اللهُ لم يحدث بها تغييرٌ وللمدينة سورٌ في غايةِ الاتقان محيطٌ بجميعها، فسألنا عنها فاذا هِيَ شيتنية وقد رَغِبنا في الدخول اليها واشتقنا للحلول بها لنستَوْعِب أخبارها ونقف على ما فيها وقد عاقنا عـن ذلك تراكم الأمطار وعدم امكان الصُعود اليها بالاكداش اذ هِيَ بقُنَّةِ الجبل ومنها كان رواحنا لالبَسيطي المذكورة

الخبرُ عـن مدينـةِ البَسيطي

مدينةٌ بين الحضارَةِ والبدَاوة واهلها اهل فلاحَةٍ وبها عددٌ من الشلظاظ، فهي كغيرها من المُدُن المتقدم ذِكرُهم من نزول الشلظاظ بها مدينةً مدينة

وكلّما حللنا مدينة يأتي المتولّي أمر الشلظاظ بعدَدٍ منهم للدار التي نحنُ بها فيمكثون بالباب مدة اقامتنا زيادةً في التعظيم والتمويه بنا ولا ينصرف احدٌ منهم الاّ بعد سيرنا، فنكرمُهم بما يناسب وتقتضيه المُروءَة الاسلاميَّة وننصرف عنهم

ومن عادتهم انهم يتحدَّثون بما أُكرِمُوا به ولهم في ذلك فخرٌ وعظمة من اكرام الباشدور اياهم، وهكذا في كلِّ مدينةٍ مدينة، واهل هذه المدينة لم يصحبهم تقصيرٌ في اقتفاء من تقدَّمهم فيما يرجع للضيافة

ومنها كان رواحنا لمدينة منطِ ألكره(١) عن أربعة وعشرين ميلاً

الخبرُ عـن مدينةِ منطِ ألاكره

مدينةٌ بدويَّةٌ وديارها غير منتخَبَةٍ في البُنيان واهلها ضعفاء جداً ومع ما هـم عليه مـن الضُعفِ هيَّئوا لنا منزلاً حسناً وجعلوا به فُرُشاً على قدر طاقتهم واعتذروا عن ايقاد الشمع لعدم وجوده عندهم وكثير ما رَحَّبوا بنا، وجميعهم يعتذرونَ على إداء الواجب، وقد حللنا مدينتهم بعد المغرب، بيومٍ شديد المطر، مع مُكابدة الوحل، ولم يسعنا الاّ الاقامة بهذه المدينة لتتابع السيل الفادح

وباليوم الثالث انجلى الغيمُ وسافرنا قاصدينَ مدينة ايكلا(٢) عن اثني عشر ميلاً في وحلٍ عظيم

الخبرُ عـن مدينةِ ايكلا

مدينةٌ حُكمُها حُكمُ ما تقدَّم مـن المُدُن البدويَّةِ على الاجمال والتفصيل، وهيَ آخر أقليم مرسِيَة من الناحية المتَّصلة بأقليم بلنسِيَة، ودخلنا اقليم بلينسية فكان رواحنا لمدينةِ المنوّر(٣) وهي اولَ مدينة من أقليم بلينسية على اثني عشر ميلاً

الخبرُ عـن مدينةِ المنوَّر

هِيَ بين الحضارةِ والبَداوة ومـن أعجب ما رأيتُ عندهم بنيّة ما ظننتُ في عمرها تسعة اعوام، وقد أحيَت الليل كله

(١) Montealegre قريةٌ صغيرة من مقاطعة اليقنطي

(٢) Yecla بلدةٌ من مقاطعة اليقنطي

(٣) Monóvar بلدَةٌ من مقاطعة اليقنطي عدد سكانها ما يقرب من ١٢٠٠٠

بالغناء بين اهل الموسيقى ثم أخذت في الرقص على هَيْئَةٍ غير معهودة عندهم، ثم باشرتْ عُود الطَرب بيدها ولما قضتْ منه الغَرض اسكتتِ المعلمين، ثمّ قامتْ على قدميها خاطِبَةً في القوم والكلُّ في غاية الانصات لها وجعلت تارةً تدمعُ عينها وتارةً تَضْربُ بيدها على صَدْرها وتارةً تنقبِضُ وتارةً تنبسطُ لم ندري منها ايضاً انّها تَسردُ ما تُمليه على القوم بسرعة، ولم يصحَبْها تَوَقّفٌ ولا تَلَجْلُجٌ واشتَهرت على تلك الحالة ما يقرب من ساعة، فكَشفَ الغيبُ انّ ما كانت تُحدِّثُ به هُو محفُوظٌ من كتابٍ عندهُم كالعنترِيَّة وهم يسمونه بالكميديا، والكميديا عبارةٌ عن دارٍ هِيَ محلّ جَمْعهم للنزهةِ والفُرجةِ يجتمع فيها الرَّفيعُ والوضيعُ من قُربِ المغرب الى نصفِ الليل على التأبيد، والدار طبقات عديدة، ومقاعدها مطلّة على صَحْنِ الدَّار ولا تجد امرأة ولا بُنيّة بهذا المحل الاّ وبيدها كراسة من الخرافة التي على ظَهر قلب هذه البنيّة المحدَّث عنها

ومن غداة ليلتنا سافرنا بالسلامة قاصدين مدينة ايلشي(١) عبرنا اليها عن اثني عشر ميلًا

الخبرُ عن مدينة إيلشي

هِيَ مدينةٌ أحسن من التي قبلها بكثيرٍ في الحَضارة وسَعةِ اهلها في المال، وقد اجتمعَ فيها ما افترَقَ في غيرها من عِدَّةِ وُجوهٍ: احدُها ميلهم المسلمينَ بالقلب والقالب، والظاهر دالٌّ على الباطن، ولا شكَّ انّ فيهم عرقاً عريقاً في الإسلام حيثُ كان اسلافُهم على الدين القويم فهم يتأنّسونَ بذلك ويقرّون بانّ دين الاسلام اشرفُ الأديان، وانّ المُسْلمينَ هم على الحقِ ومن سواهم على الباطِلِ لكن لم تصاهم الدَّعوة وعلى تقدير وُصولها اليوم الآن لم يُمْكنْهم حفظُها ولا العَمَل بها، هذا في مقام السِّرِ واما ان جهر احدٌ بذلك فلا يُسْتَتاب عندهم ولا يُحْكَمُ عليه الاّ بالقتل

وقد استوعَبَ هذه المدينة نخيلٌ من الجهات الأربع بما يزيدُ على الأربعين الفاً غير انّ طعمهُ وطعم نخيل مرّاكش واحدٌ لا يدّخر، واهل المدينة غَلَب عليهم الحُسْنُ والنظافة

اقمنا بها يوماً وليلةً ومنها كان رواحُنا لمدينة أُرويلَة(٢) عن خمسة عشر ميلًا

الخبرُ عن مدينةِ أُرويلَة

مدينةٌ حضرِيَّةٌ كاهلها فهي اكثرُ ممّا قبلَها مالاً ورجالاً، وقد شقَّ المدينة نهرٌ كبيرٌ جداً اسمه سكُورَة(٣) عليه قناطر يعبر عليها الذاهبُ والآيبُ من الجهتين

والديارُ مشيّدةٌ على شطّهِ يميناً وشمالاً مُطلّة عليه بشراجيب مُتقَنة، ويتّصِلُ بدُور المدينةِ أغراسٌ وأجِنّةٌ، وقد احاط بالمدينة سورٌ من عمل المسلمينَ رَحِمَهم الله من الجهات الثلاث ينتهي من طرَفيه بجبلٍ شاهقٍ عليه قصبةٌ للمسلمين ايضاً، وقد برز منهم لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ باكداش لا تبعُدُ في الجودَةِ عن اكداشِ الطاغية، واكرمونا بما اكرمنا غيرهم بما يدلُّ على رفاهيتهم وسعتهم في المال واحضار اهل الموسيقى ورقص النساء، وطلبوا منّا الاقامة من الغَدِ نساؤُهم فاعتذرنا لهم بما لا بدّ منه

وكان رواحنا لمدينةِ مَرسِيَة على اثني عشر ميلًا وفي خلال هذه الاميال لحقنا العلامة المُميِّزة بين أقليم بلينسية واقليم مَرسِيَة

---

(١) Elche بلدةٌ كبيرةٌ من مقاطعة اليقنطي على ضفّة نهر الڤينالُبو Vinalopó عدد سكانها ٤٠ ٠٠٠

(٢) هي Orihuela مدينةٌ على ضفّة نهر سيكورا عدد سكانها ما يقرب من ٥٠ ٠٠٠

(٣) Río Segura نهرٌ ينبع من سِلسِلَة جبال تعرف بهذا الاسم، يمرُّ في مرسية ويصبُّ في البحر الابيض المتوسط

الخبرُ عن مدينةِ مَرْسِية

هِيَ من المُدُن العِظَام مشيّدةٌ في بسيطٍ من الأرض، وقد استوْعَب ارجاءها اشجارُ التُّوتِ من الجهاتِ الأربع، قيل انَّ سِعَةَ ارجائها اثني عشر ميلًا وجميعُها سَقْيٌ، وقد مرّ بوَسْط المدينةِ نهرٌ عليه قناطر عديدة، وهذا الوادي هُوَ المارُّ بالمدينة التي قبلها، وديارُها عليها اثر القِدَم، والكثيرُ من اهلها يصنعونَ نسج الحرير على أنواع، والغالب انّهم فُقراء. وفيهم جفَاوَة في الطبع لا يَأْلَفُون ولا يُؤْلَفُون حتّى يظنّ مُباشرهم انّهم ليسوا من الاصبنيول لغلظ طِبَاعِهم وتَبَايُنهم عن الجنس

والمدينةُ لا يعبرها عابرٌ الاّ بعد التَّعَب من الوَحْلِ في طُرُقها وجميع ارجائها وقت المصيفِ فضلًا عن زَمَن الشتاء، حتّى قيل اذا أُطْلِقَ الماءُ على نواحيها منع القاصدُ لها حال الحَربِ ولا يمكنه ان يصل اليها بالكلّيّة بخيلٍ ولا رَجِلٍ، وقد شاهدنا مِصداق ذلك حال العبور اليها

اقمنا بها نحو السّاعتين وسافرنا منها قاصدينَ قريةً على بُعْدٍ منها بثلاثـةِ اميال، والقريةُ سُمّيَت باسم صاحبها ضون خوان من كبيرِ الفرايلية(١)، ثم من بعد اكرام اهلها أيانا بما يقتضيه جهدهم، سِرنا منها بالثلثِ الآخر من الليل قاصدينَ مدينة قرطجَنَّة عن أربع وعشرينَ ميلًا في أرضٍ مبسوطة وبها ديارٌ لا تنحصر عدداً متفرقة يسكنها الحرّاثة والعزّابة فلو انْضَمّت الدّيار بعضها الى بعضٍ لكانت من المُدُن العِظام

الخبرُ عن مدينةِ قرطجَنَّة

لمّا قربنا منها ولم يبقَ بيننا وبينها الاّ قَدْرَ مَسافَةٍ برز لمُلاقاتنا جماعةٌ من المسلمين رجالاً ونساء وصبياناً ولهُم ضجيجٌ يُعلِنون بكَلمة الاخلاص ثمّ يتبعُونها بقولهم اللهُ يَنْصُر ولدَ سيدي رَسُول الله، سيدي محمد بن عبد الله! فسَلّمنا عليهم ورحّبنا بهم، وسألنا عن حالهم فاذا هم مُسَرّحونَ وحُكمُهم حكمُ الأسير، لا يستطيعون الخروج من البلاد الاّ اذا ما أوْجَبَهُ النّصارى على المسرّح ما لم يكن في قَيدِ أسرِ الطّاغية، وجعلوا ذلك من جُملةِ الاوقاف يُفَرَّقُ على ضعفائهم فلا يمكِنُ التّساهلُ فيه ولا التّسامح، وهؤلاء الأسارى ضُعفاء جداً مساكين، ومُستفادُ ما يَخدُمون به غير كافٍ لهم لما يقوّتُونَ به أولادهم لغلاء الأسعار، ومكثوا مُدّةً من سنين في الدّهر، فَهُم في اشدِّ تعبٍ وضنكٍ من الأسر المحض، اذ الأسيرُ تجري عَلَيهِ نفقة مالِكه خشية عليه من الضياع، وهؤلاء الناس لا مُعينَ لهم ولا نَاصِرَ الاّ اللهُ سبحانه، ومن جُملة ما قطّع اكبادهُم الخوف على صِبيانِهم بَعْدهم وتَركهم في بلاد الكُفر، وقد طالَ وقوفُنا معهم وهم يَبْكونَ ويتضرّعون ونحنُ اكثر منهم بكاءً وحسرةً عليهم، فسكّنّا روعَهم ووعدناهم بخيرٍ من سيّدنا ايّده اللهُ وبشّرناهم بأن يُؤدّى عنهم ما هُم مطالبون به وان نَحمِلَهم لبَرّ الاسلام ان شاء الله، فانّ سيّدنا نصره الله ما بعَثَ بنا الاّ لامثالكم فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً!، فانطلَقَت النساءُ بالزّغاريت والصبيان يَفرَحون ويرقصون وآباؤُهم يعفرُون وجوهَهم في التُّراب ساجدِينَ لله شكراً، حامدينَ الله تعالى داعينَ لسيّدنا المنصور بالله بما نرجو من الله قبوله، وكان يوماً لم نرَ مثله بكاءً وفرحاً حيثُ اعتقَ الله هؤلاء القوم وانقذ صبيانهم من بلادِ الكُفرِ على يدي سيّدنا الكريمتين، وانفصلوا عنا فرحين مسرورين

ثم برزَ لمُلاقاتنا قرب المدينة خلقٌ كثيرٌ باكداشٍ عديـدةٍ : حاكِم البلادِ وأمراء البحر وأعيان القوم، وامّا مُطلق

(١) لعلّها San Javier لا San Juan وهي قريةٌ من مقاطعة مرسية

الناسِ فلا يأتي عليهم حصرٌ، فرحّبوا بنا كثيراً، وركبنا اكداشهم وصاروا امامنا راجلينَ من غير شماريرِ كأنّهم ذاهبون امامَ عظيمهم، كُلُّ ذلك تعظيمٌ لجنابِ سيّدنا المؤيّد بالله، وقد عَبَرْنا المدينَةَ في ازدحام عَظيمٍ، والشلظاظُ والحاكمُ والأعيان مُحدِقَةٌ بنا يردّون عنّا القوم وشراجيبُ الديار والسّطوح مملوءة نساءً وصبياناً

ومنذ اشرفنا على القوم وهم يضجّونَ ثمّ يسكتُونَ ثم يضجّون وهكذا، ومعنى لفظهم في ضجيجهم «اللهُ يَنْصر سلطان مرّاكُش»

ولمّا حلَلْنا الدّار المعيّنة لنزولنا وهيَ من أحسَن ديار المدينة جَعَل الحاكمُ عدداً من الشُلظاظ بالبابِ وأَمرهم بمنع من يُريدُ الدخول علينا الاّ بعدَ المَشوَرة والاستئذان، وما زالَتِ الأعيان تتردّدُ الينا بقَصدِ السَّلام علينا والترحيب بنا، وقد ظهر منهم في المُباشرة ما فِيهِ زيادة على غيرهم مِمّن تقدّمهم

وقد كان تقدُّمهم لأَمْرٍ من طاغيتهم بمُباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأُسارى من تسريح الطاعنين في السن والمَبطُول والأعرَج والأعمَى ومَنْ في معناهم والرِّفقْ بهم وبمن بقِيَ منهم في الأسر من غير ايالة سيّدنا ومن كان من الايالة المولوية يُسرَّحُ ثمّ يميزُ الحامِل لكتابِ اللهِ وان يعظّم ويُحترَم، وحيثُ كانت هذه الأَوامر بُعِثَت لهم من طاغيتهم ولم نتدر هل استَوعب جميعها كاتِب الطاغِيَة ام تركَ منها شيئاً نسياناً او بقِي منها شيئاً في النفس حيثُ لم نطّلع على الكتابِ المتضمِّن لهذه الأشياء، فاقتضى النظر ان تؤخّر المُلاقاة باخوانِنا المؤمنين ثلاثة ايّام لتطلب الاخبار بما كتبَ به الطاغِيَة في ذلك، لئَلّا نقولَ مسألَة ونُجابُ بقولهم لم تَكنْ عندنا في كتابِ عظيمِنا، وحيثُ حصلتُ على اليقين من طريق احدِ الأُسارى له مُروءة وعقل أَخبَرَ: «بانّ الطاغية كتبَ لأُمراء البحر بسراحِ الطاعن في السن ومَن في معناهم من الذين لم تبقَ فيهم فائدةٌ ولا مَصْلَحة، وكذلك كلُّ من ثبت انّه من الايالة المولويّة

ومِصداق ذلك انّهم ميّزوا من الشيوخ ستّة عشر ومن المنتسبين لايالةِ سيّدنا نصره الله مثلها في العَدَدِ على ان الشيوخ اكثر من ذلك ولا مَنْ هو مِنْ ايالةِ سيّدَنا المؤيّد بالله ظنّاً منهم انك لا تُفتّش فيهم ولا تُناقشهم في البحث عن الأُسارى حيث امتثلوا أَمر طاغيتهم وقضوا هذا الغرض قبل ان تحلّ بلدَتهم، وانما فعلوا ذلك من انفسهم:»

فشيّعتُ الأَسير المُخبِر بذلك وبَقيتُ مفكّراً في المسأَلة، وكنتُ قد وعدتُ قائد البحر الذي الى نظره الأُسارى وهو المخاطب في شأنهم من طاغيته بملاقاة اخواننا المؤمنيـن من الغدِ، فبعَثتُ اليه عند اقبال الليل من يوم وَعدِهِ بذلك بأن تؤخّر الملاقاة بالأُسارى الى بعد غدٍ ان شاء الله تعالى لأمر عرض، فاجاب لذلك واصبحتُ ملازماً للفراش، وكلُّ من يرد من الكفرة بقصدِ السّلام علينا والتعاهد الواجب عليهم صباحاً ومساءً يُردُّ من الباب، ويُقال له الباشدور به ما اشتكى فيقتنع ويذهب لحالِ سبيله، ثمّ ناديتُ كبيرَ الاطباء وباشرتُهُ كثيراً ورحّبتُ به، وقد اختبر من حالي ما اختبر فقال: «لا بأس وان ما تجده انّما هو من تَعَبِ الطريق فقط» وجعلتُ اتحدّثُ معه في الأُمور الطِّبيّة واعترفتُ له بمزيّة الحُكَماء وما هم عليه مِـن الصِدق والثِقَة والامانة لتصرّفهم في ذوات الخلق، وان أَمرهم ممتثلٌ عند الملوك والرَّعيّة! فهم ملوكٌ على الابدان! فانشرَحَ لذلك غايةً واستحسن مخاطبتنا ايّاه، وقال: «هذا الخطابُ لم نسمَع مثله قطُّ، وانتم المسلمونَ لكم عُقولٌ حادّة وبصيرةٌ منوَّرَةٌ»، وقد غَلَب على ظنّهِ اني من اكابر الحُكَماء على انّي لا افقـهُ شيئاً وانّما خطابي كلّه عجعجةٌ وسفسطَة لأَمرٍ اوجَبه الوقت، وأَخذَ معي في السؤال عن برّ الاسلام وعمّن به من الحكَماء الى ان ابحر الحديث لاخبار المملكـةِ وما هو عليه سيّدنا نصره الله من العَظَمَة والجلال والنّصر والعزّ والتأييد وما لديه ايده الله من العساكر والجنـود في البرّ ممّا لا يأتي عليه الحصر، ومنها بالبحر العدد الكثير، وجعَلَ يسأَل عن المُهادنة التي انعم بها سيّدنا ايده الله على عظيمه، هل هي كمهادَنة من تقدّمَهم من الأجناس؟ فقد قيل ان لهم مَزيد حَظْوَةٍ على غيرهم مـن الأَجناس المصالحين، فقلت: «قد كان

ذلك، ومُوجبه امتثال الأمر من طاغيتكم لما أَمَرَ به سيّدنا نصره الله من تسريح الأُسارى من ايالته المباركة، ثم الرّفق بالأُسارى الذين هم من غير ايالته، لانَّ المُسْلِمَ عنده ايّده اللهُ واحد

وحيثُ فعل ما أمره به قابله سيّدنا ايّده اللهُ بما اقتضته همّته العَليّة بان سرَّح العدد الكثير من جنس الاصبنيول، ثمَّ شفّعه بسراحِ جنس آخر ثمَّ بعده بشيوخٍ لم تبقَ فيهم فائدة ولا مصلحة، وكتب ايّده الله للراي كارلوص(١) يحضُّه على سراح الطاعن في السن الذي لم تبقَ فيه مصلحةٌ لما في ذلك من الاجر، فاجاب الطّاغية، وها نحنُ ورَدْنا عليكم لهذا الغرض، لكن نقصُّ عليكَ مسألَةً غريبة لا يهتدي لها الاَّ ذو بصيرةٍ من الملوك:

وذلك اننا لمّا أُمِرنا بتمييز العجائز من الأُسارى ومن لا قُدرَةَ له على الخدمة حَصَل لنا توَقُّفٌ لانَّ البنية منها صحيحة ومنها عليلة فلا نخصُّ العِلّة بالطاعِنِ في السن ولا الصِّحة بالكَهْلِ، وقد يُوجَدُ الشَّيخ اقوى واجهَدُ من الحادثِ في السن الذي صاحبَتْه عِلّةٌ اسقطَت قُوّته، والشرطُ في سراح هؤلاء الأُسارى هو العَجزُ عن الخدْمَة امّا بكِبَرِ السن او بمَرضٍ مُزمنٍ وكذا المَبْطول والمُقْعَد والأَعمى، وذكرهم على التفصيل من الاطناب الحَسَن زيادة الشبيه عليهم على انّهم مُلحَقُونَ بالعاجزين

فاشار مولانا المُؤيّد بالله بان يُسنَد أمرهم حال التّمييز عن اخوانِهم للأَطباء لانّهم أَعرَفُ بذوات الانسان اكثر ممّا يَعرفُ هو بنفسه، فحَمَلْنَا على هذا المؤمّل في ايسر وقتٍ، وأُزيلَت عنّا غمّة التوقُّف في المسألَةِ، وقد تذكّرتُ هذه القضيَّة عند مشاهَدَتِكَ واختبار ما أنت عليه من المَهارة والعَقل والصواب وما كرِهتُ حضورَكَ مَعنَا حال استفسار القوم، وكُلُّ شيخ كان أعمى او مبطولاً او مُقعَداً او مَن يدّعي المَا يُختَبَرُ حالهُ ويُستَوعَبُ بالنَّظر جوارحه، فمَن كانت فيه بقية للخدمة فما علينا فيه، ومَن لم تبقَ فيه مصلحة يُسرَّحُ بحكم اجتهادِكَ في الصحيح والعليل:»

فهشَّ لذلك غايةً وقال: «جزاكَ اللهُ خيراً فَطِب نفساً لذلك، ولك ما يعجبك، فاطلُب أَنتَ حُضوري معكم حال التسراد مثل المؤمّل:» وانصرف عنّي مُكرَّماً

وفي الغَدِ ذَهَبْنا لاخواننا المؤمنينَ فاذا بخمسةِ اغربة مشحونة بأُسارى المسلمين، فلمّا اقبلنا عليهم ضجّوا ضجةً عظيمَةً مُعلنين بالشهادَةِ ناصرينَ مولانا المؤيّد بالله، فنزل من المسلمين بالغُراب الأَوّلِ من المسلمين فسلّمنا عليهم ورحّبنا بهم واخبرناهم بأنَّ سيّدنا نصره الله مُجتَهِداً في خلاصكم من الأَسر، وقد أَمَر ايّده الله باحضار الجميع منكم «وقد بعثَ لكم بصلةٍ مباركٌ لكم فيها وانتُم اخوانُنا اعتنوا بصَلاتِكم وعَضُّوا على دينِكم بالنّواجذ واصبروا فانَّ الصَّبر مقرون بالفرج، وعمّا قريب يُفرّج اللهُ عنكم، وقد أَمر الطّاغية بالرِّفق بكم وبعثَ بالكسوَةِ لجميعكم، والكُلُّ لوصيّة سيّدنا نصره الله عليكم:» وجعلتُ أُقيّد كُلَّ واحدٍ باسمِه ولقبِه، وكُلُّ شيخٍ يَمرُّ بين ايدينا تَحصُلُ فيه المَماراةُ هو يدّعي انه ساقِط القُوّة لا عبرة به واهل البحر يُعارضونه في قوله، فاختَليتُ بالموَلّى على أُسارى المسلمين المسمى عندهم التنينطِ(٢) واشرتُ عليه باحضار الاطباء، وما حكَموا به نحنُ تبع له ويخرجُ جميعُنا من العُهْدَة مع الأُسارى وغيرهم

فبعث للاطباء في الوقتِ وقرأ عليهم كتابُ طاغيته المُتَضَمِّن للأمر بسراح الطاعن في السن والمبطول والمُقعَد والأَعمى بعد ان اُستَحْسَن ما اشرتُ به وتيقَّنَ انَّ ذلك هو عينُ الصواب في النازلة

وقد حصلنا على المؤمّل اوالحمدُ لله من فضل الله ثم من بركة سيّدنا المؤيّد بالله من غير لجاجٍ ولا مناقشة!

فكان جمْلَةُ ما سرّحَ من الشيوخ اثنين وستين نسمة، ثمَّ لما سمِعَ مطلق الأُسارى ان مَن هُوَ من ايالةِ سيّدنا نصره

---

(١) El Rey Carlos اي الملك كارلوص

(٢) El Teniente اي ضابط برتبة ملازم اول

الله مُسرَّحٌ انتَسَبَ جميعهم للغرب، وقد ضاقت نفوسنا من ذلك وحَصَل لنا ذهول في العقل حتّى اني وددتُ لم أكن، فان قلتُ انّهم من اياالتنا يُعارِضني في ذلك ما انتسبوا اليه قبل وشهِدوا على أنفسهم انّهم من غير الغرْب مع عدَم اليقين من اي اياالة هم وان تركتُهم تُعارِضني ايضاً حرمَة الاسلام، لانّ المسلم واحد، فلم يسع العَبْدُ الفقير بعد ان تأمّلتُ فيما يكون به الفصل في النازلة الاّ ان أخرت التسراد الى الغدِ من يومه وأزمت من بيده زمامات الطّاغية المتضمّنة اسماء الأسارى وما ينتسبون اليه، ان يطالع جميعها بداره من غير حضوري لانّه عندي مُصدّق في ذلك، فمن وجده بالزّمامات سَلَوِياً او طَنْجَوِياً او غيرهما من المدُن المغربيّة يجعلُهُ في زمامه مستقل ثمّ يُسرّح من غير استفسار، ومَن انتسب للاياالة المولويّة يُنظَرُ فيه فمَن ثبتَت نِسبتُه يجْعَل في زمام ويُؤخّر الى الاستفسار

فكان ما وَجدُوه بالزّمامات المذكورة من اياالة سيّدنا نصره الله اربعينَ نسمةً ولم يَخطُرْ منّا على بال، وانّما كان انتسابهم للاياالة المولوية في زمـن أسرهم حتّى قُيّدُوا منها وهي سعادتُهم السابقة وسعادَة سيّدنا ايده الله كانت بهم لاحقة، ولولا هذا البحث المقرر ما عرفوا ولا سُئل عنهم، وانّما ذلك الهـامٌ من الله تعالى وتيسير لانقاذِهم من الأسر، فقد كان البحثُ عن شيء فابرزت القدرة ما فيه العجب من فِكاك عدّة من الاسلام من قيد الأسر من غير قصد ولا طلب، فسرّحوا في الحال واخذنا في تسراد القوم فكان قدر ما ثبت لدينا من المنتسبين للغرب احدى وعشرين، والحقوا باخوانِهم المسرَّحين

وبقِيَ من المنتسبين عددٌ آخر للاستفسار، لانّ الرّوم عادتهم يصدّقون المحدِث لهم ما لم تظهر عليهم مخايِل الكَذِب او يصدر منهم ما يؤذّون بانحراف عن الجادّة ولو نسياناً او خطئاً، فلم تقبل لهُم كلمة قطُّ بعد

وقد أحضَر الكُفّار حال التسراد رقباء مـن المسلمين الذين لهم بهم اتصالٌ باطني بحيثُ اذا صدّقنا احداً في نسبته لاياالتنا وهو من اياالة الغير يُخبِرُونَهم بذلك، فيتبيّن لهم عَدَمُ صِدقنا وتحصل المماراة فيمَن سرّح قبل

وقد اختبرتُ هذا قبل حال التسراد الاوّل فلم يسع العبدُ الفقير الاّ تأخير مـن لم يَثْبُت نسبه لاي اياالةٍ هُوَ الى الاستفسار ثمّ بعد ذلك فرقنا عليهم المال المنعم به عليهم مـن سيّدنا ايّده الله، وقد حصل لهم الرِّفقُ في الخدمة والاعتناء بهم لوصيّةِ سيّدنا ايّده الله عليهم، وقد كسا الطاغية جميعهم، وحضّ على الاحسان اليهم حيث أمره سيّدنا ايّدهُ الله بذلك وتمييز ثلاثةٍ من الطَّلَبَة الحاضرينَ في الوقت وتعظيمهم واحترامهم بحيثُ لا يُكلّفُونَ بخدمَةٍ ولا تُهضَم لهم حرمَة

ثمّ شرعنا في الكلامِ مع حاكِمِ البلاد على الأسارى المُسرّحين المرهونِين فيما هو موظّفٌ على امثالهم مِن واجب الابواب، وقد حضر القاضي وغيره من الفرايليّة وتصفّحوا ما بايديهم من الرُّسوم المتضمنة سراحهم فوجدوها صحيحة تامّة، فادّينا عنهم الواجب

وقد وجدنا امرأةً منهم مُسرّحة ولها بنتان وابُوهُمَا في قيد الأسر، وجعلتِ المرأةُ وبنتاها يتردّدُونَ الينا ويستَشفِعُونَ بسيّدِ الشُفعاء في فداء زوجها، فان لم يُسرّح من فضل مولانا المنصور بالله فلا سبيل لها لمرافقة القوم لبرّ الاسلام، وقد تعاظَمَ علينا الأمرُ حيثُ تعيَّنَ سَفر من عَداها من المسلمين من النسوة والبنين وآبائهم، فلم يسعنا الاّ استخلاصه من الأسر وجمعتُ الاصل بالفرع

وقد كان مولانا المؤيّد باللهِ أمَرَ بفداء مـن نجدهُ بيد غير الطاغية من المُسنّين ومثل هؤلاء القوم، وأذن لخديمه ان لم يكف المال المصحوب معه للغرَض الذي يَظهر في الوقت زيادةً على ما هُوَ مُعيّنٌ يأخذه مـن تجّار النصارى وإداؤُه على فضل سيّدنا نصره الله في سراحِ المسلمينَ وفِدائِهم من بلاد الكُفر، حَيثُ لم يكبر في عينه ما حَمّله خديمه من المال، وقد حصَلَت البرَكَـةُ وقضينا جميع الأغراض، وبقِي الوَفرُ مـن فَضلِ اللهِ تعالى وبركةِ مولانا المؤيّد باللهِ، اتقبّل اللهُ من سيّدنا عَمله وبلّغه في الدارين امنيته وأمَلَهُ!

وبعد الفراغ من قضيةِ الأُسارى المَرْهونين، جعلتُ اسأل عمَّن بقرطجَنَة من المسلمينَ الذين تحتَ اسر مُطلَق النصارى لنواصِلَهم مــن اكرام سيّدنا اعزّه الله حتّى لا يبقى احدٌ مِمَّن يقول: الا الهَ الاَّ الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم! من غير مواصلة سيّدنا ايّده الله، لان أَمرَ خديمه بذلك وحتَّم علينا فيه فكان مــن جُملَة ما ورد فيهم بُنيّةٌ بلغت الحُلم ملكها رَجلٌ مُسِنٌّ يخدمُ الجير منعها الوُصول الينا قبلَ ان يَسْمَع انَّ البحث عنها بقصدِ قَبْضِ الصَّدَقَــة، فلمَّا اقبلَت علينا جعلت تبكي وتَطلُب العِتق، وذكَرت انَّ احـدَ النصارى يُريدُ شراءَها مــن ضيفها ويذهبُ بها لبلادٍ بعيدة، وقد دعَتها رَبَّتُها للدخول في دينها فابت، وما زالت تراودُها فلم تحصل منها على طائــل، فشكرتُ فعلها غايــةً، وجعلتُ اذكّرها أمرَ دينها فوجدتها شادّة على دين الاسلام لا تنخدعُ ولا ترتاب واكثرُ جوابها: «اني لا اريد الاَّ دين حبيبي محمد صلّى الله عليه وسلّم» وهي تبكي وكل من بالدار من اخواننا المؤمنين يبكي لبكائها، وقد انتسبت لزاويةٍ من ناحيةِ تلمسان، فبعثتُ في الحال لحاكم البلاد، واستخبرته مع احدِ الفاريلية في مخاطبة النصراني الذي تحت أسره في فدائها، فاجابَ على مشورة زوجته، ثمَّ ذهبوا للزوجةِ يطلبونَ مساعفتها لزوجها في فِداء البنت، وقد اجابت لذلك مع المشقّة الفادحة

فحصلنا والحمدُ لله على المقصودِ من سراحها وأُضيفت للنسوةِ وأُجريت عليها النفقة

وكان أمر بحمل الأُسارى في مركب الكرَّة الحاضر بالوقت بمرسى قرطجَنَة المعيَّن للسفر عند هُبوب الريح المشرقيّة واصلاً بهم لقالص، فذهبنا لقائد المرسى عند تعيين سفرنا واكّدنا عليه في الاعتناء بالأُسارى وحملهم على الفور، لان باشدورهم في غاية الانتظار لقدومنا لقالص، ولا يمكننا الذهاب معه قبل ان يصل الأُسارى لهُنالك، فقال حباً وكرامَةً فالأَمر سهلٌ والأَشياء مقضية، وما نحنُ الاَّ في انتظار الريح الشرقيّة فلتَطِب نفساً من ذلك، فاننا مأمورونَ من عظيمِنا ببعث الأُسارى على الفور، ثم أَخذنا في استنجادِه في حمل النساء من الأُسارى بأَولادهم مع اخوانهم المؤمنيــنَ، وان لم يأْمر الطّاغية بحملهم لعدمِ علمه بهم

فقال: «لا سبيل الى ذلك لانَّ مركب الكرَّة مشحونٌ بالشلطاظ لا يُمكن حمل النسوة معهم بالكُليّة، لان الشلطاظ لا يفعلون خيراً قطُّ، فان ركبوا معهم فعلى كل يَحدُث في المركب بينهم وبين ازواج النسوة فتنةٌ وعيبٌ:»

فاستحسنتُ كلامُه وقبلتُ عُذره والحَثُّ عليه في كراءِ مركبٍ يحمل فيه هؤلاء القوم ويسافــرون تحت سنجق مركب الكرَّة الحامل للأُسارى ليسافر في أَمنٍ وآمـان، فاجاب لذلك، وبعثَ في الحالِ لصاحبِ مركبٍ كان حاضِراً بالمَرسى واكتراهُ بمائتين وخمسين ريالاً

فلمّا بَعثْتُ له بالمال ردّه علينا واقسَم بدينه المعوج لا يُؤدّى واجب الكراء الاَّ من ماله، فكثرتُ خيرَه ودعَوتُ له بالهداية، ثمَّ امَرتُ على الرجال وازواجهنَّ رجلاً من الشرفاء صاحِب مروءةٍ وعقلٍ وديــنٍ له خبرة بأُمورِ البحر وجعلتُ له كمانيَة بعد ان استقريتُ احوالَهم في الملبوس وجعلتُ لاضعافِهم ما يستر به عورته ودفعتُ للقيّم عليهم ما يستعين به على أُمورهم، وتركتُ الجميع في انتظار الهواء المساعِد لهم في العُبُور

وهُنالك شرعتُ في الكلام على المدينةِ وما هي عليه اجمالاً وتفصيلاً، فنقول:

هِيَ مدينةٌ في حجر جَبَل وقد استدار الجَبَلُ يميناً وشمالاً بمرسِاها، والمرسى متّصلة بديار المدينة وحُكمها في البُنيان حكمُ غيرها من المدُن الاصبنيوليّة غير انَّ ازقّتها ضيّقة وبُنيانها غير شاهقٍ، وقد اتَّصل بها من البرّ رباط يُشاكِلُها في الطول والعَرض، لانَّ ديارها دونه في العُلوّ، وبطرفي المدينة أَسبيطال لم يَكن مِثله في الكِبَر، ثمَّ الاتقان في البُنيان بالحجر الذي يضاهي الرُخام هو على شاطيء البحر والدار التي نزلنا بها هِيَ لاحد التُجار لم نرَ مثله في قومه قطُّ في اللين والبشاشة وحسن الخُلق والأَخلاق نسأَل الله تعالى ان يهديه للاسلام فقد تكرر مِنهُ الاكرام

ومن بعض اكرامه ترك أسيراً له يَخدِمُنا ويُباشرنا، ومنذ حللنا داره والأسيرُ لم تَفتُـر عبرته للاجتماعه باخوانه المؤمنين، فقد تجدَّدَ عليه من الشوق لاهله وبلادِهِ ما كاد ان يتفطَّر مِنهُ قلبـه، وقد انتقل من اليأس للطَمع، فَجعَل يلحُّ في الطلب ويتشفع بسيّد الخَلق في عِتقِهِ وفِدائه من قيد الأسر، ولم ازل أُواعدُه وأُمَنِّيهِ بأن يكون فداؤه على يد سيّدنا المنصور بالله، وعن قريب يفرِّج الله عنكَ مثل عدَّة من امثالكَ هُم منّا على بالٍ، فلم ينصِت لحديثنا ولم تطمئنَّ نفسه بوعدٍ، وقد كبُر عليَّ ان اخاطب النصراني بهذا مع ما له من الغِبطة، والبيـعُ مبنيٌ على المناقشة وفي مُخاطبة ضَيفِه بالبيـع مع ما تقدَّم من اكرامه ذلكَ قِلّة مروءة ولو اني بذلتُ له من الثمن ضِعفَ ما يُقتدى به غيرُه لكانت منقصة لهُ وتغطية على اكرامه ايّانا وجزمتُ اني لا اخاطِبه بذلك

فلمّا بَلغَ النّصراني ما حدَثت به في نازلة الأسير وتأخري عن الكلام فيه لهذا الأمر المذكـور جاء بالأسير وقال: «هُوَ مني هديَّة» وأَقسَمَ بدينِه انَّه لا يقبِضُ فيه دِرهَماً واحداً، فأَبيتُ ذلكَ وقلت له لا اقبله الاّ اذا رضيتُكَ في الثمن الذي تطلبُه، فقال: «اني اريدُ الوصول لبلادكَ وهُناكَ تحصل المُكافاةُ بالوقوف مَعَنَا في المسائـل التي تَعرِضُ لنا بالبربريَّة:» فهُناكَ قبلتُ هديته ووعدتُه بخير

واسم هذا النصراني ضُن اسروكن صلص(١) ومن الغد جاء احد القسيان بأسيرٍ تونسي وهُوَ مُسِنٌّ جِـداً، وقال: هو ايضاً هديَّة، واسمُ النصراني سنكيلطُ(٢) فجازيته بما يُناسِبُ من القول الحسن والصَرف مجبور الخاطر، وقد هيأ صاحِب المرسى بعض فلائك وجَعل بها بسوطاً من الفُرُش والقماش المرقوم والستور التي تظلِلُها من البركاضو الأبيض المرقوم بالذهب، وشحن بالشلاظاظ من البحريَة خمسة مراكب جميعها في غاية العَظَمة والضخامة، وانّهـم ما يقولونَ حال ركوبنا في البحر ومرورنا على قراصينهم واحداً واحداً

ولمّا قضى وَطَرَه من ذلك وَرَدَ علينا يَطلُبُ منّا المُساعَدَة لعُبور المرسى لنستوعِبَ أخبارَها ونعلم ما هي عليه ونَنظر قراصين الطّاغية وما بها من العَجَب، لان طاغيتهم أَمرهم بذلك فرجةً لنا وفرحاً كما أَمرهم بالعُبور لمخازنه المشتملة على آلة السُفن وما يتعلّق بأمور البحر فاجبناه لما طلب، وركبنا معه في الحال وعبرنا المرسى الأولى المتّصلة بالبـرّ المستديرة بسورٍ صاعدٍ من قعرِ البحر الى فوق الماء بقامة، والبابُ الذي يخرجُ منه للمرسى الثانيـة بين جبلين سدّوا بطرفي المضيق برجان بهما العسّة على التأبيد، فاذا جنَّ الليلُ يحملون سِلسِلَةً مـن احدِ البُرجين في فُلكِ البرجِ المقابل له فتُمكَّـن منه بما لها من الحركات، فتصيرُ السِّلسِلة مضروبة من البـرج الى البرج الذي يقابله زيادة في الحِفظِ والصون للمرسى، بحيثُ اذا جاءت سفينةٌ ليلاً لا يمكـنها الدخول مع وجود السِّلسِلة فهي بمنزلة السور في البحر وبعد عُبور هذا الباب المذكـور، انتهينا الى المرسى الكبرى فاذا هيَ كالصهريج قد احاطَ بها الجبلُ والنَمُ الذي يخرجُ منه البحر يقابله جبل في وسطِ الماء يحجُبُها من الريح، فهيَ في حِرزٍ آمنة من الفراتين في الفصول الأربـعة، ولها العددُ الكـثيرُ من المراكبُ مُرسّاةٌ، وكُلّما عَرجنا على مركبٍ من المراكب المذكورة وجدنا بها مـن البحريّةِ مُنضمّة لجبال ملتصقة بصواريه ما سَتَرت أشباحهم فضاء المركب وبسيطه، الكُلُّ يقولونَ أبيا راي مراكُش! يضجُّون بهذه الكلمة عشر مرات، ثـم يطلقون في اثرها العَدد الكثير مـن المدافع، وهكذا في كل مركبٍ مركب، ومعنى ذلك بالعربيّة الله ينصرُ سُلطان مراكُش!

وعند الأوبة صعدنا للسفن المذكـورة، فاذا هيَ من الدواهي العظيمة، وقد احتفل احد الرّياس اضيافتنـا بحلاوى وأشربة ومعاجِن، وبالَغ في الترحيب والمباشرة

(١) Don Arturo (?) González

(٢) Anacleto (?)

ولمّا نزلنا الى البرّ ذهبوا بنا لمخازن هِيَ على شاطيء البحر وقد استقلّ كلُّ مخزنٍ بنوعٍ من آلاة السُّفن كـلٌّ على حدته من لانطينات وقُلوع وصوارٍ وكراشطَة ثمّ بنيقة في غاية العُلوّ والطول والعرض، ومثلها بها مـن المعلمين النجّارة ما يزيدُ على المائة، ومخازن أُخر ما تزيدُ على المائة، وقد ابدعَ الطّاغيـة مخازن أُخر اضخم منها واصعدُ بكثير فهِيَ الى الآن لم تكمل بالبنيان، لان المخازن القديمة ضاقت عليهم

وهُنالك صهريج تُصنَع داخلها السُّفنُ الكبيرةُ العائلةُ وعند كمالها يَدخُلُ عليها البحرُ وتخـرجُ من الصهريج الذي صُنِعت به، وكذا اذا انصدَع احد المراكب وارادوا اصلاحه يدخل لهذا الصهريج بالمادّة، فاذا حَصل به يسدّ بَعْده باب البحر بحركاتٍ مُعيَّنَةٍ على سدِه وتبقى السفينةُ داخل الصَّهريج عائمة ثمّ يستعملونَ الاطرنبات لفراغ الماء من الصهريـج، وكلّما نزل الماء نزلَت معه السفينةُ حتّى تصل للفراش المعدّ لها بقعْر الصَّهريج، فيأخـذ المعلّم في عِلاج ما انصدَع منها، وعند الفراغ من عمله تُفتَح طاقتين في صدر الدَّفتين بحركاتٍ ايضاً فيَدخُل منها الماء للصَّهريـج فيعمُّ منه الثُّلث، ثمّ بعد ذلك تُفتَح الدَّفّتان بهندسةٍ فتقومُ السفينةُ وتخرجُ للمرسى عائمة آمنة على ما ينبغي

وللمدينةِ قَصَبَةٌ من الشقّ الآخر مُشيَّدَةٌ على قلّةِ الجبل مُطلّة على المرسى الخارجة عن الأُولى

وعند انقضاء الغرض ممّا كُنّا بصدَدِه من أُمورِ اخواننا المُؤمنين استَعْملنا السير بعد التَّشييع مَعَهم والوعد بما اتَّسنا به انفسهم من فضلِ سيّدنا نصره الله وامداده وذكّرناهم أُمور دينهم ووعظناهم وارشدناهم لتحسين ظنّهم باللهِ ولا ييئسوا مـن روحِ اللهِ! والفرجُ مقرونٌ بالصَّبرِ، وعمّا قريب يُفرّجُ الله عنكم! وانصرفنا عنهم قاصدينَ قرية بنيلية(١) عن خمسة عشر ميلًا

الخبرُ عن مدينةِ بنيلية

قريةٌ صغيرةٌ يسكنها الفلاحة مـن قرطجَنّة حرّاثة وغيرهم من رُعاةِ ماشيتهم، وليس لها ما يدلُّ على ان لها بالاً في البناءات ولا في غير ذلك، والنصراني الذي كُنّا نزولاً بداره بقرطجَنّة دارٌ هُنالك معدَّةٌ لنزولـه حين يَرِدُ عليها ليتعاهـد ماشيته وحرثه، لانّه من أعيان الفلاحةِ زيادة على التجارة المعروفة لهُ، فقدّم الاعلام لاصحابـه وأمرهم ان يحتفلوا بالملاقـاة ويهيئوا داره التي هُنالك ينقل ما فيها لمحلّ آخر، واستصحبنا للقرية المذكورة حامـلًا ما يستحسن ويضاف من الحلاوى والفواكه المستعملة من السُّكّر وشفّع كرامته بالثانية

ومن الغدِ تشيّع مَعنا وانصرف، وكان رواحُنا من القريةِ لمدينة لوركـة(٢) عن اثني عشر ميلًا

الخبرُ عـن مدينةِ لُوركة

مدينةٌ حضريَّةٌ كأهلها وقد اعطُوا نصيبهم من الحُسن واليسار، ولهم محبةٌ كبيرةٌ في الاسلام، والمدينة شقّها نهرٌ زادها حُسناً وبَهجَةً، والديارُ صاعدة مـن مجرى الوادي في غاية الاتقان في البُنيان، وللغرف سراجيبُ مُطلّةٌ على النهرِ مـن الجهتين، وهذه المدينة مشيَّدَةٌ في حُجرِ جبلٍ شاهقٍ وقـد صعدت الديار لصعوده بنحو الثلث مـن صعوده، ثمّ بقُنّته قصَبَة المسلمين لها ابراجٌ عديدةٌ متلاشِيَةٌ ولم يبقَ منها الاَّ الجدار، غير أنَّ بوسط القصبة برجاً لم يحدث به تغييرٌ، مدارجه أربع

(١) Penilla قريةٌ صغيرةٌ من عمالة مرسية

(٢) Lorca مدينةٌ من عمالة مرسية عدد سكانها ما يقرب من ٨٠٠٠٠ لها شهرة بمحصولاتها الزراعية

وستون ينتهي في عُلوّ القباب أربعة ما زالت على ما تركها المسلمونَ عليه رَحِمَهم اللهُ، وبقيَ ايضاً اثر الديار التي كانت بها الى الآن، وكذا المطافي، الذي يجتمع فيها ماءُ المطر في غاية الطول والعرض، والوادي المذكور محيط بالجبل من ثلاثة ارباعه على الاستدارة، قيل انها بقيت بيد المسلمين بعد استلاء الكفرة على المدينة مُدَّةً لحصنها اوقضاء الله لا يرده شيء.

اقمنا بهذه المدينة يومين لتراكم المطر وتتابع السيل، وفي اليوم الثالث سرنا قاصدينَ مدينة بليس الروبيو(١) عن أربعة عشر ميلاً

الخبرُ عــن مدينةِ بليس الروبيو

مدينةٌ بقُنّةِ جَبَلٍ عبرنا اميالها بطريق جميعها بأوْدِية وشعابٍ بين جبال في غاية العُلُوّ، قد استوعبها اشجارٌ من الصنوبر، قيل ان الكَرَاشطة التي بهذه الجبال هي كافِيَة لاهل ترطاجَنَة فيما يتوقفونَ عليه من الالوح، لحقنا بها بين الظُّهرين، وحُكْمُها حكم التي قبلها في الحضارة، واكرام الوارد عليهم من ذوي الاقدار

اقمنا بها بقيّة يومنا، ومن الغَدِ كان رواحنا لمدينة شربال(٢) عن تسعة اميال

الخبرُ عــن مدينةِ شربال

مدينةٌ صغيرةٌ بالنسبة لما قبلها، ديارُها غير شاهِقَة في البُنيان، واهلها للباديـة اميَل، والمدينَةُ قــد استوعَب نواحيها أجِنَّة، نزلنا بخيار ديارها، وحَضَر لملاقاتنا حال الوُرُود عليها ووقتَ التشييع خلقٌ كثيرُ الكلّ يُظهِر من البشاشَةِ والمباشرة ما فيه زيادة على ما تقدّم

ومن الغد سرنا قاصدين كلين دِبَاصا(٣) عن اثني عشر ميلاً

الخبرُ عــن مدينَةِ كلين دبَاصا

مدينَةٌ اصغَرُ من التي قبلها غير أنّها حضريّة وعلى قُرْبٍ منها وادي وارجاؤها ارضُ سَقْيٍ، وبها أجنّة عديدَة اثمارها مختلفَة المطاعم

لحقنا بها بين الظهرين عن اثني عشر ميلاً ثمّ رحلنا الى مدينة باصا(٤)

الخبرُ عــن مدينَةِ باصا

هِيَ مدينَةٌ كبيرةٌ جداً وبها عيونٌ عديدة كثيرةُ الأشجار، أجِنّتُها لا تُحصى ولا تُحصَر، اكثرُها بعد العِنَبِ أشجار التفّاح، والمدينةُ في بسيطٍ من الأرض، واهلها بين الحَضَارة والبداوَة

ومنها كان رواحنا لمدينة وادآش(٥) عن واحد وعشرين ميلاً

---

(١) Velez-Rubio بلدةٌ من أعمال المريّة اشتهرت بمعادن الحديد والرصاص

(٢) Chirivel بلدةٌ من عمالة المريّة

(٣) Cullar de Baza قريةٌ تابعة لقضاء بسطة من عمالة غرناطة

(٤) هِيَ بسطة Baza : بلدةٌ من عمالة غرناطة كان لها شهرة في مملكة غرناطة العربيّة

(٥) مخط : وادس، هِيَ وادآش Guadix بلدةٌ مــن مقاطعة غرناطــة اشتهرت في عهد العرب بمن نبغ منها مــن الأدباء والعلماء

الخبرُ عــن مدينةِ وادش

مدينةٌ مشيَّدةٌ بين جبالٍ، فهي في عمقٍ من الأرض وقد احاط بها زياتين وكروم لا تنحصر عدداً، واهلها اهلُ بادية محض، وبلادهم جميعها سَقْيٌ، لانَّ الأرجاءَ التي بَقِيَت فيها هذه المدينة مُتَّسعة، غير أنَّها احاطت بها جبال شواهق ومنها كان رواحنا لمدينةِ ازنا ليوص(١) لحقنا بها عن واحد وعشرين ميلاً

الخبرُ عن مدينةِ ازناليوص

مدينةٌ صغيرةٌ مشيَّدةٌ على ربوةٍ وحُكْمُها حُكْم التي قبها، غير أنَّ هذه مشيّد قبْلها وبعدَها في جميـع ارجائها عدَّة أبراج للمسلمين لحراسة غَرْنَاطَة عبرناها بين جبالٍ وخنادق

ومن الغَدِ سرنا لحاضرة الحواضر مدينة غَرْنَاطَة اعادها الله وغيرها دَارَ إسلامٍ، عن ثمانية عشر ميلاً

الخَبـرُ عن مدينـةِ غَرْنَاطَـة

لمَّا قرُبْنا منها ولم يبقَ بيننا وبينها الاَّ نَحْوَ مسافَتين لحقنا ارضاً مُنبَسِطَةً حَسَنَةً استوعبها أجنَّةٌ وأغراسُ زياتيـن وكُرُوم وجميعُ الفواكه على اختلافها، كُلُّ بُستانٍ له دارٌ ذات منازه ومقاعِد، وبها وردت علينا خيول أعيان المدينة بعثَ بها الحاكم للملاقاة، وعند الاشراف على المدينة برزَ لملاقاتنا خلقٌ كثيرٌ لا يأتي عليهم الحَصْر كأنَّهم جرادٌ منتشرٌ خاصةً وعامَّةً، وكان يوماً مشهوداً، وقدَّموا لنا اكداشاً ركبناها واحدَقَ بنا القوم وذهَبْنا معهم في ازدحامٍ عظيمٍ جميعُهُم مُعْلِنٌ بنصر سيّدنا أيده الله، وعبرنا المدينة في هيئةٍ لم تُعْهَدْ لمن قبلنا قطُّ، فاذا بشراجيب الديار مملوءة بالنساء والصبيان ولهم ضجيجٌ فمنهم من يشيرُ بيدِهِ ومنهم من يُطأْطِي.، ثمَّ بوسط احدى الشوارع خصَّتَان واحِدَةٌ فوق أُخرى، وقد استـدار بها شُبَّاك من الحديد وبأعلى قوائمه فنارات من الزُّجاج تزيدُ على الأربعين، وقد انتهينا الى بابٍ كبيرٍ جداً مشيَّدٌ من الحجر في غاية الإتقان، فسألْنا عــن هذا الباب الذي هو بطرف المدينة وما وجْهَ خروجنا عنه، فكشف الغيبُ انَّه باب المدينَة الغَرْنَاطِيَّة الحاضرة الحسنَة المُتَحَسِنة الغنية لشهرتها في برِّ العجم والعربِ عن التَّعْريف بها، وذكر بعض اوصافها، فاذا:

هِيَ من المدُن العظام لم نَرَ مثلها في جميع ما رأَيتُ بالبلاد الاصبنيوليَّة اذ حِليَتُهـا مُخالفة لحِليَـة غيرها في بُنيان الدِّيار ولا في الشوارع، اذ بُنْيانها باقٍ على حاله الاسلامي لم يحدث به تغييـرٌ كغيرها من المدُن، فهِيَ أقربُ شَبَهاً بفاس في بُنيانها وجريان الأوْدية بجدراتها، ثمَّ القناطر المضروبة عليها وما اشتملت عليه الديارُ من الخِصَص والتَّرليج والدرابيز من اللَّوح المستديرة بمباحات الطَّبَقَةِ الثانية المشرفة على صَحْنِ الدار والبيوت والغُرَف والسقوف والابواب، الكُلُّ مُشاكل لمدينة فاس، وكان بُنيان بعض الدُور منها على ربوة وجلّها على بسيطٍ من الأرض، فبُنيـان الديار بين خَفْضٍ ورَفْعٍ كما شاكلتها ايضاً في الهرم، ولا شكَّ انَّ اهلها لا يعتنون بتمويه الديار بالجير لا داخلاً ولا خارجاً ولا يستعملـونَ الجبص المبهج للبُنيان، ومع ذلك هِيَ في نفسها بالخصوصيَّة افضلُ واحسنُ وابهَى وابهجُ من غيرها المشتمل على النَّقشِ والنحتِ في الحجارة والتمويه بالذهب والألوان، وفي مثْلها يَستَشهِدُ ذو الانصاف بقول من قال:

انَّ المَليحَة من تزين حليَها * لا مَنْ غَدَتْ بحِليها تَتَزَيَّن

---

(١) هِي: حصنُ اللَّوز، ويسميها الاسبان: Iznalloz

وقد شقها نهران احدُهما دارو(١) والآخر شنيل(٢) غير انّ شِنيلا أُخذ منه ساقيتان من أعلى مجـراه قُرب اتصاله بالمدينة، كُلُّ ساقيةٍ قدر الوادي المتوسط، ثمّ ساقيةٌ عن يمين مجراه، والساقيةِ الأخرى شماله، فالناظر اليه يُشاهد ثلاثة أوديةٍ، وقد ضُربت على الوادي الاصلي الذي هو الوسَط قنطـرةٌ من خمسةِ أقواسٍ في غاية الحُسن، الاّ انّ عُلوّ الأقـواسِ متوسطٌ ليس بعُلوٍ فادحٍ ولا بخفضٍ منبسط

وفيما بين الوادي والساقيةِ التي من ناحية المدينة مساحـةٌ طولُها نحو الالفي خُطوة وعرضها ما تمّ به عشرونَ من الاكداش في صفٍ واحدٍ، وبوسَط هذه المساحة عدّة خِصَصٍ استوعبَ طول المساحة المذكورة يَصْعَدُ الماء من جميعها قدر ثلاثِ قاماتٍ وعُلوُّها من الأرضِ ثلاث قاماتٍ ايضاً، وبطرفي عَرْضِ المساحة مُسطّبَاتٌ من الحجر يميناً وشمـالاً مُسنِدَة على ستائر الوادِيَين من اوّلها الى آخرها يجلسُ عليها اهلُ المدينة كلّ عشيةٍ نساء ورجالاً للاستراحة والنزهة ممّن لا قُدرة له على جُعل الاكداش

وامّا اهلُ الرَّفاهيّة فيركبونَ الاكداش رجالاً ونساء وصبياناً يعبرون عليها تلك المساحَةِ من احدى الجهتين حتّى اذا انتهتِ المساحة بالعُبُـور يَرجعُونَ باكداشهم من الجهة الأُخرى، والخِصَصُ المذكورة حائلة بين الطَّرقين يميناً وشمـالاً حال العُبُـور يستمرُّونَ على ذلك الى الغُروب ويذهب حينئذٍ كلٌّ لسبيلهِ غنياً كان او فقيـراً، هذا دأْبهم ودَيدنهم في كلّ عشيةٍ في الفصول الأربعة ما لم يمنعهم المطرُ عن الخروج لهذا المحل

والوادي المُسمّى بشنيل يجدُ به الانسان نشاطاً وبَسْطاً بالخاصيّة، وقد حاز من الحُسْن ما لم يَكُـن بغيره لعذوبة مائه وطيب هوائه وبسطِ أرجائه المُستوي مع الأرض من غير حافـةٍ ولا جُرفٍ في جميعـه، وقد شاهدنا بشطِّه من المنازه والمقاعد ما لا ياتي عليه حصرٌ، وبالقُرب منه ديار يُستَعمَلُ فيها الكاغدُ لافتقار صانعـه لنواعير تدورُ بحركاتِ الماء اذ هيَ اكبرُ آلةٍ معتبرة في عَمَله، والدارُ المتّصلة بالوادي خارجٌ منها صارية تدور بدوران النّاعورة المذكورة وبها أرياشٌ ترفعُ مرزم وتَنحطُ بعنفٍ داخل مهراس من الحجر، ولـكلّ مهراسٍ ثلاثة مرازم لهَشْمِ قِطَعٍ من خِرَقِ الكتّان البالي الذي لا بال له بعد قَرْضِه بالمِقراض، وتنقيعه بالماء يستمرُّ عليه العَمَل، فاذا تلاشى يُلقى عليه شيء من الجير ويمكُثُ في مائه نحو نِصْف شهر، ثمّ يُنقَلُ لصهريجٍ ثانٍ متوسّطٍ وقد كَمُلَ عَمَله، فهُنالك يُوتى بالقوالب ولا يدخل القالب للصّهريج الاّ بعدَ تحريكه بعُصيٍ ليقَع المزجُ بين اجزاء ما في الصهريج، لانّ الماءَ هو المعينُ لجريان ما خالطه على بسيط القالب

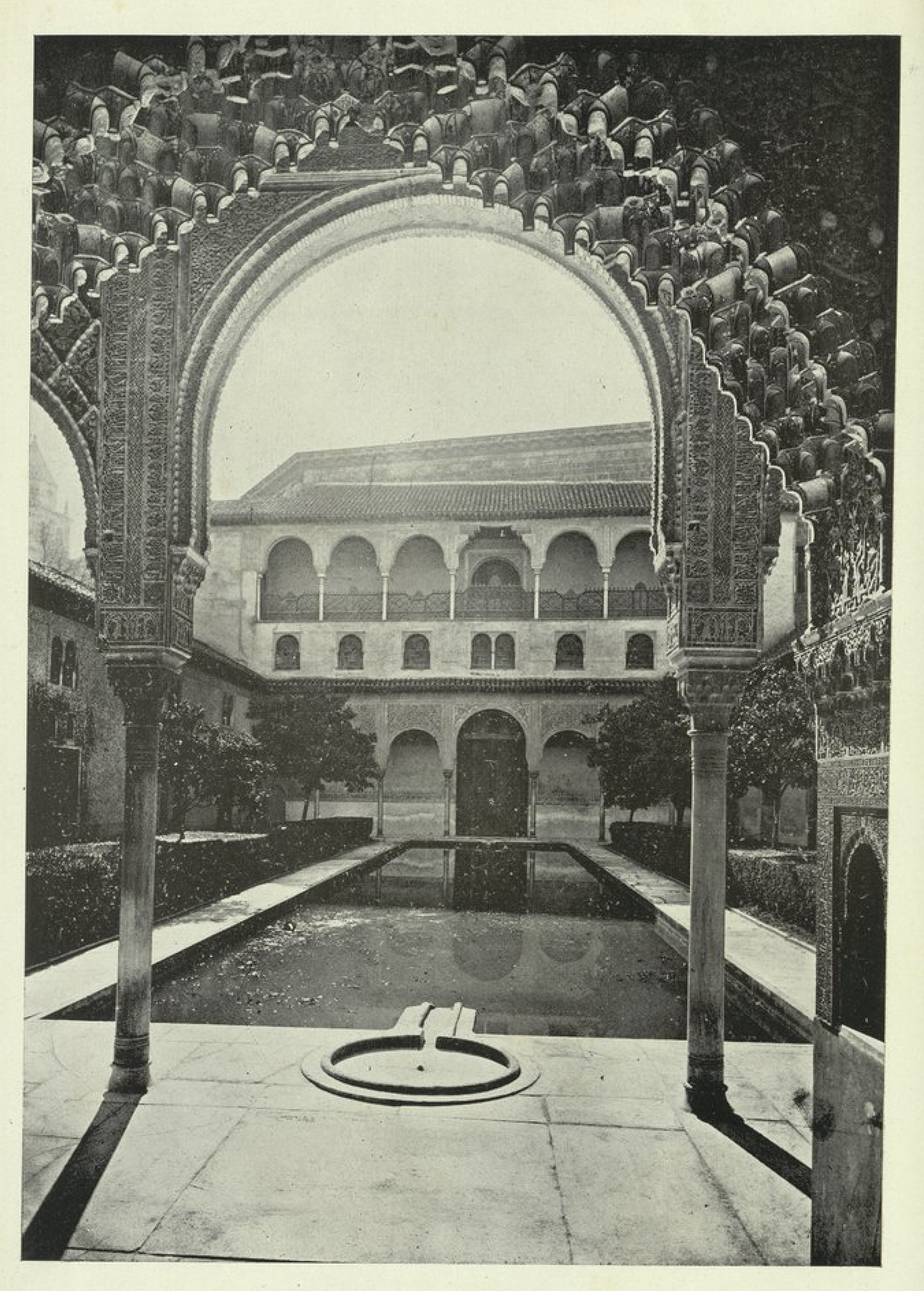
وكيفيّة القالب: أربع مَسْطَرات قدرها في الطول والعرض قدر الورقَة من ايّ نوعٍ كان، والمَسْطَرات غِلظها ما دُون الاصبع مُتّصلة الاطراف من الجهات الأربع، والفُرجَة داخلها سلكٌ رقيقٌ جداً ومُمَكّـنٌ بطرفَي المسطرتين سلكٌ الى جانب سِلكٍ حتّى استوعب الفُرجة المذكورة، ثمّ أربع مساطِر أُخر مُتّصلة باطرافها الأربـع تمكّن بالتي تحتها بتحكيمٍ مُتقن هيَ مرتفعةٌ عنها بقدر نصفِ الاصبع جُعلت لامساك ما وضع في القالب على بسيطِه ليأخذ منه القَدْرُ المحتاج، تُلقى على القالِب بسُهُولةٍ وتُنزَع منه بلا تَعبٍ ومدّة اقامتها به شيء يسيرٌ بحيثُ تُمكّـن منه، ثمّ يُدخل القالب في الصهريـج وعند خروجه تقلَع وتُلقى على قالبٍ آخر ثمّ تُزال عنه وتُركّب بقالب آخر وهـكذا

والسِّرُّ في نسج بسيطِ القالب بالسّلك لانفاذ الماء منه لأسفل القالب ولا يبقى على وجه القالب الاّ ما خالطـه الماء من العمل

---

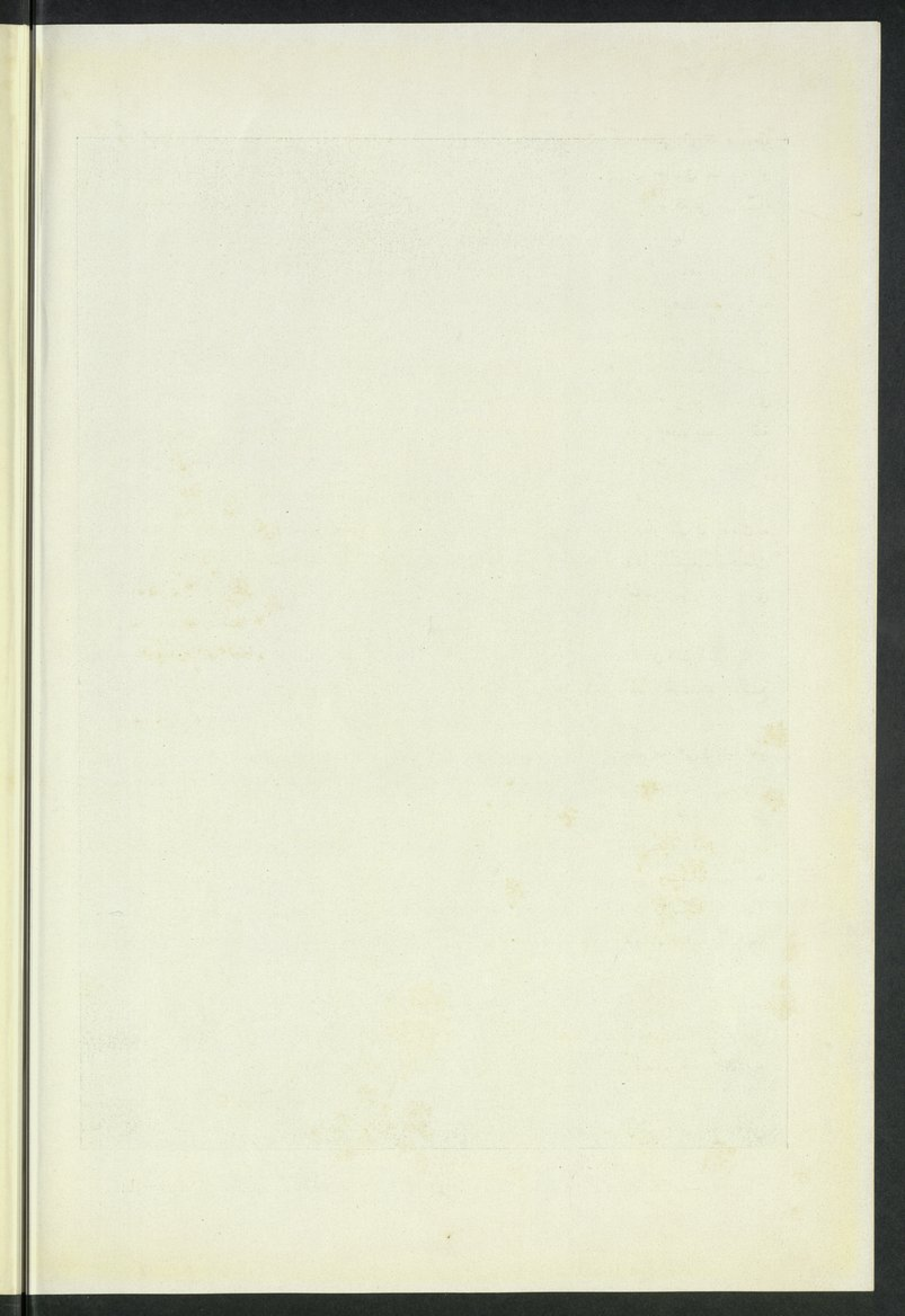
(١) Darro

(٢) Genil



Granada.—Alhambra: Patio de los Arrayanes.

غرناطة—الحمراء: باحة الرياحين



وكيفية ازالة الورقة عن القالب القاوُه على زُيوف غليظةٍ من الصوف، ثمَّ يُرفع القالب بهوْنٍ فتبقى الورقةُ مبسوطةٌ على الزّيف، ثمَّ يُلقى فوقها زيفٌ آخر وهكذا، فتَنْشَف الزُيوف ما بالورق من البَلَل ثمَّ يُلقى على حبال في الظِل يوماً او يومين ويُضمّ بَعضُه لبَعض، ثمّ تُغمَسُ في ماء طُبخ آذان البَقر فيه، فهُوَ بمنزلةِ التَّغرِيَة له وتُنشر كلُّ ورقةٍ على حِدَتِها، ثمَّ بعدَ يُبسِها يَمرُّ عليها بحجر مبسوطٍ يصقلها ويطلق منها بعض التَّكميش الصادر من تكرار العمل عليها

ومن هذه الدار كان عُبورنا لعدَّة مساجد: فالاوَّل منها وهو الاكبر، لهُ خمسُ بلاطات من كلِّ جهَةٍ من الجهات الأَربع، وبوسطه بَراحٌ بُنِيَت فيه قبَّةٌ مُثَمَّنةٌ محمولةٌ على سواري مُثمَّنةٌ ثمانية، وبين كلِّ سارية والتي تَليها قوسٌ في غاية العُلوّ، وما تحتَ الأقواس شبَّاكٌ مستديرٌ بالسَّواري الثمانية، والسَّاريَة الواحِدَة من الثمانية عرضها ستة عشر شبراً من كلِّ وُجوهِها الأَربعة وما بين الساريَةِ والتي تقابلها المنعَقِدُ عليها القوسُ المذكورُ ثلاثة وأربعون قوساً، وامّا الطول بالتقريب فخمسُ قاماتٍ، والأقواسُ والبلاطاتُ وسواريها الخارجة عن القبّة المذكورة في العُلوّ والضَّخامة واحِدٌ، غير انَّ سواري البلاطات ممَّا يلي الأَرض قدر قامَةٍ على الصِفَة في التربيعة، ومن أعلا القامة سواري أربعة مُلوِيَةٌ مُتَّصِلٌ بعضها ببعضٍ، والقبّة الموصوفة هِيَ محلُّ مُصَلاهم، وقد استوعبها تصاوير وصُلبان وصناديق الموسيقى، وقد مَوَّهوا جميعَها بالذَّهب وبها من الحِسَك الفضيَّة والذهبيّة عددٌ كثيرٌ مع ما اشتملت عليه من الثُريّات والمصابيح الفضيَّة والذهبيّة والبلوريّة

ثمَّ عَبَرنا مساجد أُخر على الصِفَةِ في بعضِها، وبعضُها باقٍ على البناء الاسلامي، وكذلك الديار جلّها لم يحدث به تغييرٌ بل كلّها وواديها المارُّ بوَسَطها بعضهُ مُستتر بالبناءات الذي فوقه ديار وحوانيت وازقّة، وبعضه مُنكَشِفٌ له محفظات قدر القامة فما دون، فمن احد جدور نواحيه الدُور صاعِدات من مجراه، لها شراجيبٌ وبروز خارجَة من اسوار الدّيار مبني عليها ابها. كالصَّقالة مُطِلّةٌ على الوادي لها درابيز

وهذه الصَّقالة استوعبها قصاعٌ مغروسٌ فيها اصنافُ النُوار، فالناظرُ لسور الديار يشاهِدُ بُستاناً في قائم السور ويقابله من الديار مثلُه، والوادي بينهما، وفي مجرى الوادي جعلوا دارَ الدَّبغ للجلدِ هِيَ من عهد الاسلام، ثمَّ بالقرب منها موضعٌ مستَقِلٌ لصنع الحرير، واهلُ المدينة جُلّهم يستعملونَ نسجَ الحرير بركاضو فما دُونَه

والمدينةُ هِيَ في نَفسِها مُسنِدَةٌ على جَبَلٍ وبقُنّةِ الجَبَلِ القصَبَة التي كانت لملوك الاسلام رَحِمَهم الله، هِيَ في غايةِ العلوّ والضَّخامة مكتوب فوق قوسِ الباب بخطٍّ مشرقي في غاية الحسن والاتقان ! بسم الله الرَّحمان الرَّحيم وصلّى اللهُ على سيّدنا محمد وآله وصَحْبه وسلّم! أَمرَ ببناء هذا الباب المُسمّى ببابِ الشَّريعَة اسعدَ اللهُ به شريعةَ الاسلام كما جعَلها باقِيةً على الايام! مولانا أمير المُسلمينَ السُّلطانُ المُجاهِدُ ابو الحجّاج بن يُوسُف بن السُّلطان المقدَّس ابي الوليد بن نَصْر ادامَ اللهُ نصره وخلّد في المجاهِدينَ جلالَتَهُ وفخرَهُ، وكان الفراغ من بنائها بشهر رمضان عام تِسعَة واربعينَ وسبعمائة! ثمَّ بعدَها طريقٌ مُرَصَّفَةٌ بين سُورَين نافِذَة لباب مثل الاوّل في العُلوّ والضَّخامة والجِدّة والخطِّ المرسوم فوقَه، غير أنَّ الكِتَابة افتتحها : ! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسمِ الله الرَّحمان الرَّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصَحْبه وسلّم تسليماً، انّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليَغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . . . ! ثمَّ يتلوه في الاوّل حرفاً حرفاً والتاريخ واحدٌ

وبعد الباب براحٌ في غاية البَسط ينتهي الى سور ابراجُه في غاية الضَّخامة، وهذا السُّورُ ينحدِر بانحدار الجبل ويصعَدُ بصعوده، وعن يمين هذا البَراح سورٌ مستديرٌ من الحجر المنجور، وبجنبه ديار ملوك الاسلام رَحِمَهم اللهُ، اشتملت على قصور وقِبَاب وغُرَف ومقاعِد وفيها عجائب على ما وصفناه من قبل، وزيادة على ذلك كلّها من عمل النَّجار والجَبّاس والتَّرليج والتسطير والقَضيب والتشجير والتوريق

وقد اشتملتِ الخطوطُ على آياتٍ واسجاعٍ واشعار، فالآيات : ! اللهُ خَير . . . وهو أرحم الرَّاحمين! ثمَّ اوما توفيقي

الاَّ باللهِ عليه توكَّلتُ واليه أُنيبُ، ثمّ ا نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبٌ وبشِّرِ المؤمنين! ثمَّ اعزٌّ لشرف الأَعصار وفاتِحُ الأَمصار ابي عَبدِ اللهِ فخر بني النَّجار!

وعن يمين مدخل القُبة من ناحية الصَّحن رُخامَةٌ مرقومةٌ تقابلها اختها مكتوبٌ على الأُولى:

كُلّ صُنعٍ اهدى اليَّ جَمالَـهْ وحَبانـي بـهـاءهُ وكَمالَـهْ
فاذا مُبصِـرٌ تأمَّـلَ حُسنِـي اكْـذَبَ الحُسن بالعيان خيالَـهْ

ثمَّ في مقابلتها:

شَيَّدَتني يَـدُ الإمام ابـن نَصر حَرَسَ اللهُ في الملوكِ جَـلالَـهْ
ودَاعَ عُلاهُ في العزّ ما اطلـع الأفـق شمسـه وهِـلالَـهْ

ثم بمُقدم الأَبواب الثالثة النافِـذة للقُبَة الثانية رُخامات ايضاً اشتملت على رَقم ونَقش بالذهب، ثـمَّ الخطُّ ايضاً بالذهب لفظه:

رقمتْ أنامِـل صانِعي ديباجـي مِـن بعد ما نظَّمت جواهر تاج
وحكيت كرسي العروس وزدتهُ انّـي ضمِنتُ سعـادَةَ الأزواج
من جاءني يَشكُو الظَّما فَمَوْردي صرف الزلال العَذبِ دون مزاج
فكأنَّني قوس الغمَام اذا بـدا والشمسُ مولانـا ابـو الحجَّاج
مَلِكٌ تَدفَّـق بالمواهِبِ كفُّهُ للسَّائلين تَـدفُّـق الأَمـواج
لاَ زالَ مَحرُوس المَهَابَةِ ما غدَا بـيـتُ الالهِ مثابَـةُ الحُجَّاج

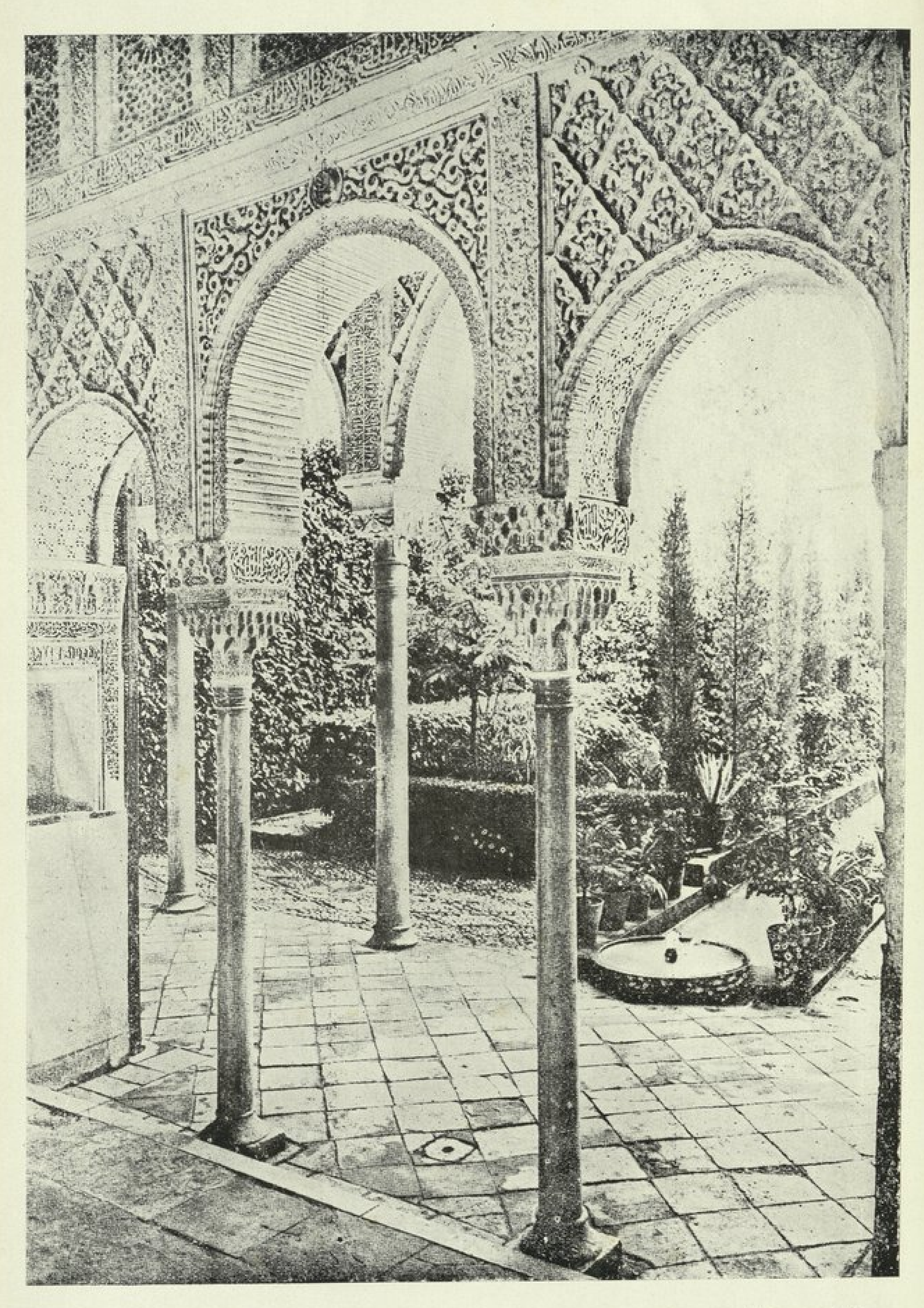
ثمَّ القُبَةُ المقابلةُ لها هِي التي هدَّها الكافِرُ ولم يبقَ لها الاَّ الباب المقابل للصَّحنِ

وطولُ صَحنِ القصر خمسٌ وستون خُطوَةً والصهريجُ الذي بـه دُونَهُ في الطُول بيَسِيرٍ، ومن الجهتين خريجان مـن الرُّخام طُولهما كطوله وعُمقُهما دون شبر يغرس فيهما أَصناف النوار، ثمَّ بجنبِ هذا القصر قصرٌ ثانٍ اشتمل على ثلاثة قِباب والمباحات الدائرة بالقِباب محمولة على مائة وثمانية وعشرين سارية مـن الرُّخام، ثمَّ بطرفي صحن القصر قُبَّتان كُلُّ واحِدَة منهما محمولَةٌ على اثني عشرة سارية من الرُّخام، وهتان القُبَّتان لا يُرتفق بهما وانَّما هُمَا للزينَة فقط، وسقفهما كنِصفِ نارنجة بالتسطير المموَّه بالذَّهب

وصفةُ القُبَة الواحدة مـن الثلاثة هِي في نفسها سِيتِّينيَّة غِلظ سُورها تِسعَة اقدام، ولها ثلاثة ابهاء في كُلِّ جهةٍ مـن الجهات الثلاث، كُلُّ بَهوٍ له ثلاثـة شراجيب يميناً وشمالاً وصدراً مُطِلَّة على البُستان المحيط بالدار من خارج بثلاثة أَرباعها الشَّامِلَة للفواكه وأَصناف النوار

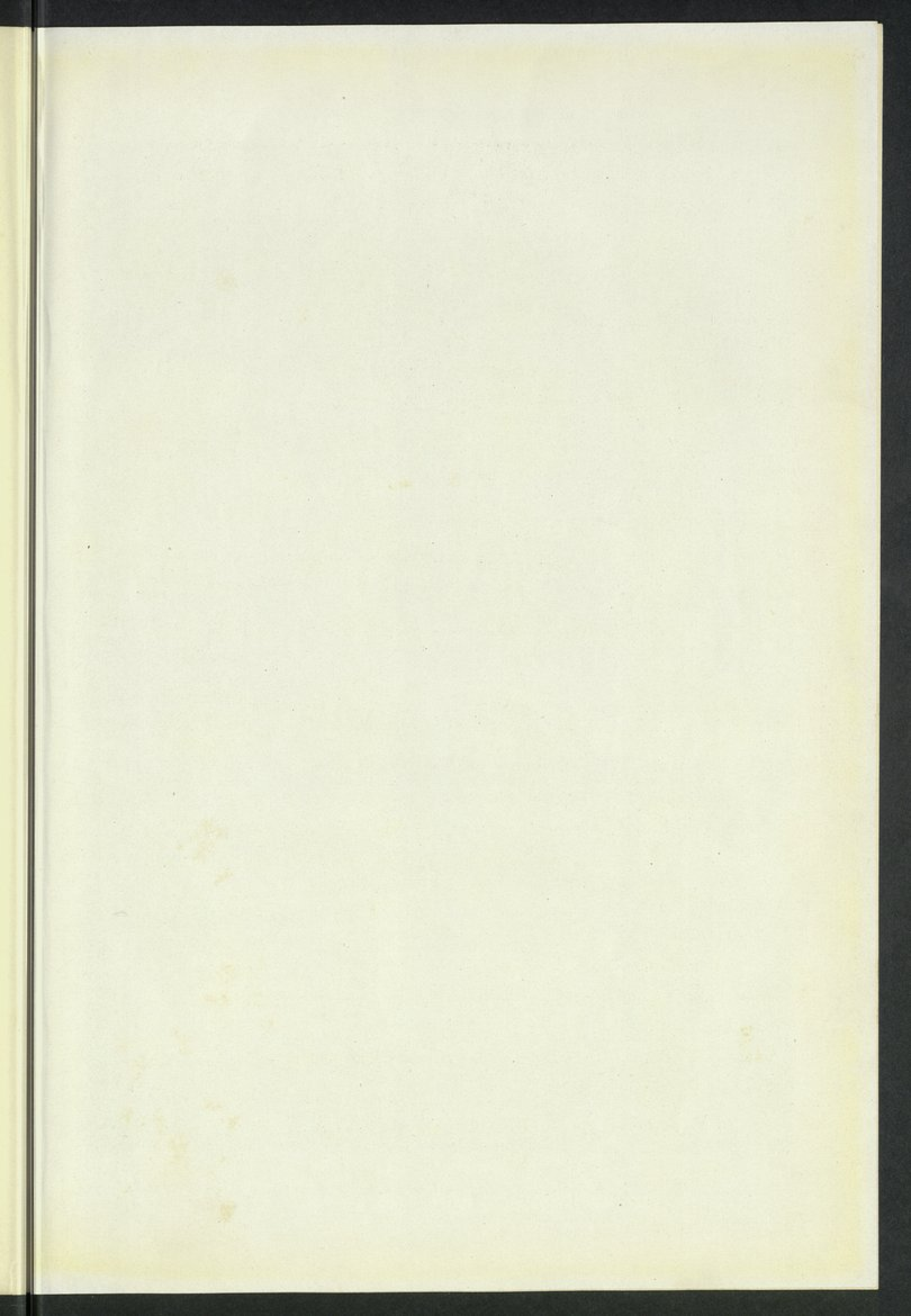
وهذا البساتين فيها مقاعِدٌ عديدةٌ وصهاريجُ وخِصَصٌ يصعَدُ الماء فيها من الانابيب للهواء بعُلوٍ فادحٍ، وقد استوعب الابهاء التسعة داخلًا وخارجاً ودائـرة القُبَة من أرضيّتها الى السقف ما تُحار فيه العقولُ مـن عمل الجبَّاص والنجار والرخام المشتمل على التشجير والتَّسطير

وامَّا الخطُوطُ المشرقيَّة والكوفيَة فوق هـذه الآزر الى السقف فشيء يكلُّ الواصِفُ عـن بعض بعضِهِ، ففي البهو الأَوَّل عن يمين الداخل . النَّصرُ والتَّمكينُ والفَتحُ المبينُ لمولانا ابي الحَجَّاج أمير المؤمنين! مُكرَّرٌ ثلاث مرات، ثمَّ البهوُ الثاني اعزٌّ لشرف الأَعصار وفاتِحُ الأَمصار لمولانا ابي عَبدِ اللهِ فخر بني النجَّار! ايضاً ثلاثاً



Granada.—Generalife: Jardín y Galería (Arcos).

غرناطة—دار جنّة العريف : بستان، وعقود وحنايا فنيّة



ثمّ البهو الثالث «النصرُ والظُّهور، على امَدِ الدُّهور، لمولانا ابي الحجّاج المؤيَّد المنصور» مُكرَّرٌ ايضاً ثلاثاً

ثم الابهاء الثلاثه: البهو الذي بصدر القُبَّة

تحييكَ منّي حينَ تُصبِحُ وتُمسي ... ثغور المنى باليُمْن والعزّ والانسِ

هِـيَ القُبَّةُ العُلْيَا ونـحـن بناتُها ... ولكن ليَ التفضيلُ والسَّعدُ في جنسي

كساني مولايَ المؤيَّدُ يوسف ... ملابسَ فخرٍ واصطناعٍ بـلا لَبْسِ

ثم في الثاني

فقـتُ الحسان بحليتي وبتاجـي ... فهوتْ اليَّ الشهبُ فـي الابراجِ

يبدُو اناءُ الماءِ فِـيَّ كعابـدٍ ... فـي قِبلة المِحراب قـامَ يُناجِ

ضمِنت على مرّ الزمان مكارمي ... ريُّ الامـام وحـجَّـةُ المُحتاجِ

ثم بالثالث بما كان تتميماً لما قبله:

فكأنَّني استقريتُ آثـار النّدا ... من كـفّ مولايَ ابي الحجّاجِ

لا زال بـدراً في سَمَاءِ لائحـاً ... ما لاحَ بَـدْرٌ في ظَـلامِ الدَّاجِ

وبه مَدَى الايام اشدو في الوَرى ... فُـقْـتُ الحِسان بحِليَتي وبتاجِ

وفيما بين هذه القُبَّة الموصوفة وصَحْن القـ[ـصـ]ـر قُبَّةٌ على شَكْلِها في الابهاء والنقش والتمويه الى غير ذلك ممّا اقتصرنا، عنه وبدائر صحنها مكتوب:

انا الروضُ قد اصبحتُ بالحسن كاسِيًا ... تأمّـل جمالي تَسْتفِد شرحَ حاليًا

فللّهِ مـبـنـاهُ الجميلُ فانَّـهُ ... يَفُوقُ على حُكمِ السعودِ المبانيًا

بـه القُبَّةُ الغراءُ عـزَّ نظيرهـا ... ترى الحسن فيها مُكتَسِياً وعاريًا

تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مُصافِـحٍ ... ويـدنو لها بـدرُ السماءِ مناجيًا

ولـو مُثِّلتْ في ساحتيها لسابَقتْ ... الى صرمـةٍ تُرضيه مِنهَا الجواريًا

ولا عَجَبٌ ان فاتَتِ الشهبُ في العُلى ... وان جاوزَت فيها المدى المتناهِيَـا

بها البَهْوُ قد حازَ البها، وقد غدا ... بها القصر قد فاقَ المباني مُباهِيَـا

سوارِيَ قد جاءَتْ بكـلّ غريبةٍ ... فصارَت بها الامثال تجري سوارِيَـا

والمباحُ الذي بصَحْنِ القصرِ من ناحية هذه القُبَّة سقفُهُ كالجفْنَةِ بالتسطيرِ المموَّه بالذَّهب والألوان، ويقابله مثله امام القُبَّة المقابلة للقُبَّة الموصوفة وهيَ قُبَّةٌ مثمَّنَةٌ في البُنيان، وبوَسَطها خصّةٌ كبيرةٌ جداً، ولها ثلاثة ابهاءٍ ولم يكـن يجمعها الاَّ عمل الجبّاص حيطاناً وسقفاً، الـكـلُّ على الصِّفة المتقدّم ذكرها من رقمٍ وكتابةٍ، ثمّ القُبَّةُ التي باقصى القصر غير بعيدةٍ من القُبَّة الموصوفة وهِيَ على شَكْلِها في العُلوّ والضخامة والوشي الى غير ذلك من النقش الذي بعضه بالذَّهب وبعضه بالألوان، فهِيَ في غاية الحُسْنِ والاتقان غير انَّ الأُولى فاقتها بمسائل، منها: احاطة البساتين بثلاثة أرباعهـا والابهاء المطـلّة عليها من الشَّراجيب المذهَبة فهِيَ أحسَنُ منها نظرةً وابهى وابهج، ومنها تشاهَدُ مدينة غرناطة في بسيطٍ من الأرض وجريان

الوادي الشّاقّ المدينة، وما فَضِلَ عن البُنيان فهو مُعدٌّ لجمع القوم للفصل لرأي الملوك المُسمّى بالمِشْوَر، والمعهود من البناءات فيمَا صَعِدَ كالجبل والرَّبْوَةِ عَدَم وُجود الماء الكثير، وعلى تقدير وجوده فهو قليل

وقد اجتمع في هذا الجَبَل ما افْتَرَقَ في غيره من جريان الوادي بقُنَّتِه فكان قريباً لهذه البناءات السُّلطانية، وقد استوعب جميعها خِصَص وصهاريج وجداول، وما فَضِلَ عن المحتاج من هذا الوادي ينحدر للمدينة

وهذه الديار الملوكيَّة حيث ضاقَ بَرَاحُها عن تعدُّد الديار والقصور، جعلوا غُرَفاً فوق غُرَفٍ ومقاعِد بعضها فوقَ بعض، واخرجوا الوَسعَ من الضِّيق ما فاتهم من بَسِيطِ الأَرْضِ تداركُوهُ بالجوِّ، وجميع بناءاتهم محمولٌ على سواري وبخاريات وأقواسٍ ضِخام، وقدر الفَضا. منها قامة استعدَّوا هذه المواضع للخزين وبَعْض ما يُرتفقُ به كالحمّام ومحل الاستراحة وغير ذلك، وللمقاعِدِ حول الصَّهْريج المذكور نقوشٌ وتمويهٌ وعجائبُ التَّسطير والكِتابَة جميعها لفظ «لا غالِبَ الاّ الله»! الاّ ما كان بقوسِ باب المقعد المقابل للصَّهريج مكتوبٌ فيه:

قصرٌ بَديعُ الحُسْنِ والاحسانِ ... لاحتْ عليه جلالَةُ السُّلطانِ
رَقَّتْ محاسِنُهُ وأشْرَقَ نورُهُ ... وهامَتْ سَحَائِبُ جوده الهتَّانِ
رَقَمَتْ يَدُ الإبْدَاع في أرجائه ... وَشْياً كَمِثْلِ ازهار البُسْتانِ
فكأنَّ مجلسهُ العروسُ تبرَّزَتْ ... عندَ الزِّفافِ بحُسْنِها الفتَّانِ
وكفاهُ من شَرَف بَديع القَدْرِ ان ... مالَ اعتناء خليفة الرَّحمانِ
خير الملوكِ ابُو الوليدِ المنتقى ... من نخبة الاملاك مِن قحطانِ
في عام نَصْرِ الله والفتحِ الذي ... هو الحقيقةُ آية الايمَانِ
لا زالَ معمُور السعادَة خالداً ... في نورِ ارشادٍ وظِلِّ امانِ

وبدائرةِ البَراح الذي يدخل منهُ للمقعَدِ المذكور يتَّصِلُ بالسَّقفِ على الجهات الأربع قوله تعالى:

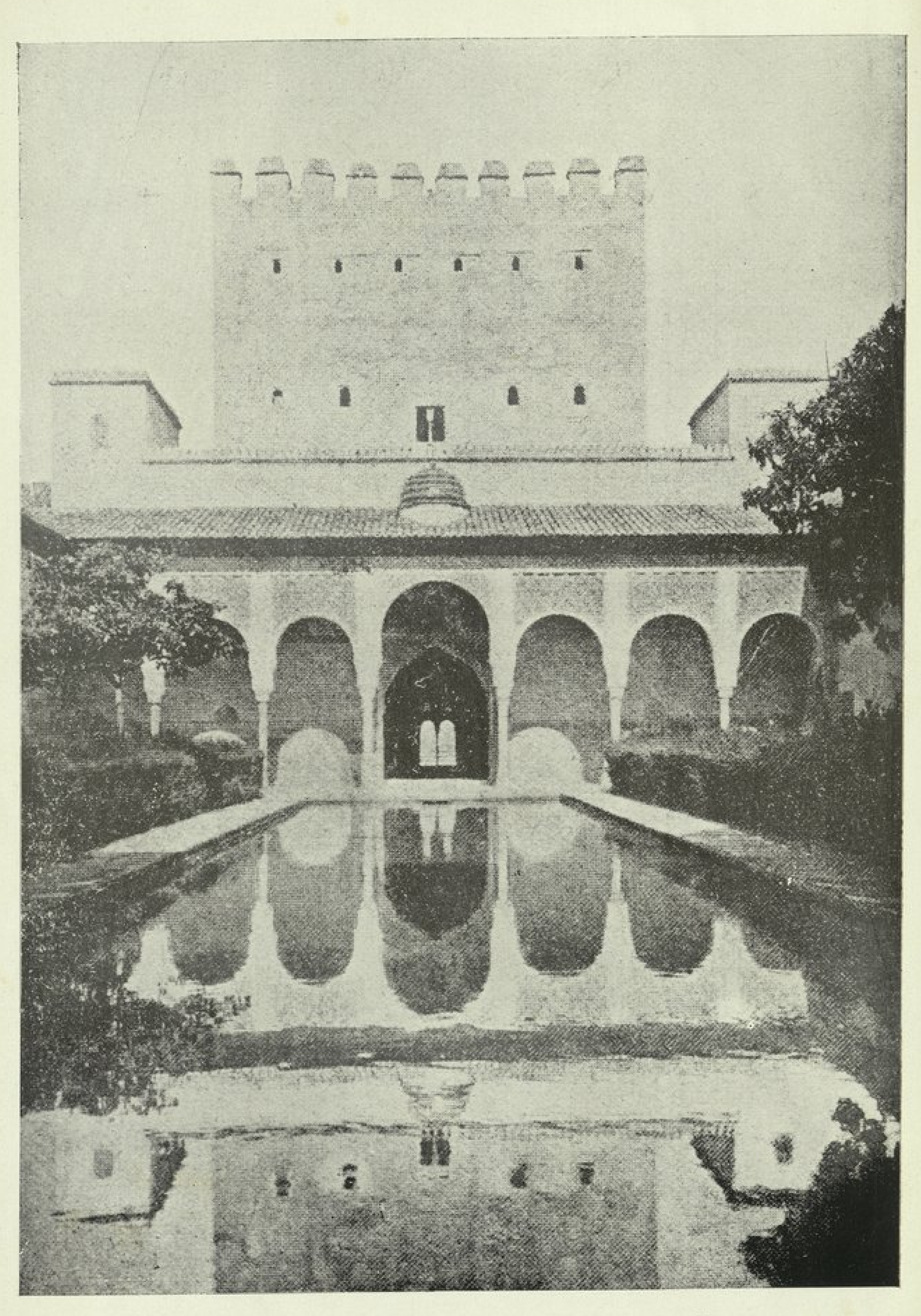
«بسم اللهِ الرَّحمان الرَّحيم، انَّا فتحنا لكَ فتحاً مُبيناً»، وبجنب المقعَد مَنزه يصْعَدُ له بمدارج عديدَةٍ يستوعب أرجاء المدينة يُشاهِدُ منها اثنتا عشرة مدينة دائرة بغرناطة على مرأى العين، والأولى سَنطَفي(١) على بُعْدٍ من ستَّة أميال، ثم طريانة على أرْبَعَة أميال، ثمَّ التدينة عن ثلاثة أميال، ثمَّ كرابي الكبير عن ثلاثة أميال، ثمَّ كرابي الصغير عن ثلاثة أميال، ثمَّ اطر عن ثلاثةِ أميال، ثمَّ كسخر عن أربَعةِ أميال، ثمَّ ككر عن ثلاثة أميال، ثمَّ اطرافي عن ستَّة أميال، ثمَّ البُوطي عن ثلاثة أميال، ثمَّ مصلين عن أربعةِ أميال، ثمَّ لطوفي عن أربعة أميال، ثم بأرجاء غرناطة ايضاً من الأودية المتصلة بها والخارجة خمسة أودية يظهر جميعها من هذا المنزه المتَّصل بها دارو وشنيل والخارجة عن مَدينةِ صنطيل(٢) ديار بين جميع هذه الأودية تتَّصِلُ بشنيل

وقد سافَرنا من مدينة غَرناطة بعد الاقامة بها اثني عشر يوماً لتراكم المطر وتتابعه الى قرية اسمها شما على مسيرة اثني عشر ميلًا، وفي خلال الاميال عبرنا مدينة اسمها سنطفي

---

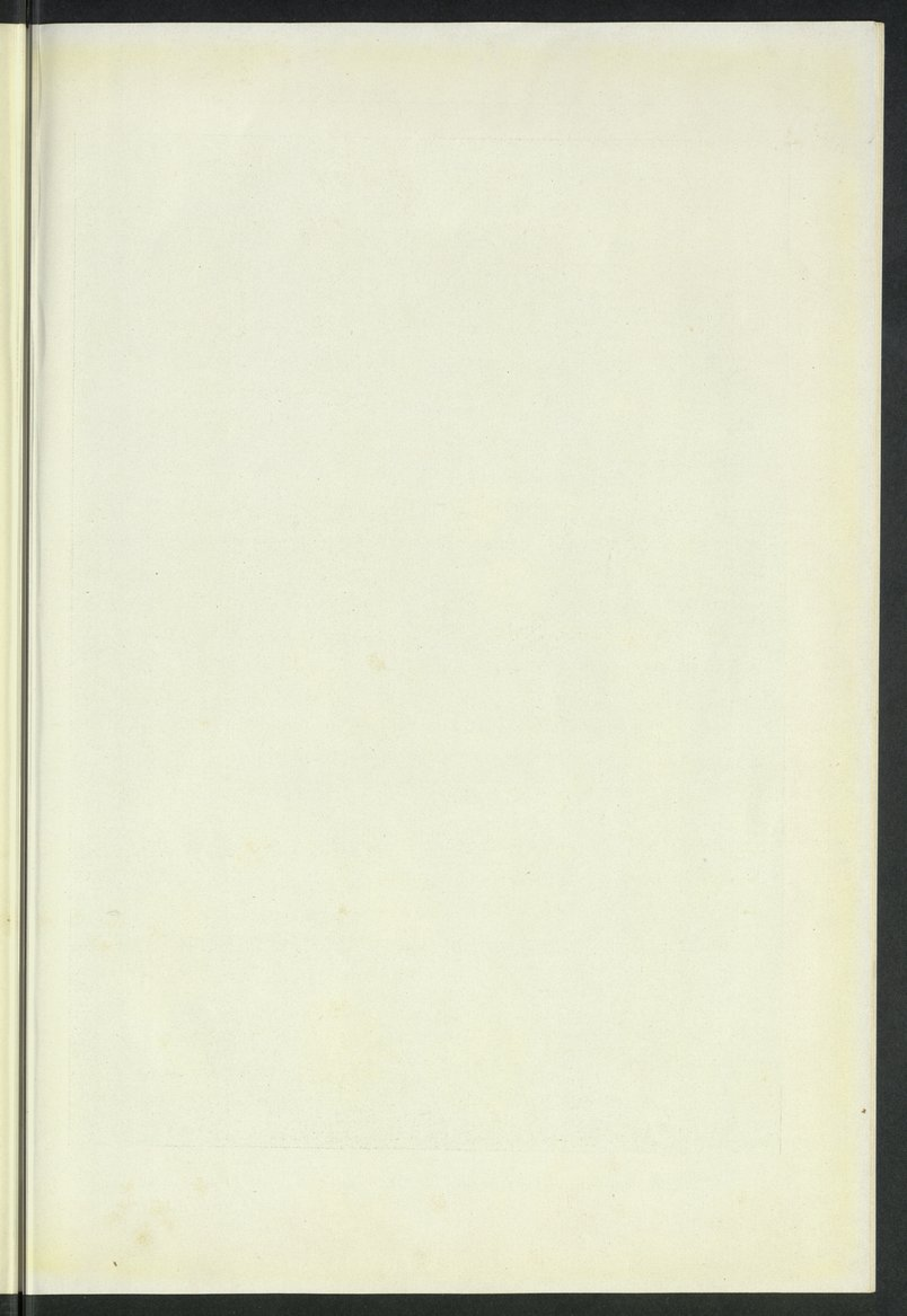
(١) هِيَ Santa Fe اي الايمان المقدَّس: بلدةٌ من أعمال غرناطه تكتنفها سهول خصبه التربة وكان العرب يسمونها شنتَ في

(٢) كلها قرى صغيرة بنواحي غرناطة أضربنا عن شرحها لعدم اهميتها



Granada.—Alhambra: Patio de los Arrayanes (Pórtico septentrional).

غرناطة—الحمراء: منظر آخر لباحة الرياحين (الجهه الشمالية) ويبدو في الأعلى حصن قمارش



الخبرُ عن مدينةِ صنطفي

مدينةٌ ذات أغراسٍ وأجنّةٍ وعن يسار الوادي المنحدر من غَرْنَاطة بنحو المسافتين، وهيَ الآنَ بدويَّة محض، وبنيانها غير شاهقٍ باقٍ على حاله الاسلامي، والقرية المذكورة بدويَّة ايضاً وكانَ مبيتُنا بدارِ حاكِمها، وقد هيَّأ لنا مقعَداً هو أحسن مقاعد ديار القَرْيَة، وقد استوعب فضاءه بطيخٌ(١) وتفّاحٌ وعِنَبٌ مُعلّقٌ جميعه في فضاء المقعَد، وقال انّه يمكث بقيّة السَّنَة ولا يَعتريه تَغيِيرٌ، وقدَّم لنا من الفَوَاكه ما جعله لنا قرى، فاذا طعم جميعه في المذاق كانَّه في ابَّانه وغير ابَّانه واحد لا فَرْقَ فيه بين الوقتي والمدَّخر، وبتنا في كرامة

ومن الغَدِ قصدنا مدينة لوخة(٢) عن اثني عشر ميلًا جميعها في وَحلٍ وطينٍ وغدران وخنادق

الخبرُ عن مدينةِ لُوخـا

مدينةٌ حضريَّة قريبةٌ من ان تكون قطعة من غَرْنَاطة لاستيعاب ديارها بالماء الجاري، وقد شقَّها الوادي المسمّى بشنيل عليه قَنطَرَة غير بعيدة في العُلوّ من قَنطَرَة سَبُو بفاس لها أربعـة أقواسٍ من عمل المسلمين رحمهـم الله، والمدينةُ في حجرِ جبل شاهقٍ محيط بثلاثة أرباعها، وبقُنّته قَصَبَة هدَّها القِدَمُ وباقية ابراجها، وقد فَعَلَ اهلُ المدينة ما فعله من قَبْلهـم من الترحيب والبروز للملاقاة بالاكداش وآلة الطَّرَب، فهم على قدم غرناطـة في الميل للمسلميـن والمحبَّةِ الدَّالة على انَّ فيهم عِرْقاً يهشُّهم للاسلام بالخُصُوصيّة رجالاً ونساء وصبياناً بزيادة على غيرهم، والكثيرُ من ألقابهم موجود عندنا في الاسلام

فمنهم من يشيرُ إشارة خفيّـةً، ومنهم من يجهر بذلك، ولا مِرْيَةَ انّهم من بقايا الأندلس، وقد طال عليهم العَهْدُ وغلبت عليهم الشقاوة والعياذُ بالله

اقمنا هُنالك بقية يومنا وسافرنا من الغَدِ قاصدينَ لمدينة أرتادونَ(٣) على تسعِ أميالٍ

الخَبرُ عن مدينةِ أرتادونَ

مدينةٌ بدويَّةٌ وهيَ في حجرِ جبلٍ شاهقٍ تحت قُنّته بيسيرٍ قَصَبَة ما رأَيتُ اكبَرَ منها في جميع ما رأيت من حصون المسلمين، اشتَمَلَت على أربَعةٍ وستين بُرجاً، ويُقابلُ الجَبَلَ الذي بُنِيت فيه القَصَبَة جبل مثله جعل فيه اعداء الله مدافع حال مُحاربتهم مع المسلمين بعد أَخذِ المدينة ورموا على القَصَبَةِ من المدافع ما هدّوا بها جميعها، وبَقِيَ أَثَر الابراج وجدارُ السور قدر نصف قامَةٍ، وقد ابقوا بالجبل بعض المدافع علامَةً على أَخذِ القَصَبَةِ من الجبل المقابل لها

وكان رواحنا لمدينة أُسونة(٤) عن واحدٍ وعشرينَ ميلًا وصلنا اليها قُرب الغروب

---

(١) البطيخ هو الشمّام بعرف المغاربة والكوار او الدلاح هو الذي يُعرف بالبطيخ عند المشارقة

(٢) هي لَوْشَة Loja بلدةٌ من أعمال غرناطة

(٣) لعلها: ارشيدونا Archidona بلدةٌ من أعمال مالقة

(٤) هِيَ اشونة Osuna : بلدةٌ من أعمال اشبيلية عريقة في القِدَم عُرفت بآثارها الرومانيّة

الخبرُ عن مدينةِ أُسونة

مدينةٌ حضريّةٌ واهلها أهلُ رفاهيةٍ وسعةٍ من المال، وقد برزَ اهلُها لملاقاتنا باكـداشٍ وخيولٍ وبالغوا في الاكرام والترحيب ما زاد على من تقدّمهم

وديار المدينة مُسلمة محض مشيّدة بالآجرّ، الكلّ على ما هو معهود من بناءات المسلمين رَحِمَهُم الله، ومنها كان رواحنا لمدينة أُوطريرة(١) عبرنا اليها عن اثني عشر ميلاً بين زياتين وكروم وبعض أغراس النَّوَاكه، متّصلة بسورها، وهُنالك دواليب تُسقى منها الأغراس المذكورة

الخبرُ عن مدينةِ أُوطريرة

مدينةٌ من المُدُن الحواضِر غير انّ بُنيانها غيرُ شاهقٍ، نزلنا في احسَن دورها، دائر جهاتها بُستان استقلّ بأنواع الفواكه وللدار مقاعِد وقِباب، وقد بالغوا في الضيافـة واتقاد الشمـع والفُرُش المنتخبـة واحضار اهل الموسيقى، والمباشرون لهم هم الفرايليّـة

ومن أعجب ما رَأَيتُ بها رجلاً قامته أربَعَة أشبار، والوَجهُ والصّدرُ من الذَّوات الضِّخـام، قيل انّه مضى له في العمر ثلاثونَ سنةً، وفيما بين رُكـبتيه وكـعبَيه أربَعَةُ اصابع واليَدان كذلك وله في الغناء القَدَم الراسخ بين اهلِ الموسيقى، فتعَجّبتُ منه غايةً، ثم نادَيتُه واجلستُه بين يديَّ وأكرَمتُه وجعلتُ اتحدّثُ معه واسأله عن اشياء تقتضي المُداعبة والمباسطة، منها السؤَالُ عن مُوجب تَعاطيه عِلمَ الموسيقى وما الحمـل له على ذلك، ثمّ الرقص الذي هو من توابعـه، وكيف يُمكِنُه التصرُّف في آلة الطَّرَب مع قِدرِ ساعده وانامله، ففكّـر هنيئةً وقال: «الحاملُ على تَعلّم ما سألت، هو ما اعانيه من العِشقِ والميلِ للمحاسِن والملازَمَةِ للصَّبْوَة:» وجَعَل تارَةً يتكـلّم بالجَهر وتارةً يخفضُ صوتَهُ واكثر من الالتفات، فسألته عن جهره في بعض الكلام وسرّه في بعضٍ وما وجهُ التفاته حال السرّ، فقال: «محبُوبَتي معكم في الحضرة وخُشيتُ ان تَسمَع بعض كلامي فتظنُّ انّي ابوح بسرّها» فاذا في الطول هِيَ كالارزة، فزدتُ من ذلك تعَجُّباً، ولمّا قامَتْ النسوة للرقص قامت هيَ من جُملتهنّ، ومن عادتهم في الرّقص ان يجعل الذّكـرُ مع الانثى وقد ادركـه من الغيرة عليها ما لم يكـنْ في أحدٍ مـن الكفّار، فندبه بعض الحاضرينَ للرّقص فاجاب، فذهَبَ الى محبُوبتـه يطلب مُساعَدتها للرّقص مَعَه فلم تَقبَل عليه بالكلّية، ثمّ ذهب لغيرها فلم تُجبْه، ثمّ انَ القيّم على الليلة قدّم له بُنيّة للرقص فرقصَت معه، وعادَ الينا شاكياً يتلـهّفُ ويعاني من الوَجدِ ما كادت حشاشته تذوبُ من عَدَم قبـول محبُوبته عليه في الوقت، فابديتُ له عنها من العُذر ما آنست به نفسُه ووجد بعض الراحة، وعند انصراف القـوم جاء للتشييع معنا وبيده عصا، فسألته عمّا يفعَـلُ بالعصا فقال: «هي مُعدّة لطردِ الكلاب، والآنَ احبُّ ان اضرب بها المحبوبَة على الرأس فاقتلها:» فقلتُ له: «كيفَ يُمكنُك اللحوق لرأسها مع قصرك وما هِيَ عليه من الطـول:» فسكت ثمّ اخرَجَ من جيبه مديَـةً قَدرَ شبرٍ، وقال: «الضربَةُ بهذه تَقضي الغرض أكثَر من العصا» قلتُ: الآنَ هُديتَ لما تَحصُلُ به على الأرب، لكن ان كانَتِ الضَّربَة من اليَدِ الكاملة الخلقة في بسطِ الراحة وطول الاصابع لتتمكّن مـن المديَةِ حال الطّعـن، وأنتَ فيما اظـنّ لا تُساعِدكَ انامِلُك ولا راحتُك لذلك مع ما

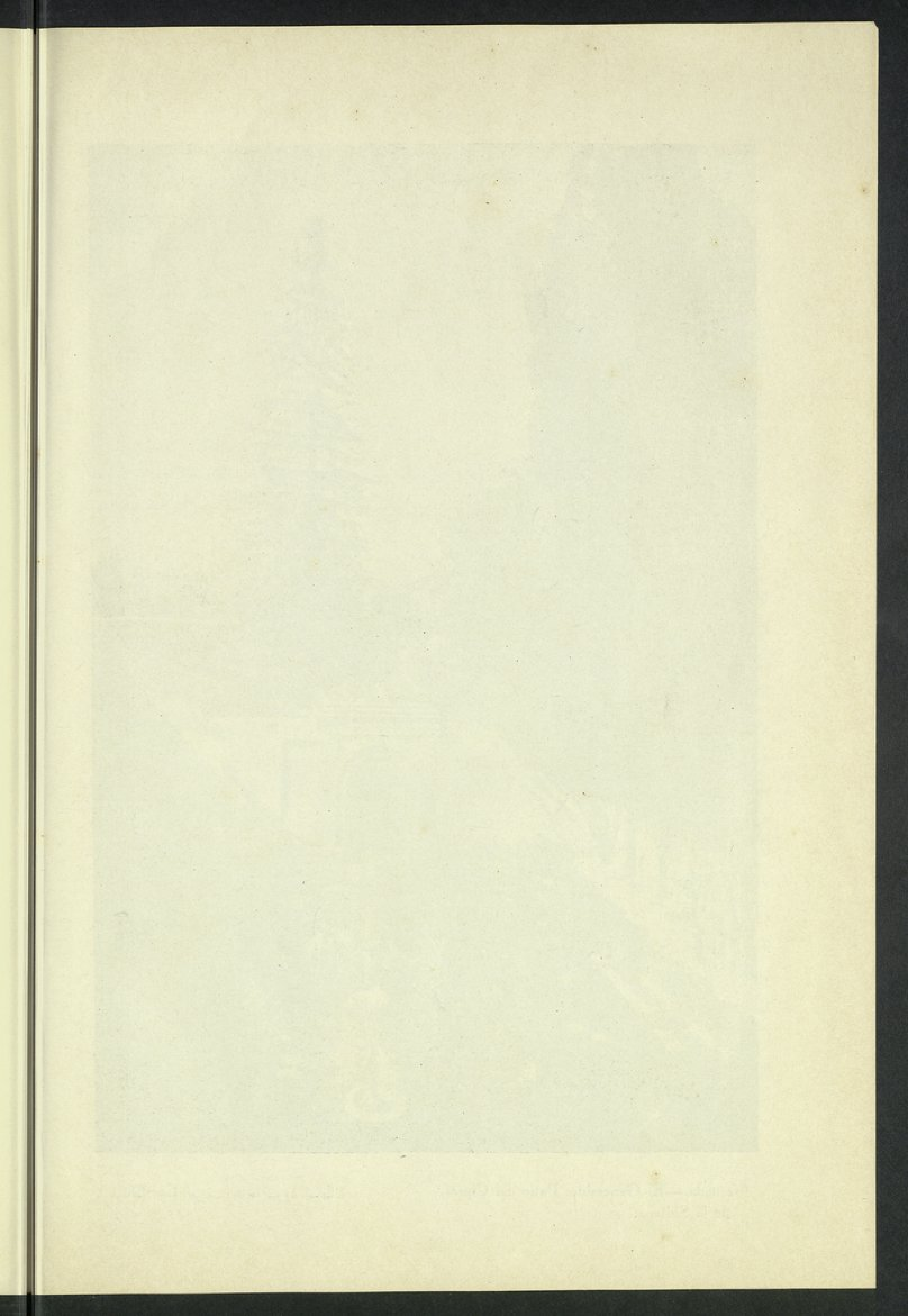
---

(١) Utrera تقدم ذكرها



Granada.—El Generalife: Patio del Ciprés de la Sultana.

غرناطة—جنّة العريف : باحة سروة السلطانة



يدرِكُكَ من الشَّفَقة على مَحْبُوبتك، وهذا الأمرُ الذي عزَمْتَ عليه حَمَلَكَ عليه الغَيْظ فقط، وستَندَم ان فعلتَ، فان كنت تقبَل النصيحة فسامحها وساعِدها في مُرادها لعلَّ تحصل منها على الخاطر وتدرك ما تُريد! فتأمّل فيما اقوله لكَ واعمل به! فقال: «الخيرُ كُلُّه فيما أَشَرْت به عليَّ» وانصرف عنّا، وقد استوعبنا الليل بحديثه والتعجّب من أَمْره

ومن الغَد سافرنا لمدينةٍ اسمها لاص كبسصث(١) عن أربعة اميالٍ في وَحلٍ عظيمٍ بين أَوْديةٍ وشِعابٍ وخنادق وغدران بحيثُ تَهوى نواعر الاكداش والكرايس في عمقِ الطين، ويَعجز عن اخراج الكدْش الواحدِ باثني عشر بغلة من البغال المعتبرة في الجودة ولا يُخلِصُهُ من الوحل الاّ العَدد الكثير من الثيران

الخبرُ عن مدينةِ لاص كبسصث(٢)

الخبرُ عن مدينةِ قالص

لمّا قرُبنا من المدينةِ برَزَ لمُلاقاتنا خلقٌ كثيرٌ خاصّةً وعامّةً نساءً ورجالاً بالاكداشِ والخيول وآلةِ الطَّرَب، فكان اوّل من لقينا الباشدور(٣) المعيّن من طاغيتـه لمُصاحَبتنا للحضرة العاليـةِ فرحّبَ بنا واظهر من الأدب وحُسنِ الخطاب ما دلَّ على اهليّته بالمنصب الذي قدّمه اليه طاغيته، فقدَّم لنا كدْشاً فركبناه والزمناهُ الركوبَ معنا ففعل وصارت الجموع تتواردُ علينا في اثناء طريقنا، بعضُهم بالاكداش المشحونة ببنات الاكابر وازواجهنّ وبعضهم فرساناً، والجلُّ راجلونَ رجالاً ونساءً وصبياناً، واجتَمعَ من الخَلْق ما ضاقَت عنهمُ الأَرضُ قُسياناً ومراكيس وشلظاظاً ومُطلق العامّة اجتمعوا من المُدُن القريبة من قالص زيادة على ما بقالص من القوم، قيل ان عددهم من المُؤهّلين به خمسةٌ وسبعونَ الفاً وغير المؤهّل شيءٌ كثيرٌ

ولما قرُبنا من المدينةِ جعلوا يخرجونَ المدافع التي لا حَصْرَ لها ودخلناها في زيٍّ لم يُعْهَدْ مثله قطُّ لغيرنا، والشلظاظ محدقَة بنا يردُّون عنا القوم، وحاكِم البلادِ والأعيان مـن قومه مُنكسة رؤُوسهم امامنـا بأَمر طاغيتهم تعظيماً لجناب سيّدنا المنصور بالله

وبداخل المدينة كانت ملاقاتنا باخواننا المُؤمنينَ المسرّحين لتقدّمهم امامنا في البحـر الواردين من قرطَجَنَّة، وقد انضم اليهم اخوانهم الواردين مـن برسلونة ومـن الكرّاكة، فكان جُملة المُؤمنين حينئذٍ ثلاثمائـة نسمة تنقص عشرة كلها في صحيفة سيّدنا ايّده الله ومـن مُدّخراته عند الله تعالى، وقد بالغَ اهلُ قالص في اكرام الأُسارى ولم يضيعوا من حقهم شيئاً في المأكل والمشرب، فاعترفنا لهم بالخدْمَة والمحبّة ووَعَدناهم باعلام طاغيتهم باداء الواجب

وكان نزولنا بدارٍ هِيَ من خير دور المدينة، وما زالت الجموع تتردَّدُ علينا على قدر طبقاتهم، الكلُّ يبدي من البشاشة والترحيب ما فيـه زيادة على الأوّل، وقد تعيّنتِ الاقامـةُ بقالص لانتظار هديّةِ الطاغية المُصاحبـة لباشدورهم للحضرة العالية

ولنذكر صِفَة المدينة في البناء وما هِيَ عليه من الأشياء المؤكّد ذكرها كغيرها ممّن تقدّمها من المُدن فنقول:

---

(١) Las Cabezas بلدةٌ صغيرة بنواحي قالص قد مرّ بها الغزال ولكنه نسيَ ان يخبرنا عنها بالتفصيل

(٢) بياض في الاصل

(٣) هو جورج خوان Jorge Juan سفير كارلوص الثالث الى سلطان المغرب مولاي محمد بن عبد الله

هِيَ مدينةٌ في غاية الطول والعرض، وديارها مستويةٌ في البنيان وكأنَّ المُهندسُ خطَّ جميعَها في وقتٍ واحدٍ، قسمها ارباعاً وبنى بكل رُبعٍ عدَّة ديار، الفاصلُ بين كلِّ تربيعةٍ طريقٌ محيطةٌ بها نافذةٌ بعضها لبعضٍ واتّصال الديار التي من احد جهتها الأربع، والثلاث جهات من كلِّ دارٍ موالِيَة للازقّة استوعبها سراجيب وشبابيك، وهذه الديارُ جميعُها من الحَجَر المنجور، والطين الذي بين الحجر شيء قليل بحيثُ اذا هدّت الدارُ لا يُوجدُ بها من التراب قدر ما يحمله الجَمَل ولا تجد داراً الاّ وبها منزهٌ في غايةِ العلوّ

وسُور المدينةِ غير شاهقٍ وبين السور والديار على الاستدارة بَراحٌ عَرضه يزيدُ على المائة خُطوة، في بَعْضه مخازن للبارود، ثمَّ قِباب لاهل العسّة، وخارج الباب الموالية البرِّ يميناً وشمالاً بساتين في غايةِ العُلوِّ حامِلَة للعَدَد الكثير من المدافع، وفي مقابلة الباب ثلاثة قناطِر من اللّوح، كلُّ قَنطَرَة مضروبةٌ على حفيرٍ في غاية العمق تُرفَع وتنحطُّ بحركاتٍ زيادَةً في التحصين، وبهذه المدينة من التُّجار ما لا يأتي عليه الحصر من سائر الأجناس، تردُ عليها من المراكب في اليوم الواحد العدد الكثير وتسافر منها كذلك، فهي محلُّ التجار من سائر الأجناس بالبلاد الاصبنيولية، ومرساها تزيدُ على مرسى قرطجنَة في الطول والعرض اذ كانت منبسطة مستوية من غير جبلٍ ولا جرف، وساحلها الشرقي مدينة بنط سنطمرية(١) وغربها سور مدينة قالص واسواقها عامرَةٌ بالفواكه الصيفيَة والخريفيَة في اوان واحد، تأتي بها المراكب في كلِّ صباح من المُدُن القريبة منها، وعن يمين سنطمرية مدينة اسمها بنطَ ريال(٢) ثمَّ عن اليمين بقليل ايضاً مدينةُ الكرّاكة(٣) وهِيَ عدّة ديار مُشيّدة ببسطٍ من الأرض تُصنَعُ بها السُّفُن، وهِيَ عندهم بمثابَةِ السّجن لاهل الجنايات، وبَقِي بها من أسارى المسلمين في الوقت سبعةَ عشَرَ، وقد سُرِّحَ مَن عَداهم على يد سيّدنا الكريمة، وقد وعد ايّده الله بسراح مَنْ بقِيَ أتقبّل الله من سيّدنا عمله!

اقمنا بها ما يزيد على الشّهر، وسافرنا مُصاحبين السلامة قاصدينَ تِطوان

فلما عَبرنا المرسَى هبّت علينا ريحٌ شرقيَةٌ مخالفةٌ لعبورنا ومكثنا في البحر ثلاثة ايّام، وقد اضرَّ بنا المَيْدُ المحرق للمزاج، فلم يسعنا الاّ الرُّجوعُ لقاصٍ من فَمِ البوغاز ونزلنا البَرَّ، ثمَّ اقمنا ثلاثة ايّام بالدار التي كنّا بها اولاً، ولما هَبَّت ريحٌ غربيَةٌ على قلّتها اتّكلنا على اللهِ تعالى وركبنا بين العشاءين فمَا فاتَت علينا أربعٌ وعشرونَ ساعةً حتّى رسينا بمرسى تِطّوان في أَمنٍ وآمان

وكان سيّدنا نَصَرَهُ اللهُ أمَرَ حاكِمَ تِطوان ان يقفَ مَعَنا على قَدَمٍ في عمارة البساتين المُوالِيَة لناحيَةِ البحر بالبارُود واحضار ما هو مُعيَّنٌ لاخراجِ المدافِع بها، حيثُ اذا حَلَلنا المرسى يطلق العَدَد الكثير ثُمَّ تتبعها مدافعُ أُخر من القراصين المُرْساة بمَرتيل

فتهيّأ الحاكِمُ لذلك وشحنَ البساتين بما أمره به مولانا المنصورُ بالله، وعيّنَ داراً لنزول الباشدور المُصاحب لنا، وهي دارٌ من خيار ديار تِطوان، وجعل بأحدِ الأبراج مَنْ يترقّب مراكبنا حيثُ تتقدّمها الاعلام

اننا ركبنا من قالص قاصدينَ تطوان، وقد مكثنا في البحر ايّاماً لهبوب رياح مخالفةٍ لعبورنا، ولمّا يسّرَ اللهُ تعالى بريحٍ طيّبةٍ عبرنا البوغاز، فما قربنا المرسى الاّ والمدافع تخرجُ علينا من البساتين، وبساحِل البحر خلقٌ لا يأتي عليه الحصرُ،

---

(١) Puerto de Santa María وقد تقدّم ذكرها

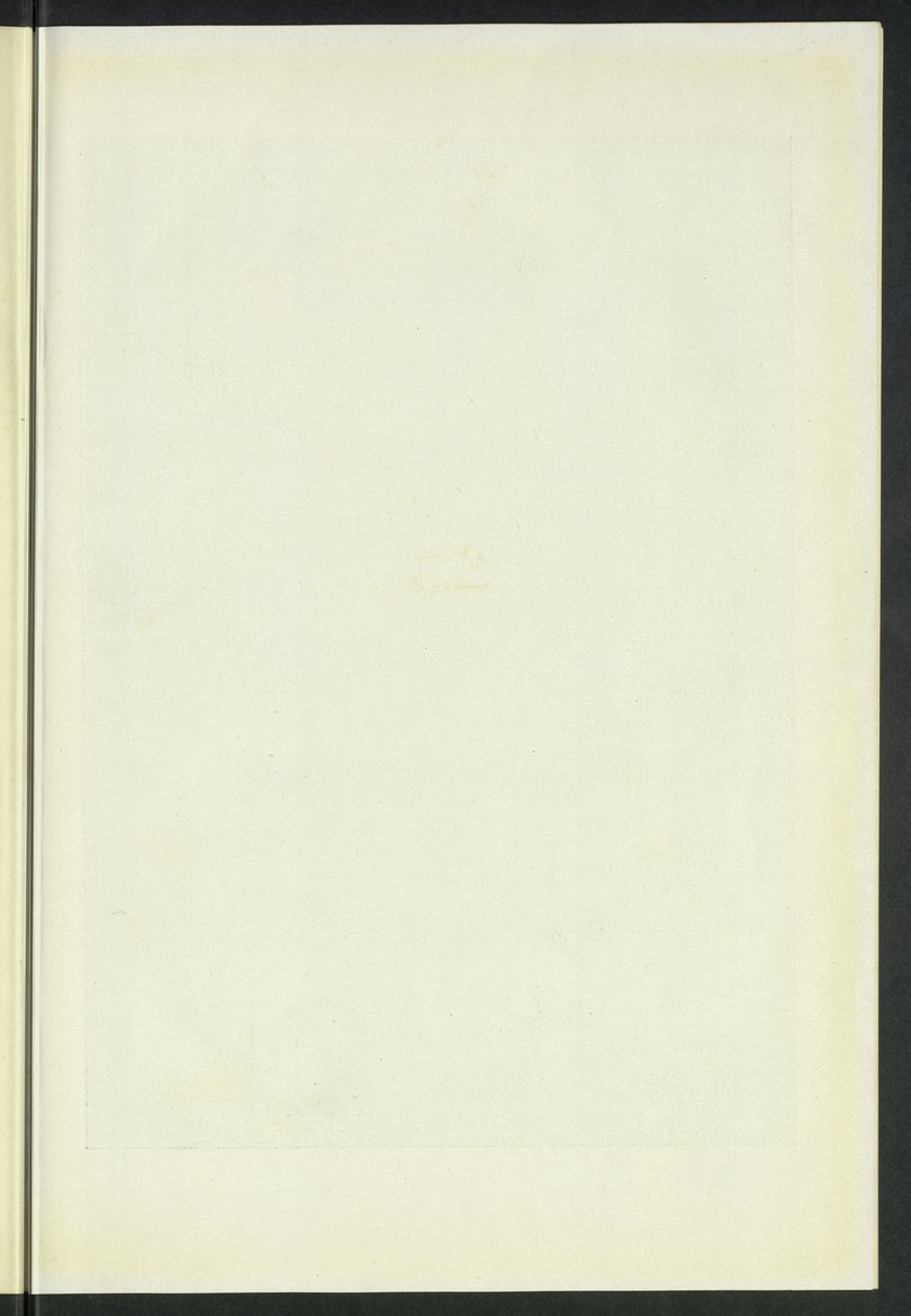
(٢) هكذا في المخطوط والمقصود بها Puerto Real وقد تقدّم ذكرها

(٣) قد تقدّم ذكرها



Granada.—El Generalife: Jardines.

غرناطة—جنَّة العريق : احدى مناظر البساتين



فتعجبَ الباشادور من احضار القوم للملاقاة قبل الترسية ولم يدر من اينَ اتّصل بهم الخَبَرُ على بعدِ المدينة، وقـد صاحب القوم النوبة وآلة الطرب، وانتشروا من مرتيل الى شطّ البحر، خيولاً وبغالاً وراجلين، فأَمرْتُ صاحب المركب ان ينزل الفلوكة لننزل فيها البرّ في الحال لأَغراض عديـدةٍ اقتضاها الوقت، وتعيَّنت في الحال، منها ان نهيّءَ ما لا بدّ منه ممّا هُوَ مناسب لأُبهة المُسلمين عند ملاقاة الباشادور بالقوم وان نحتفل لما فيه زيادة على ما شاهدناه ببرّهـم عند مـلاقاتهم ايَّانا، ومنها تقديم نزول الأُسارى من المسلمين البرّ وان نريحهم ممّا هم فيه من المَيَدِ والتعب الفادح، لانّ غالبهم الشيوخ والعجائز والنسوة والبنين

وكانَ الباشادور طَلَبَ منّا ان نُمهله بقيّةَ يومِهِ بالجفن ولا ينزل البرّ الى الغَدِ، فأَظهرتُ له ابايةً ولم تَنْصِت لكلامه وأَلزَمْتُهُ النّزول للبرّ في الحال وبيّنتُ له ما الحاملُ لذلك، وذلك انّي خشيتُ ريحاً شرقيةً لا يمكنُهُ المكثُ معها بالمحلّ المُرسى به الآن، فتعلّلَ بأُمور تقتضي مقامَهُ بالمركب بقيّة يومِهِ لا مندوحة له عنها في أَعرافهم، وهِيَ اخراجُ صناديقهم من المحلّ التي هِيَ بـه وفتحها لالحاق الكسوَة التي هِيَ مُعدَّةٌ عندهم للتجمّل عند ملاقاتهم بأَعيان القوم مع ما يُضافُ لذلك من تحسين لحاهم ومشط الشَعر الذي على رؤُوسهم، فلم يسعنا الاّ الايجاب وتجمّلنا عليهم بذلك

وقد نزلنا البرَّ في تلك الساعة، وبعد الملاقاة بالقوم والتسليم عليهم هيّأْنا عدَّة قوارب وبَعَثْنـا بها للمراكب الحاملة لاخوانِنا المسرحين على يدَي سيّدنا الكريمتين، رجالاً ونساءً وصبياناً، وعددهم ثلاثمائـة تنقصُ عشرةً جلّهم من اهل الجزائر والبعضُ من المنتسبينَ الى ايالة سيّدنا اسماه الله، فلم يلبث الاّ وجميعهم بالبرّ، وقد أَحدقَ بهم اخوانُهم المُسلمون كُلٌّ واحد يعانِق الآخر وهم يَبْـكُون من شِدَّة الفـرح، واطْلَقتِ النسوة بالزَّغاريت والاطفالُ يَرقصونَ وآباؤُهم يُمرّغون وجوههم في التراب شاكرينَ لله مُعلنينَ بنَصر سيدنا ايّده الله، وكان يوماً لا يُوازيه بالفرَحِ عيدٌ من الأَعياد ولا موسمٌ من المَواسم، وأَخذنا في نزول الوسق بقيّةَ اليوم

ولمّا جنَّ الليلُ حملتُ من الفريشْك ما هو كافٍ للمراكب الثلاثـة: بقراً وغنَماً ودُجاجاً وما يُضافُ لذلك من الخضر الوقتيّة والطَعـام، وقصدنا المركب الذي به الباشادُور وتولّى تفريق ذلك الفريشك على المراكب بيده وقد رأى من ذلك ما سرّه، وقد ضَرَبَ حاكِمُ البلاد ومن انضمَّ اليه من امناء المرسى وأَعيان القوم من الخزائـن بساحل البحـر العَدَدَ الكثير حتى الى مَرْتيل، فانضمّت كوانين الخزائن لكوانين الأُسارى، فالناظرُ لاتّقاد الكـوانين من الجفنِ الذي نحنُ به يُشاهِدُ نجوماً في السماء ومثلها بالأَرض، ولا مريَة انّ ذلك سِرٌّ من أَسرار الله تعالى

وقد استيقظت الباشادور والقُسيان المُصاحبينَ له وأَخرجتُ جميعهم من القامرة ليُشاهِدَ جميعهم ما شاهدناه من ذلك وقد تعجّبَ مما شاهده عياناً هو وقومه وظهَرت والحمدُ لله أُبهَةُ الاسلام وعظمتُه في تلك الليلة وغيرها

ومن الغَدِ نزل معنا البرّ، ومنذُ ركبنا الفُلوكة وأَهل مركبه يخرجُونَ المدافِـع، وابراجُنا تجيبُهم باخـراجِ مدافِعِها الى ان نزلنا البرّ، وقد بَرَزَ لملاقاتنا قائدُ البلاد وأَعيان القوم ورحّبوا بنا كثيراً وجاء الحاكمُ بعدّةٍ من الخيلِ فركبَها الباشادور والأَعيان من قومه وضُرِبَت علينا النّوبة، وأَخذَ المجاهدونَ في اللعب بالبارود على خيولهم، واستمرّ اخراج البارود من الرّماة الى المدينة، وذهبنا في جمعٍ عظيمٍ من الخَلق، فلمّا قربنا المدينةَ اطلقتِ القَصَبَةُ من المدافع ما يشفي الغليل

ودخلنا المدينة في هيئةٍ عظيمة، فاذا بالدارِ المعيَّنة لنزوله بالأَمرِ المُطاع من خِيار الدّيار واحسنها استوعب قِبابها فرش مُنتخب، ودفعنا في الحال للقيِّم على طعام الباشادور ما هو كافٍ لضعف قومِهِ الحاضرينَ ممّا فيه زيادة على ما شاهدناه مـن طعام طاغيتهم، ممّا يدلُّ على خصب بلاد الاسلام وما هِيَ عليه مـن بسط النعم والخيرات التي لا حَدَّ لها ولا نهاية، ولم تزل الأَعيان تتردَّد علينا بقصدِ مُباشرة الباشادور وإِكرامه في مقابلةِ ما صنعوهُ معنا ببلادهم، اونحنُ المُسلمونَ احَقُّ بالفضل والمجازاة ومُقابلة الخير بمثله وان كان وقوعهُ من غير أَهلهِ!

وجعلنا لأُسارى المسلمين اماكن تليق بهم وأجرينا عليهم الخراج الكافي لهم بالأمر المطاع ونقّينا اثوابهم، ومَن كان مفتقراً للكسوة جدّدناها له ومَن الـمَّ به ألَمٌ عيَّنا له حكيماً يُعالجه، وانزلنا النسوة بالمحل المناسب لهنّ، الكلّ عن الأمر المولوي أسماهُ الله

وقد اقمنا بتطوان ما يزيدُ على الشهر لتراكم المَطر وتتابُع السيل الخارج عن الحدّ، ولم يزل سيّدنا أيّدهُ اللهُ يجددُ الايصاءَ على الأُسارى بالرفق بهم والاحسان اليهم رفقة بهم وشفقةً عليهم، واكثر ايصائه ابقاهُ اللهُ على النسوة والبنين والطاعنين في السن انقبلَ اللهُ من سيّدِنا عملهُ!

ولمّا انجلى الغيمُ استعملنا السير، وقد كان سيّدنا نصرهُ اللهُ بعثَ العدد الكثير من البغال لحمل الأُسارى وأمرَ بحمل ثقلة الباشادور من غير أنْ يَدفع درهماً واحداً في شيء من الأشياء جلّت او قلّت، فقامَ بجميع ذلك حاكم تِطوان بالأمر المطاع، وقد تقدّم من سيدنا الاعلام لعمال اياالته المحروسة بالله، وأمرَ ان ينتشر الناس في الأرض خيلاً ورماةً من باب تطوان الى حضرة مراكش حفظها الله، فانتشرت العساكرُ التي لا يأتي الحصرُ عليها خيلاً ورماةً، وذهبنا في هذا الجمع العظيم

فاوّل من لقينا بعد استعمال السير من تِطوان صحبةَ حاكمها والأعيان من المجاهدينَ القبائل الحوزيّة: وادْراس وبني مُصوّر وأنجرة وغيرهم من القبائل، وأخذوا في اللعب بالبارود، وقد بهتَ الباشادور ممّا شاهده حتى انّا طلبنا منهم ان يكفّوا من اخراج البارود، فلم ينصتوا وتمادوا على ذلك الى محل المبيت وقد بالغوا في الاكرام

ومن الغد تعرّض لنا اهلُ الريف خيلاً ورماةً بعدَدٍ كثير، وقد اصطفّوا صفوفاً وضربت النوبة بين صفوف عسكرهم وأخذت الخيّالة في اللعب بالبارود ثمّ بالمزارق، وذَهبنا على هذه الحالةِ الى ان أقبل الليلُ، وقد هيّأ حاكمهم ضيافة لها بالٌ واتى بطعام منتخب كافٍ لهذه الجموع الوافرة

ومن الغد قدّم للباشادور فرساً من عتاق الخيل كان يركبهُ حيثُ أعجبهُ واستحسنهُ وذهب معنا الى ان قربنا الغربيّة فتشيّع معنا وأصحبنا ولده بمائةٍ من خيل المجاهدينَ من أهل الريف، فلم نشعر الاّ وأهل الغربيّة وغيرهم من القبائل الموالية لهم في عدد كثير وفعلوا ما فعله من قبلهم اجمالاً وتفصيلاً، وفي اثناء طريقنا من الغد لحقت بنا خيل طليق والخلط(١) وقد اقتفوا أثرَ من تقدّمهم في الترحيب والفرح بأُسارى المسلمين

ولمّا وصلنا القصرَ(٢) وجدنا به من الخيل والخلق لا حصر له، وقد جالت الخيلُ بين صفوف الرماة ومطلق القوم وقد أبلوا بلاءً حسناً في اللعب بالبارود بقيّة يومهم

ولمّا جنَّ اليل أقبل أهلُ القصر بالطعام الكثير على اختلاف انواعهِ وقد فضل منهُ اكثر ممّا أُكِل وبقيَت القِصَعُ والموائد العديدة فاضلة بعد اطعام العساكر المذكورة، وشاهد الكافرُ من ذلك ما اذهلهُ

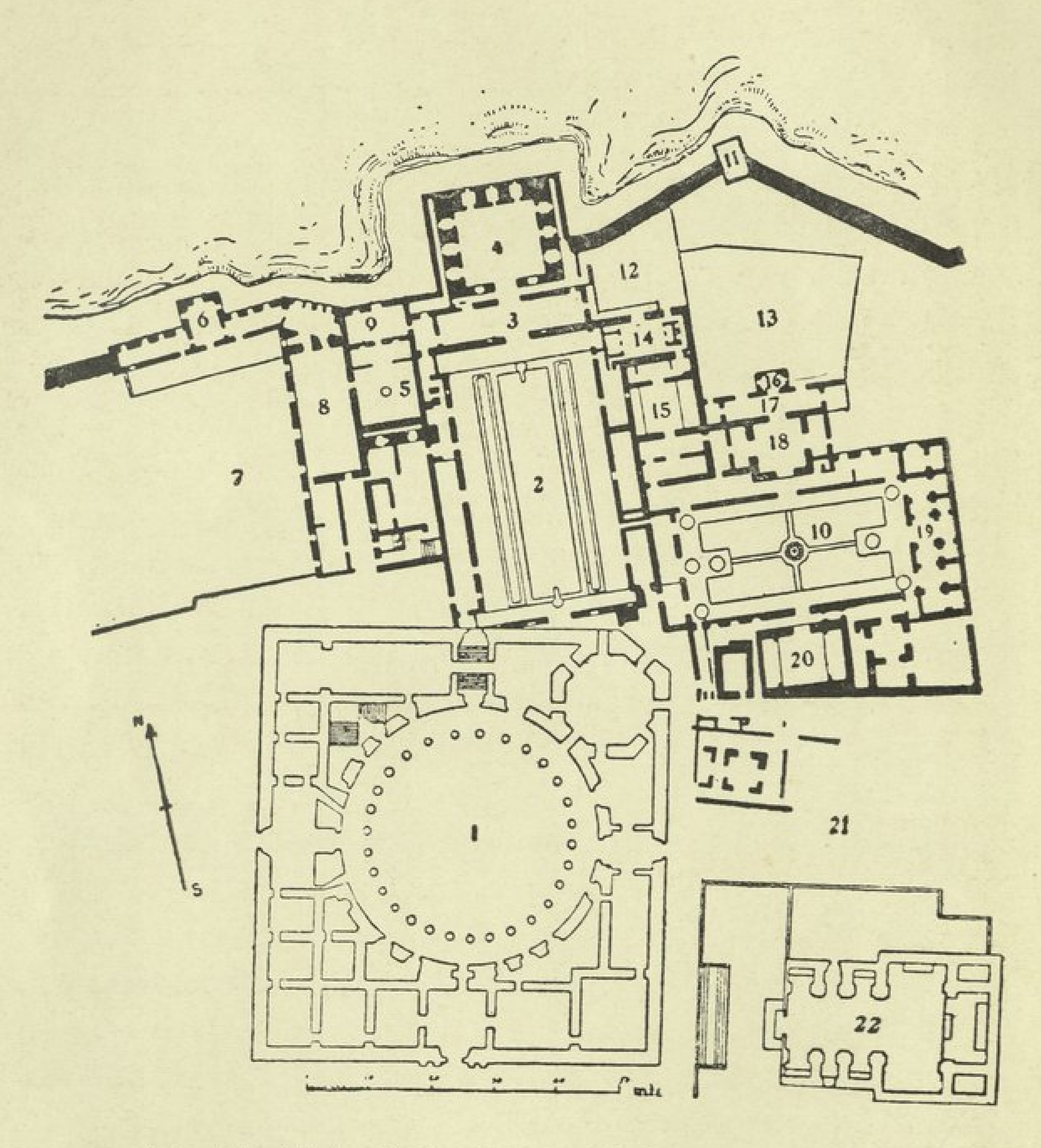
ومن هُنالك كان رواحنا لثغر العرائش وعلى قربٍ منها تلقّانا حاكمُها في خيول عديدةٍ وترك الرماة في ثلاثة صفوف، فلمّا اقبلنا عليهم جالت الخيول بينَ صفوف الرُّماة تخرج ما لديها من البارود وقد اقتفاها اخراجُ المدافع من الأبراج ومن ساحل البحر ثمّ من المراكب القرصانيّة المرساة داخل الوادي وخارجه حتى ان بارود المدافع والرماة ونقع حوافر الخيل سترَ نور الشمس، وكان يوماً مشهوداً وقد دخلنا المدينة على حالةٍ حسنةٍ

ومن ذلك استعمل الباشادُور الكِتابَةَ في كل ما شاهده ببرّنا وصار يُقيّدُ ما يتعجّبُ منه ممّا هم عاجزُونَ عن بعض

---

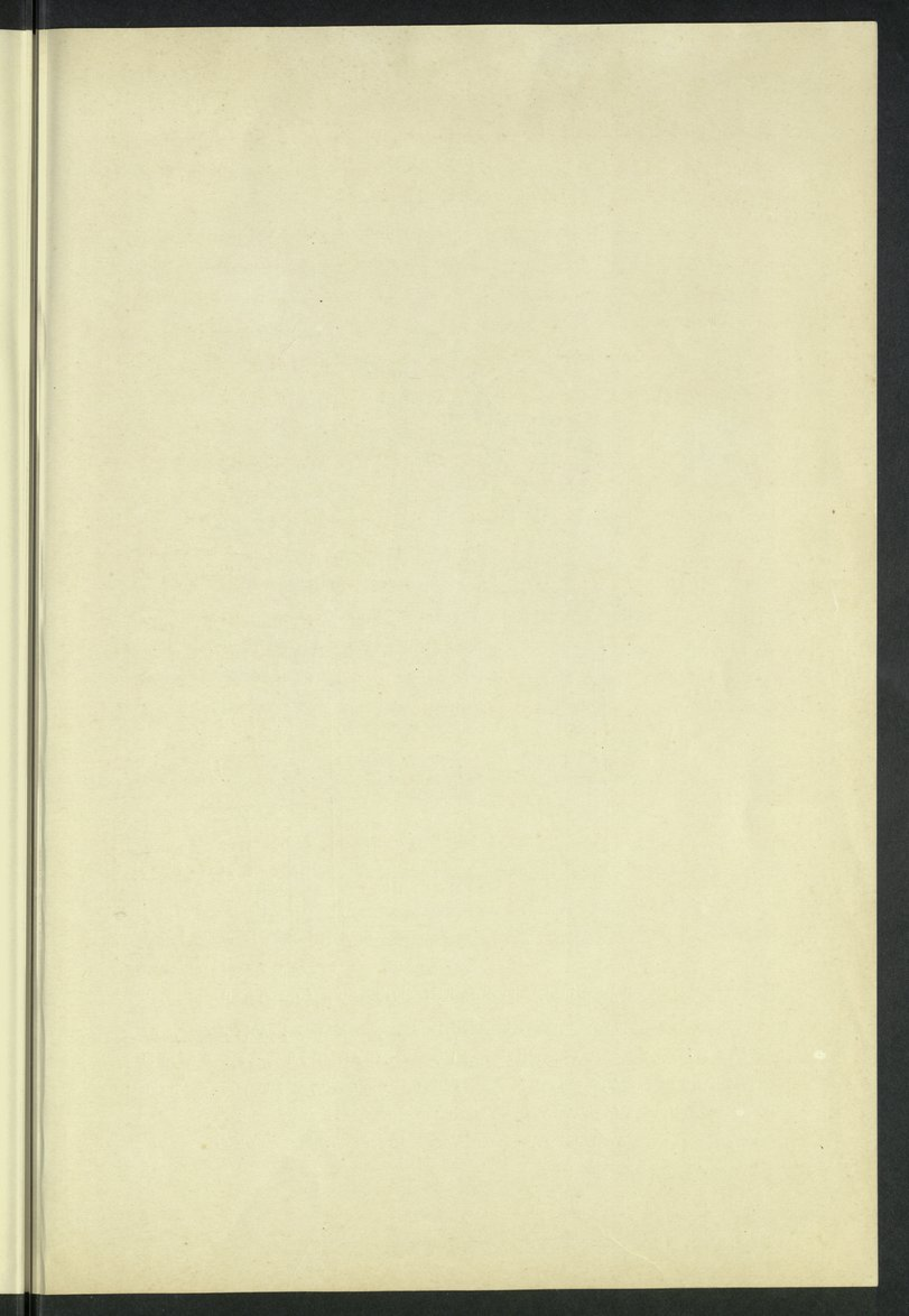
(١) الطليق والخلط او الخلوط: قبائلُ أفخاذها متفرقة بنواحي القصر الكبير

(٢) اي بلدة القصر الكبير



خريطة قصر الحمراء بمدينة غرناطة الاندلسية والتعديلات التي احدثها كارلص الخامس

١ قصر كرلوص الخامس. —٢ صحن البركة. —٣ باحة البركة. —٤ قاعة الغماريين. —٥ صحن المقصورة الكبيرة. —٦ منارة (ماشوكا). —٧ صحن المشور. —٨ المشور. —٩ قاعة ومقصورة. —١٠ باحة الأسود. —١١ منارة متنزه الملكة. — ١ باحة شجر السرو. — ١٣ روض (دراخة). — ١٤ قاعة الأسرة. —١٥ حمامات. —١٦ متنزه (دراخة). —١٧ صالة. —١٨ قاعة الأختين. —١٩ قاعة الملوك. — ٢٠ قاعة ابن السراج. —٢١ الروضة. —٢٢ معبد القديسة مريم (سانطا ماريا)



بعضه من حركة الخيل وجولانها في ميدان العساكر وتلاعب فرسانها بها على قدر ارادتهم، بحيث يتصرف الفارس في موكبه كما شاء من فر وكر، ولا قدرة للفارس من الكفرة على قهر فرسه ورد الجموح من الخيل بما هو معلوم من الفرسان، وانما هو ركوبهم فيما شاهدناه: تارة يلفظه السرج اماما وتارة خلفا وهو فيما بين ذلك مشفق يترقب الوقوف

ولم يزل الباشادور يتحدث وقومه عما شاهدوه وكل واحد يزيد على الآخر في الحديث

وقالوا: «لو سمعنا المسلمين على هذه الحالة ما صدقناها، ولا شيء أقوى من المشاهدة:»

اقمنا بالمدينة يومان وفي اليوم الثالث سافرنا مصاحبين لمائة من خيل سيدنا نصره الله بعد ان تشيعنا مع أهل الريف، فما عبرنا من طريقنا نحو المسافتين الا وخيل سفيان وبني مالك اصطفت ببسيط من الأرض، وقد لبست افخر الثياب وركبت العتاق من الخيل، فما قربنا منهم الا وشنوا الغارات قاصدين نحونا حتى كان بارودهم يشبه صوت الرعد، وما زالوا على ذلك الى محل المبيت، وقد زادوا على غيرهم في الضيافة والإكرام من غير القصر، وكان رواحهم معنا من الغد لشط وادي مهدية

وعند الصباح أخذنا في تقطيع القوم في عدة قوارب وتشيعنا مع سفيان وبني مالك

وبالساحل من ناحية مهدية وجدنا جماعة من أعيان أهل سلا فرحبوا بنا وقدموا الاعلام لمدينتهم بان رواحنا اليهم من يومنا ليتأهبوا لملاقاتنا، وقد اجتمع عليهم خلق كثير من رباط الفتح وغيرها واستعملوا في إخراج المدافع والرماة داخل المدينة وخارجها، يخرجون البارود فيما بينهم على صفة لم تعهد عند الروم. . . (١)

ولما استقر المجلس في البستان المذكور ورد علينا عدد من أعيان الدولة الشريفة وفي أثرهم من الطعام ما يكل الواصف عن تكييفه وحصر بعض بعضه، الكل من الدار العالية بالأمر المطاع، وقدم للباشادور من الأطعمة ما يتعجب منه مما لم يشاهد عند عظيمه ولا يوجد ببلاده

ومن الغد اجتمع من العساكر العربية والسوسية والحوزية ما ضاقت عنهم الأرض، وقد كان ورودهم على الحضرة العالية لحضور العيد المبارك مع مولانا المنصور بالله، وقد أضيف لهم من عساكر مولانا المؤيد الملازمين لاعتابه الشريفة أحراراً ووصفاناً عدد كثير، وذهبنا في هذه المجموع بعد ان قدمنا الثلاثمائة من الأسارى المسرحين على يدي سيدنا الكريمتين رجالاً ونساء وصبياناً، وجعلنا على كل رأس واحد من الأسارى كتاباً من كتب الإسلام التي انقذها الله من بلاد الكفر ببركة مولانا المنصور بالله المتخلفة عن عمار المسلمين من العدوة فيما سلف، : مصاحف وكتب الحديث والفقه وغير ذلك، وقد ادخر الله تعالى هذه الفضيلة لسيدنا المؤيد بالله التي عجز من تقدم مولانا نصره الله من ملوك الاسلام اوالحمد لله على ذلك! وفي أثرهم النسوة والبنين الكل يعلن بنصر مولانا ايده الله، واطلقت النسوة بالزغاريت وقدضربت عليهن وعلى الجميع النوبة

وسرنا على هذه الحالة الحسنة، وكل من شاهد أسارى المسلمين وعلى رؤوسهم كتب الاسلام بادرته العبرة من شدة الفرح وصار يحمد الله ويدعو لسيدنا بما نرجو من الله قبوله

ولما قربنا الدار العالية بالله جعلت الأجناد تسرد امامنا قبيلة قبيلة، كل قبيلة تقتفي أثر طوالعها من طلوع الشمس الى ما بين الظهرين، وعند كمال تسراد القوم ورد علينا الأمر المطاع بأن يكون نزول الباشادور باحدى بساتين سيدنا المنصور بالله المسمى بجنان العافية القريب من ديار سيدنا العالية، فاذا هو من اشرف البساتين تخلله جداول من ماء غير آسن،

---

(١) بياض في الاصل

اشتمل على فواكه مختلفة وأزهارٍ متفرقة ومؤتلفة قسمه المهندسُ حال غراسته ارباعاً وجعل في طوله والعرض ما يزيدُ على الثلاثين باعاً، وجعلَ بكلٍ تربيعةٍ صنفاً من الفواكه على حدته، واحاطَ بها حاجزاً من أشجار الرّند ما تُستحسن من نضارته، والفاصلُ بين هذه التّرابيع من الجهات الأربع طرَف فيها جداول تشرق بشروق الشمس وتلمعُ بعين النّاظر لما اشتمل عليه هذا البُستان البهيج، والناشق لعرف أزهاره الذكي الاريج يجد في نفسه نشاطاً ويعمر الزهر جوارحه سروراً وانبساطاً

وقد أمرَ مولانا المؤيّدُ المنصور بضرب قبابٍ من القماش المرقوم بجوامر مذهّبة وشليات وبُسُوط وحسكٍ فضية

وكان ملاقاة سيّدنا نصره اللهُ بأسارى المسلمين في اليوم الثاني من قدومهم على الحضرة العالية، فتلقّاهم أيده الله بالرّحب والسعة وفرح بهم كثيراً وحمدَ الله واثنى عليه حيثُ كان سراحهم على يده الكريمة ووعدهم بكلِ خيرٍ وأمر في الحال بكسوتهم وخيّرهم في المقام بايالته او الذهاب لبلادهم، فاجاب جميعهم باختيار المقام

ثمَّ انَّ سيدنا نصره الله قال لهم: «فمن له اهلٌ وقرابةٌ في بلاده فلا بأس ان يصل رحمَه ويتعاهد أهله، ومن اراد العودة الينا فمرحباً به، ومن لم يكن له أهلٌ ورغب في المُقام لدينا فله منّا ما يسره ان شاء الله»

ولما تعيّن منهم القاصدُ اهله زوّده سيدنا بما فيه خيرٌ له واكرام زيادةً على الكسوة، وأمرَ بحمل جميعهم، وكلُّ مدينةٍ يردُونَ عليها الا وأهلها يبذلون جهدهم في الضيافة والاكرام الى ان يصلوا بلادهم في سلامةٍ وعافيةٍ نساء ورجالاً وصبياناً، وتشيعوا عن سيدنا ادامهُ اللهُ وهم في نعمٍ وافرةٍ الكلُّ داعٍ لسيدنا بالنصر والتأييد

ومن غداة ملاقاتهم بسيدنا المنصور بالله كانت ملاقاة الباشادور مصاحباً لهدية عظيمه، فكان خطابُه لسيدنا المنصور بالله على لسان طاغيته: «انّه يقبّل الأرضَ بين يدي سيدنا المؤيّد بالله ويطلب قبول هديته ويخبره انّهُ واحدٌ من خدّامه وممتثلٌ أمر سيدنا نصره الله في جميع ما يأمر به، وله فرحٌ لهذه المهادنة التي تفضّل عليهم بها سيدنا اسماه الله»

فكان جوابُ سيدنا اعزّه الله للباشادور: «انّ طاغيتكَ مميّزٌ ومقدّمٌ على الطّغاة من الأجناس المصالحين لامتثال أمرنا في شأن الأسارى من المسلمين، وهؤلاء الأسارى المصاحبين لخديمنا مع كتُبِ الاسلام ذلك عندنا فيه كفاية عن هديته، وان كان في غرضٍ عظيمك شيء وهو جائزٌ في ديننا نقضوه له»

وانصرف الباشادور مجبور الخاطر، ومكث في ضيافة سيدنا أيده الله بما يزيدُ على الشهر في بسطٍ وسرورٍ يتواردُ عليه في اليوم الواحد العددُ الكثيرُ من الأطعمة على أصناف وانواع من الدار العالية، كلُّ طعام لا يُشبه الآخر في اواني مذهّبة لا اظنّها عند طاغيتهم، هذا زيادةً على الطعام الذي يستملونه النصارى مما هو مرتّبٌ من لحوم البقرِ والغنم والوحش والطير وغير ذلك ما اذهله ممّا لم يخطر له على بال ولم يسمع بمثله

وقد طلبَ من سيدنا أيده الله ان يسرّح له عشرة من الخيل وقد جادَ عليه بذلك، وكان مرادُه ان يركب من ثغر الصّويرة لما له في ذلك من الغبطة في الوصول اليها، فصار يقدّم رجلاً ويؤخرُ أخرى في طلب ذلك، فاذا سيدنا أيده الله خيّره في مراسيه المحروسة بالله، وأذنَ له في الركوب من ايّ مرسى شاء فحصل على المؤمّل، وأمر أيده الله بحمله الى الصّويرة

ومن جملة اكرامه ايّاه ان ألزم خديمه مصاحبته للثغر واقامته به الى ان يأتي مركب الباشادور وينصرف في بسطٍ وسرورٍ واكرامٍ وبرور، فاستعملنا السير بالأمر المطاع، فما قربنا من الثغر المذكور الا قد برزَ بساحل البحر من به من العسكر احراراً ووصفاناً وانضمَّ اليهم من القبائل ما لا يأتي عليهم الحصر شياضمة واهل حاحة وغيرهم، وأخذ الجميع في اخراج البارود، وجعلت المدافع تخرجُ من الجزيرتين ومن القصبة ومن فم الوادى وقد شاهدنا من ذلك العجب ونزلنا بخيار ديار المدينة

ومن الغد ذهبَ الباشادور لقصبة وطاف بالمدينة، وقد استحسن تشييدها ومبانيها، وقال: «كم كان امدُ بنائها؟
قلنا له: «لم تكمل الستين:» فاستبعد ذلك ولم يصح عنده الاّ من طريق سكانها من النصارى، وبقي متعجباً ممّا شاهده عياناً وما أُخبرَ به في هذا الوقت وغيره

وكانت اقامتنا في انتظار المركب الذي يحمله شهران

ولما وردت سفينته جعلنا له كُمانيةً وافرة جامعة لاصناف المأكولات مناسبةً لأُبهة الاسلام، وتشيعنا معه آخر ربيع الاول

وما زال سيدنا ادامه الله يباشرُ هذا الجنس دُونَ غيره من الأجناس الصالحين وقصدُه بذلك أسماهُ الله تعالى اولاً وثانياً هو انقاذ من بقي من المسلمين ببلادهم وفكاك جميعهم من الأسر

وقد وعدهم أيده الله بذلك، ولم تزل رسائلهم تترددُ على حضرته العالية مُستشفعين بسيد الشُفعاء له في انقاذهم ممّا هم فيه من الأسر، ولم يكن اعزّه الله بغافلٍ عنهم والأشياء موقوفةٌ الى اجلها ولكلِّ اجلٍ كتابٌ!

انتهى

هكذا تنتهي مخطوطة مكتبة مدريد الأهلية:

وقد انتهى والحمدُ لله ربِّ العالمين

كتبته للفاضل الأمجد الفارس الارشد كريم الراحتين ومنتخب الاصلين الحاذق اللبيب الماهر الأريب السيد مصطفى ابن الباي المرحوم بكرم الله الحيّ القيوم السيد محمد باي رحمه الله ورحم ابويه وجعل الفردوس منزلته ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والاموات آمين آمين يارب العالمين



فهرس جغرافي

باسماء المدن والقرى والاماكن الوارد ذكرها بهذه الرحلة مع ما يقابلها باللغة الاسبانية القشتالية

Indice Geográfico

de los nombres de ciudades, aldeas, lugares, puertos y ríos mencionados en esta obra, con su correspondiente en español

Español	عربي
Tánger	طنجة
Ceuta	سبتة
Algeciras	الجزيرة الخضراء
Tarifa	طريفة
Medina Sidonia	غلسانة (مدينة صيدونيا)
Puerto de Santa María	شنت مَريّة (سنتا ماريا)
Isla de León	القناطر (جزيرة الأسد)
Carraca	كرّاكا
Puerto Real	پويرتو ريال
Jerez de la Frontera	شريش الثغر
Lebrija	البريجَة
Villafranca-Palacios	فيلاَ فرانكا — پلاصيوص
Sevilla	أشبيلية
Carmona	قرمونه (كرمونة)
Fuentes de Campana	الفوينطي
Ecija	أستجة
La Rambla	الرملة
Córdoba	قُرطُبَة
El Carpio	الكربيو (الغربي)
Andújar	اندوجر (اندوخر)
Bailén	بايلان
El Visillo	البيسيو
Valdepeñas	بال دي پنياس
Manzanares	مانسناريس

Herencia	إرينسيا
Tembleque	طِنْبليكه
Mora	مُورَه
Illescas	إيسكـا (وشقة)
Getafe	خطافي
Madrid	مجريط (مدريد)
La Granja	لا كرانخا
Segovia	شقوبية
San Lorenzo del Escorial	الاسكوريال
Aranjuez	ارنجويس (ارنخويس)
Toledo	طُلَيْطُلَة
Madridejos	مادريديخوس
Alcázar de San Juan	الكازار دي سان خوان
Socuéllamos	سوكيَاموس
Minaya	ميناَيا
La Roda	الرَّوضة (لا رودة)
La Gineta	لاخِينيتَا
Albacete	البسيطي
Montealegre	مونتيا لـكْره
Yecla	إيَـكْلاَ
Monóvar	المنَوَّر (منوفر)
Elche	إلش (التشي)
Orihuela	أُوريوالة (اوريولَة)
Murcia	مرسية
Cartagena	قرطجنَة
Librilla	البريَّا
Abanilla	ابانِيَا
Lorca	لورقة (لوركا)
Vélez-Rubio	بلِس روبيو
Chirivel	شرِيبل
Cullar de Baza	كويار دي باسا
Baza	بَسْطَة
Guadix	وادي آش
Iznalloz	حصن اللوز
Granada	غَرْناطَة
Santa Fe	شَنْتَفِي (سنطافه)

Dechima	دشمة
Loja	لَوشة (لوخة)
Archidona	أَرشدونة (أَرشيدونة)
Osuna	أَشونة (أوسونة)
Utrera	أُطريرة
Las Cabezas	لَسْكَابيصَاس
Cádiz	قالص (قادس)
Río Martín	واد مرتيل
Tetuán	تِطْوَان (تطاون)
Alcazarquivir	القصر الكبير
Larache	العرائش
Al-Mehdia (Mamora)	المهديّة
Salé	سَلاَ
Rabat	رباط الفتح
Marrakech	مرّاكش
Fez	فاس
Castilla La Vieja	قشتالة القديمة
Castilla La Nueva	قشتالة الجديدة
Andalucía	الأندلس
La Mancha	منشا (منتشا)
Palencia	بلنسية
Ciudad Real	سيوداد ريال
Alicante	القنطي
Tajo	واد تاجُه (طاخو)
Guadalquivir	واد الكبير
Guadarrama	واد الرَّامه (نهرٌ وبلدةٌ)
Zancara (Río)	زانكارا (نهرٌ)
Segura (Río)	سيكورا (نهرٌ)
Vinalopó (Río)	فينالوبُو (نهرٌ)
Genil (Río)	شنيل
Darro (Río)	دارو (هدارو)

ضبط اسماء المدن والاماكن المغربية الوارد ذكرها بهذا المؤلف مع ذكر بعض نبذ من تواريخها

فاس

مدينة اسلامية أسستها الدولة الادريسية، وكانت في الاصل مدينتان: احداهما بعُدوة الأندلس، والثانية بعُدوة القرويين، أسست الأولى سنة ١٩١هـ والثانية سنة ١٩٣هـ وكلاهما في ولاية المولى ادريس بن ادريس، وكانت كلّ واحدة بسور يخصها ثم أزيل فيما بعد وهذه هي فاس القديمة

اما فاس الجديدة فكانت في الأصل مدناً ثلاثة أسست في دولة المرينيين، وهي المدينة البيضاء وتُعرف بفاس الجديد بناها ابو يوسف المريني، ومدينة حمص ويعرف موضعها بالملاح وبه سكنى اليهود، ومدينة ربض النصارى وهي المتخذة لسكنى الفرنج الذين كانوا مستخدمين مع الحكومة اذ ذاك، امّا قِدَمُ حضارة هذه المدينة فشيء معروف بالمغرب فهي المدينة التي تأنّقت أبنيتها ودورها وأخذت زخرفها وزينتها واستبدعت صنائعها وراق زيّ اهلها، وامّا المعارف بها فهي كما قالوا بحق: «وارثة عاصمتين عربيّتين عظيمتين: قُرطُبة عاصمة الأندلس، والقيروان عاصمة افريقية:»

فبعد ان كانت كُلّ واحدة منهما داراً من دور العلم والعرفان يُقصد ان للرّواية والدراية والتخرج في العلوم المتنوعة، اصبح ذلك كله بعد اختلال احوالهما تراثاً لعاصمة فاس بانتقال الاساتذة والعلماء اليها، وامّا ما جرى فيها من الوقائع المهمّة والمعارك الدامية والثورات على السلاطين والملوك فشيء يستدعى التصدي لشرحه الاسفار، ومع هذا كله لم تخرج عن مغربيّتها ولم تدخل تحت حكم أجنبي قط الاّ ما كان من طمع تركيا ايام الدولة السعدية في الاستلاء عليها لمّا استولت على بادس ولكن لم يتم لها ذلك

مكناس

هي مكناسة الزيتون أُضيفت للزيتون لكثرة زياتينها ولتمييزها عن مكناسة تازا، لان من قبائل زناتة قبيلة تدعى مكناسة منها فخذ بتازا ومنها فخذ بهذا الموضع المسمى بمكناس، وكانت في الاصل منازه وقرى كثيرة ولم تكن ممدّنة وليس بها سور ولم يكن تسويرها الاّ بعد ان ثار الموحودون على المرابطين

وحينئذٍ شرع المرابطون في تحصين المدينة، ولم تزل في عداد البوادي الى ان اكتست حضارة بعد القرن السادس الهجري وزيد في جامعها وأُحدث فيها اصلاحات نقلتها من طور البداوة الى طور الحضارة وذلك كله ايام الدولة الموحديّة ثم لم تزل متقدّمة في الحضارة والعمارة والاتساع في الرفاهيّة والثروة ولا سيما في عهد الدولة المرينية الى ان ثار السعيد المريني اوائل القرن التاسع فنقض عمرانها وانجلى عنها السكان، ثم سطع سعدها بطلوع الدولة العلويّة الشريفة في افقها فاصبحت ايام السلطان المولى اسماعيل محل اعتبار الدولة ومقر ملكها وعاصمتها الأولى فكم أسس فيها المولى اسماعيل من مشاريع وابقى فيها من آثار ولا زالت تُعرف الى الآن بالعاصمة الاسماعلية

تطوان او تطاون:

مدينة ورد ذكرها قديماً ولكن باسم قرية او حصن كما ذكرها بذلك صاحب نزهة المشتاق الذي كان في اواسط

القرن السادس الهجري، ثم لما كان القرن الثامن الهجري وجهت الدولة المرينية اعتنائها الى هـذه القصبة اذ قام سلطانها ابو ثابت ببنائها وتحصينها ولكن كان قصده من ذلك ان يجعلها مركزاً حربياً يمكن له منها ان يشدد الحصار على مدينة سبتة التي كان قد تحصن بها الثائر ابو العلاء المريني، ثم لما اصبحت تطوان مرفأ للقراصين المتجولة بهذا البحر التي كانت تغير على بعض الموانىء الاسبانية، قامت اسبانيا للانتقام فوجهت اسطولاً حربياً اغار على تطوان وانزل جنده بها وخربها وبقيت على خرابها الى ان سقطت مملكـة غرناطة، فخرجت جماعة من جاليتها ونزلت بوادي مرتيل، ومن هناك مثلوا بين يدي سلطان المغرب اذ ذاك وهو محمد الشيخ الوطاسي فقابلهم بالترحيب وعين لنزولهم تطوان هـذه الخربـة وولى عليهم كبيرهم ابا الحسن المنظري دفين باب المقابر من هذه العاصمة، وكان ذلك سنة ٨٨٨ او سنة ٨٩٧هـ ومـن هذا التاريخ وتطوان آخذة في التقدم والعمارة، وشهرة ابنائها وذكائهم وانتصابهم للوظائف العالية جعل لها مركزاً عالياً في العالم العربي ولم تزل كذلك الى ان انتقضت المعاهدة مع الدولة الاسبانية سنة ١٢٧٦هـ وانتشبت الحرب بينها وبين المغرب التي اسفرت عن انتصار اسبانيا واحتلالها تطوان، ثم بعد ذلك عادت تطوان للدولة المغربيـة بمقتضى عقد الصلـح سنة ١٢٧٨هـ ولم تزل كذلك الى ان تم عقد الحماية على المغرب فدخل جيش اسبانيا تطوان تحت قيادة الجنرال الفو يوم المولـد الشريف من عام ١١٣١ هجري

تـازا :

ويقال لها رباط تازاهي لجهة قطر الجزائر بينها وبين تلمسان نحو سبع مراحل وبينها وبين فاس ثلاث مراحل وهي من تأسيسات عبد المؤمن بن علي أسسها وحصن سورها سنة ٥٥٩ هجرية

سبتـة :

مدينة قديمة حتى يقال انها سميت باسم سبت بن نوح وانها اول ما أسس من المدن بالمغرب الأقصى، وعلى كل حال فهي من القواعد القديمة بالمغرب، ولما جاء الاسلام واحتل موسى بن نصير هذه الناحيـة الفى سبتة ولاية من ولايات القوط اصحاب اسبانيا (الأندلس) والوالي من قبلهم بها يومئذ يليان البربري الغماري فعقد مع موسى معاهدة على ان تبقى ادارة سبتة تحت نفوذ يوليان في مقابلة جزية يؤديها سنوياً لموسى، واستمـر الحال كذلك الى ان مات، فحينئذ ألغيت هذه المعاهدة ودخلت سبتة تحت حكـم الاسلام مباشرة، ثم لما ثار بطنجة ميسرة البربـري الخارجي زحف اشياعه الى سبتة واخرجوا منها العرب وخربوهـا وبقيت خربة الى ان أسلم ماجكس احد وجهاء البربر من غمارة فأسس بها دولة مستقلة استقلالاً داخلياً تحت سيادة الادارسة ملوك فاس، وتوارث هذه الدويلة بنوه، وهم بنو عصام، وبهذا الاسم اشتهرت هذه الدويلة ولم تزل متداولة بينهم الى ان انتزعها منهم الناصـر الأموي سلطان الأندلس، واستمرت كذلك الى ان استقلت بالمغرب الدولة اللمتونية ثم الموحدية ثم المرينية، فاصبحت تحت نفوذها ولكنها كانت دائماً تحاول الاستقلال

ولما كان آخر الدولة المرينيـة استولت عليها دولة البرتغـال ثم بقيت تحت نفوذها الى ان احتلتها دولة اسبانيا بمقتضى معاهدة لشبونة في حدود سنة ١٠٨٠ هجرية

طنجـة :

مدينة قديمة قيل انها أسست قبل المسيـح بمئين من السنين، وكانت لها شهرة عظيمـة لكونها قاعدة هذه البلاد وبها مستقر الحاكم العام في الغالب، وفي بعض الأحيان تكون مشمولة لحاكم سبتة، وجاء الفتـح الاسلامي وهي من عمالة

سبتة اذ كان الوالي عليها اذ ذاك يليان الغماري الذي مقرّه سبتة، واوّل قائدٍ مسلم وطيء تراب طنجة هو عقبة بن نافع وذلك سنة ٦٢ هجرية وقيل عبد الله بن ابي سرح ايام الخليفة عثمان بن عفان، كما يقول بعض مؤرخي الفرنجة

ومنذ فتح عقبة طنجة وهي في انتظام وخضوع لخليفة الاسلام الى ان ثار بها ميسرة الخارجي ورام تأسيس خلافة هناك، ولم يلبث قليلًا حتّى فاجأه فتح موسى بن نصير الذي عـم سائر انحاء المغرب وولّى على طنجة طارقاً المشهور الذي سميَ باسمه جبل طارق وجعلها مركزاً حربياً، واستمرّت تحت حكم المغرب الى ان اعتلّت دولة المغرب واختل نظامها فاغتنمت دولة البرتغال الفرصة وزحفت اليها مـن سبتة فاستولت عليها وذلك سنة ٨٦٩ هجرية، ولم تزل بها حتّى انتزعتها منها دولة انكلترا وبقيت بيدها الى ان جاءت الدولة العلويّة الشريفة فقام بطلبها المقدام المولى اسماعيل واخرج منها انكلترا بواسطة قائده علي الريفي وذلك سنة ١٠٩٥ هجرية

ولم تزل تحت حكم الدولة الشريفة الى ان أعلنت الحماية على المغرب سنة ١٩١٢ فخصت بنظام جديد يعرف بالنظام الدولي، ثمّ الغيَ هذا النظام سنة ١٩٤١ ورجعت اخيراً الى سلطنة المغرب وأُتبعت للمنطقة الخليفية

العرائش :

هذه المدينة بهذا الاسم محدثة، والمدينة الشهيرة بتلك الناحية هيَ تشمش الخربة ولم تشتهر بهذا الاسم الاّ في ايام المنصور الموحدي فانه لما انزل بها العرب الهلاليين وجعلوها قاعدة رياستهم اطلقوا عليها اسم العرائش ثم بعد ذلك اغار عليها اسطول برتغالي فهدمها وبقيت خربة الى ان نزل بها البرتغاليون ثانية سنة ٩١٠ هجرية واستمروا بها الى ان طردهم منها المنصور السعدي سنة ٩٨٦ هجرية فاعتنى بأمرها وشيّد قصبتها

ثمّ في سنة ١٠١٩ هجرية ساعد محمد الشيخ السعدي اسبانيا على احتلالها فاحتلها الى سنة ١١٠١ هجرية فانتزعها منها السلطان المولى اسماعيل العلوي، وبعد ذلك وقعت عليها غارات بحريّة من فرنسا والبرتغال ولكن ردوا عنها ولم تزل تحت حكم الدولة العلويّة الشريفة الى ان أُمضي عقد الحماية على المغرب

سلا :

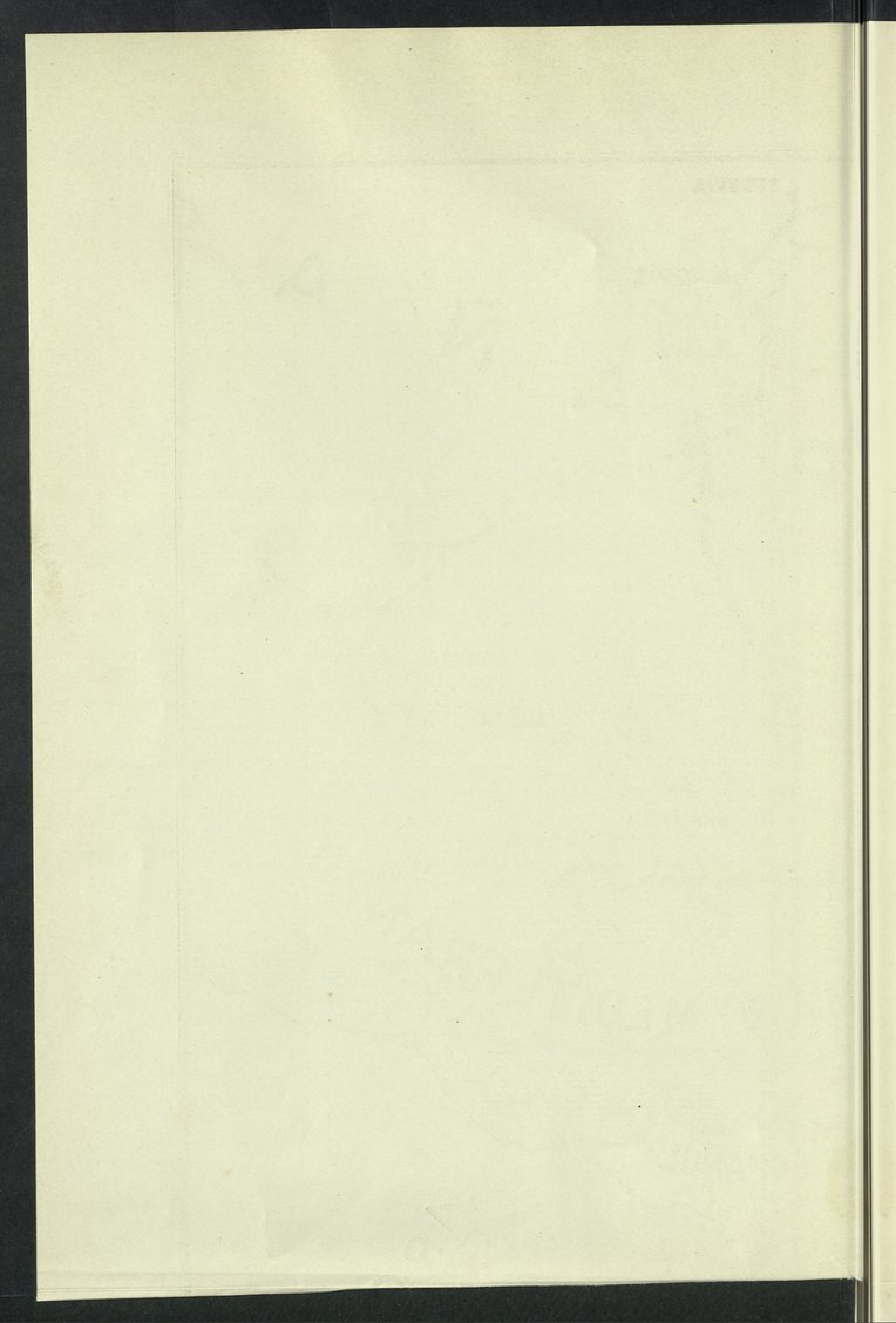
مدينة قديمةٌ يقولون انها فينيقيّة وهي على نهر ابي زقراق وكانت في صدر الاسلام ثغر الدولة المغربيّة ومرفأها الحربي، وبها تُبنى السُّفنُ وهي فرضة فاس التي منها الاصدار واليها الايراد كما انها كانت لها اهمّية كبرى في تلك العصور، امّا الآن فانتقلت تلك الاهمية لجارتها الرباط

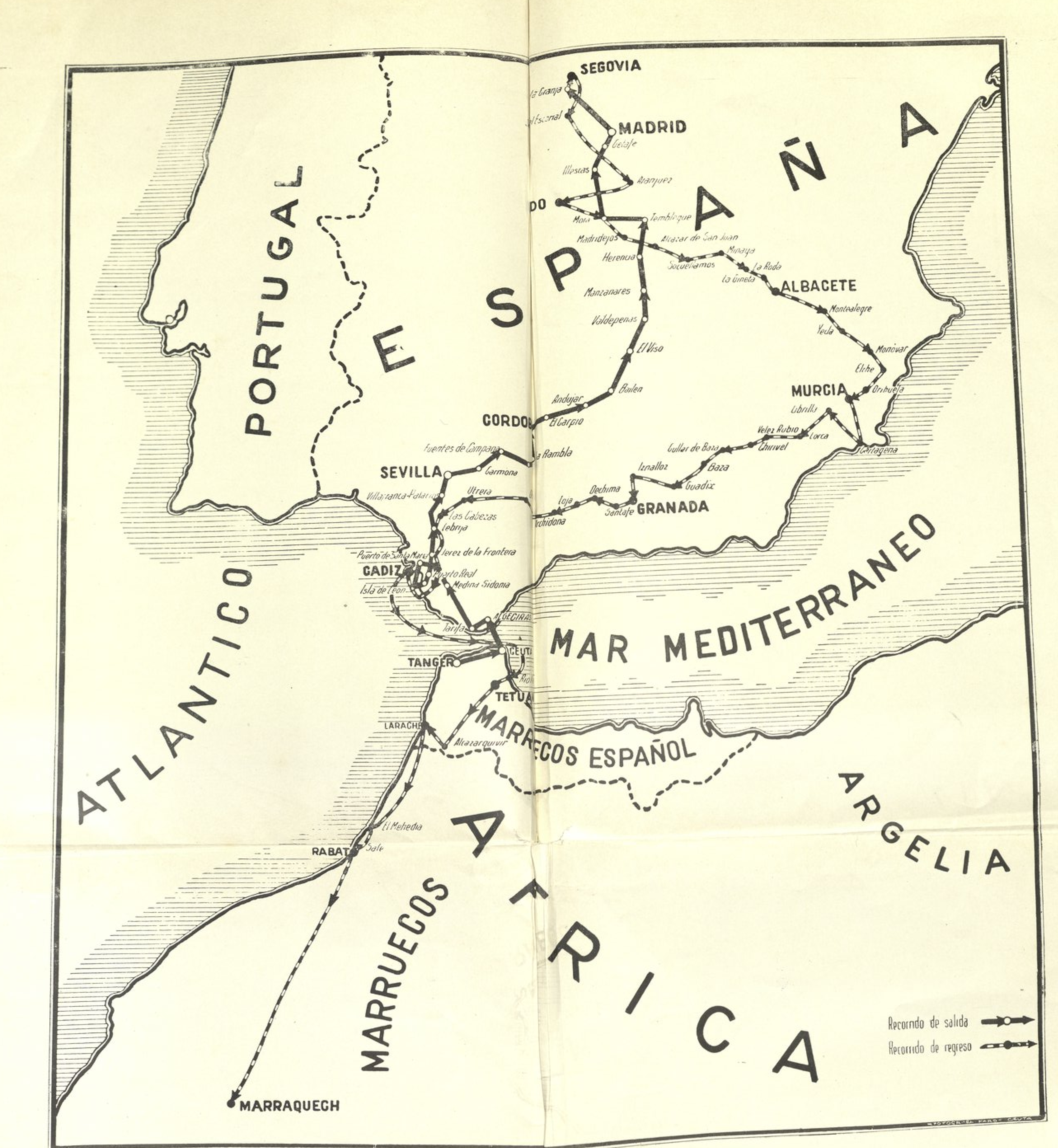
وهذه المدينة مُنذ الفتح الاسلامي وهي تحت حكم دُوَله لم تحتلها دولة أجنبيّة، الاّ ما كان من استيلاء اسبانيا عليها ايام المنصور المريني سنة ٦٥٨ هجرية ولكن غادرتها حيناً

الصويرة :

هي من مؤسّسات الدولة العلويّة الشريفة أسّسها السلطان المولى محمد بن عبد الله ولم يألُ قدّس الله روحه جهداً في اتقان وضعها وتأنّق بنائها، حتّى انه استعمل لذلك طرقاً ناجحة، فقد اسقط الرسوم الديوانيّة (الجمرك) عن التجار هناك مدّة كما انه جلب اليها ارباب الحرف والصنائع من عاصمة فاس واستقدم اليها ايضاً من العاصمة المذكورة اساتذة ليقوموا بنشر العلم، وكان تأسيسها سنة ١١٧٨ هجريّة

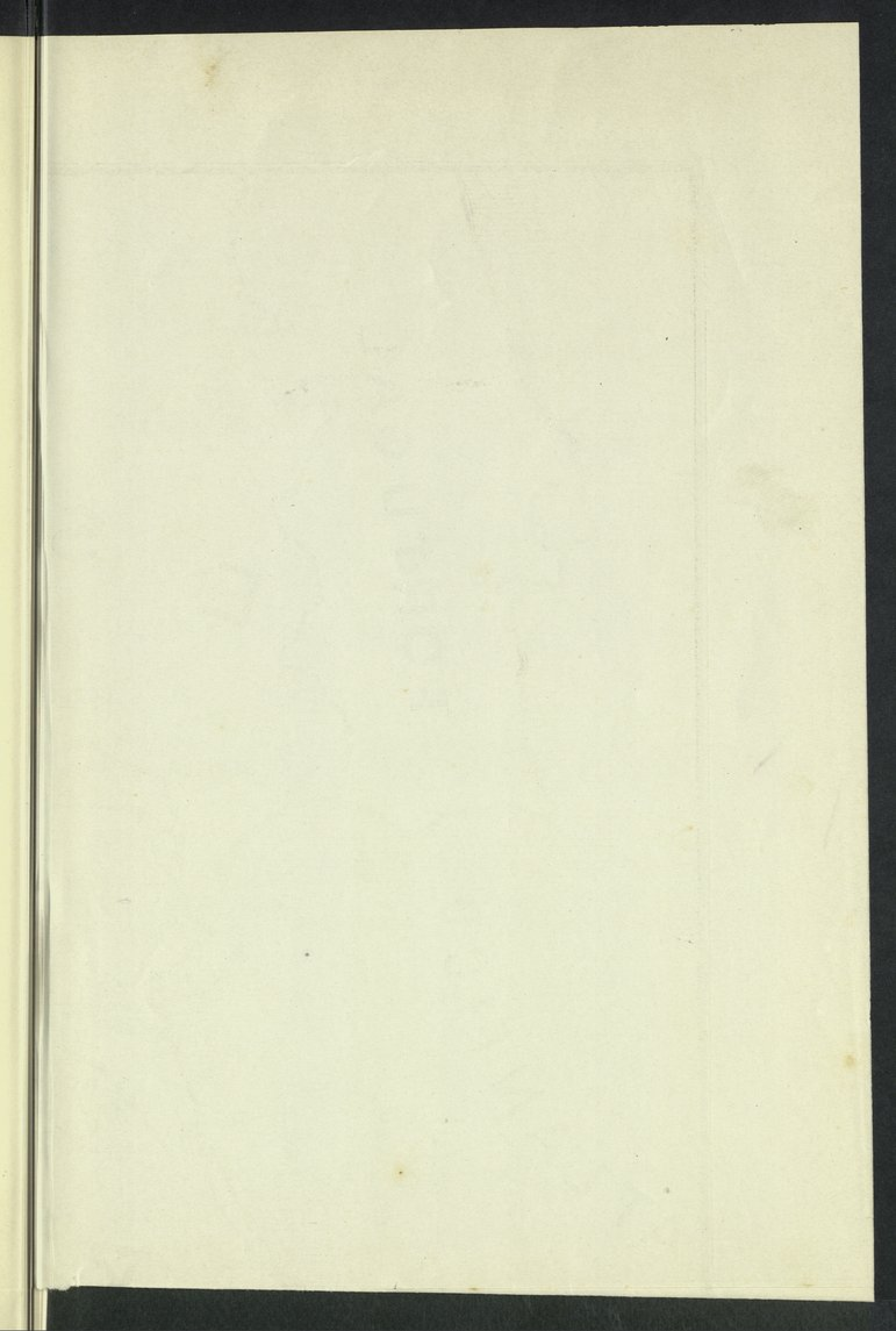
تم طبع هذا الكتاب
في مطابع
الفنون المصوّرة، بوسكا
العرائش (المغرب)
في ٢٢ ابريل
سنة ١٩٤١





Mapa del itinerario seguido por Algazzal
en su viaje a través de España.

خريطة
تبين الطريق التي سلكها الغزال في رحلته



SE IMPRIMIÓ ESTE LIBRO
EN LOS TALLERES
ARTES GRÁFICAS BOSCÁ
DE LARACHE
Y SE TERMINÓ EL DÍA
XXII DE ABRIL
DE MCMXLI

Como apéndices de esta edición impresa, hemos agregado algunos cuadros e índices geográficos e históricos, poniendo, al par de los términos árabes, los correspondientes vocablos castellanos. Las palabras difíciles, los barbarismos, los términos y denominaciones españolas, así como las expresiones vulgares usadas en Marruecos, van explicadas suficientemente en notas y comentarios. También hemos adornado el libro con dibujos, grabados y mapas. Por fin, a continuación de nuestro prólogo, hemos dado una biografía completa de Muley Mohamed ben Abdalá, así como un artículo sobre el estado de Marruecos y sus manifestaciones culturales en la época de dicho sultán.

Esperamos haber llenado, con la edición de este inestimable volumen, un vacío en el mundo de las publicaciones marroquíes y haber incorporado al acervo de la literatura árabe una página magistral, reflejo del floreciente estado de las letras marroquíes en el siglo XVIII. Pensamos, por fin, haber puesto en las manos de literatos y críticos un texto completo de tan magnífica obra, establecido a la luz de las fuentes y de todos los recursos de la investigación.

Y ya no nos queda espacio más que para elevar el sentimiento de la más profunda gratitud a la Dirección y empleados de la Biblioteca Nacional de Madrid por la devoción y ayuda manifestadas al poner a nuestra disposición este códice y al remitirnos obsequiosamente valiosos documentos relacionados con esta materia. En esta parte, tenemos que hacer especial mención del meritísimo y Rvdo. Padre Zamora, así como del muy docto encargado de la sección de manuscritos árabes, Padre Longas. No menor agradecimiento debemos al cultísimo investigador Sr. Montalbán.

Damos también las gracias a D. Carlos Quirós, director del Centro de Estudios Marroquíes, quien, además de haberse encargado de la traducción del prólogo, nos ha ilustrado acerca de algún punto importante, de carácter histórico. No menos agradecidos hemos de mostrarnos con el tan docto como minucioso jurista y concienzudo historiador Sidi Mohammed El Murir, Presidente del Tribunal Supremo de Apelación xeránica, por sus informaciones sobre vocalización de términos toponímicos marroquíes y por habernos ilustrado sobre varias fuentes fidedignas, referentes a la materia tratada en el libro. También es deber nuestro hacer en este lugar los más cumplidos elogios de la bondad del Presidente de la Junta Superior de Enseñanza Islámica, el doctísimo alfaquí y gran historiador de Tetuán El Hach Ahmed El Erhoni, quien, a más de poner a nuestra disposición su espléndida biblioteca, nos ha suministrado con toda largueza valiosos e inestimables datos.

A todos, pues, las más rendidas gracias.

INSTITUTO GENERAL FRANCO

PARA LA INVESTIGACION HISPANO-ARABE

Alfredo Bustani

Tetuán-Tánger, 8 de Abril de 1941.

de esa nacionalidad eran recibidos con verdadero entusiasmo y con toda clase de honores en el mencionado palacio. Venían, pues, a ser, a manera de eslabón que unía a ambos estados. Muley Ismael sentía por ellos un gran afecto y contaba entre ellos verdaderos amigos, principalmente entre los padres recoletos, como se desprende de los textos oficiales.

Todavía se soldaron más los lazos de esta amistad en tiempos de Muley Mohammed ben Abdalá. Tuvieron en esto parte principal los Padres Franciscanos, y en primer lugar el P. Girón, que fué el que logró captarse el afecto del Sultán y acordar directamente con él, en nombre del Rey de España, la conclusión de un tratado de paz y de liberación de cautivos por ambas partes. Siguió inmediatamente, por parte de Muley Mohammed ben Abdalá, el envío a España de un embajador que había de entrevistarse con el monarca y llegar con él a un acuerdo en la redacción de los textos para el tratado principal (el de paz), y para fijar las condiciones de liberación de los cautivos. Habiendo llegado el embajador Ahmed Algazzal y el Rey de España a un acuerdo satisfactorio, con ventaja para ambas partes, envió Carlos III al Sultán de Marruecos una embajada presidida por Jorge Juan y por el P. Girón, embajada que en la entrevista con Muley Mohammed, cerró definitivamente el tratado, tanto respecto a la paz como a la liberación de cautivos.

Así es como se llegó, por fin, a la solución del problema de los cautivos, que por espacio de varias centurias había preocupado a los estados europeos. Es de justicia reconocer que los religiosos españoles encontraron toda clase de apoyo en el trono de España y que el monarca español les proveía de recursos económicos, a más de mandarles, sin previa garantía, todos los cautivos marroquíes que los religiosos pedían para ser canjeados por cautivos españoles.

Procedimiento que hemos seguido en la publicación

Hemos adoptado en la edición de este manuscrito el aparato crítico, inquisitivo, comparativo e inductivo que exige una publicación científica moderna. Esa es la línea que el INSTITUTO GENERAL FRANCO se ha trazado para realizar todas sus publicaciones.

De ningún libro relativo a esta materia hemos despreciado la lectura, de ninguna fuente digna de crédito hemos olvidado el estudio. Hemos consultado, asimismo, lo consignado en los registros de los cabildos municipales de las comarcas españolas atravesadas por el embajador. Del libro en sí mismo hemos hecho un estudio interno, extrayendo su texto de los varios manuscritos por nosotros hallados. Están en su mayor parte alterados y corrompidos, si exceptuamos el códice de la Biblioteca Nacional de Madrid, que es, de todos ellos, el más libre de faltas y erratas. Su texto, casi íntegro, es el que ha servido de base a nuestra edición[1].

Hemos tenido que corregir el manuscrito, enmendando lo alterado por la mano del copista y restaurando lo maltratado por la polilla. El prólogo del autor va vocalizado en su totalidad; y el resto del libro, en diversos puntos, con objeto de que la utilidad que se pretende sea completa y para que sirva como ornato del volumen y como contribución a su buena presentación externa.

---

(1) Biblioteca Nacional de Madrid. Manuscrito 5.116.

ALGAZZALI AHMAD (Ben Almehdi). Manuscrito, papel 4.°, 14 líneas por página.

Consta de 205 folios; magrebí, mociones; al principio 4 folios en blanco; en los dos siguientes varias notas en francés y castellano, de las cuales resulta que este manuscrito fué comprado por M. Louis Morel en Orán y regalado por el mismo, mediante el Cónsul de España en Saigón, al Museo Arqueológico de Madrid, de cual, por orden del Gobierno, fué trasladado a esta Biblioteca en 30 de Abril de 1869; el nombre del autor aparece en el verso del primer folio, que está mineado; epígrafes en varios colores (estos colores ya muy desvaídos), dos folios con notas en lápiz al fin; encuadernación magrebí.

Contiene el relato de una Embajada que envió a España el Sultán de Marruecos, Abu Abdallah Moh. ben Abdallah Almanzor Billah, en 1179—1765-1766—relatada por el mencionado escritor, natural de Fez, con muchas curiosas noticias de poblaciones españolas.

lativas a la cuestión de los cautivos y habida cuenta del afecto que sientes por los musulmanes.»

A pesar de los textos históricos citados, todavía no nos dimos por satisfechos con la versión dada por Algazzal, hasta después de comprobados sus puntos de vista fundamentales con los documentos españoles, franceses y marroquíes, a que hacemos referencia en las notas.

El actual movimiento científico en Marruecos

Brillan hoy en el cielo de esta querida tierra marroquí, gobernada por el emir amado [1] los fulgores de un movimiento literario, cuyas primicias prometen una mies abundante.

Por las venas de animosa juventud marroquí corre un espíritu nuevo que levanta bandera de renovación y resurgimiento. Levántanse templos del saber; créanse imprentas y bibliotecas, medios fecundos de un renacimiento moderno.

Pero en el fondo de estos anhelos pueden observarse dos ideas que rivalizan y entrechocan en muchos puntos; una idea radical de transformación que pretende arrasar con su torrente devastador todo lo que es viejo, y una idea conservadora, momificada, que quisiera ahogar todo lo que es actual y moderno. Y aunque yo soy partidario de una renovación, no puedo, sin embargo, augurar bien de una transformación revolucionaria que no se avenga con el espíritu del ambiente y con la mentalidad del país, desprovisto de capacidad y preparación suficiente para un renacimiento. Por otra parte, mi opinión tampoco es favorable a una tradición ciega, a un estado de fosilización, a un tradicionalismo momificado.

De todos modos, no dejo de considerar inestimables los servicios de los conservadores, ni quiero rebajar su mérito, ya que a ellos debemos la custodia de esos tesoros y monumentos del idioma árabe, con tanto tesón defendidos contra las arremetidas de los siglos. De la luz proyectada por los espíritus conservadores participamos hoy; de sus conocimientos nos servimos, puliéndolos y observándolos a la luz de los tiempos actuales; y después de imprimir en ellos el espíritu ambiente, los encauzamos por la corriente de la vida moderna. Unos y otros hemos de marchar *viribus unitis*, por la senda trazada por la ciencia moderna y el espíritu de la época.

Que para todos estos fines cuenta Marruecos con un buen plantel de sabios y juristas, de conservadores y hombres modernos y con un magnífico equipo de cultivadores del idioma. Y de tal mérito, que constituyen un motivo de orgullo, siendo muy pocos los que se les puedan igualar.

Haya, pues, equilibrio y ponderación en nuestra juventud, así como facilidades y tolerancia por parte de los viejos, para que podamos encontrarnos todos en el camino recto que conduce a las puertas de un renacimiento. Que es con la sabiduría de los viejos y el impulso de los jóvenes, como pueden levantarse palacios sólidos a la nacionalidad.

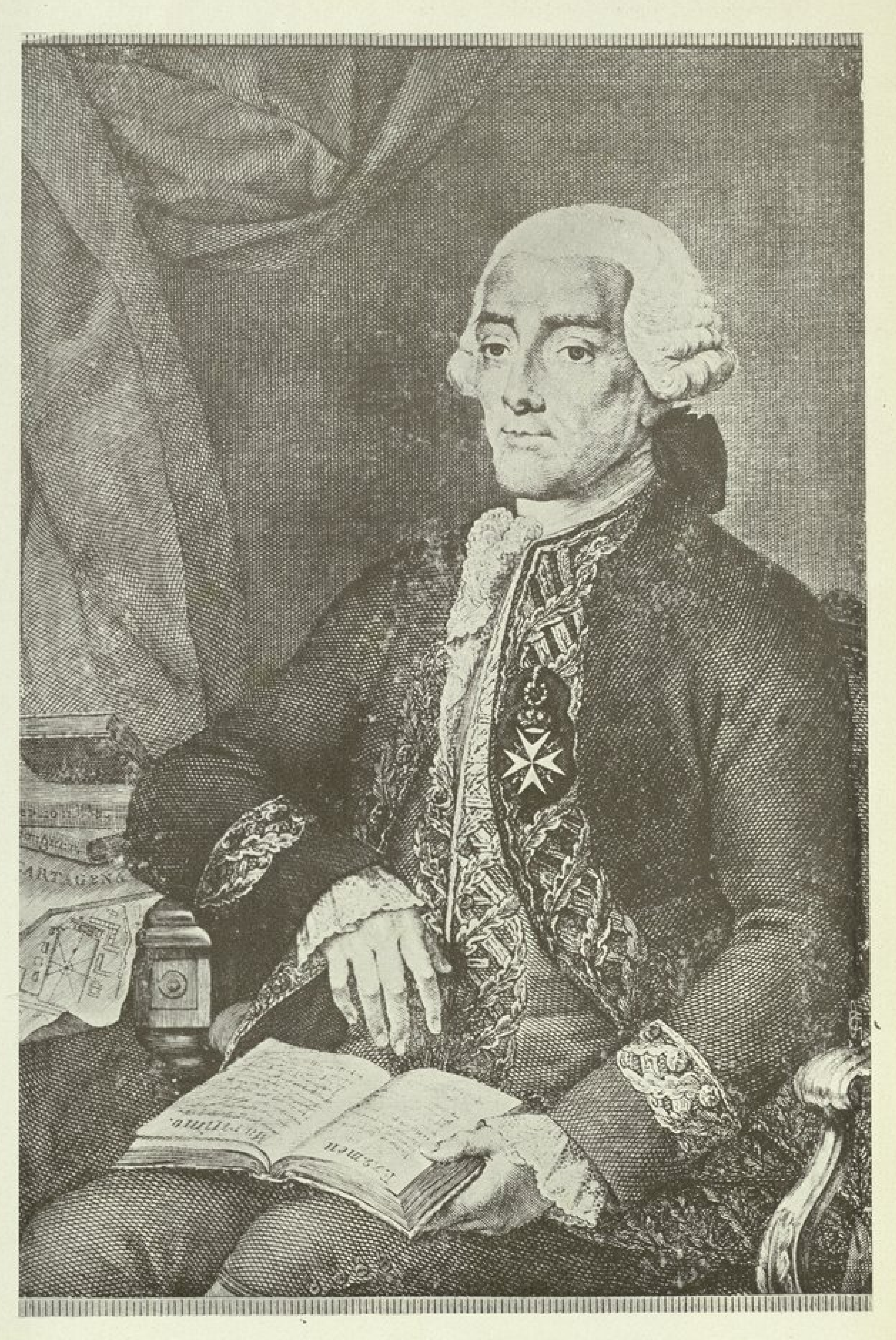
La cuestión de la liberación de los cautivos, tanto musulmanes como cristianos

I.—Los religiosos españoles en Marruecos.

II.—Ahmed Algazzal en España. Jorge Juan y el P. Girón en Marruecos.

Era España la única nación cuyas palabras eran escuchadas en el palacio real del sultán de Marruecos, y la única que podía ocuparse de los cautivos, debido a que los religiosos

(1) *Si dices «el monarca», y no le nombras*
Ya sabe el vulgo bien a qué rey aludes.
He procurado imitar en estos dos versos, el metro *wafir* del original. *(Nota del traductor.)*



Jorge Juan, enviado extraordinario de Carlos III a Mulay Mohammed Ben Abdellah, Sultán de Marruecos.

(Museo Naval.)

جورج خوان سفير كارلص الثالث الى سلطان المغرب مولاي محمد بن عبد الله

(المتحف البحري)

En resumen: Algazzal es literato más bien que poeta.

La obra literaria más famosa de Algazzal es su libro *Consecuencia del esfuerzo en la paz y en la guerra*. En él está consignado todo lo que pudo observar en España en el campo de la cultura, en los dominios de la civilización y en materia de moral y costumbres del pueblo español. En la obra quedan registradas también las impresiones del autor sobre los soberbios monumentos y elevada cultura de los árabes andaluces.

No se olvida tampoco de poner de relieve sus opiniones y memorias políticas y diplomáticas, al par que el resultado de sus conversaciones con Carlos III de España; todo ello narrado con un estilo atrayente y ameno.

El INSTITUTO GENERAL FRANCO ofrenda ahora esta joya sin par a los honorables literatos árabes y a los grandes sabios de ambos pueblos, enamorados del arte, de la literatura y de la historia.

El valor del libro

SU VALOR LITERARIO.—Es una página magistral del estilo descriptivo en el siglo XVIII. El lenguaje es correcto; hay elocuencia y solidez; la expresión es elegante y revestida de un estilo atrayente, aunque salpicada de términos españoles que, como justificadas por necesidades de elocución, no empañan el esplendor de la redacción.

VALOR ARTISTICO.—En esta parte resplandece el talento artístico del escritor, quien nos da, con sus descripciones y análisis de medidas y formas arquitectónicas, una imagen viviente de la descripción artística en el terreno de la edificación, tal como no podría hacerla el más célebre arquitecto y el más consumado artífice. Vémosle allá en la *sala de embajadores* del Alcázar de Sevilla—y bien conocido es el supremo arte morisco que resplandece en el sevillano alcázar—extenderse en eruditas consideraciones, describiendo, investigando, criticando, con los instrumentos de medición en la mano y con un profundo conocimiento del arte en la fantasía.

VALOR HISTORICO.—El valor histórico del libro déjase ver ya en el mismo prólogo del autor. Legónos éste el texto histórico más verídico acerca de las relaciones diplomáticas entre España y el imperio magrebino a mediados del siglo XVIII y acerca de los lazos y contactos que, debido a la vecindad y a la comunidad de intereses, se habían establecido entre ambos estados, con el inevitable cortejo de sucesos, vicisitudes y transformaciones, de esta situación derivados. Y bien que en la narración de Algazzal se note cierta exageración e hipérbole, con todo, los textos están conformes con los documentos oficiales.

El principal intento de Algazzal era desempeñar de la mejor manera posible el cometido que había echado sobre sus hombros y dejar así satisfecho a su soberano; tal fué lo que le obligó a incurrir, a veces, en exageraciones. Tampoco se limitó Algazzal a mencionar las relaciones entre España y Marruecos, sino que sus informaciones abarcan también las conversaciones entabladas en aquel tiempo entre su nación y otros estados europeos. Pero después de comparar, contrastar e inducir, llegó a la conclusión de que la amistad con España era la preferida por su señor y por los marroquíes. Por eso, al preguntarle Carlos III por su sultán, oímos a Algazzal hablar al monarca español en los siguientes términos: «Nuestro Señor está bien, gracias a Dios. Dios le ayuda y protege. Por cierto que él—Dios le auxilíe—nos ha ordenado que te informemos y signifiquemos la gran consideración en que te tiene, tal como no la dispensa a ninguno de los soberanos extranjeros con quienes tiene firmados convenios. Te digo que tú eres el preferido y el privilegiado—tú y el último de tus súbditos—en atención a que se van cumpliendo las órdenes de nuestro respetado señor, re-

quía, el famoso poema en metro *rachaz*. Recitada en una solemnidad habida en la corte de Muley Mohamed ben Abdalá, obtuvo la mejor acogida por parte de este sultán, que gratificó con esplendidez al poeta y le incorporó a su corte.

El poema, que es una joya de la poesía árabe, recoge muchos de los motivos de la literatura y abunda en sentencias y agudeces alusivas a la historia de los árabes y de sus hombres más famosos.

Cuidáronse de comentar y editar la *Xamaqmaquía* varios sabios y literatos, entre ellos Mohamed el Chariri el Sulwi (murió en 1240-1824); El Tahir ben Al-Inaya el Meknasi; El Mekki el Baturi el Rebati; el Salawi, autor del *Istiksa*, y otros. Ultimamente ha aparecido un afortunadísimo comentario del poema, obra del conocido historiador y literato marroquí, nuestro querido amigo el profesor Abdalá Guennún el Hassani.

LA *XAMAQMAQUÍA*.—Consta de 270 versos con rima en letra *qaf*.

Sus partes:

1.° *El Nasib*. Menciónase la partida de las personas amadas y descríbense los camellos que las portan.

2.° Discreteos sobre las cualidades de la amada y sobre las prendas y dotes que la adornan.

3.° Motivos sobre heroísmo y jactancia. Interpelación al envidioso.

4.° Sentencias y proverbios. Elogio de la poesía.

5.° Ditirambos al Sultán Mohamed ben Abdalá.

6.° Alabanzas, algo hiperbólicas, a su propio poema.

Ibnu-l-Winan es autor de otras varias poesías menores, en elogio de Muley Mohamed ben Abdalá, todas ellas de estilo elevado.

ALGAZZAL

Trátase de Abul-Abbas Ahmed ben El Mehdi Algazzal El Himyari el Andalusi el malagueño, el de Fez. Murió en 1191-1777.

Era poeta que componía con naturalidad, escritor de dotes literarias, elocuente estilista, de abundante materia, de delicada expresión y de bella invención. Era jefe de redacción oficial en la corte de Muley Mohamed ben Abdalá.

CARACTERISTICAS DE SU ESTILO.—Solidez en la expresión, elocuencia en el pensamiento, perfección en la frase. Su prosa rimada tiende, en ocasiones, al amaneramiento, sin llegar a ser empalagosa.

SUS OBRAS LITERARIAS.—Consisten en varios poemas sueltos, en los cuales canta las alabanzas de Muley Mohamed ben Abdalá. El poeta se había jurado a sí mismo «no emplear en los elogios de su soberano recurso literario alguno que estuviese al alcance de sus colegas, sino que cada año habría de inventar él otras novedades, y tan originales y variadas, que habrían de causar admiración.» Manifestaciones son éstas evidentemente exageradas e hiperbólicas. También es autor de tres valiosas epístolas poéticas:

Epístola 1.ª *Los rubíes literarios en el cuello del imperio de Mohammed*.

Epístola 2.ª *Novedad geométrica y sabiduría ajedrecística recreativa*.

Epístola 3.ª *Consecuencia de revelación extraída de la primera sura*.

Todas estas obras son verdaderas joyas reveladoras del gran talento del escritor, literato y poeta, así como de su dominio de las artes de la poesía y de los recursos de la métrica.

No hay, sin embargo, en los versos de Algazzal, la facilidad y dulzura que caracterizan a los de Ibnu-l-Winan.

menos que conozca el manejo de los varios recursos que embellecen el lenguaje. Escasean las obras, la producción literaria adolece de sequedad, y la redacción tórnase una mera serie de cláusulas en prosa rimada, amanerada y empalagosa. Llégase hasta el extremo de que escritores oficiales sean incapaces de escribir para el público algo de su propio marte. Y vienen entonces los formularios para la redacción de documentos oficiales y los epistolarios con modelos para la correspondencia familiar, de los cuales copia el corresponsal, en cada caso, la carta que conviene a su propósito.

Mejor mercado tenían en Marruecos los valores de la lengua árabe, debido a la ausencia casi total de elementos extraños que la deformaran y a que, siendo los sultanes de estirpe árabe, lograron con su patriotismo, popularidad y celo por la religión, defender y conservar el feudo y patrimonio del idioma arábigo y supieron honrar y rodearse de los literatos y poetas que lo cultivaban. Y como dinastía y pueblo compartían los mismos gustos y, sobre todo, la misma religión, contagiáronse los súbditos del amor a la ciencia y empezaron a rivalizar entre sí en la adquisición de las mejores obras y libros.

Así es como fué creciendo la producción literaria y multiplicándose el número de cultivadores de la ciencia.

Fué la subida de Muley Mohamed ben Abdalá al trono de Marruecos una de las causas que más influyeron en las manifestaciones de aquel movimiento cultural. El Sultán, al par que exaltaba la importancia de la lengua árabe, fijando los hitos para su estudio y erigiéndola en fanal de luz, decidióse a conceder a las gentes de pluma los mismos honores que ya había otorgado a las gentes de espada, logrando reunir alrededor del trono un selecto y privilegiado grupo de grandes sabios y excelentes poetas. El resultado fué la inauguración de una época de florecimiento literario y científico en un ambiente de paz y tranquilidad públicas, ya bien consolidadas en todas las comarcas del Imperio.

Convirtióse entonces el regio alcázar en un centro literario, en una asamblea científica a la cual acudían poetas, escritores y hombres doctos en las más diversas especialidades a presentar las brillantes producciones del espíritu, las originales creaciones del pensamiento, los maduros frutos de la pluma. Como árbitro y juez de los certámenes y nobles competiciones que se producían en aquel cenáculo, recurríase al monarca, quien, balanza en mano, medía y sopesaba, para honrar después al campeón y animar al de segunda fila. Y fué esta exaltación de la ciencia y de los sabios la que originó aquel renacimiento científico, tan sólidamente logrado.

Y es que Dios—alabado sea—en el imperio que ejerce sobre todas las cosas, había decretado que aquella hermosa lengua viviese eternamente. Por eso el idioma árabe encuentra en todas las épocas quien vele por su honor, defienda sus dominios, mantenga su elevada categoría y la proteja contra las arremetidas de los siglos.

Ibnu-l-Winan, poeta palaciego en el Alcázar alauita
Algazzal, literato de corte y escritor oficial

IBNU-L-WINAN

Trátase de Abul Abbas Ahmed ben Mohamed el Himyari, príncipe de los vates de su tiempo. Fué excelso poeta, de fecundo talento, de flúida palabra y de delicados pensamientos. En su estilo se reune la facilidad con la solidez.

SUS OBRAS LITERARIAS.—La más conocida de sus obras literarias es la *Xamaqma-*

El libro intitulado *Consecuencia del esfuerzo en la paz y en la guerra*, que hoy ofrecemos a los lectores y literatos de lengua árabe, así como a todos los amigos de la investigación y de la historia de nuestros pueblos, figuró también en la Exposición de la fiesta del Libro de este año, en ese grupo de valiosos manuscritos árabes que se propone publicar nuestro Instituto. Este inestimable volumen nos presenta una serie de curiosidades literarias e históricas, que podrá saborear el investigador concienzudo pasando la vista por sus renglones. En efecto, nos da una idea general de las orientaciones de la literatura árabe en Marruecos y de sus características a mediados del siglo XVIII. Ofrece también un maravilloso cuadro, de gran riqueza de colorido y de bien onduladas líneas, pues refleja la profunda cultura y civilización hispánicas, así como la posición militar, cultural y diplomática de España en tiempos de Carlos III. A su vez nos da una visión de la grandeza alcanzada por el imperio marroquí, de su preparación guerrera, de su actividad política y comercial, así como de su renacimiento científico durante el reinado de Muley Mohammed ben Abdalá, aquel piadoso sultán que tanto empeño mostró por la liberación de los cautivos, por el fomento de la economía y por la introducción en el país de todos los recursos materiales que aportaran bienestar al imperio magrebino.

Estado de la lengua y literatura árabes en Oriente y Occidente durante el siglo XVIII

Era el tiempo en que los turcos otomanos, entrando a saco en los pequeños estados del Oriente árabe, lograron someter el país, sembrando el terror en el corazón de las gentes.

Abría Alepo sus puertas a Selim I, entregábase Damasco tras una encarnizada defensa mientras que ni Hama ni otras capitales sirias oponían resistencia alguna. Quedaron derruídos los tronos de aquellos reinos, rotos en pedazos los cetros de sus emires. Viéronse entonces derrumbados los palacios del saber, vacías las moradas de la ciencia, yermos los cenáculos literarios.

Llevaba entretanto el sultán conquistador sus victoriosos ataques hasta Egipto, en donde recibió el homenaje del Jerife de Meca, quien puso en sus manos las llaves de esta ciudad y de Medina. Y después de haber desterrado a Constantinopla a Almutawateil, último jalifa abasida, dedicóse a organizar el país con arreglo a los métodos otomanos.

Apareció más tarde Solimán el Legislador, quien, esgrimiendo en su diestra la espada y portando en la izquierda el nuevo código otomano, lanzó sus sanguinarias y feroces tropas sobre Siria, con objeto de aplicar el flamante estatuto y sofocar las revueltas. La soldadesca quebrantó profundamente el país, mientras que los walíes turcos que se encargaron de la gobernación imprimieron en el pueblo un marcado carácter nacional.

A la vez que el nacionalismo otomano cobraba fuerza y vigor, iba decreciendo y empobreciéndose el árabe, lo cual determinó que el vencido adoptase las maneras y la civilización del vencedor, de nueva importación en el país. Y como la lengua turca era el único puente tendido para llegar hasta el conquistador, fué el turco el idioma que las gentes se apresuraron a emplear. A partir de ese momento empieza el árabe a decaer poco a poco en el Oriente, y las fortalezas de ese idioma amenazan ruina hasta el punto de ser muy pocos los que en aquella época se distinguen en su cultivo.

En los primeros albores del siglo XVIII es ya la lengua turca la que domina en los registros oficiales gubernamentales y la que llega a ser la lengua oficial.

Con la postración del árabe abátese el entusiasmo de los literatos, debilítase el genio poético; y ya no hay quien acierte con una expresión en algún modo elegante, ni mucho

rruecos; obras, todas ellas, representativas de gloriosas tradiciones y orientaciones de la literatura árabe, seguidas en ambos pueblos a través de las diversas épocas; obras que yacían amontonadas en ignorados rincones u olvidadas en los viejos cartapacios de las bibliotecas; olvido e ignorancia que alcanzaba también a los derruídos monumentos alzados por los pueblos de la antigüedad, como recuerdo de sus invasiones en la costa mauritana.

Y a eso ha venido el INSTITUTO FRANCO: a desenterrar todos esos tesoros, a ponerlos sobre la mesa de operaciones y a descifrar, a la luz de una experiencia y criterio racionales, sus ocultos misterios, separando lo endeble de lo jugoso, lo enteco de lo enjundioso y aplicando sin piedad el escalpelo de la crítica a cuanto había deformado y alterado las manos de los copistas o había borrado la implacable acción del tiempo. Y así es como, después de todos estos pasos dados por el Instituto, quedan unas cuantas obras limpias de mácula y listas para ser presentadas al público.

Un procedimiento análogo se sigue en las investigaciones arqueológicas. Ahí está Tamuda que, descubierta hoy, después de haber estado sepultada durante dos mil años, lanza rayos de luz sobre el estudio de estas antiguas civilizaciones. Las excavaciones de *Ad Mercuri* abren nuevos horizontes a la historia de la Mauritania Tingitana; mientras que los monumentos de Tabernes, últimamente descubiertos bajo la dirección del INSTITUTO FRANCO, aumentan el acervo de materiales para los estudios históricos sobre Marruecos.

Es, sin embargo, la parte literaria la que constituye la materia fundamental en las tareas del Instituto.

A las potentes pruebas de vitalidad que en este sentido ha dado el Instituto, seguirán otras manifestaciones de mayor importancia, que ya tienen su lugar señalado en el programa de nuevos trabajos, como se verá por las próximas publicaciones.

Ahí está también la Fiesta del Libro árabe, establecida por Decreto Jerifial promulgado por Su Alteza Imperial Muley El Hasan ben el Mehdi, protector de la ciencia y de los sabios, portafaro de la cultura en esta querida tierra, a quien secunda en esta tarea el representante de España en Marruecos, Su Excelencia el General Asensio, con la firmeza, decisión y lealtad en él características y que él pone en la aplicación de las normas seguidas por su noble nación, con arreglo a las orientaciones trazadas por el Jefe del Estado, Generalísimo Franco, todo él afecto, todo él cariño, todo él solicitud por revalorizar la herencia de un país con el cual le ligan relaciones de vecindad y lazos de cultura y civilización comunes. Y este modo de proceder del Generalísimo nada tiene de extraño en un hombre que inspira todos sus actos en la mejor buena fe y en elevados sentimientos de nobleza y de lealtad.

Así es como se convirtió el día 23 de Abril en una feria literaria en la cual se exponen brillantes creaciones del pensamiento humano, excelentes y espléndidas ediciones tipográficas, valiosos manuscritos árabes, frescas y lozanas manifestaciones de las bellas artes; todo lo cual suscita en nosotros el recuerdo de las fiestas literarias de Bagdad, de Córdoba y de la feria poética, en plena animación, de la preislámica Ocaz.

El INSTITUTO GENERAL FRANCO ocupa también el primer puesto en esa fiesta con la exposición de notables producciones, fruto de su actividad en las diversas ramas que lo integran.

Ahí está para probarlo su Director, publicista, historiador y literato, que acaba de salir a la palestra en un concurso literario y que, declarado campeón en el certamen, obtiene el laurel de la fiesta con su libro «Marruecos», con lo cual añade un nuevo y valioso número al registro de la producción literaria y alcanza un destacado puesto científico para el INSTITUTO FRANCO. Pues bien, el libro presentado al juicio del tribunal calificador, era uno de los expuestos en la feria del libro del pasado año.

PRÓLOGO

EN EL NOMBRE DE DIOS VIVIENTE Y ETERNO

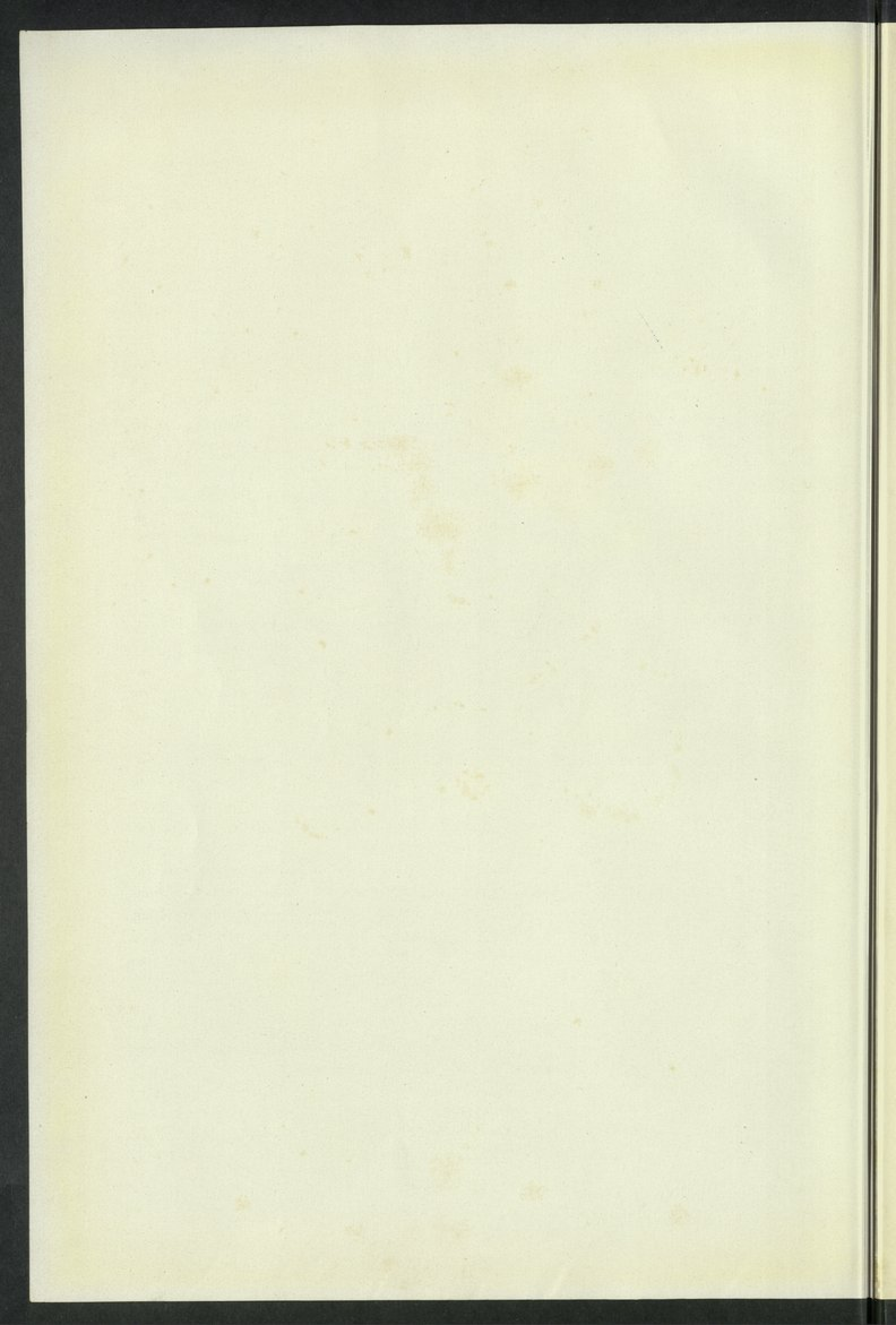
Con toda valentía he de decir que la revolución literaria cuya bandera alzó y cuya llama prendió, alumbrando innumerables focos, en estas tierras marroquíes el INSTITUTO GENERAL FRANCO PARA LA INVESTIGACION HISPANO-ARABE, Instituto presto a defender y vigorizar con tajada noble pluma los principios de esa renovación, como de ello ha dado evidentes pruebas con sus ediciones y publicaciones, tanto en árabe como en castellano; esa revolución, repito, ha engendrado en el ambiente de Marruecos un espíritu cultural nuevo y ha creado en su espacio un resurgimiento literario arábigo de noble espiritualidad, de sólidos puntales, y de tal alcance, que ha logrado penetrar en todos los países árabes, en los cuales ha encontrado generosos auxiliares que le prestan calor y le comunican nuevos bríos; prenda segura de que, en un futuro próximo, tendrá este movimiento consecuencias tangibles de gran importancia.

No se persigue con ello, después de todo, más fin que la difusión de una elevada cultura, común a dos pueblos, de la cual se nutrió y vivió Europa durante siete siglos; ni se pretende otra cosa que revalorizar una preciada herencia, una abundante literatura, una suprema civilización que, después de haber criado a sus pechos las civilizaciones de todos los pueblos, ha ido debilitándose poco a poco ante los ataques concentrados de los pueblos no árabes y ante las acometidas de los tiempos.

Atravesamos al presente una época tiranizada por un materialismo que con su torrente arrollador devasta los campos de la más vívida fantasía, malogrando los frutos de toda producción literaria. ¡Que no hay poesía sin fantasía e inspiración, ni pueden existir creaciones eternas cuando yacen postradas las facultades del alma! Por eso vemos que el INSTITUTO GENERAL FRANCO, alzando bandera de cultura y esgrimiendo noble pluma, trata de reñir su batalla adentrándose en el torbellino de afectos y sentimientos, y se apresta, excitado por himnos de perenne poesía y animado por la rasgueante canción de las plumas, a defender las creaciones del pensamiento y a proteger monumentos y tesoros literarios, en unos tiempos en los cuales el tronar del cañón pretende apagar en todo el mundo el dulce clamor de las letras. Y, para que el Instituto logre ocupar el puesto destacado a que tiene indiscutible derecho, han de prestarle colaboración y ayuda los hombres de buena voluntad y los sabios de ambos pueblos, verdaderamente celosos de la cultura y de la civilización.

Por eso, no pasa día sin que vengan a darnos nueva fuerza e inquebrantable fe en nuestros principios y en nuestra misión literaria, las confortantes cartas de estímulo que recibimos de los grandes pensadores de las dos naciones.

Nuestras riquezas literarias y nuestras investigaciones científicas y arqueológicas crecen constantemente, debido a las aportaciones de nuevos descubrimientos de monumentos y reliquias de los tiempos pasados y a los hallazgos de producciones del genio poético y de creaciones espirituales de los grandes escritores y literatos, tanto del Andalus como de Ma-





Carlos III, Rey de España.

(Biblioteca Nacional de Madrid.)

كارلص الثالث ملك اسبانيا

(مكتبة مدريد الاهلية)

A Su Alteza Imperial el Príncipe amado, el excelso Jalifa Muley el Hasan ben El Mehdi, Mecenas de la ciencia y de los sabios, portaestandarte de la cultura en este glorioso trozo del mundo árabe.

A tí, Alteza, dedico este libro, que refleja una mínima parte tan sólo de los hechos llevados a cabo por tus abuelos y ascendientes, tan desprendidos como piadosos.

Fué un impulso tuyo, en tu afán de consagrar la vida al ennoblecimiento de tu pueblo y de los tuyos; fué un aliento perfumado, que lograste inspirar en nuestro pecho, el que, suscitando en nosotros nobles aspiraciones, nos mostró el camino de la producción, del esfuerzo y del sacrificio por la causa de la cultura árabe; el que nos orientó por la buena senda que conduce a la felicidad de esta querida tierra.

Y es así como, por tu ayuda, por tus desvelos, por tu fervor, puede salir a luz este libro. Y así es como, bajo la égida de tu Gobierno, hemos de continuar nuestra obra.

Tetuán, 1º de Abril de 1941.

Alfredo Bustani

Dedicatoria

A Su Excelencia el Generalísimo
Franco, Caudillo de España.

A Vos ofrecemos esta joya literaria, en cuyas páginas brillan claras manifestaciones de la grandeza de Vuestros magnánimos predecesores y de las relaciones de sólida y fuerte amistad que les unieron con esta querida tierra marroquí y con sus piadosos sultanes.

Venís, Vos, ahora, tras un interregno en el cual sentaron sus reales las tinieblas y que fué juguete de las vicisitudes del tiempo, a reanudar esos lazos de amistad, asentándola sobre fundamentos de más sólidos puntales y asistiéndola de entera lealtad, de todo fervor, de la mejor comprensión: todo para fomento de los intereses comunes a estos dos nobles pueblos, los cuales acabarán por reportar de ello toda clase de bienes y bendiciones.

Vos sois el que apretáis los relajados lazos de esa amistad y procedéis con toda firmeza y decisión a renovar ese común resurgimiento cultural, del cual vivió y se nutrió Europa a lo largo de siete centurias. Vos, el que trabajáis sin descanso por revivir una elevada civilización hispano-arábiga, a cuyos pechos se criaron las civilizaciones de todos los pueblos.

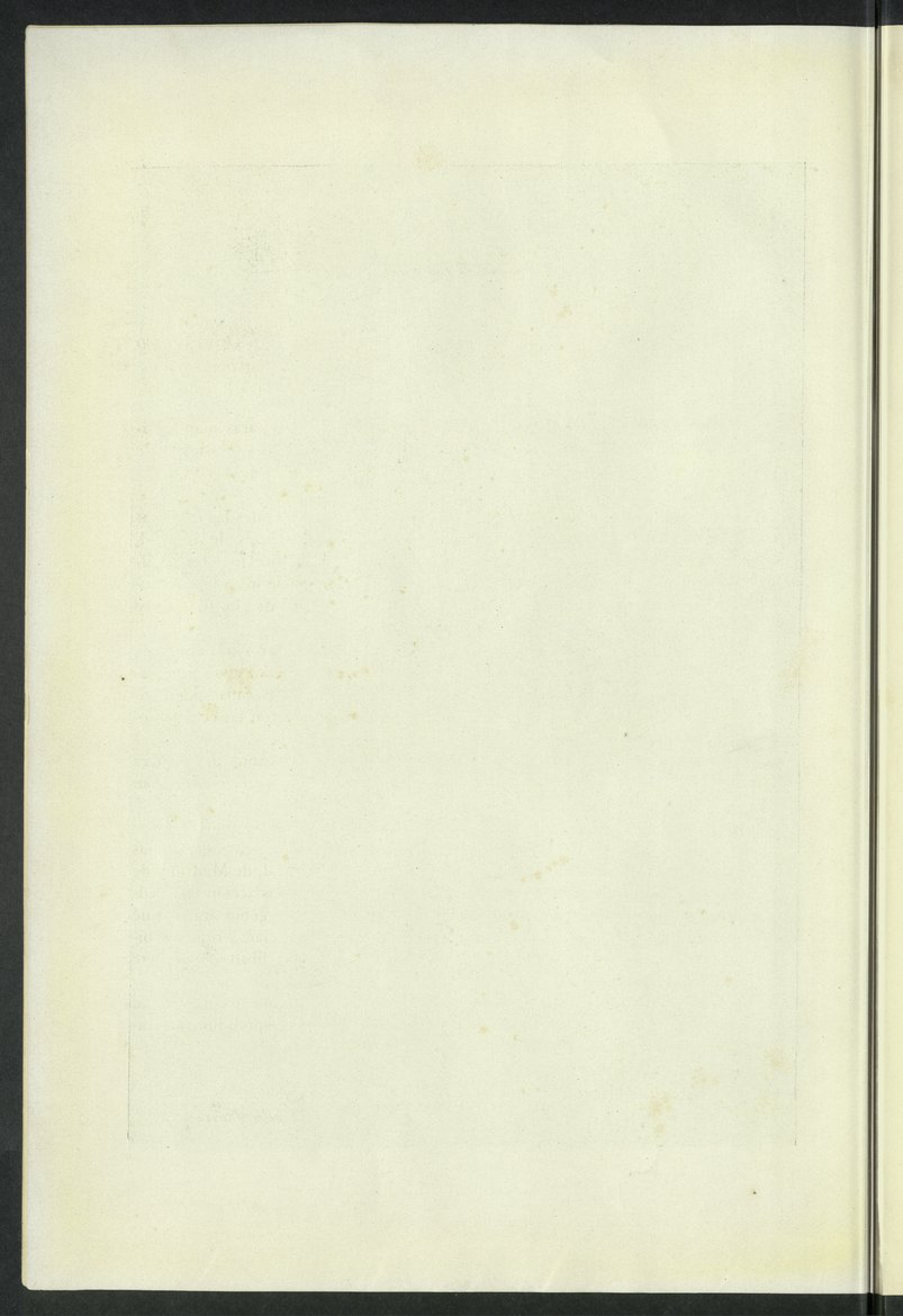
Manifiestas pruebas de todo esto pudimos apreciar en la persona de Vuestra Excelencia el día que nos encontramos en vuestra presencia acompañados del gran filósofo árabe Amín Arrihani.

Cuando recordábais entonces la civilización árabe del Andalus, leíamos en vuestra frente misteriosos signos de orgullo y de grandeza y, cuando mencionábais las obras de aquellos grandes maestros y los manuscritos de El Escorial, de Madrid y de otras bibliotecas, brillaban en vuestro rostro claras muestras de satisfacción y de admiración hacia aquellos tesoros literarios y hacia lo grandioso del genio árabe. Fué entonces cuando manifestásteis vuestra decisión de editar tan preciadas riquezas bibliográficas. Y tal como dijísteis, Excelencia, así fué cumplido: este libro forma parte de tan inestimable tesoro.

Me atrevo a esperar de vuestra bondad tradicional que queráis aceptar de mí esta flor literaria, que no es, después de todo, más que una rosa desprendida del ramillete que Vos mismo nos ofrendásteis.

Tetuán, 1º de Abril de 1941.

Alfredo Bustani





فخامة الجنرال فرنكو رئيس الحكومة الاسبانية

Su Excelencia el Generalísimo Franco, Caudillo de España.

PUBLICACIONES
DEL
INSTITUTO GENERAL FRANCO
PARA LA INVESTIGACIÓN HISPANO - ÁRABE

SECCION 1.ª
N.º 2

CONSECUENCIA DEL ESFUERZO EN LA PAZ Y EN LA GUERRA

POR

EL FAMOSO LITERATO DE LA CORTE IMPERIAL MARROQUI
Y ENVIADO ESPECIAL DEL SULTAN DE MARRUECOS
MOHAMMED BEN ABDEL-LAH A CARLOS III REY DE ESPAÑA,

ABUL-ABBAS AHMED BEN EL MEHDI ALGAZZAL

1179 H. - 1766 J. C.



Lo presenta, texto árabe con Prólogo, Notas, Comentarios e Indices, el Profesor

ALFREDO BUSTANI



1941
ARTES GRÁFICAS BOSCÁ
LARACHE
(MARRUECOS)

CONSECUENCIA DEL ESFUERZO EN LA PAZ Y EN LA GUERRA

